التراث العربي

مجلة فصلية محكمة تصدر عن اتحاد الكتّاب العرب بدمشق



ق ي ج

العدد (113) (ربيع الأول) 1430هـ (آذار) 2009 السنة التاسعة والعشرون

التراث العربي

مجلة فصلية محكمة تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

المراسلات باسم رئاسة التحرير

اتحاد الكتاب العرب، مجلة التراث العربي، دمشق ـــ ص. ب (٣٢٣٠)

فاكس: ٦١١٧٢٤٤

البريد الإلكتروني ــ **E-mail** : aru@tarassul.sy / aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت:

www.awu-dam.org

بسم الله الرحمن الرحيم

اتحاد الكتاب العرب
Arab Writers Union
Damascus دمشق

مكتبة لسان العرب

شروط النشر

1-أن تكون البحوث تراثية، أو تصب في باب التراث.

2-أن تكون جديدة، ولم تنشر من قبل.

3-التقيد بمنهج علمي دقيق، والتزام الموضوعية، والتوثيق والتخريج، وتحقق السلامة اللغوية.

4-أن تكتب بخط واضح، ويفضل أن تكون مطبوعة،وعلى وجه واحد من الورقة.

5-ألا تزيد عن ثلاثين صفحة.

6-أن تراعى علامات الترقيم.

7-توضع الحواشي في أسفل الصفحة، ويلتزم فيها المنهج العربي، أي يكتب اسم الكتاب، فالمؤلف، فالمحقق، فالجزء والصفحة.

8-يثبت في آخر البحث فهرس المصادر والمراجع وفق ترتيب حروف الهجاء لأسماء الكتب، مثال: (طبقات فحول الشعراء: ابن سلام- تح.محمود شاكر- القاهرة- مط. المدني- ط3، 1974م).

9-يقدم للبحث بملخص عنه في بضعة أسطر، ويرفق لمحة عن سيرة المؤلف وعنوانه.

10-يمكن أن تنشر المجلة نصوصاً تراثية محققة، إذا استوفى النص شروط التحقيق.

11-تخضع الأبحاث المرسلة للتحكيم العلمي.

12-لا تعاد الأبحاث إلى أصحابها، ويبلغون بقبول نشرها، أو الاعتذار لهم.

13-الأبحاث والمقالات التي تنشر تعبّر عن آراء كتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة أو الاتحاد.

14-ترتيب البحوث داخل العدد يخضع لاعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الكاتب.

□□□

الاشـــــتراك الســـنوي

ـــ داخل القطر للأفراد	: ٨٠٠ ل.س
ـــ في الأقطار العربية للأفراد	: ٢٥٠٠ ل.س أو (٥٠) دولاراً أميركياً
ـــ خارج الوطن العربي للأفراد	: ٣٠٠٠ ل.س أو (٦٠) دولاراً أميركياً
ـــ الدوائر الرسمية داخل القطر	: ١٠٠٠ ل.س
ـــ الدوائر الرسمية في الوطن العربي	: ٣٠٠٠ ل.س أو (٦٠) دولاراً أميركياً
ـــ الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي	: ٣٥٠٠ ل.س أو (٧٠) دولاراً أميركياً
ـــ أعضاء اتحاد الكتاب	: ٢٥٠ ل.س

الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيكاً يدفع نقداً إلى مجلة التراث العربي

.. المحتوى ..

الافتتاحية

عندما تحتفل إسرائيل بقمع الثقافة في عاصمة الثقافة

الدكتور محمود الربداوي

عندما أدركت (ملينا ميركوري) وزيرة الثقافة اليونانية مشهد الركود الذي تعاني منه الثقافة اليونانية والثقافة العالمية في شتى أقطارها، وخاصة أن تباشير العولمة أخذت تهدد باجتياحِ خصوصيات الأمم وبالأخص ثقافات الشعوب التي باتت مهددة بالانقراض والانمحاء. وخاصةً انمحاء الهويات القومية، وطمس كل ما يميز أمة عن أمة، وبرمز لشعب دون شعب، لمعت في ذهن ميركوري سنة ١٩٨٥ فكرة تحريك الثقافة الراكدة، والمعروف عن الثقافة اليونانية المخزنة في طول مساحة بلاد اليونان وعرضها أنها ثقافة غنية، تضمها كنوز الحضارة اليونانية بعراقتها، ويحويها الفكر اليوناني في ثرائه وعمقه. أقول: لمعت في ذهن هذه الوزيرة المسؤولة عن الثقافة أن تبعث الراقد من صور الثقافة، فهداها تفكيرها في مؤتمر وزراء الثقافة في المجموعة الأوربية إلى اقتراح يصلح لبعث الثقافة اليونانية، ويصلح لبعث كل ثقافة في أية منطقة في الدنيا، وهو (إنشاء العواصم الثقافية) في العالم، والهدف الأول من تسمية مدينة عاصمة الثقافة هو إعطاء المدينة فرصة زمنية لتطوير مستوياتها الثقافية وعرضها والتعريف بها. ولما عُقد المؤتمر في المكسيك تحت مظلة الأمم المتحدة حول السياسات الثقافية تبنى المشاركون آنذاك استراتيجيةً للسياسات الثقافية في إطار ما أطلق عليه

(عقد عالمي للتنمية الثقافية)، وقد تبنت الجمعية العامة للأمم المتحدة في قرارها رقم ٤١/١٨٧ العقد العالمي للتنمية الثقافية، تضطلع الأمم المتحدة بدور المنظمة الرائدة، وإجراء حوار ثقافي بين الشعوب يحترم الهوية الثقافية الوطنية لأية أمة، ويراعي التنوع والتكامل بين الحضارات.

ولما آمن المفكرون والمسؤولون العرب بالفكرة أقنعوا منظمة اليونسكو بتبني الفكرة وتنفيذها في البلاد العربية، وأوكلوا إلى منظمة التربية والثقافة والعلوم (الإليسكو) الإشراف على تنفيذ المشاريع الثقافية القومية، ورفع مستوى العمل الثقافي في الوطن العربي لمواكبة الحضارة العالمية. وعُرض المشروع على وزراء الثقافة العرب، وبدؤوا بإعلان القاهرة أول عاصمة للثقافة العربية سنة ١٩٩٦، واستمر العرض سنوياً بالتناوب بين العواصم إلى أن كانت دمشق عاصمة سنة ٢٠٠٨. ثم آلت الأمور أن غدت القدس عاصمة للثقافة العربية سنة ٢٠٠٩. إذ تقدم وزير الثقافة بدولة فلسطين بطلب من مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي (الدورة الخامسة عشرة في مسقط ٨ و٩ نوفمبر ٢٠٠٦) أن تكون القدس عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠٩. وأقر المؤتمر ذلك في التقرير النهائية والقرارات والتوصيات، على أن تتقاسم الدول العربية فعاليات ونشاطات الاحتفاء بالقدس، وتقام في الأقطار العربية جميعاً كما في الأراضي الفلسطينية ويتم الاحتفاء بها خارج المنطقة العربية تعريفاً بالحقوق العربية بمدينة القدس وقد خصصت الإدارة العامة لاتحاد إذاعات الدول العربية حيزاً على القمر الاصطناعي (عربسات) وذلك لبث فعاليات الموجة المفتوحة عبر الفضائيات العربية والفضائية الفلسطينية احتفاءً بالقدس عاصمة للثقافة العربية عام ٢٠٠٩ تحت شعار (القدس التي توحد الشعب الفلسطيني والأمة العربية).

وعلى الرغم من أن الحدث حدثٌ ثقافي وظاهرة حضارية، أجمعت الأمم المتحدة وأمم الدنيا جميعها على إقرارها ومباركتها إلا أن دولة الاحتلال الصهيوني لفلسطين منعت إقامة الاحتفال بمدينة القدس عاصمة للثقافة العربية، ولما كانت القدس قد دخلت عنوة منذ عام ١٩٦٧ تحت الاحتلال الإسرائيلي فقد قامت قوات الاحتلال عندما سمعت أن الفلسطينيين شرعوا ببدء الاحتفالات في بيت لحم وعدة مدن بالضفة الغربية، وقرروا إقامة احتفال بمدينة الناصرة جُنَّ جنون الصهاينة، فأرسلوا جنودهم لقمع كل مظهر من مظاهر الاحتفال، وداهموا ثماني مؤسسات، واعتقلوا نحو عشرين ناشط من الفلسطينيين، وأوعزوا إلى جنود الاحتلال أن يقمعوا أي مظهر من مظاهر الاحتفال في الناصرة، وراحت سلطات الاحتلال تعتقل عدداً من المسؤولين عن إقامة الاحتفال وأصدر وزير الأمن الداخلي الإسرائيلي (آفي ديختر) تعليماته إلى الشرطة بقمع أي محاولة لإقامة تلك الاحتفالات في القدس أو الناصرة، ومن

بينهم مستشار رئيس الوزراء الفلسطيني لشؤون القدس، وأفادت الإذاعة الإسرائيلية بأن الشرطة اعتقلت امرأتين قرب جامعة القدس لمحاولتهما توزيع قمصان تحمل شعارات حول الاحتفالات الثقافية، ومنع جنود الاحتلال تجمعات أطفال المدارس، ووجهت تهديدات لأي شخص يحاول القيام بهذه الاحتفالات، كما منعت تلاميذ المدارس من دخول الحرم الجامعي، وحالت الشرطة دون إقامة مهرجان للبنات في نادي الهلال في المدينة المقدسة، ومنعت مهرجانات أخرى قرب باب المغاربة، ورفضت حكومة تل أبيب السماح للوفود العربية المشاركة باحتفالية القدس بالتوجه في طائرة مروحية من العاصمة الأردنية عمان إلى بيت لحم، مما اضطر الوفود إلى التوجه عبر جسر الملك حسين الذي يربط الأردن بالأراضي الفلسطينية، ومع كل ذلك تحدى الفلسطينيون السلطات الإسرائيلية بإطلاقهم فعاليات الاحتفالية ببدئها رسمياً من خمسة مواقع بربطها بالبث الفضائي: وهي القدس، وبيت لحم، وغزّة، والناصرة، ومخيم مار الياس في لبنان.

أرأيت إلى هذه التصرفات من دولة تدعي "ديمقراطية، وتسوّق نفسها كدولة حضارية تؤمن بالقيم الثقافية والإنسانية، وبتقديري أنها صنعت هذا الصنيع لأنها تخشى أن تكشف هذه الاحتفاليةُ عن الإرث الثقافي الذي تختزنه المدينة المقدسة الذي يثبت بما لا يدع مجالاً للشك عروبةَ مدينة القدس، هويتّها العربية المعرفةُ في القدم، لأن كل ما في القدس يشي بانتمائه إلى العروبة، فالأسر المقدسية كأسرة آل الحسيني، وآل النشاشيبي، وآل الخالدي، وآل العلمي وآل الخطيب، وآل الإمام، وآل الغوانمة، وآل نسيبة، توارثت النسب العربي كابراً عن كابر، فإذا أضفت إليهم آل الأنصاري والبديري والعسلي والدجاني وجار الله وجودة ومعتوق والنمري وسألت هؤلاء عن أنسابهم وأحسابهم انتهوا بك إلى سلالة من سلالات الصحابة، أو إلى بعض الفاتحين الذين عمروا بلاد الشام منذ مئات السنين.

وحسبي أن أذكر لك شيئاً آخر من التراث الثقافي لمدينة القدس الذي خشي الاحتلال الإسرائيلي أن تنبشه الاحتفالية، وهو المكتبات المقدسية، وما أكثرها في القدس وكبريات المدن الفلسطينية، ففي القدس مكتبة المسجد الأقصى، والمكتبة الخالدية ومكتبة الشيخ صنع الله الخالدي، ومكتبة العلامة خليل الخالدي، ومكتبة أحمد سامح الخالدي، ومكتبة حسن الترجمان، والبديري، وحسن عبد اللطيف الحسني، ومكتبة اسحق موسى الحسيني، ومكتبة النشاشيبي، ولنا مع أسرة الخالدي وأسرة الحسيني وقفات مطولة عندما نكشف عن ريادة هؤلاء في النقد والأدب المقارن، ومآثر شخصيات مقدسية ارتقت بالقدس إلى جعلها مدينة العلم الأولى في فلسطين، سواء بعلمائها أو في مكتباتها، وحسبي أن أقف وقفة عجلى عند مكتبات القدس خاصة ومكتبات فلسطين عامة الإسلامية والمسيحية. هذه المكتبات التي

امتلأت أرففها بالمخطوطات النفيسة والنادرة أحياناً، والتي تعرضت، من طرف الاحتلال، للإغلاق تارة، والإحراق تارة أخرى، ومصادرة الكتب، ومنع تداول الكتب التاريخية القديمة التي تؤيد عروبة هذه المدينة، وتتحدث عن القضية الفلسطينية، وهذه المخطوطات تمثل ذاكرة وسجل المدينة المقدسة، ومما يؤسف له أن كثيراً من المخطوطات القديمة تسللت إليها أيدي الآثاريين المحتلين فنقلوا المخطوطات من مكتبة المسجد الأقصى إلى الجامعات الصهيونية، ومنها جامعة (بارإيلان) في تل أبيب، كما حظرت سلطات الاحتلال إدخال الأجهزة والمواد اللازمة للترميم، والتي تم الاتفاق مسبقاً على إدخالها من قبل منظمة اليونسكو العالمية، ومازالت هذه الأجهزة محجوزة في ميناء (أسدود) الصهيوني.

وقد ذكر المختصون بالمخطوطات العربية أنه يوجد ١٦ ألف مخطوط في فلسطين منها أربعة آلاف قابعة على رفوف مكتبة الأقصى يتمتع نصفها تقريباً بحالة جيدة.

بينما يتعرض النصف الآخر لخطر الضياع والتلف، وأشار هؤلاء المختصون إلى وجود عدد لا بأس به من المكتبات الخاصة القديمة لدى الأسر والعائلات المقدسية. مازالت تحتفظ بعدد كبير من المخطوطات، ولكنها تحتاج لعمليات ترميم وصيانة.

ويوجد حوالي ٦٠ مكتبة بين العامة والخاصة، تحتضن بين أرففها أكثر من مئة ألف كتاب، ونصف مليون وثيقة وسجل.

ولما كان الحديث يطول عن الثقافة في القدس التي هي عاصمة الثقافة عام ٢٠٠٩ فسأتناول الحديث عن جوانب أخرى غير التي أعتقد أن كتاب هذا العدد قد تناولوه، فإلى أحاديث أخرى في الأعداد القادمة من مجلة التراث العربي.

أور سلام ـ عاصمة الثقافة العربية منذ خمسة آلاف سنة وحتى اليوم

د. عفيف البهنسي

١ـ التاريخ والسكان

منذ العام ١٩٧٥ أوضحت المكتشفات الأثرية في إيبلا، أن اسم أور سلام قديم يعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وكان العالم اللغوي الايطالي فرانزارولي الذي درس الألواح الطينية المكتشفة في قصر إيبلا، قد صحح قراءة هذه التسمية على أنها أور سلام، كما أورده أيضاً قاموس الكتاب المقدس وليس أور سالم. وهذه التسمية هي الأقدم لمدينة القدس، وهي أقدم المدن التاريخية التي ابتدأت ثقافتها عربية، بمعناها اللغوي. واستمرت صامدة حتى اليوم.

وقد سميت دار السلام (أورسلام) باللغة الكنعانية القديمة،.وعثر على هذه التسمية في النصوص الكنعانية التي عثر عليها في مصر، كما عثر عليها في النصوص العمورية في سورية. وورد اسمها أيضاً (يبوس) نسبة لسكانها

ـ تمتعت القدس أو أور سلام على مر التاريخ بقدسية كاملة وكان سكانها الأصليون، وهم اليبوسيون من الكنعانيين منذ الألف الثالث ق.م. الذين نزحوا من شبه الجزيرة العربية. يقول أولبرايت: (لدينا من البراهين والأدلة ما يثبت أن الكنعانيين استقروا في القدس وفلسطين منذ أوائل الألف الثالث قبل الميلاد.ونحن نعرف جيداً من خلال أسمائهم ولغتهم أن اليبوسيين هم من الكنعانيين).

ولم يستطع الأثريون، وحتى الأمريكي أولبرايت أن يكتشف شيئاً في مدينة القدس أو ينفي هذه المرحلة، على الرغم من عثوره على كثير من الآثار التي تعود فعلاً لعصر الحديد،. في المدن المجاورة لمدينة القدس، مثل أريحا ومجدّو، وتليلات الغسول حيث عثر على آثار أقدم مدينة كنعانية. ولكنها لا ترتبط بأحداث التوراة.

واستمر اليبوسيون فيها أكثر من ألفي سنة امتدت حتى عهد داود، بل عادوا بعده. وكانوا قد كونوا فيها حضارة تميزت بالعقيدة وبالنمو الزراعي والتجاري والصناعي. وحماية لمدينتهم أقام اليبوسيون سوراً وحصناً وزودوا المدينة بالمياه. وما زالت آثار السور قائمة على شكل شبه مستطيل يتوسطه الحصن (ويدعى مدينة داود). والبركة حيث تنتهي مياه عين جيحون في بلدة جازر الكنعانية الواقعة على بعد ٣٥ كم من القدس عبر نفق ما زالت آثاره واضحة. ولقد حددت العالمة البريطانية كاتلين كينيون تاريخ هذا النفق بواسطة الفحم ١٤.

واستمر اليبوسيون في مدينتهم حتى العام ١٠١٠ ق م وكان اليهود قلة فيها. ثم عادوا إليها.

ويذكر التوراة من ملوك أور سلام، ملكي صادق - الكاهن للعلي العظيم (إل إيليون). في عهد إبراهيم القرن التاسع عشر ق.م. والملك عبد هيبا، وعلاقته بفرعون مصر أخناتون في العام ١٢٧٣ـ ١٣٦٢ ق.م. وكان قد أعلن ديانة مصرية توحيدية أخذها عن الهكسوس الكنعانيين الذين آمنوا بالإله (إل) مما شدد أواصر هذه الديانة مع ديانة أور سلام

ويتحدث أيضاً الأثري مازار عن تنقيباته الطويلة الأمد حول الحرم حتى بداية هذا القرن والتي لم تقدم له أي سند توراتي، مما دفعه للعودة إلى الرسائل التي ظهرت في تل العمارنة سنة ١٨٨٧ فيقول: (منذ القرن الخامس عشر ق.م. كانت بلاد كنعان جزءا من الإمبراطورية المصرية. ويثبت ذلك ما تضمنته وثائق قصر اخناتون في تل العمارنة والتي تعود إلى القرن الرابع عشر ق.م وقد أوردت اسم «ملكي صادق» ملكاً على القدس)، حاملاً اسم ملك السلام. لدعوته الصالحة وسلوكه المستقيم، وهو أول من أطلق على المدينة اسم أور سلام.

ومن رسائل تل العمارنة، رسالة من الملك عبد هيبا إلى أخناتون يذكر فيها (إن هذه الأرض، أرض أور سلام، ليست عطاء أبي أو أمي، بل هي عطاء إلى الأبد من الكاهن الأعظم الملك ملكي صادق، ولا يمكن أن أتركها للأعداء). ولقد أطلق الإنجيل هذا الاسم على لسان النبي يسوع وقال: (يبقى كاهناً إلى الأبد).

ويتحدث التوراة في سفر التكوين أن النبي إبراهيم باركه ملكي صادق ملك أور سلام وكان الإله العلي (إل ايليون)، وأور سلام كان اسم القدس.

وينظر التوراة إلى القدس على أنها مدينة أجنبية مسكونة من اليبوسيين حتى عصر داود. وكان أدوني صادق ملكاً يبوسياً على أور سلام.

ولكن رسائل تل العمارنة التي وردت من الشام إلى مصر كانت مكتوبة بالكتابة المسمارية وباللغة الأكادية، مما يؤكد أن السلطة في القدس كانت أكادية يبوسية حسب مازار الذي يتابع

قوله: ((وكانت حدود سلطان هذا الملك (عبد هيبا) ليس القدس الحالية فقط، بل الجبل حتى حدود رام الله في الشمال، وبيت لحم في الجنوب)). وموضوع رسائل تل العمارنة يتضمن الحرب التي شنها عبد هيبا على الخبيرو، ومساعدة المصريين له بعد أن زار فرعون مصر، واستقر حكم هذا الملك بعد قلق وتراجع، ويقول مازار: ((على الرغم من وضوح هذه المصادر، فإن السيدة كينيون في تنقيباتها في الستينات،لم تعثر على ما يطابق رسائل تل العمارنة وكذلك كان نصيب الأثري شيلوح))

استمر سكان مدينة أور سالم الأصليون، على الرغم من استيلاء الآشوريين على القدس على يد البابليين أولاً ٧٢٢ق م.

ثم جاء نبوخذنصر والاخمينيون (٥٢٩ـ٣٣١) ق.م.

وأعقبهم البطالمة العرب (٣٢٣ق.م ـ ٣٠ق.م).

وجاء بعده الفرس بقيادة قورش في العام ٥٣٩ ق.م،

ثم جاء الإغريق في العام ٣٣٢ ق.م، بقيادة الاسكندر.

ثم جاء الرومان في العام ٦٣ ق م وقد تغلبوا على الانباط، وفي العام ١٣٥ م أطلق هادريان على المدينة اسمه الأول (إيليا).

وأعقبهم البيزنطيون في العام ٣٣٩ م. وفي عام ٣٢٤م جاءت أم قسطنطين هيلينا لزيارة القدس وكانت قد اعتنقت المسيحية، وفيها أنشأت الكنائس الأولى (كنيسة القيامة)، وأصبحت القدس منذ ذلك الوقت مركز النشاط المسيحي مع بيت لحم مهد المسيح، ولكن العاصمة كانت قيسارية، وبعدها لم تكن القدس أكثر من مدينة مقدسة تعرضت لاجتياح الفرس وتهجير أهلها، ثم تراجعت مكانتها إلى أن جاء العرب في العام ٦٢٨ م بقيادة خالد بن الوليد في معركة اليرموك. حيث ابتدأت تستعيد هويتها العربية القديمة التي كانت عليها أيام اليبوسيين، وازدهرت معمارياً.

٢ـ الهوية الثقافية لشعب مدينة أور سلام

اللغة:

استمرت اللغة الكنعانية سائدة في أورسلام عبر العصور الطويلة. و يتحدث اللغويون عن لغة كانت موحدة في بلاد الشام وبخاصة في مدينة السلام. فلقد تبين أن اللغات القديمة أو اللهجات، كالأكادية والعمورية والإيبلائية والكنعانية والآرامية، تنتمي إلى أرومة واحدة.

وتبين أن اللغة العربية قادرة بمفرداتها وبنائها اللغوي أن تكون مرجعاً لوحدة هذه اللغات السابقة للغة العربية.

ونحن نرى اليوم من قراءة الرقم التي اكتشفت في سوريا خاصة، أنها ما زالت تحوي كتابات للهجة من اللهجات القديمة. ولم نعثر على كتابات هامة مختلفة عن اللغة الأم التي ما زالت قائمة حتى اليوم،والتي تختلف عن اللغة الحثية واللغة الحورية، كما لم نعثر على حضور مستمر للهجة العبرية، بل إن التوراة كتب باللهجة الكنعانية (شفة كنعان) وغيرها، وبأقلام مختلفة.

وفي القدس، لم نعثر خلال عصر الحديد على أي من الكتابات التي تعبر عن ثقافة مغايرة للثقافة التي امتدت منذ أن كانت القدس تحمل اسم أور سلام، وحتى العصور الإسلامية وإلى اليوم، على الرغم من ضخامة الثقافة الآشورية والبابلية والفارسية، ثم الإغريقية واللاتينية التي هيمنت زمناً طويلاً. لقد استطاعت هذه الثقافة الأصيلة الصمود بقوة منذ الألف الثالث قبل الميلاد.

هكذا يربط حضارة أور سلام مع الحضارات القديمة رباط ثقافي واحد، هو اللغة التي نقرأ اليوم مفردات لهجاتها في دراسات اللغويين وفي معاجمهم المقارنة. ولقد قدم ولفنسون معجماً يربط بين اللهجات القديمة. كما قدم العالمان السوريان قاسم الشواف ثم عز الدين الياسين وباللغة الانكليزية أدلة حاسمة بعلاقة قوية بين لغة كنعان واللغة العربية.

ويؤكد العالم اللغوي الإيطالي فرانزارولي الذي يتقن العربية وزوجته، أنه من السهل فهم اللغة الإيبلائية (وهي لهجة أكادية كنعانية)، من خلال العودة إلى معاجم اللغة العربية القديمة، بل من ظاهر المفردات، مثل: فمو (الفم) عينو (العين) أبو (الأب) بن (الإبن) برت (البنت) يدو (اليد) بكر (الإبن البكر) دبيحه (أضحية). وثمة ألفاظ واضحة، مثل : تدبيرو ،كلماتو. ومما لاشك فيه أن لهجة اليبوسيين لا تختلف كثيراً عن اللهجة الإيبلائية. ويؤكد الدكتور بهجت قبيسي علاقة الإيبلائية باللغة العربية.

العقيدة الواحدية:

تتجلى الهوية الثقافية من خلال ارتباط شعب أور سلام بالعقيدة الواحدية المختلفة عن العقائد اليهودية والفارسية واللاتينية. العقيدة التي بقيت صامدة بدءاً بالإله إل، وكان معبوداً منذ العام ٢٤٠٠ قبل الميلاد، وهو رب الأرباب العلي العظيم، رب إبراهيم الخليل، وليس له علاقة برب اليهود يهوه.

ويذكر التوراة أن ملكي صادق ملك أور سلام يؤمن بالتوحيد وبالإله إل، وكان هو «الكاهن لله العلي» (إل إيليون). ولعله أول من اختط المدينة ليعيش فيها مع قومه انتقالاً من

الكهوف، حاملاً اسم ملك السلام لدعوته الصالحة وسلوكه المستقيم، وهو أول من أطلق على القدس اسم أور سلام

وتؤكد التسميات التي عثر عليها مكتوبة في وثائق إيبلا، هذا الانتماء وتلك العقيدة. مثل: إسماعيل (يسمع إل) وميكائيل (من ك إل) وإسرائيل (أسير أو عبد إل) وكيا (كالإلــه يــا)، وكإل (كالإله إل).

٣ـ الحفريات الأثرية حتى العام ١٩٦٧

بدأت الحفريات الأثرية في القدس منذ عام ١٨٦٧ بعــد إنــشاء صــندوق الاستكـشاف الفلسطيني، وكانت بإشراف السير وارن بحثاً عن مدينة سالم في عهد اليبوسيين. ثم قامــت بعثة بريطانية سنة ١٩٠٩-١٩١١ تحرياً عن الهيكل والقصر في عهد سليمان. وتــابع الأب فانسنت الحفريات بحثاً عن نفق يؤدي إلى خارج الأسوار،وادعى أن الجدار الجنــوبي مــن سور الأقصى يعود إلى عهد سليمان. وفي سنة ١٩٢٣-١٩٢٥ تم اكتشاف سور وبرج نسب إلى داود، وفي كل مرة كان المنقبون يربطون مكتشفاتهم بالتاريخ التوراتي، دون الاعتمــاد على تاريخ الفخار، بل كان المنقبون يعتمدون على ما ورد في سفر الخروج وسفر يــشوع (الإصحاح ٧-٩-١٠)، وفيه أن العبرانيين خرجوا من مصر بقيادة موسى، ثم تــاهوا فــي سيناء، وعند مرورهم من شرقي الأردن (كما في سفر العدد) احتل موسى والقبائــل الاثنتــا عشرة جزءاً من أراضي مؤاب، وبعد مقتل موسى من جماعته في موقع يسمى نبو، تــولى القيادة يشوع بن نون فقطع نهر الأردن إلى أريحا. ويخبرنا سفر يشوع أن أريحا كانت مدينة كنعانية مسوّرة ومنيعة، وأن العبرانيين لم يتمكنوا من اختراق أسوارها إلا بمعجزة من يهوه الذي هدم الأسوار أمام العبرانيين الذين طوفّوا حول الأسوار سبعة أيام وهم ينفخون بالأبواق احتفالاً، ثم دخلوا أريحا فهدموها كلها وقتلوا سكانها.

على هدى هذه الأخبار التي فرضت على الأثريين باعتبارها توراتية مقدسة، فإن الأثري غارستانغ Garstang خلال حفرياته عام ١٩٣٠-١٩٣٦ في أريحا، أعلن أنه عثــر علــى شواهد تدمير أريحا ،نسبها إلى زمن يشوع، إذ اعتقد أنها كانت محصنة بسور كان الإله يهوه قد هدمه أيام يشوع، كما يقول التوراة.

ولكن السيدة كاتلين كينيون Kenion قامت في أريحا ١٩٥٢ــ ١٩٥٨ بحفريــات هامــة كانت سببا في هزيمه جميع الأفكار والاستنتاجات السابقة، وكانت السبب في إعادة النظر في كل ما كان يعتبر من المسلمّات، وأثبتت عن طريق تحليــل الفحــم ١٤، أن ســور أريحــا المكتشف يعود إلى العصر البرونزي القديم، وأنه لا صحة ولا حجة في أن العبرانيين احتلوا

أريحا، بخاصة أن سفر القضاة يتحدث عن معاركهم وأنه لا يوضح أنهم احتلوا كل فلسطين، بل هم الخبيرو الذين كانوا طبقة من المحاربين المرتزقة ذوي أصول حضارية ولغوية مختلفة كما يرى ميك.

وفي عام ١٩٦٠ـ١٩٦١ استمرت السيدة كينيون العالمة البريطانية بالتنقيب في القدس وأريحا معتمدة على تاريخ الفخار المكتشف، وكان هذا تحولا هاماً في تاريخ البحث الأثري، إذ نستطيع تحديد تاريخ الفخار أو أي جسم عضوي عن طريق فحص تبدد أشعة ذرة من الفحم ١٤ فيه، نصف نشاطها الإشعاعي خلال ستة الألف عام.

استطاعت هذه العالمة الجريئة أن تنقض جميع الفرضيات التي قامت على المدلول التوراتي غير العلمي بنظرها، ولم يلبث جميع الذين خالفوها في البداية أن أعلنوا صواب وموضوعية اكتشافاتها. وآخر تقاريرها يؤكد أن ما حسبه المنقبون من أسوار وأبراج تعود إلى عهد داود، أو من قوس اعتقد روبنسون أنه يعود إلى عهد داوود أيضا، هو خطأ، بل إن جميع هذه المنشآت تعود إلى القرن الثاني الميلادي، أي إلى العصر الروماني. ونفت أن تكون الأحجار من بقايا الهيكل.

استاء الإسرائيليون من هذه النتائج، وقرروا استئناف التنقيب في المنطقة المتاخمة لجدار الحرم الشريف، في الزاوية الجنوبية الغربية، وكان ذلك بعد احتلال القدس سنة ١٩٦٧، وتولى التنقيب العالم الإسرائيلي مازار ومساعده بن دوف، وكانت المفاجأة باكتشاف آثار ثلاثة قصور ومسجد من العصر الأموي، وأعلنا أن هذه القصور قد استمرت عامرة خلال العصر الأموي والعباسي والفاطمي.

حضر هذا الاكتشاف وزير الدفاع دايان المشجع والمتابع لعمليات الكشف عن الهيكل، فأعلن استياءه وطلب نقض هذه الآثار للبحث تحتها عن سويات قد تكشف عن الهيكل، وتابع المنقبون عملهم ولكنهم تأكدوا أن أقدم ما يمكن العثور عليه يعود إلى عصر هيرودوس في بداية الميلاد ٣٦ م، وليس من بين البقايا ما يعود إلى هيكل هيرودوس، حتى تاج العمود المنسوب إليه فهو يتسم بطابع مصري.

وتابعت جميع الحفريات التي تمت في فلسطين بعد حفريات السيدة كينيون انتصاراتها على الروايات التوارتية، ولم يستطع الأثريون بمن فيهم الإسرائيليون، تقديم أي دليل أثري على مرويّات التوارة، بل لقد أثبتت هذه الحفريات أن ما ذكره المنقبون من تصورات تتعلق بما سمي قلعة شاؤول في تل الغسول، وما يسمى بتحصينات داود في القدس، أو اسطبلات سليمان في تل المتسلم٠(مجيدّو)، هي كلها تصورات وهمية قام الأثريون بافتراضها، ولم تكن هناك ثمة آثار تعود إلى عهد داوود أو سليمان، وأن برج داوود يعود إلى الفترة قبل الهلنستية وأنه لا وجود لإسطبلات تعود لزمن داوود.

٤ـ فشل البحث عن آثار الهيكل

يذكر التوراة أنه في طرف على جبل موريا في مدينة القدس، كانت مدينة صهيون (والكلمة كنعانية وتعني الأعالي)، وفيها نشأت أورشليم ضمن مساحة صغيرة بنى عليها الملك سليمان سنة ١٠١٣ق.م هيكلاً. تم ذلك بمساعدة ملك صور أحيرام.

ولقد أطنب التوراة بوصف هذا الهيكل الأول الذي هدم سنة ٥٨٨ق.م من نبوخذ نصر، ويذكر أن هذا الهيكل أعيد بناؤه بشكل متواضع سنة ٥١٦ق.م. وفي عصر هيرودوس الذي نصبه الرومان ملكا، أعاد بناء الهيكل، وقد بالغ العالم دوفوغيه بوصف تفاصيل هذا الهيكل استنادا إلى التوراة وإلى الوصف الذي أورده المؤرخ يوسيفوس، ولقد هدم الرومان هذا الهيكل بأمر تيتوس سنة ٧٠م فأين هي آثار هذه الهياكل؟

إن هذه الأعمدة والتيجان والسواكف والواجهات الحجرية الضخمة التي وصفت، لم يعثر على أي منها رغم التنقيب الكثيف، مع أن الأحداث التي تلت لا تبرر أبدا فقدان أي أثر للهيكل القديم الذي يعود إلى سليمان أو الهيكل الذي يعود إلى عهد هيرودوس. لقد يئس المنقبون من العثور على آثار الهيكلين، وتساءلوا ما إذا كانا قد بنيا من الطين والآجر، أو لعله لم يكن من هيكل بل مجرد مذبح، أو أن أحجارهما قد أعيد استعمالها في أبنية محدثة؟

استمر هاجس البحث عن الهيكل يشغل وزارة الأديان ومصلحة الآثار في إسرائيل، لتأكيد وجودهم تاريخياً في القدس، وكثيراً ما حاول الإسرائيليون التنقيب تحت الحرم الشريف مما يؤثر على بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة والأبنية الإسلامية الأخرى في الحرم الشريف. ولم تستطع أعمال التنديد وقرارات الشجب والمنع التي وجهتها منظمة الأمم المتحدة، أن توقف أعمال البحث عن الهيكل في منطقة الحرم.

إن العثور على آثار تعود إلى عصر الحديد ولا تنتسب إلى التاريخ التوراتي، أصبح يفزع إسرائيل، ويدفعها إلى التعتيم على نتائج التنقيب الفاشلة. فالفشل في العثور عل أثر الهيكل، يعني نفي مدينة داوود وأنها لم تكن حقيقة ،وأن عدم اكتشاف هيكل هيرودوس يعني أن اليهود لم يتمتعوا بعهده باعتراف السلطة الرومانية، بل إن التوراة يذكر أن هيرودوس كان أكثر الحكام بطشا باليهود، وهذا يتناقض مع القول بتشييد هيكل لهم لا نظير له،لم يعثر على أي أثر لهذا الهيكل.

ولكن اليهود في القدس اعتقدوا أن الجدار الداعم للحرم الشريف من جهة المسجد الأقصى، هو من أحجار الهيكل وحتى بداية القرن العشرين. وعندما عرض الخلاف على عصبة الأمم المتحدة، شكلت في العام ١٩٣٠ لجنة دولية علمية لدراسة هوية الجدار، وأطلق على هذه اللجنة اسم لجنة البراق، وأثبتت أن تلك الأحجار التي تشكل الجدار تعود إلى الأوقاف الإسلامية ،وهي جزء من الحرم الشريف، ولا علاقة لها بالهيكل. ولكن اليهود

استمروا على زعمهم وجعلوا من هذا الجدار جداراً للبكاء على ماضي الهيكل. وبعد العام ١٩٧٦ تضاعفت مساحة هذا الحائط من ٣٠ متراً إلى ١٠٠متر ،على حساب حي المغاربة هناك، حيث أزيلت معالم مئتي عقار إسلامي.

فشل البعثات الأثرية الإسرائيلية بعد العام ١٩٦٧

ما زالت أعمال التنقيب التي يجريها علماء الآثار الإسرائيليون أنفسهم في القدس المحتلة، لم تؤكد أبداً أي حدث توراتي ولم تكشف عن أي أثر للهيكل المزعوم.

تتأكد هذه الحقيقة العلمية بقوة، نتيجة الأبحاث التاريخية والتنقيبات الأثرية التي تقام في القدس المحتلة بقيادة علماء من العالم ومن إسرائيل ذاتها، والتي تؤكد نفي التاريخ اليهودي في القدس، وكان دافع الإسرائيليين في التنقيب الأثري هو تأكيد وجودهم على الأرض المحتلة. ولكن الثورة التي أعلنتها السيدة كينيون على نتائج افتراضية قام بها الأثريون التوراتيون، دفعت إسرائيل إلى طرد العلماء العالميين، والاعتماد على الأثريين الإسرائيليين وحدهم بدعم من الجيش ووزارة الأديان.

وفي دراسة موسعة شاملة أصدرتها دورية فرنسية مشهورة هي ((الملفات الأثرية)) Les dossiers d ,archeolagie, Paris –No-١٦٥-١٦٦. خصصتها لمدينة القدس تاريخياً وأثرياً. اعتمدت على الأثريين الإسرائيليين أنفسهم، وعلى نتائج تنقيباتهم في مواقع مختلفة، ولقد عرضت المجلة مجموعة هامة من الصور التي تمثل مواقع التنقيب ونتائجها. وليس في هذه الدراسات والصور ما يشير أو يثبت الوجود الإسرائيلي والتاريخ الإسرائيلي في هذه المنطقة. وفيما يلي عرض لأهم ما وردفي هذه المصنفات.

يعترف الأثري الإسرائيلي بروسحي، أن التنقيب الأثري قبل حرب ١٩٦٧، كان مرتبطاً بالسلطة الأردنية وكان الأثريون ينقبون موضوعياً. وبعد ذلك التاريخ يعترف أن السلطة الإسرائيلية وجهت التنقيب الأثري نحو مدينة القدس وحصراً في ما يسمى بمدينة داوود وفي المنطقة التي يعتقدون أن الهيكل أنشئ عليها، مع البحث في الأحياء اليهودية القديمة. ويقدم هذا الأثري ثبتا بالتنقيبات المتعاقبة التي تمت في هذه المناطق مبتدئاً بأعمال ١٩٦٠ التي قامت بها السيدة كينيون في جنوب الحرم في بساتين الأرمن، وقرب بوابة دمشق، وفي منطقة المرستان.

وبعد العام١٩٦٧ قام الأثري الإسرائيلي أفيغاد بالتنقيب في الحي اليهودي بالقدس القديمة وفي القلعة. ثم قام بروسحي نفسه بمتابعة التنقيب في بساتين الأرمن وفي سفوح الأسوار الخارجية. وهناك أعمال وحفريات أخرى قام بها أثريون إسرائيليون من أمثال شيلوح وبركاى، اهتمت بالمدافن الأقل قدماً.

ويعترف بروسحي بعدم العثور على آثار محدده، بل حتى على أحجار منحوتة يمكن أن تنسب إلى سور أو هيكل أو قصر، ويعزو ذلك إلى كثافة المباني اللاحقة، وبخاصة تلك التي تعود إلى العهود الإسلامية.

ويقول: ((لم يعثر أبداً على أي أثر أو شاهد للهيكل أو القصر، وإنما هي مساكن شعبية)).

ويتحدث عن قوس روبنسون الذي ادعاه مازار، فنفى أن يكون هذا القوس قنطرة للعبور فوق الوادي باتجاه الهيكل. ولم يعثر فيما عدا هذا على أي أثر لمنشآت أقيمت في عهد هيرودوس. بل عثر في منطقة المدافن على كتابات آرامية لا تدل أبدا على علاقة بالعبريين، وهي تعود إلى عام ٤٠م.

والمثير للانتباه، أن التوراة لم يتحدث عن معبد إله اليهود (يهوه) إلا باكتراث قليل، بل ذكر أن سليمان لم يكن قلبه مع الرب كما كان أبوه داوود، وأنه بنى على الجبل تجاه أور سلام، معبدا لإله المؤابيين وآخر لإله العمونيين، واستمرت هذا المعابد أكثر من ٣٥٠عاماً. (مل،١١: ١-٨). مما يدعو إلى الاعتقاد أن الهيكل لم ينشأ للعقيدة اليهودية، إذ إن سليمان أنكر عبادة يهوه وعاد لعبادة الإله العليّ، والهيكل لم يكن لعبادة يهوه. ثم إن بناءه وحسب أوصاف التوراة، يشابه الأبنية والمعابد البسيطة السورية في غوزانا (تل حلف) وحماتا (في حماة) وأوغاريت (في اللاذقية) وشمأل (زنجرلي) والساحل الفينيقي. وأبان التوراة أن أحيرام ملك صور أمر ببناء الهيكل وأرسل لذلك عماله، وأطلق عليه اسم هيكال وهي كلمة فينيقية، وكان لصور سلطان ونفوذ على سليمان.

ويرى الأثريون أن القدس ذاتها لم تكن مساحتها أكثر من ١٦ هكتارا، وأن مدن إسرائيل ويهودا لم تتجاوز مساحتها ٦-١٠هكتارات، بينما كانت مساحة المدن المعاصرة في آشور أكبر بكثير، فهي تصل إلى ٧٢٠ هكتارا في نينوى، و٣٦٠هكتارا في كلح، وكذلك المدن الآرامية مثل حماه وحلف، أو الحثية مثل قرقميش، ولذلك فإن الأسوار الفلسطينية كانت محدودة.

ويتحدث التوراة عن عودة اليهود من المنفى في بابل، بمساعدة قورش ملك الفرس بعد نصف قرن من السبي الأول،وعن عددهم. ويتساءل الأثري رولي خاريش قائلاً ((إن الحفر الأثري في القدس، أبان أن عدد السكان خلال فترة النفي لم يتناقص، فهل هذا يعني أن النفي لم يكن صحيحاً، أم أن المنفيين كانوا قلة وليس كما ورد في التوراة))؟!.

ويقول هذا الأثري ((إننا لم نعثر على أثر لإسكان جديد خلال عصر الحديد وفي فترة ما يسمى بالعودة، وبقيت المنطقة المسماة مدينة داوود وحدها المسكونة على صغر مساحتها)).

وجميع الحفريات التي تهدف الكشف عن عصر الاحتلال الفارسي والحكم الهلنستي، لم تكشف عن آثار هامة، بل نراها من خلال جرار عليها كتابات روديسيّة وأختام باللغة الآرامية، وهي أقدم أختام رسمية وجدت في القدس. أما المباني الرومانية فهي أكثر وضوحاً، ولقد أطلق عليها العامة أسماء توراتية خطأ.

ويقول أفيغاد ((إن الحفريات الراهنة في الحي اليهودي في القدس، أغنت معرفتنا عن حضارة المدينة خلال عهد أسرة هيرودوس من ٨٧ق.م-٧٠م أي خلال مئة وخمسين عاما كانت فيها القدس زاهرة العمران واكتشفت بعض الدور المزخرفة بالفسيفساء والفريسك وهي رومانية الطابع.)) ولم يكتشف أي أثر للهيكل أو لوجود يهودي.

ويقول الأثري زافرير: ((إن القدس في عام ٧٠م، أصبحت تحت حكم تيتوس الروماني الذي أحرق المعبد وهدم المدينة، ولم يبق منها إلا بعض الأسوارالقديمة في منطقة الجنوب حيث استُفيد منها لحماية جنوده ثم احتل البيزنطيون الشرق.

٥- النفي والإثبات في الهوية الثقافية لمدينة القدس (أور سلام):

لم تنجح أعمال التنقيب التي ابتدأت في القدس منذ عام ١٨٦٥ بإثبات هوية غير عربية، إذ لم تستفد الصهيونية ولا التوراتيون من بعثة وارين /١٨٧٦/ او تيرى /١٨٩٠/ في الكشف عن آثار توراتية.

وكان من أبرز من قام بالتنقيب في فلسطين والأردن فيما بعد غلوك الذي قال: «كلما كنت أذهب مستكشفاً كنت استعمل التوراة كدليل للآثار، وأثق ثقة مطلقة بمعلوماتها وشواهدها وحتى تلميحاتها».

وقبل الخمسينات لم يكن أمام الأثريين الذين يبحثون في تاريخ الشرق القديم من مصادر إلا ما رواه التوراة، وكان أكثر المتحمسين للمصادر التوراتية، الأثريون والمؤرخون من أمثال: أولبرايت وأهاروني وغلوك الذين اعتمدوا التصنيف على هدى الأحداث التوراتية، فعندما اكتشفوا تحصينات في القدس نسبوها إلى داود. وكذلك نسبوا موقعا في تل المتسلم اعتبروه اسطبلات سليمان... على أن جميع هذه التأويلات الوهمية التي صفق لها التوراتيون بحماسة، لم تلبث أن تراجعت أمام دراسات علماء الآثار بعد عام ١٩٥٢.

يؤكد علماء الآثار وعلى رأسهم بوتشلاتي أن التاريخ التوراتي لم يعد قادراً على التعامل مع علم الآثار الذي لم يستطيع أن يؤكد أي حدث من أحداث التاريخ التي وردت في العهد القديم.

ويجمع علماء الآثار على ما أورده العالم تومسون «لا يقتصر الأمر على أن علم الآثار لم يبرهن تاريخياً ولا على أي حدث واحد من أحداث القصص المتعلق بالأجداد الأوائل (أي آل إبراهيم)، بل لم يبين أن أي من تلك القصص محتملة».

ولقد أكدت اكتشافات إيبلا منذ عام ١٩٧٥ على عدم تطابق التاريخ التوراتي مع هذه المكتشفات وبخاصة بعد قراءة الألواح الطينية التي عثر عليها في المكتبة الملكية.

لقد تنبه علماء الآثار أن الكشوف المتزاحمة في مدينة القدس. تنفي بقوة التاريخ التوراتي ويشكك بهوية ثقافية غير عربية في هذه المدينة. وحسب علم المنطق فإن النفي في قضية يعني الإثبات في قضية أخرى.

ولكن لابد من الاعتراف أن الحملات الأثرية التنقيبية في القدس، لم تترك فرصة كافية للتنقيب عن الهوية الثقافية اليبوسية – الكنعانية في مدينة القدس (أور سلام) لذلك يطالب العالم نوت Noth ومدرسته الأوربية بإلحاح، وبضرورة فصل الآثار السورية الفلسطينية عن التاريخ التوراتي.

وإذا لم تستطع البعثات الأثرية التنقيب في أرض القدس بسبب نفوذ التاريخ التوراتي، على الأثريين الأوربيين، توصلت إلى نتائج هامة حول الواقع الثقافي في القدس من خلال التنقيبات التي قاموا بها في المدن المحيطة بالقدس مثل أريحا ومجدّو، وتل الغسول وفيه عثر على أقدم مستوطن كنعاني ذي حضارة ترجع إلى الألف الرابع قبل الميلاد.

ونستطيع استقراء ازدهار مدينة أور سلام، من خلال القوائم التي سجلها تحوتموس الثالث ١٥٠٤ــ١٤٥٠ ق.م بعد استيلائه على ١١٧ مدينة كنعانية منها القدس أور سلام. وفي هذه القوائم وصف لغنائمه (المصوغات المعدنية الثمينة، والعربات المطعمة بالذهب، وأوتاد الخيام المطعمة بالفضة وسرائر من العاج، ومضاجع مطلية بالذهب، وأنواع من الكؤوس، وسيوف محلاة بالذهب وخشب الأبنوس، مع ٢٠٠ ألف كيس من الحنطة.

٦ـ الثورة على علم الآثار التوراتي

يعترف العالم دوفو de veux بجلاء إن حقيقة الكتاب المقدس أمر ديني من حيث الأساس، ولا يستطيع علم الآثار البرهنة على تلك الحقيقة أو نفيها، ذلك أن نصوص الكتاب المقدس تتضمن تأويلاً دينياً للتاريخ.

لقد بدا ماتيه Mathiae مؤخراً أكثر وضوحاً في الدعوة إلى الفصل بين العلم الأثري وبين العقيدة الدينية المسيّسة، بعد أن تعرضت مكتشفاته في ايبلا إلى التأويل والابتزاز التوراتي والصهيوني، فهو يقول: ((تفترض الأحداث التوراتية من حيث الأساس أنها تعاقب زمني طويل تتخلله أحداث أسطورية مهدت السبيل إلى ظهور الوحي الإلهي، أي أن شعوب هذه الأزمنة التوراتية وحضارتها لم يكن لها بعد تاريخي بل هي مجرد خلفية للأحداث التوراتية المقدسة. ولا يستطيع علم الآثار أن يؤكد أو يثبت صحة ما جاءت به التوراة من أحداث ومواقع.

إن مهمة علم الآثار أن يحقق موضوعياً دراسة ميدانية لوثائق تاريخية تكشف عن حضارة ما بخصائصها البنيوية وبتأثيراتها المتبادلة خلال الفترة الزمنية التي عاشتها تلك الحضارة)).

لقد قدمت وثائق ايبلا المكتشفة في العام ١٩٧٥، إثباتاً بالثقافة الأصيلة لمدينة القدس ،وأن الآداب التي زعم أنها يهودية، تعود في ايبلا إلى ما قبل عصر داود بأربعة عشر قرناً. يبدو ذلك واضحاً من الأسماء الواردة في الوثائق المكتوبة على الرقم الطينية والتي يزيد عددها عن خمسة عشر ألف رقيم. ومن هذه الأسماء : أور سلام واسماعيل واسرائيل وغيرها.

ونحن نعرف جيداً من خلال أسمائهم ولغتهم أن اليبوسيين هم من الكنعانيين العرب، ولم يستطع الأثريون، وحتى الأمريكي المشهور أولبرايت أن ينفي هذه الحقيقة، على الرغم من عثوره على كثير من الآثار التي تعود فعلاً لعصر الحديد، لا ترتبط بأحداث التوراة.

إهمال التاريخ التوراتي في البحث عن العهد القديم

إن جميع المحاولات الاستكشافية في القدس لم تقدم أي دليل قاطع على أن ما ورد في التوراة كان حادثاً تاريخياً، ولم تؤكد أن المواقع التي وردت فيها تتطابق في وضعها وعلاقتها ببعضها مع ما هو قائم في القدس.

إن عدم تطابق الأحداث التوراتية مع المكتشفات الأثرية كان موضع خيبة أمل كبيرة للعلماء الذين ابتدأوا ينفصلون عن الحدث التوراتي لمصلحة الحدث المكتشف، وقد أعلن ذلك صراحة عدد كبير من العلماء من أمثال لاب وديفر وفرانكن وماتييه، بل أصبح الاعتماد على التاريخ التوراتي عبثاً يتحاشى العالم الموضوعي التنويه به. ولعل اكتشاف آثار إيبلا في تل مرديخ (سورية) كان فاصلاً في تحويل علماء الآثار نحو الموضوعية العلمية وتجاهل الهدف التقليدي السابق، وهو تأكيد الأحداث التوراتية، وإثبات حضارة المنطقة قبل عصر الحديد، مما ينفي جميع الروايات التوراتية الافتراضية الأسطورية.

بيد أن بعض البعثات التنقيبية التي أقامت مراكزها في القدس، ما زالت جاهدة في البحث التنقيبي دون أن تعلن عن يأسها بعد، لقناعتها المطلقة بالتوراة، وأن المصدر التاريخي التوراتي مازال مسلمة لفئة واسعة جداً من توراتيي العالم، الذين ترسخت في أذهانهم الأسطورة على أنها حقيقة، وليس يفرحهم أن تتكشف حقيقة الأسطورة، بقدر ما يهمهم أن تتأكد على أنها هي الحقيقة.

ولكن إذا ما انفصل التوراة عن التاريخ، تصبح الأحداث التوراتية من أمور العقيدة التي لا تدخل في نطاق علم الآثار، أو هكذا يجب أن تكون، لكي ينفرد علم الآثار بالاعتماد على الوثائق المكتوبة المكتشفة للتعرف على تاريخ القدس وثقافتها العربية. والاعتماد على الواقع المعماري الأثري والتاريخي العربي الذي اشترك علماء الآثار في العالم بدراسته وتحديد مراحله عبر خمسة عشر قرناً، كانت القدس التي حملت اسم أورسلام، وايليا، ودار السلام، ثم بيت المقدس أو القدس أولى القبلتين وثالث الحرمين، يحتفل العرب بها بوصفها عاصمة الثقافة العربية لعام٢٠٠٩.

البُعْدُ الإنساني في الفتوحات العربيّة الإسلاميّة
العُهْدةُ العُمَريّة (نموذجاً)

د. شوقي أبو خليل

تمهيد

لم يكن موقف الرُّومان حيادياً إِزاء الأَحداث الَّتي كانت تمرُّ بها جزيرة العرب حين ظهور الإسلام، لقد حشدوا لغزو المدينة المنوَّرة، فكان الرِّدع بجيش العُسْرَة (جيش تبوك)، وحاول عملاؤهم استمالة كعب بن مالك الخزرجي الَّذي تخلَّف عن جيش تبوك، ولعمق إيمانه؛ أحرق الرِّسالة الَّتي وصلته في تنورٍ مسجور.

وحينما انطلقت الفتوح باتِّجاه بلاد الشَّام ــ وهي بلاد عربيَّة أصيلة ــ فاتحة محرِّرة، ارتبطت هذه الحروب بروح إنسانيَّة وعمق حضاري، وبعد تسامحي كبير.

وبعيد معركة اليرموك؛ ركَّز الفاتحون على بيت المقدس (إيلياء)(١)، فكانت بينهما رسائل ومفاوضات، من أوائلها كتاب عمرو بن العاص، ومما جاء فيه: «.. فإذا أتاكم كتابي هذا فأسلموا تسلموا، وإلا فأقبلوا إلينا حتى أكتب لكم كتاباً، أماناً على دمائكم وأموالكم»(٢).

وكان في جواب أهل إيلياء على كتاب عمرو بن العاص التمهُّل لرؤية نتائج المعارك المتوقعة قريباً بين المسلمين والرُّوم، فإن انتصرتم على الرُّوم، فـ«ما نحن إلا كمن قد ظهرتم عليه من إخواننا، ثمَّ دانوا لكم فأعطوكم ما سألتم».

وكاتب أبو عبيدة بن الجرَّاح أهل إيلياء أيضاً: «اخرجوا إليَّ أكتب لكم أماناً على أنفسكم وأموالكم، ونوف لكم كما وفينا لغيركم»، وكتب لهم: «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، من أبي عبيدة ابن الجرّاح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكّانها، سلام على من اتّبع الهدى، وآمن بالله العظيم ورسوله، أما بعد فإنا ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله، وأنَّ السَّاعة آتية لا ريب فيها، وأنَّ الله يبعث من في القبور، فإذا شهدتم بذلك حَرُمت علينا دماؤكم وأموالكم، وكنتم إخواننا في ديننا، وإن أبيتم فأقرُّوا بإعطاء الجزية..»(٣) .

والجزية (اصطلاح ضريبي) لا يشكل رُبْع ما كان يفرضه الرُّومان، وكانت تدفع آنذاك مقابل حمايتهم وانتفاعهم بالمرافق العامَّة، التي تنفق الدَّولة الإسلاميَّة على فتحها وصيانتها، ويدفع المسلم أضعافها.

انتظر أبو عبيدة جواب أهل إيلياء، فلم يصله شيء، وأبوا أن يأتوه وأن يصالحوه، فأقبل إليهم حتى نزل بهم، فحاصرهم، وكان الذي ولي قتالهم خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان، كل واحد منهما في جانبه.

وبلغ سعيد بن زيد ــ وهو والٍ على دمشق ــ حصار بيت المقدس، فكتب إلى أبي عبيدة رضي الله عنهما: «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، من سعيد بن زيد إلى أبي عبيدة بن الجرَّاح، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أمَّا بعد فإني، لعمري، ما كنت لأوثرك وأصحابك بالجهاد في سبيل الله على نفسي وعلى ما يقرِّبني من مرضاة ربِّي عزَّ وجل، فإذا أتاك كتابي هذا فابعث إلى عملك من هو أرغب فيه مني، فليعمل لك عليه ما بدا لك، فإني قادم عليك وشيكاً إن شاء الله، والسَّلام»(٤) .

فقال أبو عبيدة ليزيد بن أبي سفيان: اكفني دمشق.

فلمَّا حصر أبو عبيدة أهل إيلياء، ورأوا أنه غير مقلع عنهم، قالوا له: نحن نصالحك، فأرسل إلى خليفتكم عمر فيكون هو الذي يعطينا العهد، وهو يصالحنا ويكتب لنا الأمان، فأخذ أبو عبيدة عليهم الأيمان المغلَّظة ــ على مشورة معاذ بن جبل ــ فحلفوا بأيمانهم: لئن قدم عليهم عمر أمير المؤمنين، ونزل بهم فأعطاهم الأمان على أنفسهم، وكتب لهم على ذلك

كتاباً؛ ليقبلنَّ ذلك، وليؤدنَّ الجزية، وليدخلنَّ فيما دخل فيه أهل الشَّام، فلما فعلوا ذلك، كتب أبو عبيدة:

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

لعبد الله عمر أمير المؤمنين، من أبي عبيدة بن الجرَّاح.

سلام عليك، فإنِّي أحمد إليك الله، الذي لا إله إلاَّ هو، أمَّا بعد فإنَّا أقمنا على إيلياء، وظنُّوا أنَّ لهم في المطاولة بهم فرجاً ورجاء، فلم يزدهم الله بها إلاَّ ضيقاً ونقصاً، وهولاً وأزلاً(٥)، فلما رأوا ذلك سألونا أن نعطيهم ما كانوا منه ممتنعين قبل ذلك، وله كارهين، وإنهم سألونا الصُّلح على أن يقدم عليهم أمير المؤمنين، فيكون هو المؤمِّن لهم، والكاتب لهم كتاباً، وإنَّا خشينا أن تقدُم يا أمير المؤمنين، ثمَّ يغدر القوم فيرجعون فيكون سيرك ـ أصلحك الله ـ عناء وفضلاً، فأخذنا عليهم المواثيق المغلَّظة بأيمانهم لئن أنت قدمت عليهم فأمَّنتهم على أنفسهم وأموالهم ليقبلنَّ ذلك، وليؤدُّنَّ الجزية، وليدخلنَّ فيما دخل فيه أهل الذِّمَّة، ففعلوا، وأخذنا عليهم الأيمان بذلك، فإن رأيت ـ يا أمير المؤمنين ـ أن تَقْدُم علينا فافعل، فإنَّ في مسيرك أجراً وصلاحاً وعافية للمسلمين، أراك الله رشدك، ويسَّر أمرك، والسَّلام عليك»(٦).

العهدة العمريَّة، معاهدة فتح بيت المقدس (إيلياء):

استخلف عمر عليّاً على المدينة المنوَّرة، وسار إلى الشَّام حتَّى وصل الجابية ـ كما يذكر الطَّبري(٧) ـ فبعث أبو عبيدة إلى أهل إيلياء أن انزلوا إلى أمير المؤمنين، فاستوثقوا لأنفسهم، فنزل ناس من عظمائهم ووجهائهم، فكتب لهم عمر ـ رضي الله عنه ـ كتاب الأمان والصُّلح، ونصُّ كتاب المعاهدة كما في الطَّبري:

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان.

أعْطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملَّتها،أنَّه لا تُسكَن كنائسهم، ولا تُهدَم، ولا ينتقص منها ولا من حيِّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرَهون على دينهم، ولا يضارَّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود(٨) .

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الرُّوم واللُّصوت(٩)، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتَّى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحبَّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الرُّوم، ويُخلي بِيَعَهم وصُلُبَهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصُلُبهم حتَّى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان(١٠)، فمن شاء منهم قعد، وعليه

مثل ما على أهل إيلياءٍ من الجزية، ومن شاء سار مع الرُوم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنَّه لا يؤخذ منهم شيء حتّى يحصد حصادهم.

وعلى ما في الكتاب عهد الله وذمَّة رسوله، وذِمَّة الخلفاء، وذِمَّة المؤمنين، إذا أعطوا الَّذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرَّحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر سنة خمس عشرة للهجرة»(١١).

ثمَّ سار عمر رضي الله عنه من الجابية إلى بيت المقدس، وتنفيذاً لبنود المعاهدة وموادِّها، أقام رضي الله عنه مصلاَّه إلى كناسةٍ(١٢) نظفها وطهَّرها مع من كان معه من النَّاس، ولم يصل في كنيسة القيامة كيلا يقالٍ صلّى هنا عمر، فلتحوّل إلى مسجد، وعلى مقربة من الكنيسة بُني مسجد عمر، دليل التّسامح والتّآخي والاعتراف بالآخر.

لقد عبَّر عمر رضي الله عنه بوضوح حينما سئل لِمَ لَمْ تصلِّ داخل الكنيسة، قال: «لو صلَّيت داخل الكنيسة خفت أن يقول المسلمون من بعدي: هذا مصلَّى عمر، وأن يحاولوا أن يقيموا في هذا المكان مسجداً»(١٣).

آداب حروب الفتوح

القاعدة الإسلاميَّة في الفتوح الأمان لكلِّ مدني، ولكلِّ من لم يقاتل، ناهيك عن الأمان للأطفال والنِّساء والشّيوخ وعلماء الدِّين، مع كفالة حرِّيَّة المعتقد، فللحروب آدابها، لخصها أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه في عشر خصال، جاءت في خطبته الّتي ودَّع بها جيش أسامة ابن زيد، وفيها يقول:

«يا أيُّها النَّاس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنِّي: لا تخونوا ولا تغلُّوا(١٤)، ولا تغدروا ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً(١٥) ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلاَّ لمأكلة، وسوف تمرُّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصَّوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.

وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطَّعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء؛ فاذكروا اسم الله عليها.

وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فاخفقوهم بالسَّيف خفقاً، اندفعوا باسم الله»(١٦)، وهذا يعني أن يُقاتَل المقاتلون فقط في ميدان المعركة.

ومن الرَّوائع الحضاريَّة؛ أنَّ عمر من بعد أبي بكر الصِّدِّيق أعطى فقراء أهل الكتاب من بيت مال المسلمين ما يسدُّ حاجتهم.

ويذكر البلاذري(١٧): ومرَّ عمر رضي الله عنه في أرض الشَّام بقوم مجذومين من النَّصارى، فأمر أن يُعطوا من الصَّدقات، وأن يجرى عليهم القوت بانتظام.

وهذه المعاملة الإنسانيَّة المثاليَّة جعلت أهل حمص حينما ردَّ إليهم أبو عبيدة الجزية منسحباً إلى اليرموك يقول لهم: يا أهل حمص، شُغلنا عن نصرتكم والدَّفع عنكم، فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص: إنَّ ولايتكم وعدلكم أحبّ إلينا ممَّا كنَّا فيه من الظُّلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم.. والتَّوراة لن يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلاَّ أنْ نُغْلَب، ردَّكم الله علينا ونصركم عليهم (على الرُّوم)، فلو كانوا هم؛ لم يردُّوا علينا شيئاً، وأخذوا كلَّ شيء بقي لنا(١٨).

حقوق غير المسلم في دولة الإسلام

واستناداً إلى العهدة العمريَّة المستمدَّة من الكتاب والسُّنَّة، والَّتي وُقِّعت على منوالها معاهدات كثيرة في بلاد الشَّام، ومصر.. استخلص الفقهاء حقوقاً لغير المسلم في دولة الإسلام، منها(١٩):

١ ـ حفظ النَّفس، فدم الذِّمِّي كدم المسلم، قال علي رضي الله عنه: من كان له ذمَّتنا؛ فدمه كدمنا، وديته كديتنا.

٢ ـ والقانون الجنائي سواءٌ فيه المسلم والذِّمِّي، يتساوى فيه الاثنان درجة.

٣ ـ والقانون المدني سواءٌ فيه الذِّمِّي والمسلم، وأموال الذِّمِّيِّين كأموالنا، جاء في الدُّر المختار ٢/٢٧٣: ويضمن المسلم قيمة خمره (خمر الذِّمِّي) وخنزيره إذا أتلفه.

٤ ـ مع حفظ الأعراض: فلا يجوز إيذاء غير المسلم لا باليد ولا باللِّسان، ولا شتمه ولا غيبته، ورد في الدُّر المختار: ويجب كفّ الأذى عنه، وتحريم غيبته كالمسلم.

٥ ـ وثبوت الذِّمَّة: إنَّ عقد الذِّمَّة يلزم المسلمين لزوماً أبديّاً، أي إنَّه ليس لهم أن ينقضوه بعد عقده، ولكن أهل الذِّمَّة لهم الخيار أن يلتزموه ما شاؤوا، وينقضوه متى شاؤوا، ومهما ارتكب غير المسلم من كبيرة فلا ينقض بذلك عقده.

٦ ـ والأحوال الشَّخصيَّة: يقضي بها الذِّمِّيُّون بحسب قانونهم الشَّخصي.

٧ ـ ولغير المسلم الحق في إظهار شعائره في معابده.

٨ ـ ولا يجوز في الجزية أن يكلفوا ما لا يطيقون، ومن يفتقر أو يحتج فلا يعفى من الجزية فحسب، بل يجرى له العطاء من بيت المال(٢٠) .

لذلك كلِّه، عاش غير المسلمين في كنف الإسلام بحريَّة وعدل وإنصاف ومراعاة للعبادات، وفق مبادئ الإسلام الثابتة الدَّائمة.

اللَّجنة الدَّوليَّة للصَّليب الأحمر (جنيف)

ولروح هذه المعاهدات الإنسانيَّة، فإن اللَّجنة الدَّوليَّة للصَّليب الأحمر في جنيف، الَّتي تستمد مهمتها من اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩م وبروتوكوليها الإضافيين لعام ١٩٧٧م، وتعمل من أجل التَّطبيق الأمين لأحكام القانون الدَّولي الإنساني المطبَّق في المنازعات المسلَّحة، أصدرت كتاباً أنيقاً بخمس لغات، هي اللُّغات المعتمدة في الأمم المتَّحدة، ومنها اللُّغة العربيَّة عنوانه:

Arab Hisory _ Chronides of Islamic

(سجل أو وقائع التَّاريخ العربي ــ الإسلامي)(٢١).

جاء في مقدِّمة هذا الكتاب: بإطلالة واعية على التراث العربي الإسلامي العريق، يتبيَّن لنا مدى حرصه على تأكيد تقاليد الفروسيَّة، حيث أضفى عليها صبغته الإنسانيَّة، وحث على التَّقيُّد بها، من حيث الاحترام المتبادل، والإنصاف في الهجوم والدِّفاع، بالإضافة إلى احترام حقوق المقاتلين والرِّفق بالضَّحايا ومعاملتهم معاملة إنسانيَّة، وهو في ذلك يتفق مع نصوص وروح القانون الدَّولي الإنساني الَّذي يحتِّم حماية حقوق المقاتلين وضحايا النزاعات المسلَّحة، ويقيِّد من وسائل استعمال القوَّة، بقصر استعمالها ضد المقاتلين في أثناء المعارك الحربيَّة، وحظر استعمالها ضدَّ المدنيِّين أو الجرحى من المقاتلين الَّذين حيَّدتهم إصاباتهم، فأصبحوا غير مشاركين في القتال فعلاً.

إنَّ النظرة المتأنية لتبيِّن بجلاء ووضوح مدى حرص شريعة الإسلام السَّمحة، وحرص قادة جيوش المسلمين على احترام إنسانيَّة الخصم، سواء كان هذا الخصم مقاتلاً، أو أسيراً، أو مدنياً أعزل. ممَّا يؤكِّد أنَّ هذه الشَّريعة كانت إحدى الموارد الَّتي نهل منها القانون الدَّولي الإنساني في قواعده، ومبادئه السَّامية.

ويقول الكتاب المذكور أيضاً: ومن يراجع التُّراث يجده قد اتَّفق مع المعاهدات المعاصرة، الَّتي قيَّدت استخدام القوَّة في النِّزاعات المسلَّحة، ولقد اتَّسمت الحرب في الإسلام بالرَّحمة والفضيلة.

وجاء الفقه الإسلامي مستنبطاً أمور العلاقات الدَّوليَّة الحربيَّة، وذهب الإمامان مالك والأوزاعي إلى أنَّه «لا يجوز بحال من الأحوال قتل النِّساء والصِّبيان من الأعداء؛ ولو تترَّس بهم أهل الحرب»، أي حتَّى ولو وضعوهم أمامهم دريئة للقتل، وترساً يحميهم منه.

ويتابع كتاب (اللَّجنة الدَّوليَّة للصَّليب الأحمر ــ جنيف) مقرِّراً: تلك في عجالة بعض أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة عن حقوق المقاتلين وضحايا النِّزاعات المسلَّحة في خلفيَّة عربيَّة، بقدر ما يسمح به المجال، وكتب الفقه تزخر بكثير من الكتابات تحت مصنف السِّيَر، أو المغازي، حيث أضاف الفقهاء التَّفريعات تكملة للأصول، وواصلوا الأحكام، فنُسخ اجتهاداتهم

نظريَّة متكاملة في القانون الدَّولي الإنساني المعاصر، سبقت به الشَّريعة الإسلاميَّة المجتمع الدَّولي بأكثر من ألف عام، بل لا تزال تسبق بما يطالب به الفقهاء المعاصرون، بمزيد من الحماية لضحايا النزاعات المسلَّحة. وبهذا العرض الموجز اتَّضح لنا أنَّ قواعد القانون الدَّولي الإنساني لا تخرج عن عباءة الإسلام بأيِّ حال، بل إنَّ كثيراً من قواعده تجد مصادرها في هذا الدِّين الحنيف، وعلى ذلك، فإنَّه من السَّهل على الإنسان إذا ما عرف أنَّ قواعد القانون الوضعي تفرض عليه احترام قواعد معاملة ضحايا النزاعات المسلَّحة، وأنَّ الأمر فوق كونه قاعدة وضعيَّة، فهو قاعدة إنسانيَّة، استقرَّت ورسخت في الوجدان الإنساني، تخاطب فيه إنسانيَّته، فيحرص على احترامها، وصون أحكامها.

ولكن يمكننا القول: إنَّ هناك مفارقة بين العقيدة والتَّوصيات، بل بينهما بُعْد المشرقَيْن، إنَّ آداب الجهاد الَّتي سُجِّلَت في وصيَّة أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه لجيش أسامة بن زيد؛ رُبِطَت بعقيدة، ومن ثَمَّ برقيب لا يغيب، هو الله سبحانه وتعالى، فلا خيار للمسلم المجاهد في تطبيقها، أو تجاوزها حسب الظُّروف؛ لأنَّها فريضة في عقيدته ملأت كيانه.

في حين أن اتفاقيَّات جنيف توصيات يخرقها القويُّ، ويدوسها تحت قدميه في كلِّ حروبه، فهي في الواقع العملي مغيَّبة تماماً، وحروب عصرنا خير شاهد في استعمال الأسلحة المحظورة دوليّاً، من فييتنام، إلى أفغانستان، إلى العراق، إلى فلسطين وغزَّة هاشم..

وشتَّان بين تعاليم عقيدة تملي على أتباعها دستوراً إنسانيّاً يلتزمون به قولاً وعملاً رجاء ثواب الله، وخشية من عقابه، وبين توصيات يخرقها القويُّ في كلِّ حروبه، دون خوف من رقيب، أو وازع من ضمير، على الرَّغم من توقيعه عليها من جهة، وادِّعائه الإنسانيَّة ونشر الدِّيمقراطيَّة، وحرصه على حرِّيَّة الشعوب من جهة أخرى!

والملاحظ في حروب العدو الصُّهيوني مع العرب أنَّه لا يُفرِّق بين عسكري ومدني، ولا بين طفل وشيخ وامرأة، ولا بين ثُكْنة عسكرية وبناء سكني أو مدرسة، وفي تصريحات حاخاماتهم وساستهم ومفكريهم يقولون: لا يهمنا أطفال الآخرين، لا يهمنا إلاَّ أطفالنا، المهم أن نحميَ أطفالنا، وهنا سرٌّ عجيب، إنَّه فارق الثَّقافة والعقيدة، فالعربي المسلم يهمُّه كلُّ طفل في أرجاء المعمورة، كما يهمُّه طفله تماماً، أن يعيش بأمان وطمأنينة، على شفتيه ابتسامة السَّعادة.

ثقافة العربي المسلم يستمدها من توصيات أبي بكر الصِّدِّيق «.. ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة..»، ومن القرآن الكريم: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ*﴾ [البقرة: ٢/١٩٠]. مع الاعتراف بالآخر، ولا فرض لعقيدة بالإكراه، والحوار بالَّتي هي أحسن هو البديل.

وثقافة من اعتدى على غزَّة، وقبلها على جنوب لبنانٍ، ومذابح صبرا وشاتيلا وقانا ودير ياسين وقِبْيَة..، يستمدها من توراته: «فضرباً تضرب سكّان تلك المدينة بحدّ السَّيف وتحرّمها بكلٍ ما فيها مع بهائمها بحدّ السَّيف، تجمع كلّ أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنَّار المدينة وكلّ أمتعتها كاملة للرَّبّ إلهك فتكون تلاً إلى الأبد لا تبنى بَعْدُ»، [تثنية ١٣/١٥]، «وأمَّا مدن هؤلاء الشعوب الَّتي يعطيك الرَّبُّ إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمةً ما»، [تثنية ٢٠/١٦]، وفي يشوع ٦/٢١: «وحرّقوا كلّ ما في المدينة من رجل وامرأةٍ من طفل وشيخ حتَّى البقر والغنم والحمير بحدّ السَّيف»، وفي إشعياء ١٣/١٥ و ١٦: «كلّ من وجد يُطْعَن وكل من انحاش يسقط بالسَّيف، وتحطَّم أطفالهم أمام عيونهم وتنهب بيوتهم وتفضح نساؤهم»، وغير هذا كثير(٢٢) .

لقد كشفت الكتابات والرُّسوم الَّتي خلَّفها جنود الاحتلال وراءهم على جدران بيوت غزَّة، والَّتي نشرتها وكالة الصَّحافة الفرنسيَّة، أنَّ موضوع الحرب الإسرائيليَّة على غزَّة أكثر عمقاً وتجذراً ممَّا يُعلن من تبريرات وقف صواريخ المقاومة، وتأمين الحدود الجنوبيَّة لإسرائيل.

ومن هذه الكتابات: «نعم للحرب، لا للسَّلام»، و «موتوا جميعاً».

القدس عاصمة الثَّقافة العربيَّة لعام ٢٠٠٩م، بعد حرب غزَّة من ٢٧/١٢/٢٠٠٨ إلى ١٨/١/ ٢٠٠٩م، فهل نفكّر بإبراز تاريخ القدس العربي الإسلامي في كتيِّبات تُطبَع بعدد من لغات العالم، طباعة أنيقة، وتوزَّع مجَّاناً، مبرزين آدابنا في الحروب، وتجاوزاتهم في استخدام الأسلحة المحرَّمة دوليّاً ــ ضد المدنيِّين ــ في اعتداءاتهم الوحشيَّة؟

إنَّ إعلامهم بدأ يسقط عالميّاً..

فهل نتابع المسيرة بجدٍّ وإخلاص؟!

الهوامش

(١) ضبطها ياقوت الحموي في (معجم البلدان ١/٢٩٣) إِيلِياء: اسم مدينة بيت المقدس، معناه: بيت الله.

(٢) (فتوح الشَّام): محمَّد بن عبد الله أبو إسماعيل الأزدي البصري (ــ نحو ١٦٥ هــ/ نحو ٧٨٢م)، مخطوطتا باريس، نقل عنهما محمد حميد الله (مجموعة الوثائق السِّياسيَّة للعهد النبوي والخلافة الرَّاشدة)، ٤٧٤، دار النفائس، ط٧، ١٤٢٢هــ/ ٢٠٠١م، بيروت ــ لبنان.

(٣) المرجع السَّابق: ٤٧٩.

(٤) حميد الله: ٤٨١، عن الأزدي (مخطوطتا باريس).

(٥) الأزل: الضّيق والشّدّة، والأزل: شدّة الزّمان، يُقال: هم في أزلٍ من العيش وأزلٍ من السّنة، وآزلت السّنة: اشتدت، (اللّسان: أزل).
(٦) حميد الله: ٤٨٢.
(٧) في أحداث سنة ١٥ هـ.
(٨) لأنّ تاريخهم مع المعاهدة الّتي وُقّعت معهم بعد الهجرة مباشرة لا تبشّر بخير، لقد نقضوها بنداً بنداً وبإصرار وعناد.
(٩) اللّصت في لغة طيء اللّص والسّارق، وجمعه لُصُوت (اللّسان: لصت).
(١٠) هكذا وردت ولم يحدّد الاسم لأسباب نجهلها.
(١١) الأزدي (مخطوطتنا باريس) نقلاً عن حميد الله: ٤٨٧، الطّبري: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (سلسلة ذخائر العرب: ٣٠)، ٣/٦٠٧، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٦٢م، اليعقوبي: ٢/١٦٧.
(١٢) كُنَاسة: القمامة (مختار الصّحاح: كنس).
(١٣) الإسلام في قفص الاتهام: ١٤٦، أخبار عمر: علي الطّنطاوي، دار المنارة، جدّة، طبعة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
ولما قدم عمر الشّام عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره، ونزع خفّيه فأمسكهما بيده، فقال له أبو عبيدة: لقد صنعت اليوم صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض، فصكّ في صدره، وقال: «أوه، لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة! إنّكم كنتم أذل النّاس وأحقر النّاس، وأقلّ النّاس، فأعزّكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزّة بغيره يذلّكم الله»، (حلية الأولياء: ١/٤٧، مختصر منهاج القاصدين: ٢٤٢).
(١٤) الغلّ: الغشّ والحقد والخيانة، (مختار الصّحاح: غلل).
(١٥) عقر النّخلة: قطع رأسها فيبست، (القاموس المحيط: عقر).
(١٦) الطّبري: ٣/٢٢٦، والكامل في التّاريخ: ٢/٢٢٧.
(١٧) فتوح البلدان: ١٣٥.
(١٨) الخراج: ٨١، الدّعوة إلى الإسلام: ٧٩، فتوح البلدان: ٧.
(١٩) حقوق أهل الذّمّة في الدّولة الإسلاميّة: المودودي، ١٣ وما بعدها.
(٢٠) الخراج: ٧٠، المبسوط: ١٠/٨١.
(٢١) طُبع في مصر عام ١٩٩٣م، وعنوان اللّجنة الدّوليّة للصّليب الأحمر:
International Committee of the Red Cross ١٩, AVENUE LA PAIX, ١٢٠٢ GENEVA CCR. CH
هاتف ٧٣٤٦٠٠١ (١٢٢)، تلكس ٤١٤٢٢٦.
(٢٢) تثنية ٣/٣١، يشوع ٢٤/٨ و ٢٨، و ٢٨/١٠ و ٣٠ و ٣٢ و ٣٥ و ٣٧ و ٣٨ و ٤٠، و ١١/١١ و ١٢ و ١٤ و ١٥، القضاة ١/٨، و ٢٠/٢٧، و ١٣/١٥.

المصادر والمراجع

ــ أخبار عمر: علي الطّنطاوي، دار المنارة، جدّة، طبعة عام ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

ــ الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: خير الدّين الزّركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الرّابعة، ١٩٧٩م.

ــ تاريخ الطّبري (تاريخ الرُّسل والملوك): تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (ذخائر العرب ٣٠): طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٦٢م.

ــ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم أحمد ابن عبد الله الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

ــ الدّعوة إلى الإسلام: السّير توماس آرنولد، مكتبة النّهضة المصريّة، الطّبعة الثّانية، ١٩٥٧م.

ــ ردُّ المحتار على الدّرّ المختار (حاشية ابن عابدين): دار الثّقافة والتّراث، دمشق، الطّبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

ــ سجل التّاريخ العربي ــ الإسلامي: اللّجنة الدّوليّة للصّليب الأحمر، جنيف، طبع عام ١٩٩٣م.

ــ فتوح البلدان: أحمد بن يحيى البلاذري، المكتبة التّجاريّة الكبرى، طبعة عام ١٩٥٩م.

ــ الكامل في التّاريخ: ابن الأثير الجزري، طبعة إدارة الطّباعة المنيريّة، القاهرة، عام ١٣٤٨هـ.

ــ المبسوط: أبو بكر محمد السّرخسي، دار الفكر، بيروت، لبنان، طبعة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

ــ مجموعة الوثائق السّياسيّة للعهد النبوي والخلافة الرّاشدة: محمد حميد الله، دار النّفائس، بيروت ــ بلدان: ـ للطّبعة السّابعة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

ــ معجم البلدان: ياقوت الحموي، طبعة دار صادر بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

الأرمن في القدس منذ ٢٠٠٠ عام

د. ألكسندر كشيشيان(*)

لمحة تاريخية عامة

تضم مدينة القدس القديمة الشهيرة ضمن أسوارها خمسة أحياء متجاورة منذ مئات الأعوام وهي: الحى الإسلامي والحي الأرمني والحي المسيحي والحي اليهودي ومنطقة الحرم الشريف. ويقع الحي الأرمني جنوبي ــ غربي القدس القديمة ويشغل ١٨ % من مساحتها الإجمالية التي تصل إلى ١٥٠،٠٠٠م٢ بعد توسعه في القرنين ١٧ و ١٨.

ذكر الأجانب والعرب والأرمن الحي الأرمني كالرحالة الإنكليزي براون في عام ١٧٩٧ والرحالة السويسري فيليب بوفيت بعد ٦٠ عاماً والرحالة الأرمني سيميون ليهاتسي في القرن ١٧ الذي زار على درب عودته إلى أرمينيا مدينة حلب أيضاً ووصف جاليتها الأرمنية بشكل مسهب.

من أبرز معالم الحي الأرمني دير مار يعقوب الذي يحيط به عدة كنائس ومبنى البطريركية ومقر البطريرك وثانوية وبيوت سكن ونواد اجتماعية ونواد للشباب ومساحات مكشوفة وحدائق ودير الزيتونة حيث تحتفظ بجميع سجلات الطائفة الأرمنية. أما المنطقة السكنية المجاورة للدير، فهي تتصل به عن طريق الأزقة الصغيرة الضيقة التي تشتهر بها القدس القديمة وتحمل جميعها أسماء أرمنية شتى كـ «طريق آرارات» على سبيل المثال.

خرج سكان القدس خارج الأسوار بدءاً من عام ١٨٧٠ للبناء والعيش على الهضبات المحيطة بالقدس التاريخية فاختلط الأرمن معهم في العيش في هذه الأحياء الجديدة كالطالبية والقطمون وغيرهما ولم يتقوقعوا إنما شيدوا بيوتهم متفرقة بين بيوت العرب. لذلك، كان من

(*) باحث سوري

الطبيعي أن يختلط بهم الأرمن ويتقنوا اللغة العربية كأهلها ولو بلكنة خفيفة جداً. لم يشعر الأرمن أنهم أقلية قط، بل اندمجوا في جميع مجالات الحياة في هذه المدينة المشرفة. وبإيجاز، كان الأرمني في القدس أرمنياً بكل ما في الكلمة من معنى كما كان فلسطينياً بكل ما يحتويه التعبير من فحوى. ولعل عطاءهم الدائم في مجالات العمل والثقافة والفن والعلم دليل على اندماجهم الكلي في نسيج المدينة العريقة مع محافظتهم التامة على خصوصياتهم كشعب له تقاليده وعاداته وصفاته فقد تمكنوا من الاندماج في جميع مناحي الحياة في القدس بحيث أن كلمة أرمني لم تكن تعني الانتماء إلى جالية أجنبية وما نظر العرب الفلسطينيون يوماً قط إلى الأرمن إلا نظرتهم إلى أبناء وطن واحد.

برع الأرمن في مهن كثيرة جداً وكان الصدق والأمانة رائدهم كالعادة في التعامل مع السكان العرب المحليين. لقد أدخل الخزافون الأرمن فن صناعة الخزف إلى القدس بين القرنين ١٥ ـ ١٦م وزاد عدد هؤلاء المهنيين الحاذقين بعد المجازر التركية الكبرى في عام ١٩١٥. كذلك أدخل الأرمن وحدهم فن التصوير الفوتوغرافي في معظم مدن الإمبراطورية العثمانية والمشرق العربي بدءاً من عام ١٨٧٠ في إسطنبول وعام ١٨٨٠ في حلب وعام ١٨٩٢ في القدس الشريف وإلخ في أكثر من ٢٠ مدينة ولم يكن لهم أي منافس قط في هذه المهنة حتى سبعينيات القرن الماضي. وبذلك، وثقوا صروح وحياة المدن التاريخية المذكورة بين القرنين ١٩ ـ ٢٠. وهناك عشرات الآلاف من الصور الفوتوغرافية والألبومات عنها التي يمكن استخدامها في البحوث التاريخية والآثارية.

أصبح دير الأرمن في القدس مركز قيادة الكتيبة العربية الأردنية السادسة بقيادة عبد الله التل أثناء حرب ١٩٤٨ العربية ـ الإسرائيلية لحماية الأرمن والعرب من اليهود على حد سواء لأن الأرمن وقفوا دائماً إلى جانب العرب ولا يزالون حتى يومنا. والواقع أن الأرمن تكبدوا خسائر فادحة بين نار الجهتين المتحاربتين لسقوط مئات القنابل على الدير والحي الأرمني. ورغم ذلك، حث البطريركان الأرمنيان الأورثونكسي والكاثوليكي السكان الأرمن على التحمل ومد يد العون للمقاتلين العرب. ورداً على ذلك، رمى بعض المجرمين اليهود القنابل على المصلين الأرمن في الدير في ١٢ أيلول عام ١٩٤٨ وقتل منهم ٦ أشخاص وجُرح حوالي ٣٢ شخصاً وهاجر ٣٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ أرمنياً إلى أرمينيا السوفياتية والولايات المتحدة الأمريكية وأمريكا الجنوبية وأوروبا وأوستراليا إكراهاً لأنهم لم يتمكنوا من العودة إلى دورهم في القدس العربية بسبب احتلالها من قبل إسرائيل في ١٥ ـ ١٨ أيار عام ١٩٤٨. أما الهجرة الثانية للأرمن من القدس، فقد كانت في حرب الأيام الست في حزيران عام ١٩٦٧ بسبب احتلال الإسرائيليين أبنية عديدة وأراض تابعة للأرمن عدواناً وانتقاماً.

رغم جميع تلك الأهوال، ما زال الحي الأرمني حتى يومنا هذا قائماً على خريطة القدس القديمة، غير أن حقيقة التجاور مع الحي اليهودي تجعله يجابه خطر التقلص أكثر ـ فأكثر

مع مرور السنين. ومن المعروف أيضاً، أن عدد السكان الأرمن قد تقلص كثيراً بسبب هذه الأحداث والحروب. فبينما كان عددهم يربو عن ٢٠,٠٠٠ شخص قبل حرب النكسة، انخفض عددهم كثيراً وظل منهم ١,٠٠٠ شخص في الحي الأرمني في القدس و ٢,٠٠٠ شخص في فلسطين على وجه العموم.

تعد الجالية الأرمنية في فلسطين والقدس على وجه الخصوص من أقدم الجاليات الأرمنية في الشرق بدءاً من احتلال الملك الأرمني ديكران الثاني الملقب بـ «الكبير» في العقد السابع قبل الميلاد. لكن تشكّل الجالية الأرمنية بالمعنى الحقيقي للكلمة جرى منذ نهايات القرن ٤ م وبدايات القرن ٥م.

بعد تنصّر الأرمن وإعلان المسيحية ديناً رسمياً للمملكة الأرمنية التاريخية الكبرى في عام ٣٠١م ،كأول دولة مسيحية رسمية في العالم، توجه الرهبان الأرمن في بادئ الأمر للتنسك في الأماكن المقدسة في مهد بزوغ المسيحية ثم تبعهم الحجاج الأرمن منذ القرن ٦م.

من الأدلة على الوجود الأرمني المبكر في فلسطين اكتشاف دير «القديس قره بيت» على جبل الزيتون الذي شيد في عام ٤٢٨م بتمويل البلاط الأرمني. أظهرت التنقيبات، التي أجريت قرب بوابة دمشق في حي مصرارة في القدس في عام ١٨٩٤، لوحة فسيفسائية على أرضية الكنيسة مع ٤ كتابات بالأرمنية وكرست هذه اللوحة الجميلة لذكرى الجنود الأرمن في الجيش الروماني الذين استشهدوا بسبب عدم ارتدادهم عن إيمانهم المسيحي.

أسس الرهبان الأرمن رهبانية مستقلة عن الكنيسة الجامعة بعد جدالات مجمع خلقيدونيا الكنسي وتحولت إلى بطريركية مركزها دير القديس يعقوب. وكانت الجالية ذات صبغة دينية في بادئ الأمر. ثم نشأت الجالية الأرمنية الدنيوية في القدس في القرن ٦ م وكانت تضم التجار والحرفيين وكانت المدينة المقدسة تقع على طريق تجارة «الترانزيت» الدولية في هذا الوقت وكان دورها الاقتصادي عظيماً في حياة بيزنطة لذلك، غدت محط أنظار التجار الأرمن أيضاً. وكان جميع هؤلاء يقطنون في حي خاص بهم على جبل صهيون يدعى«الحي الأرمني» Ruda Armeniorum.

هرب عدد كبير من الرهبان الأرمن من أرمينيا عقب مجمع القسطنطينية الكنسي الثاني ولجؤوا إلى مصر من عسف بيزنطة وكنيستها وقطن البعض الآخر في القدس وكان عددهم يربو عن ٥٠٠ راهب. لذلك، يُعتبر القرن ٦ م بداية تاريخ وجود النساك الأرمن في صحراء سيناء.

كان للحج إلى الديار المقدسة في القدس وفلسطين عامة دور كبير في حياة الأرمن وكانت لهم علاقات بارزة غير منقطعة معها. وكانت العائلات الملكية الأرمنية في أرمينيا التاريخية وأرمينيا الكيليكية وثيقة الصلة بها حتى أن بعض أفرادها مدفونون فيها كماريون زوجة الملك

الأرمني الأخير في كيليكيا ليفون السادس وهناك أميرات أيضاً دُفِن في الحقبة البيزنطية أيضاً. وكان الحجاج الأرمن يأتون من جميع مدن أرمينيا الكبرى وكيليكيا الأرمنية إلى بيت المقدس عبر بعض المحطات في اتجاهين: حلب ــ حماه ــ حمص ــ دمشق ــ القدس. أما الطريق الثانية، فقد كانت تعبر من خلال أنطاكيا ــ اللاذقية ــ طرابلس ــ عكا ــ يافا وصولاً حتى القدس. وكانت في حلب ودمشق واللاذقية وبيروت خانات صغيرة كفنادق أيامنا هذه ينزل فيها الحجاج وكانت تشاد بعطاءات أغنياء الأرمن السخية ترحماً على أفراد عائلاتهم وتخليداً لذكراهم ولتأمين راحة الحجاج وكانت جميعها وقفاً لدير الأرمن في القدس. وقد حجّ إلى الأراضي المقدسة أفراد من مختلف شرائح الشعب الأرمني من أمراء كطوروس، ملك ارمينيا الصغرى لاحقاً، وملك كيليكيا هيثوم الثاني وعامة الناس ورجال الدين بعد قطع مساحات كبيرة براً وبحراً ضمن أخطار شتى داهمة كاللصوص والقراصنة وضمّت إحدى قوافل الحجيج ٤٠٠ حاجاً في تلك الأيام. وعندما انتظمت أمور الحجاج بعض الشيء وأضحى السفر بحراً بدءاً من القرن ١٧، اتجه ما ينوف على ١٠,٠٠٠ حاج أرمني من رجال ونساء وأطفال إلى الأراضي المقدسة سنوياً. وكان أغنياء الحجاج الأرمن يقدمون الهبات المالية والعقارية والعينية والأعمال اليدوية للدير أو البطريركية كالفوانيس وألبسة الكهنة والصلبان الذهبية والفضية وغيرها.

دخلت القدس ضمن دولة الخلافة العربية الإسلامية صلحاً وتسلم الخليفة عمر بن الخطاب ٦٣٤ ــ ٦٤٤م المدينة من البطريرك سفرونيوس في عام ٦٣٧م على يد أبي عبيدة بن الجراح وقدم الخليفة العربي كتاب عهد ممهور بخاتمه إلى أهل المقدس المسيحيين والأرمن وغيرهم هذا نصه:

«هذا عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع بطريق بيت المقدس وأهل إيليا والروم المتغربة فتحها بالصلح... في خامس عشر سنة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وهو لما قدم عمر من المدينة إلى بيت المقدس ظهر المسلمون على أماكن لم يكونوا ظهروا عليها قبل ذلك فظهروا يومئذ على كرم كان في أيديهم لرجل من النصارى له ذمة مع المسلمين في كرمه عنب فجعلوا يأكلونه فأتى الذمي إلى عمر فقال يا أمير المؤمنين كرمي كان في أيديهم فلم يجنوه ولم يتعرضوا له وأنا رجل ذمي مع المسلمين فلما ظهر عليه المسلمون وقعوا فيه فدعا عمر ببرذون فركبه عُريانَ فنظر ثم خرج يركض في أعراض المسلمين فكان أول من لقيه أبو هريرة يحمل فوق رأسه عنباً فقال وأنت أيضاً يا أبا هريرة؟ فقال له يا أمير المؤمنين أصابتنا مخمصة شديدة فكان أحق من أكلنا من ماله من قاتلنا من وراء جدار فتركه عمر ثم أتى إلى الكرم طور ريتا فإذا قد أسرعت الناس فيه فدعا عمر الذمي وقال له كم كنت ترجو من غلة كرمك هذا فقال له كذا فقال خلِ سبيله ثم أخرج عمر ثمنه الذي قال له الذمي فأعطاه إياه ثم أباحه للمسلمين ولما أتى عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس نزل على الجبل الشرقي

وهو طور ريتا وأتى رسول بطريقها وهو أخو البطرك بطرس إليه بالترحيب وقال أناسطين بحضرتك ما لم نكن نعطيه لأحد دونك وسأله أن يقبل منه الصلح والجزية ويعطيه الأمـان على دمائهم وأموالهم وكنائسهم فأنعم له عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسأله المؤمنـون الأمان لصاحبه وأن يتولى مصالحته ومكاتبه فأنعم وخرج إليه بَطريقها في جماعة فصالحهم وأشهد عليهم وذلك البطريق هو الأمثل وأما البطرك فهو الكاهن وكان اسم البطرك يوم ذلك سفرونيوس وكان قد أخبر النصارى أن الله تعالى يفتح بيت المقدس على يد عمر بن الخطاب من غير قتال فلما فرغ عمر من كتاب الصلح بينه وبين أهل بيت المقـدس قـال لبطريقهـا سفرونيوس دلني على مجد داود عليه السلام فدله على أماكن متعددة فأنكرها عمر ثم انتهى به إلى الباب الذي يقال له باب محمد وهو عندهم يسمى بباب الرحمة وقد انحـدر مـا فـي المسجد من (الزبالة) على درج الباب حتى خرج إلى الزقاق الذي فيه الباب فدخلـه عمـر والبطريق جوا فلما رأى عمر داخله قال صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا أخبرنـا عنه ثم استخبر من البطرك عن كنيته ونسبه فقال له ندعى بطايفة الكرابلة ثم كتب له ولذريته ولطائفته ولمن اختاره من سائر الملل عهداً وهذا صورته: بسم الله الرحمن الرحيم هذا مـا أعطاه عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أهل إيليا من الأمان أعطاهم أمانـاً لأنفـسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسائر عامتها أنها لا تسكن كنائسهم ولا تُهدّم ولا ينقض منهـا ولا من خروجها ولا من صليبهم ولا شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يـضار أحد ولا يسكن بإيلياء معهم من اليهود ولا من الروم الواردين من الأطراف لزيـارة بيـت المقدس إلا الذين أتوا مع أبي هريرة من الرعية التي أطاعت المسلمين من طائفـة الأرمـن وبطريقهم إذ ذاك كركور بن حسكيال الأرفلي وتبع لهذه الطائفة طائفة من القبط والـسريان والحبش بالتماس المقوقس ورضي بذلك سفرونيوس وأهل أيليا وأقرهم أمير المؤمنين علـى ذلك... وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم أن يشدوا الزنـانير والمناطق وعليهم أن يخرجوا منها من الروم واللصوص والجواسيس فمن خرج فهـو آمـن على نفسه وماله ومن قعد عليه من الجزية ومن شاء سار مع الروم ولا يؤخذ مـنهم شـيء حتى يحصد حصاد عامهم ذلك وعلى هذا الكتاب عَهْدٌ وذمّة فمن بدّل هذا العهد بعد سـماعه فإنما إثمه باق عليها إلى يوم القيامة ومن بدل حكمه ونقض شروطه من أهل الذمة من سكان إيليا فقد هدر دمه وتعرض لاستباحة عرضه وماله ومن تمسك به وعمل بشروطه فقد عصم به دمه وعرضه وماله وكان له مالنا ودخل في حصن حصين وكان في أمان الله ورسـوله وأولي الأمر من ولاة المسلمين. شهد بذلك

أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية ابن أبي سفيان وعامر بن عبد الله وكعب بن عبد الله وغيرهم من الحاضرين.

هـذا ما عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ... بطريرك بيت المقدس واهل [illegible] من الروم [illegible] وفيها الصليب و[illegible] في خامس عشر سنة من
هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وهو لما قدم عمر من المدينة الى بيت المقدس [illegible] للمسلمين على اماكن لم [illegible] قبل ذلك
فلم [illegible] على [illegible] في ايام [illegible] من النصارى [illegible] ذمة مع المسلمين في [illegible] لما [illegible] فان الذي
[illegible] فقال يا امير المؤمنين [illegible] كان في ايديهم فلم يجنوا ولم يتعرضوا [illegible] وانا رجل ذمي مع المسلمين فلما ظهر عليه المسلمون
[illegible] وفي [illegible] من [illegible] من المسلمين [illegible] اول من لقيه ابو هريرة يحمل فوق
راسه [illegible] امير المؤمنين اصابتنا مخمصة شديدة [illegible] من اكلنا من ماله من
قاتلنا [illegible] الى [illegible] الناس [illegible] الذمي وقال له [illegible] من
[illegible] هذا [illegible] في سبيله [illegible] الذمي قال له الذمي فاعطاه اياه ثم اباحه المسلمين ولما
اتى عمر بن الخطاب بيت المقدس نزل على الجبل الشرقي وهو [illegible] بطريقها وهو اخو البطرك
[illegible] اليه [illegible] بطريقها ان [illegible] لاحد دونك وساله ان يقبل منه الصلح والجزية ويعطيه الامان
على دمائهم واموالهم وكنائسهم فانعم له عمر بن الخطاب رضي الله عنه وساله ان يكون الامان لصاحبه وان يتولى مصالحته
ومكاتبته فانعم وخرج اليه بطريقها في جماعة فصالحهم واشهد عليهم [illegible] البطريق هو الامثل واما البطرك فهو
الكاهن وكان اسم البطرك يوم ذلك صفرونيوس وكان قد اخبر النصارى ان الله تعالى يفتح بيت المقدس
على يد عمر بن الخطاب [illegible] قال فلما فرغ عمر من كتاب الصلح بينه وبين اهل بيت المقدس قال لبطريقها صفرونيوس
دلني على مسجد داود عليه السلام فدله على اماكن متعددة [illegible] ذكرها عمر ثم انتهى به الى الباب الذي يقال له باب محمد ومن
عنده [illegible] باب [illegible] المسجد [illegible] الباب [illegible] الى الزقاق الذي [illegible]
والطريق [illegible] قال صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا اخبرنا ثم [illegible] البطرك [illegible] ونسبه
فقال له [illegible] لطايفته [illegible] لذريته ولطايفته ولمن اختاره من سائر الملل عهدا وهو هذا صورته بسم الله الرحمن الرحيم
هذا ما اعطاه عبد الله امير المؤمنين عمر بن الخطاب اهل ايليا من الامان اعطاهم امانا لانفسهم واموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريها
وسائر ملتها بانه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا شيء من اموالهم ولا يكرهون
على دينهم ولا يضار احد منهم ولا يسكن بايليا معهم من اليهود ولا من الروم الواردين من الاطراف لزيارة بيت المقدس الا الذين اتوا مع ابي هريرة
من الهيئة التي اطاعت المسلمين من طايفة الارمن [illegible] اذاك [illegible] الذي [illegible] الطايفة طايفة من القبط والسريان والحبشة
[illegible] المقوقس [illegible] صفرونيوس واهل ايليا [illegible] امير المؤمنين [illegible] على اهل ايليا ان يعطوا الجزية كما
يعطي اهل المداين وعليهم ان يخرجوا منها الروم واللصوص والجواسيس فمن خرج فهو آمن على
نفسه وماله حتى يبلغ مامنه ومن [illegible] عليه من الجزية ومن [illegible] ولا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم
ذلك وعلى ما في هذا الكتاب عهد [illegible] بذل هذا العهد بعد سماعه فان اثمه باق عليه الى يوم القيامة ومن بدل حكمه
ونقض شرطه من اهل الذمة من سكان ايليا فقد هدر دمه [illegible] لاستباحة عرضه وماله ومن تمسك به وعمل بشرطه
فقد عصم بدمه وعرضه وماله وكان [illegible] وكان في امان الله ورسوله واولي الامر من
ولاة المسلمين

ابو عبيدة بن الجراح	خالد بن الوليد	عمرو بن العاص	عبد الرحمن بن عوف	معاوية بن ابي سفيان	[illegible]	ابو [illegible] بن عبد الله	عبد الملك	وغيرهم من الحاضرين

وهكذا، تخلص الأرمن والكنيسة الأرمنية من ضغوطات بيزنطة وكنيستها الأرثوذكسية المستبدة بعد ظهور العرب في المشرق العربي وفي منطقة الشرق الأدنى بشكل عام إلى جانب الكنائس الشرقية التابعة لها وتحديداً السريانية والقبطية والحبشية. وكان الأرمن يملكون ٧٠ ديراً وكنيسة في فلسطين في القرن ٧ م معظمها صغيرة الحجم والمساحة.

حكم الطولونيون فلسطين في سنوات ٨٦٨ ـ ٨٨٩م ومنحوا جميع طوائفها حرية العبادة ثم حكمها العباسيون ٩٠٥ ـ ٩٣٦م وبعدهم الإخشيديون ٩٣٦ ـ ٩٦٨م.

تأثرت الجالية الأرمنية في فلسطين كثيراً بسبب الحروب العربية ـ البيزنطية والسلجوقية ـ الفاطمية وتعرضت لخسارات جسيمة واضمحلت تقريباً في السنوات التالية. عادت وانتعشت الجالية الأرمنية المقدسية منذ عام ١٠٩٩م في عهد الفرنجة واستقر عدد كبير من العائلات والرهبان في بيت المقدس. ومن الشخصيات الأرمنية المرموقة في بيت المقدس في تلك السنوات أمير الجيوش بدر الجمالي وابنه الأفضل شاهنشاه فقد ذكرهما المقريزي.

تذكر المصادر الأرمنية توجّه بطريرك الأرمن في القدس أبراهام المقدسي ١١٨٧ ـ ١٢٢٤م إلى صلاح الدين الأيوبي لإعلامه حول خضوع جاليته له وكانت مشكلة من ٥٠٠ فرد فقط في تلك الأيام وذكّره بالعهد العمري فأصدر صلاح الدين فرماناً خاصاً اعترف بموجبه بحقوق المسيحيين والأرمن المقدسيين.

احتل هولاكو خان مع حليفه ملك كيليكيا الأرمني هيتوم الأول ١٢٢٦ ـ ١٢٧٠م بلاد ما بين النهرين ودمشق وحلب والقدس وحكمها الملك الأرمني مدة ٧ سنوات ١٢٥٧ ـ ١٢٦٤م حتى فتحها المماليك. ويُعتقد أن الملك الأرمني ابتنى كنيسة القديس يعقوب ورمم جنوده أسوار بيت المقدس.

بعد انهيار مملكة كيليكيا الأرمنية تحت ضربات المماليك في عام ١٣٧٥م، وقع الملك الأرمني الأخير ليفون السادس لوسينيان ١٣٧٣ ـ ١٣٧٥م أسيراً مع عائلته فظل في القدس سنة واحدة بينما بقيت الملكة وبقية أفراد الأسرة في القدس. ويُعتقد أن الملكة توفيت في عام ١٤٠٥م ثم ابنتها ودُفنتا قرب مدخل دير القديس يعقوب.

تراجعت أحوال الجالية الأرمنية في فلسطين بعد أن احتلها العثمانيون في عام ١٥١٧ لأن الرشاوى والضرائب المفروضة أرهقت الأديرة والكنائس أيضاً. لذلك، تذكر المصادر الموثقة وخاصة الرحالة ـ المؤرخ الأرمني سيميون ليهاتسي حول وجود ٥ عائلات أرمنية فقط في القدس في عام ١٦١٦. نذكر هنا أيضاً أن هذا الرحالة زار مدينة حلب في تلك الأيام وقدم وصفاً مسهباً حول الجالية الأرمنية فيها. ارتفع عدد أفراد الجالية المقدسية تدريجياً ووصل عددهم إلى ١٠،٠٠٠ في عام ١٨٣٤ عندما احتلها محمد علي باشا.

تأسست أول مدرسة أرمنية في فلسطين في مدينة الرملة في عام ١٨٤٣ ثم انتقلت إلى دير القديس يعقوب في العام التالي وتحولت إلى مدرسة لاهوتية شهيرة. وفي عام ١٩٢٨ شيدت مدرسة مختلطة مع روضتها في القدس في الدير أيضاً التي لا تزال تعمل حتى يومنا. تأسست أول مطبعة أرمنية في البطريركية في عام ١٨٣٣ وبدورها تعمل حتى الآن. نشرت في المطبعة مطبوعات شتى عديدة وكانت تصدر نشرة لسان حال البطريركية باسم «سيون» منذ عام ١٨٦٦ واستمرت لعقد كامل ثم عادت للصدور ثانية منذ عام ١٩٢٣ واستمرت حتى يومنا هذا.

تأسست دار مخطوطات البطريركية في عام ١٨٦٦ وأصبح لها بناء حديث الآن بفضل هدية الثري الأرمني الشهير كالوست كولبنكيان (وهو أول شخص اكتشف البترول في الشمال العراقي في أواخر القرن ١٩) والدار من أهم المراكز الثقافية التاريخية في الشرق الأوسط وتضم حوالي ٤،٠٠٠ مخطوطاً خلا الآلاف من الكتب والدوريات النادرة إلى جانب فرمانات تاريخية. وإلى جانب ذلك، يضم متحف دار المخطوطات لقىً أثرية ثمينة جداً.

جرت هجرات السكان الأرمن من مدنهم وقراهم في أرمينيا التاريخية بسبب التهجير القسري والهجرات الطوعية لأسباب شتى. ولأن الحديث يطول جداً في هذا المجال ويحتاج لعشرات المجلدات الكبيرة، لذلك، أذكر بعضها فقط:

ـ سوق الأرمن القسري إلى إيران في القرن ٤ م عن طريق الشاه الفارسي سابور الثاني.

ـ هجرة الأرمن عن مواطنهم بسبب الحروب الطاحنة بين الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية على أرض أرمينيا التاريخية في نهايات القرن ٤ م.

ـ هاجر أرمن عديدون عن البلاد بسبب الثورات الأرمنية غير الناجحة ضد الفرس.

ـ نظمت الإمبراطورية البيزنطية تهجيرات قسرية دورية ضد الأرمن لقرون طويلة وخاصة بين القرنين ٤ ـ ١٣م وجندت آلاف الجنود الأرمن في جيوشها.

ـ هجرات جماعية بسبب الحروب العربية ـ البيزنطية الطاحنة طوال ٣٠٠ عاماً بعد أن وطّد العرب أقدامهم في أرمينيا في عام ٦٥٠م وأبقوها تحت سيادتهم مدة ٢٠٠ سنة.

ـ هجرات قسرية وطوعية بسبب اجتياحات السلاجقة لأرض أرمينيا في القرن ١١م.

ـ هجرات الأرمن الجماعية بكتل كبيرة جداً أثناء الاجتياحات المغولية في القرنين ١٣ ـ ١٤م واحتلال عاصمة أرمينيا آني.

ـ الهجرات الأرمنية بعد استيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية في عام ١٤٥٣م.

ـ الهجرات بسبب الحروب المستمرة بين الدولتين العثمانية والفارسية في القرن ١٦ التي كانت تجري عامة على أرض أرمينيا التاريخية (المحافظات الست الأرمنية المحتلة من قبل الأتراك الواقعة حالياً على الطرف الشرقي لتركيا الحالية).

ــ تفريغ شاه إيران عباس الأول مدينة جوغا الأرمنية من سكانها وتهجير ٤٠،٠٠٠ مهني أرمني إلى إيران مع عائلاتهم في عام ١٦٠٥ لتطوير الصناعات والمدن في بلاده.

ــ أهوال أرمنية جديدة وتهجيرات قسرية من قبل الدولة التركية في الأعوام ١٨٩٤ ــ ١٨٩٦ و١٩٠٩ و١٩١٥ ــ ١٩٢٣ عندما تم تهجير و حوالي ١,٥ مليون من الأرمن من أرمينيا التاريخية غربي تركيا الحالية ونزوح معظم الناجين إلى البلدان العربية وصولاً حتى القدس الشريف وفلسطين.

وجرت هجرات الأرمن المعاكسة من القدس الشريف وفلسطين عامة على النحو التالي:

ــ هاجر الأرمن المقدسيون مكرهين بسبب الحروب العربية ــ الإسرائيلية في الأعوام ١٩٤٨ و١٩٦٧ و١٩٧٣ واحتلال اليهود لبيوتهم وأملاكهم وتشردهم ولا يتعدى عدد أعضاء الجالية اليوم في جميع مناطق فلسطين عن ٢،٠٠٠ شخصاً بينما زاد عددهم عن ٢٥،٠٠٠ قبل حرب النكسة.

وهناك بعض الأسباب الأخرى التي أكرهت السكان الأرمن على الهجرة عن أراضي أجدادهم منها:

ــ حروب الأرمن المسيحيين ضد الملك الزرادشتي الفارسي يازدكارت الثاني ٤٥٠ ــ ٤٥١م بسبب رفضهم الارتداد عن دينهم إكراهاً.

ــ بسبب ثورات الأرمن الـ تسع ضد البيزنطيين والفرس أثناء الحروب البيزنطية ــ الفارسية ٦٢٨ ــ ٦٤٠ م التي استمرت ١٢ عاماً.

ــ الاضطهاد البيزنطي للأرمن لاعتناق العقيدة البيزنطية الخلقيدونية إكراهاً.

ــ ظلم بعض الخلفاء العباسيين للأرمن وفرض ضرائب ثقيلة حتى على الأموات وإكراه بعض حكامهم الأرمن على الارتداد عن دينهم (هناك أمثلة عديدة عند المؤرخين العرب القروسطيين). وكان هناك بعض الحكام العباسيين الذين فرّغوا مقاطعات كاملة من سكانها الأرمن وبسبب هذا الفراغ الحاصل وصلت القبائل الكردية واستوطنت فيها بدءاً من القرن ٨ ــ ٩ م ولم يكن في ربوع أرمينيا التاريخية كرديٌّ واحد حتى تاريخه بينما يزيد عددهم الآن عن ١٥ ــ ٢٠ مليون.

انتشر جميع الهاجرين والمهجرين في جميع مدن القارات الخمس تقريباً. والشبه كبير الآن بين الشعبين الأرمني والفلسطيني من ناحية أن سكان مهاجرهما في العالم يربو عددهم عن السكان في أرض الوطن بضعفين أو ثلاثة.

مطبعة القدس الأرمنية

هي من المطابع الأرمنية الكبيرة المرموقة. تأسست داخل دير القديس يعقوب في القدس في عام ١٨٣٣. نشرت كتباً دينية وتاريخية وتراثية عديدة جداً باللغة الأرمنية والتركية بحرف أرمني. تجددت المطبعة مراراً بجلب أحدث الآلات إليها في الأعوام ١٨٥٠ و١٩٢٧ و١٩٤٨ و ١٩٨٠ واحتوت على أحرف أرمنية ولاتينية وتركية وعربية. نقدم عناوين بعض المطبوعات:

ـ «تاريخ» للمؤرخ الأرمني القروسطي المرموق هوفهانّس دراسخاناكيردتسي، ١٨٤٣.

ـ «تاريخ مختصر لبلاد اللان» للمؤرخ الأرمني القروسطي يسايي حسن جلاليان، ١٨٦٨.

ـ «تاريخ التتار» للمؤرخ الأرمني القروسطي وارطان أريفيلتسي، ١٨٧٠.

ـ «حوليات» للمؤرخ القروسطي الأرمني كريكور داراناغتسي، ١٩١٥.

ـ أديرة وكنائس أرمنية قديمة في الأرض المقدسة، الأسقفان م.نشانيان وم.أغافنوني، القدس ـ ١٨٣١.

ـ متى الرهوي وميخائيل السرياني.

ـ «قوانين حمورابي» و«تاريخ تيمورلنك» لأحمد عربشاه، ١٨٧٣.

ـ كتب أدبية عديدة ودواوين لكتاب وشعراء أرمن، ١٩٦٠.

ـ «جدول المخطوطلات الأرمنية» ٥ مجلدات كبيرة للأسقف نوراير بوغاريان، ١٩٦٦ ـ ١٩٧٢.

ـ مجلة «سيون» لسان حال البطريركية الأرمنية التي تصدر حتى يومنا.

نُشرت كتب عديدة باللغة الأرمنية أيضاً حول القدس الشريف والجالية الأرمنية المقدسية منها على سبيل المثال لا الحصر:

ـ «تاريخ القدس» د.سافالانيانتس، القدس ، ١٩٣١.

ـ «أديرة وكنائس قديمة في الأرض المقدسة» الأسقفان م.نشانيان وم.أغافنوني، القدس، ١٩٣١.

ـ «الرهبان وزوار القدس الأرمنية» الأسقفان المذكوران، القدس، ١٩٢٩.

ـ «عادات المواقع المقدسة لبيت المقدس» الأسقفان المذكوران، القدس، ١٩٣٦.

البطريركية الأرمنية في القدس

تحتل الكنيسة الأرمنية في القدس بموقعها الفريد مع كنيستي الروم الأرثوذكس واللاتين لإشرافها على قبر العذراء وحديقة كيتسيمانيه وكنيسة بيت لحم وكنيسة الصعود على جبل الزيتون. تخضع البطريركية الأرمنية لكاثوليكوسية عموم الأرمن في جمهورية أرمينيا. تشكل البطريركية أحد أحياء مدينة القدس الشرقية القديمة إلى جانب الحي العربي واليهودي والمسيحي وتملك ربع مساحة المدينة تقريباً وتصل إلى ١٥٠,٠٠٠م٢. شيدت كنائس وأديرة عديدة في ربوع المدينة ومختلف مناطق فلسطين العربية بدءاً من القرن ٤ م ومعظمها بأحجام ومساحات صغيرة. وكان أبراهام أول بطريرك أرمني في المدينة ٦٦٩ ــ ٦٩٦ م. وبناء على بعض المستندات غير الموثقة، ذهب لمقابلة الرسول محمد ﷺ على رأس وفد كبير مؤلف من ٤٠ شخصية وحصل منه على عهد أمان للجالية الأرمنية والجالية الحبشية والسريانية والقبطية التي تخضع له وبالمقابل، وعده البطريرك الأرمني بدفع الجزية المحددة والخضوع للحكام المسلمين. فاستقبله الرسول ﷺ بسرور كبير وحقق رجاءه بتقديم العهد التالي له: «أنا محمد بن عبد الله نبي الله منحت البطريرك أبراهام وجميع أساقفة الأرمن ورهبانهم في القدس ودمشق وجميع من في المناطق العربية وأتباعهم من الأرمن والحبشيين والأقباط والسريان أديرتهم وكنائسهم ومدارسهم وأملاكهم وأراضيهم. أنا نبي الله تعهدت بشهادة العلي القدير وضمير مَن حولي من الرجال والنساء وقدمت الكنائس في القدس: كنيسة القيامة المقدسة وكاتدرائية مار يعقوب الكبيرة الواقعة على الجهة الجنوبية من المدينة المقدسة قرب دير صهيون قدمت أيضاً دير الزيتون ودير سجن المسيح وكنيسة بيت لحم ومار يوحنا وقبر المسيح والمصليات خلف كنيسة مار يوحنا وقبر المسيح حيث تضاء الأنوار وجميع مواقع الحجاج وجبالها ووديانها وأملاكها قدمتها لهم باسم الله ونبيه وجميع المؤمنين المسلمين»(١).

رداً على ذلك، كتب البطريرك الأرمني أبراهام والوفد المرافق تعهداً بدفع الجزية المحددة على الأرمن وأتباعهم من الأحباش والأقباط والسريان وعدم الاعتراف بأي أمير سوى الأمراء المسلمين. وبعد تصديقه على التعهد، أوصى الرسول محمد (ص) الخلفاء من بعده بالتقيد بجميع بنوده لاحقاً. وقد حضر جلسة التوقيع الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب الذي صدّق بدوره على التعهد بعد قراءته له وينص على التأمين على حياة الأرمن وأتباعهم وأملاكهم وأموالهم وكنائسهم وأعراضهم. وبعد الحصول على هذا التعهد، قفل بطريرك الأرمن ومرافقوه عائدين إلى القدس مسرورين.

(١) لم يرد هذا العهد النبوي في كتب التاريخ الإسلامية، ولا يشبه أسلوب هذا العهد الأسلوب النبوي الذي ألفه المسلمون في أحاديث الرسول (ص) وخُطبه ووصاياه ولم يذكر الباحث مصدره (المجلة).

تجدّد هذا العهد لاحقاً، كما جاء، من قبل الخليفة عمر بن الخطاب والخليفة علي بن أبي طالب والسلطان صلاح الدين الأيوبي والسلطان العثماني سليمان وغيرهم من الحكام المسلمين. (١)

المكتبة ودار المخطوطات الأرمنية في القدس

تعتبر الأهم بين دور المخطوطات الأرمنية في العالم بعد دار مخطوطات يريفان عاصمة الجمهورية الأرمنية وتقع داخل دير القديس يعقوب. وبناء على إحصائية عام ١٩٧٨ وصل عدد المخطوطات إلى ٤،٠٠٠ مخطوط ثمين جداً وهي عبارة عن وثائق ديبلوماسية ومراسيم أمراء وملوك أرمينيا التاريخية ومملكة كيليكيا الأرمنية بين القرنين ١٠ ــ ١٤م. ويعود أقدم مخطوط إلى القرن ١١ ــ ١٢م. قام الأسقف نورایر بوغاريان بدراسة ٢،٠٠٠ منها ضمن ٥ مجلدات كبيرة. أما متحف الدار، فإنه يضم لقى قيّمة ونادرة مصنوعة من الذهب والفضة والخشبيات والفوانيس والعصي الأسقفية والبطريركية المطعمة بالذهب والأحجار الكريمة فقد صُنعت معظمها بأيدي المهنيين والصياغ الأرمن الحاذقين في كيليكيا بينها صولجان هيثوم الأول الملك الأرمني الكيليكي. ونجد أيضاً منمنمات الرسام الأرمني الأشهر من القرون الوسطى طوروس روسلين.

تشكل جوهر المكتبة الأرمنية في القدس من مكتبات الأفراد في بادئ الأمر ومن أشهرها مكتبات البطاركة كوشاكيان ونشانيان وديرديريان وغيرهم. وتحوي المكتبة الضخمة الحالية مؤلفات حول تاريخ الكنيسة الأرمنية وطقوسها وشرائعها العامة وتاريخ المجتمعات الأرمنية ومختلف حقب التاريخ الأرمني ومجموعة كبيرة من المؤلفات الموثقة حول ما لحق بالأرمن من قبل الأتراك. بالإضافة إلى ذلك، تحوي المكتبة عدداً كبيراً من الكتب حول الفنون الأرمنية باللغة الأرمنية واللغات الأجنبية تعود خاصة إلى القرنين ١٨ و١٩. وفي المكتبة أيضاً مؤلفات الرحالة الأجانب القدماء إلى أرمينيا وكتب عن العلوم الآثارية حول الديار المقدسة في فلسطين بلغات أجنبية عديدة والأرمنية وكتب رائعة حول المشرق العربي. وتعتبر مكتبة الجالية الأرمنية المقدسية أكبر مكتبة غير حكومية في الشرق الأدنى والمهاجر الأرمنية في العالم لأنها تضم ١٢٠,٠٠٠ مجلداً بين جدرانها بينها ٣٥٠ مجموعة كاملة من الجرائد والدوريات باللغات الأرمنية والعربية والعثمانية بدءاً من القرن ١٩. وهناك مجموعة نادرة جداً من الوثائق والمستندات تعود إلى القرن ١٤م.

تم تحديث المكتبة بدءاً من عام ٢،٠٠٠ بمساعدات مؤسسة كالوست كولبنكيان السخية في لشبونة وأُدخلت الحواسيب والترتيب الرقمي لها. وبعد تحديث المكتبة، قام مئات من الباحثين

---

(١) ما مصدر هذا الكلام؟ (المجلة).

والطلبة بتجهيز دراسات قيمة ونُشر ٥٠ كاتالوكاً بطباعة أوروبية عصرية حول جميع المخطوطات الأرمنية القابعة في المتاحف الأرمنية والغربية ومجموعات الأفراد بلغات عديدة وأصبحت أمهات الكتب والوثائق والأبحاث الأرمنية في متناول العلماء الأرمن والعرب والأجانب.

دير أخوية القديس يعقوب

بناء على بعض الوثائق، شُيد الدير في القرون الأولى لظهور المسيحية ويقع الآن على السفح الشمالي ـ الغربي لجبل صهيون.

بدأ نشاط رهبان الدير منذ القرن ٥ م بعد انفصال الكنائس الشرقية والأرمنية عن الكنائس الغربية بعد مَجْمع خلقيدونيا الكنسي في عام ٤٥١م. قدّم العرب في القرن٧ م حقوقاً متساوية لرئيس الدير الأرمني مع بطريرك اليونانيين البيزنطيين وترقى رئيس الدير إلى مرتبة بطريرك منذئذ الذي تقع تحت مسؤوليته الاهتمام بالجالية الأرمنية والأديرة والكنائس. افتتحت في الدير مدرسة لاهوتية لتخريج رهبان المستقبل ومدرسة لتعليم الأطفال الأرمن في عام ١٨٥٠. ويستمر نشاط الدير حتى يومنا. كان لرهبان الدير دورهم العظيم في الترجمة والتأليف عبر هذه القرون الطويلة وساهموا في تعزيز العلاقات الأرمنية ـ اليونانية والأرمنية ـ السريانية والأرمنية ـ اللاتينية والأرمنية ـ العربية والأرمنية ـ الجيورجية والأرمنية ـ الحبشية الأدبية والفكرية والتاريخية.

لا يسعنا تقديم صورة حقيقية كاملة عن تفصيلات حياة ونشاط الجالية الأرمنية المقدسية الدينية والإبداعية والاجتماعية والفكرية والسياسية ضمن هذه الصفحات القليلة لأن حقيقة نشاط الجالية الأرمنية المتعدد الأوجه والمتشعب يمكن حصره فقط بين دفتي موسوعة كبيرة مؤلفة من مئات المجلدات وتحتاج إلى عقود طويلة من العمل المضني.

نهايةً، أقترح على من يهمه الأمر من الهيئات الأرمنية والعربية والعلماء الأفراد من الطرفين، عندما يحتفل العالم العربي في هذه الأيام بالقدس «عاصمة للثقافة العربية» طوال عام ٢٠٠٩ على مستوى الحكومات والأفراد، تشكيل لجان مختصة لدراسة المخطوطات والمستندات العديدة القابعة في البطريركية التي تعكس العلاقات الأرمنية ـ العربية طوال ١٤ قرناً ٧ ـ ٢٠ م بدءاً من الفتح العربي لفلسطين والقدس في عام ٦٣٦م وحتى يومنا هذا لأنني أعتقد جازماً أنها ستضفي حقائق ومعلومات تاريخية كثيرة جديدة على هذه العلاقات غير المدروسة جيداً أصلاً.

المصادر

(١) بيان نويهض الحوت، صفحات أرمنية في تاريخ القدس، «مجلة الدراسات الفلسطينية» العدد ٤٣ ــ ٢٠٠٠، ص ٦٣ ــ ٧٣.

(٢) الموسوعة الأرمنية، المجلد ٣ ص ٦٤١ ــ ٦٤٤

(٣) هوري عزازيان، نبذة تاريخية موجزة عن الجاليات الأرمنية في البلاد العربية، دار الحوار، اللاذقية، ١٩٩٣ و ٢٠٠٠.

(٤) آرشاك آلبوياجيان (المهاجر الأرمنية) الموسوعة الأرمنية، المجلد ٦، ص ١٧١ ــ ١٧٢.

(5) The Armenian Quarter: Armenians in the Holy Land..WWW. Holyland org.armenian quarter,htm

(6) John H. Melkon Rose, Armenians of Jerusalem: Memoires of Life in Palestine, London, The Radcliffe Press ١٩٩٣, p.١٢ ــ ١٣.

(٧) أ. ك. أبراهاميان، لمحة مقتضبة حول تاريخ المهاجر الأرمنية، المجلد الأول، ص ٢٦٤ ــ ٢٧٠. باللغة الأرمنية.

(٨) هاكوب أتيكيان، تاريخ مقتضب حول المهاجر الأرمنية، مطبعة كاثوليكوسية كيليكيا، أنطلياس، بيروت ــ ١٩٨٥، ص ٢٦٧ ــ ٢٧١، باللغة الأرمنية.

(9) Astrig Tchamkerten, The Gulbenkians in Jerusalem, Calouste Gulbenkian Foundation, Armenian Communities Department, Lisbon_ 2006.

بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة

أ. د. سهيل زكّار

١ـ دخل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مدينة القدس في أواخر شهر ربيع الأوّل (١٧هـ/٦٣٩م). دخلها راجلاً يقود زمام ناقته، وقد ركب عليها غلامه لأنّ نوبته بالرّكوب تواءمت مع ساعة الدّخول، وبعدما تجوّل بين معالم المدينة يقوده البطريرك صفرونيوس، رفض مصادرة أيّة كنيسة أو مكان من أمكنة أهل الذّمة، واختطّ المسجد العمري في القدس، وأمضى صلح المدينة المقدّسة بنفسه[(١)]. وأوقف قدوم عمر إلى القدس نزيف الدّماء وصان المدينة وأماكنها المقدّسة من الدّمار.

من الجانب العسكري كانت مدينة القدس قبل أن يقدم إليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ساقطة عسكرياً، ليس لها سلطانٌ شرعي، ذلك أنّ السّلطة في بلاد الشّام آلت بحقّ الفتح إلى العرب المسلمين.

(١) فتوح البلدان: ١٤٤ ــ ١٤٥. الأزدي: ٢٥ ــ ٢٦٢. ابن حبيش: ٣٠٧/١ ــ ٣١٢. الأنس الجليل: ٢٥١/١ ــ ٢٥٧. الذهبي: ٦٩/٥ ــ ٧٠. تاريخ سعيد بن البطريق ١٩ ــ ٢٠. The Theophanes.

وقدم عمر إلى القدس ليتسلم السّلطات في القدس رسميّاً وفعليّاً، مقتدياً بما فعله النبيّ عليه الصّلاة والسلام يوم فتح مكة، وليؤكد للناس جميعاً على المكانة السامية لبيت المقدس لدى العرب المسلمين، فهي عندهم أولى القبلتين وثالث حرم بالقداسة بعد مكة والمدينة. لكن على الرّغم من المكانة السّامية التي ينظر بها العرب المسلمون إلى القدس، فإن هذه المدينة فقدت مكانتها السّياسية التي حظيت بها قبل الإسلام، وظلّت محافظة على مكانتها الدينيّة، فلقد أبدلت حركة الفتوحات العربيّة لبلاد الشّام الجغرافية السياسية لهذه البلاد. فقبل الإسلام كانت مدن: أنطاكية، وقنسرين والرّها، والقدس، هي المدن الأولى، لكن بعد الفتوح تقدّمت دمشق في الجنوب تقدماً كبيراً، وتراجعت قنسرين تراجعاً كبيراً، وكذلك الرّها وأنطاكية. وتقدّمت حلب لتحتلّ مكانة الوجاهة في الشمال في مقابلة دمشق. فحول حلب ودمشق حيكت أحداث تاريخ بلاد الشام في الإسلام إلى أبعد الحدود.

بدخول عمر بن الخطاب إلى مدينة القدس انتهت حقبة من عدم الاستقرار السياسي والمظالم الدّينية الكنسيّة التي مارسها أباطرة بيزنطة ضد الذين خالفوهم بالمعتقد الكنسي، وتبرهن للنّاس أجمع أن المسلمين أقدر الناس على حماية أماكن العبادات وصيانة المقدّسات، فحرية المعتقد التزم بها المسلمون دون سواهم.

لقد حرم فتح بلاد الشام الإمبراطوريّة البيزنطيّة من مسوّغاتها الدينية في أنّ الإمبراطور البيزنطي هو نائب المسيح على الأرض، وحامي الأماكن المسيحيّة المقدّسة، لا سيما كنيسة القيامة في القدس. وانتزع من بيزنطة أملاكها في آسيا وأفريقية، وأعادها دولة أوربيّة محضة إلى أبعد الحدود، الأمر الذي عنى فتح صفحة جديدة من تاريخ الإمبراطوريّة الرومانية الشرقية وفي علاقات أوربا بالشرق.

وبعد فتح القدس فتح المسلمون الثغور البحريّة التي بقيت مستعصية على السّاحل الشامي مثل: طرابلس، وقيساريّة، وعسقلان(١).

بعدما أكمل العرب فتح بلاد الشام غيّروا تسميتها وتقسيماتها الإداريّة، فباتت البلاد تُعرف باسم بلاد الشّام أو الشّامات كما يسمّيها خليفة بن خيّاط(٢). ولم تعد تُعرف باسم سورية، وصارت حدود بلاد الشام هذه: البحر المتوسّط من الغرب، والبادية الممتدة من عقبة ايلة حتى أعالي الفرات شرقاً، وآخر حدودها مما يلي مصر رفح، وممّا يلي بيزنطة ما بات يُعرف باسم الثّغور.

وكانت بلاد الشام مقسّمة في العصر البيزنطي ما قبل الفتح العربي الإسلامي إلى عدّة مناطق إداريّة هي:

١ ــ سورية الأولى وقد انقسمت إلى قسمين هي:

---

(١) ابن حبيش: ٣١٤/١ ــ ٣٢٨. الأزدي: ٢٧٦ ــ ٢٨٣. فتوح البلدان: ١٤٦.

(٢) تاريخ خليفة: ١٥٧/١.

ـ سورية الأولى ومركزها أنطاكية ومن مدنها الرّئيسة: سلوقية، واللاذقيّة، وجبلة، وحلب.
ـ سورية الثانية أو سورية المجوّفة، ومركزها مدينة أفاميا وتبع لها: حماة، والرّستن، وشيزر.
٢ ـ فينيقيا وقُسّمت بدورها إلى قسمين هما:
ـ فينيقيا الأولى ومركزها صُور والمدن الرئيسة في هذا القسم: عكّا، وصيدا، وبيروت، وطرابلس، وأرواد.
ـ فينيقيا الثانية المواجهة للبنان ومركزها دمشق وضمّت حمص وتدمر.
٣ ـ فلسطين وقد قُسمت إلى:
ـ فلسطين الأولى ومركزها قيساريّة، وكانت تضمّ: القدس، ونابلس، ويافا، وغزّة، وعسقلان.
ـ فلسطين الثانية ومركزها بيسان، ومدنها الرّئيسة جدر [أم قيس حاليّاً]، وطبريّة.
ـ فلسطين الثالثة ومدينتها الرّئيسة البتراء(١).

وقام العرب بإعادة النظر في هذا التقسيم في ضوء تبدّل الجغرافية السياسية لبلاد الشام، فهذه البلاد باتت جزءاً من دولة الخلافة التي مركزها الآن المدينة المنوّرة. ولم تعد تتبع روما الغربيّة أو الشرقية بل تعاديها. لذلك قسّم العرب البلاد أولاً إلى أربعة أجناد هي: جند دمشق، وجند حمص، وجند الأردن، وجند فلسطين. وفي العصر الأموي أيّام يزيد بن معاوية، قسّم جند حمص إلى قسمين هما: جند حمص وجند قنسرين.

وجند دمشق، حاضِرته دمشق، وفيه من الكور بعلبك قاعدة البقاع، وحوران ومدينته بُصرى، والبثنية ومدينتها أذرعات، والجولان ومدينته بانياس، وكورة الشّراة ومدينتها أذرح ومناطق أخرى، على رأسها المناطق الساحلية لعرقة وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا. وكانت الغالبيّة لسكان جند دمشق من العرب من قبائل من أصلٍ يماني(٢).

وجند حمص كان يضم وسط بلاد الشام مع الشمال. من أهم مدنه حماة وشيزر وأفاميا، وتدمر، ومعرّة النعمان، وحلب، والبارة، وقنسرين وأنطاكية، مع اللاذقية وجبلة وبانياس وأنطرطوس على الساحل.

وكانت تنوخ وطيئ تسكن هذه المناطق قبل الفتح وانضاف إليها بعد الفتح القبائل اليمانية التي شاركت في اليرموك وبقيّة المعارك(٣).

---

(1) Palestine Under the Muslims, p.28.

(٢) مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه: ١٠٥. كتاب البلدان لليعقوبي: ٣٢٥ ـ ٣٢٧. المسالك والممالك لابن خردانبه: ٧٧. الأعلاق الخطيرة قسم دمشق: ٤١. معجم البلدان مواد: عرقة، صيدا، بيروت، طرابلس.

(٣) اليعقوبي: ٣٢٤. ابن الفقيه: ١١٠. ابن خردانبه: ٧٥. فتوح البلدان: ١٣٩.

وجند الأردن وقصبته مدينة طبريّة على شاطئ البحيرة التي حملت الاسم نفسه، ومن مدن هـذا الجند في الداخل بيسان، وفحل، وجرش، وفي السّاحل: صور، وعكا[١].

وجند فلسطين وقاعدته مدينة اللد[٢]، ومن مدن هذا الجند: القدس، وعمواس، ونابلس وسبسطيه، وبيت جبرين[٣].

وبات لكلّ جند خراجه ونواة إدارة مستقلة ووالٍ وحامية، فقد تمركزت غالبيّة القوّات التابعة لجند فلسطين في عمواس. وآثر كبار الصحابة سُكنى هذه المدينة لوقوعها على مقربة من بيت المقدس، ولأنها كانت حصينة، ولم يسكنوا في القدس تجنّباً لاغتصاب دور أهلها، أو مضايقتهم بمشاركتهم في دورهم لأنّ المدينة كانت مسوّرة، لكن مع الأيام أخذ أهلها يتحوّلون إلى الإسلام، والمدينة نفسها تصبح ذات سماتٍ إسلامية، لأنه جرى اختطاط المسجد العمري فيها، وقبل الحديث عن اختطاط المسجد العمري، ومنح العهد العمرية، نبقى مع طاعون عمواس، ففي عام ١٨هـ/٦٤٠م، وقع طاعون جارف عُرف باسم طاعون عمواس مات فيه: أبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وشُرحبيل بن حسنة، ومعاذ بن جبل. ولقد قيل إنّ عدد الذين أماتهم هذا الطّاعون تجاوز الخمسة والعشرين ألفاً[٤].

لقد مات في طاعون عمواس ثلاثة من القادة الأربعة الذين انتدبتهم الخلافة من المدينة لفتح بلاد الشام، وبقي حيّاً عمرو بن العاص فقط، وقد توجّه نحو فتح مصر.

وكان لهذا الأمر دلالاته العظيمة ومؤثراته المستقبلية على أوضاع بلاد الشام. فقد ظلّ حيّاً من قادة اليرموك خالد بن الوليد الذي قدم من العراق مع قوّات خاصة به. وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد عزل خالداً وأمر بعودة قوّاته إلى العراق. وكان خالد أيّام طاعون عمواس مقيماً في قنسرين ثم تحول بعد ذلك إلى حمص بلا عملٍ رسمي وبدون تأثير على مجريات الأحداث الشامية.

وبعد طاعون عمواس أمر الخليفة عمر بن الخطّاب بتولية معاوية بن أبي سفيان مكان أخيه يزيد. وهكذا وجد معاوية نفسه سيّداً للموقف في بلاد الشام بلا منافس، الأمر الذي لم تقتصر نتائجه على بلاد الشام بل على ديار الخلافة والإسلام والمسلمين.

ولدى التأريخ لدخول أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب إلى القدس، يجد الباحث نفسه ملزماً بالاعتماد إلى أبعد الحدود على المصادر العربيّة، لأنّ الذي حكاه المؤرّخ البيزنطي ثيوفانس في تاريخه مضطّرب ولا يمكن الإفادة منه، ولا الاعتماد عليه، حيث حكى بأنّ عمر بن الخطاب حاصر

(١) البلاذري: ١٢٣. اليعقوبي: ٣٢٧. الأعلاق الخطيرة ــ قسم الأردن: ١٢٣.

(٢) حتى بنى سليمان بن عبد الملك الرّملة فاتخذها قاعدة له. اليعقوبي: ٣٢٨. مادة رملة في معجم البلدان.

(٣) ابن الفقيه: ١٠٢. فتوح البلدان: ١٤٤. اليعقوبي: ٢٣٨. ابن شدّاد: ١٩٩.

(٤) طبقات ابن سعد: ٣٨٧/٧. الأنس الجليل: ٢٦٦.

القدس لمدة عامين، ثم تسلمها بعد ذلك صُلحاً من صفرونيوس، وأنّ أمير المؤمنين دخل إلى المدينة وهو يلبس ثياباً وسخة مصنوعة من وبر الجمال، وأن صفرونيوس عرض عليه ملابس إسلامية، فاستعارها حتى غسل ثيابه، ثم ردّها إليه، وفي ذلك العام مات صفرونيوس(١).

هذا ووصلت إلينا قصيدة حنين إلى القدس من نظم البطريرك صفرونيوس، ليس فيها أدنى إشارة إلى تسليمه المدينة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ونبحث في الكتابات السّريانيّة أيضاً عن بعض تفاصيل ما حدث، فنجد البطريرك ميخائيل الكبير قد ذكر أنّ صفرونيوس استقبل الخليفة «وتحدّث إليه عن البلاد، فكتب له عهداً على أن لا يُسكن يهودي في القدس» ثمّ حكى أنه عندما «رأى صفرونيوس ثياباً رثّة على عمر، عرض عليه ثياباً ومئزراً، والتمس منه قبولها فأبى، لأنه اعتاد على أن لا يأخذ شيئاً من أحد»(٢).

ويبقى البطريرك المصري أفتيشوس المُكنّى بسعيد بن بطريق، أفضل المؤرّخين غير المسلمين، حيث ذكر بأنّ صفرونيوس خرج إلى استقبال الخليفة، «فأعطاه عمر بن الخطّاب أماناً، وكتب لهم كتاباً هذه نسخته:

بسم الله الرحمن الرحيم ـــ من عمر بن الخطاب لأهل مدينة إيلياء، إنّهم آمنون على دمائهم وأموالهم وكنائسهم ألا تُهدم ولا تُسكن، وأشهد شهوداً، وفتح له باب المدينة، فدخل عمر المدينة وأصحابه، فجلس في صحن القيامة، فلمّا حضرته الصلاة قال لصفرونيوس البطرك: أريد أصلّي، فقال له البطرك: يا أمير المؤمنين صلّى موضعك، فقال له عمر: ليس أصلّي هاهنا، فأخرجه البطريرك إلى كنيسة قسطنطين، وطرح له حصيراً في وسط الكنيسة، فقال له عمر: لا ولا هاهنا أصلّي أيضاً»(٣).

وليس في المصادر العربية كبير تفاصيل حول دخول أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب إلى القدس(٤). ورواية الأزدي هي أقدم الرّوايات التي وصلتنا حتى الآن، وبالوقت نفسه هي أكثر تفصيلاً، ومنها نعلم أنه عندما وصل الخليفة إلى مشارف القدس، وجدها محاصرةً من قِبَل القوّات الإسلامية، وقامت هذه القوّات فضرُبت «له قبّة من شعر، وجلس فيها على التراب، ثم قام يصلي، وعلت للمسلمين ضجّة عظيمة بالتّهليل والتكبير، فسمع أهل إيلياء، فأشرفوا عليهم لينظروا شأنهم، ونادى واحد منهم: يا معشر العرب ما شأنكم؟ قالوا: إن أمير المؤمنين عمر قد قدم علينا من مدينة نبيّنا، قال: فرجع فأعلم البطريق، فأطرق إلى الأرض لا يتكلم، فلما كان الغد، وصلى عمر بالناس

---

(1) the ophanes, p 3q.

(٢) تاريخ ميخائيل السّرياني ج٢/٣٢٠.

(٣) تاريخ سعيد بن البطريق ص ١٧.

(٤) انظر تاريخ الطّبري ج٤/٥٦ ــ ٦٥. ابن حبيش ج١/ ٣٠٣ ــ ٣١١.

صلاة الفجر، قال لأبي عبيدة: تقدّم إلى القوم، وأعلمهم أني قد أتيت، قال: فخرج أبو عبيدة وصاح بهم، وقال إن صاحبنا أمير المؤمنين قد قدم، فما تصنعون فيما قلتم؟».

وصعد البطريرك ومعه رجالُ الدّين إلى الأسوار، حتى إذا تأكد من وصول أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب «قال لأهل بيت المقدس، انزلوا إليه واعقدوا معه الأمان والذمة»، وعندما خرجوا إليه قال لهم: «ارجعوا إلى بلادكم وذويكم، ولكم الذّمة والعهد»، وبعد ذلك عاد أمير المؤمنين إلى معسكر جنده فبات به ليلته، «ولما كان من الغد قام فدخل بيت المقدس»[1].

وحكى صاحب الأنس الجليل في خبر طويل، قدوم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وأنّ وفداً عن أهل القدس قدم إليه وهو بالجابية، فكتب لهم كتابَ صلح، أورد نصّه، ويُعرف الآن باسم «العهدة العمريّة»[2]، وعلى هذا هناك شبه إجماع على أنّ صلح القدس قد أُبرم قبل الدّخول إليها، وهذا هو المرجّح، ونصّ الصلح يشابه نصوص أخرى للصّلح، باستثناء فقرة خاصة جاء فيها: «ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود»، ويتعلق ذكر هذه الفقرة بالذكريات القديمة لما فعله اليهود بالقدس، وبالقريبة جداً بما فعلوه أثناء احتلال الفرس الساسانيين، وضمنت العهدة العمرية الحرية الدينية المطلقة، والحفاظ على الأموال والكنائس، وقضت العهدة بفرض الجزية على أهل الذمة، وعدم جبايتها في ذلك العام من الذين جفلوا من منطقهم ولجأوا إلى مدينة القدس «حتى يُحصد حصادهم».

ومكث الخليفة في القدس خمسة أيام، حيث كان قد دخل المدينة في يوم اثنين وغادرها بعد صلاة الجمعة، وفي تلك الأيام كشف عن موقع الصخرة المتعلق بمعراج النبي عليه الصلاة والسلام، واختط المسجد العمري، أو الذي شهر أكثر باسم «الأقصى»، والاختطاط هنا لم يكن بناء مسجد، فهذا ما سيكون فيما بعد، بل كان الذي فعله أمير المؤمنين هو أنه «خطّ بها محراباً من جهة الشّرق، وهو موضع مسجده، فقدّم وصلّى هو وأصحابه صلاة الجمعة»[3]، ويفيد هذا النص الهام أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صلى بأصحابه في مكان كان شاغراً من البناء، وأطلقوا في هذا الأيّام على الموقع الذي اختاره الخليفة واختط به مسجده اسم «بيدر أرونا» أو جبل الهيكل، وهذه حكاية باطلة حسب المعطيات الأثريّة، حيث الرّوايات التوراتية تتحدث عن الملك سليمان وعمارته لهيكل في حوالي عام ألف قبيل الميلاد، وهذا اختراع لأن القدس تأسست بعد المائة الثامنة قبل الميلاد، وأضيف هنا ما ذكره القديس جيروم (٣٤٠ ـ ٤٢٠م) أثناء حديثه عن أعمال الإمبراطورة هيلانة في القدس: «وفي ذلك الوقت لم يكن فوق أرض البيدر هذه هيكلاً، ولا حتى مصلّى، بل بعض

---

(١) فتوح الشّام للأزدي ٢٥٧ ـ ٢٥٩.

(٢) الأنس الجليل ج١/٢٥٢ ـ ٢٥٥.

(٣) فتوح الشام للأزدي ٢٥٩.

المساكن لعوام الناس، وكان الموضع كله من دون أيّ تشريف»[١]، وفي حوالي سنة ٦٧٠م، أي بعد فتح القدس بثلاثة عقود، زار المدينة المقدّسة رحّالة فرنسي اسمه أركولف، فذكر أنّ المسلمين كانوا يترددون على مكان قائم إلى الجهة الشرقية من السور، هو «بيت للصلاة مربع الشكل، قد بنوه بشكلٍ بدائي بوساطة ألواح مرفوعة وعوارض فوق بقايا بعض الخرائب، ولقد قيل بأنّ هذا البيت يمكن أن يتّسع لثلاثة آلاف رجلٍ في وقت واحد»[٢]، وبعد أركولف بأمد قصير قام لاهوتي آخر اسمه بيد المبجّل فصنف من عدة كتب مصنفاً وصف به الأماكن المقدّسة وقد جاء عنده أنه في الجزء الأدنى من المدينة بجوار السّور من جهة الشرق: «هناك الآن بناء مربّع، يبدو أنه قادر على استيعاب ثلاثة آلاف رجل، عليه يتردد المسلمون للصلاة، ولقد بُني بشكلٍ بدائي، وقد رُفع فوق ألواح وعوارض خشبية كبيرة فوق بقايا الخرائب»[٣]، وأعود مجدّداً إلى قصيدة صفرونيوس التي تشوّق بها إلى أماكن القدس المقدّسة، حيث لم يذكر لا بقايا هيكل ولا غير ذلك[٤] مطلقاً.

ويُرجّح أن البيوت التي أشار إليها القدّيس جيروم، قد تعرّضت للدّمار من قبل الفرس، أو لسبب آخر، وبقيت هناك بعض خرائبها العادية، فاستفاد منها المسلمون في الإنشاء البدائي لمسجدهم الأوّل، وذلك حتى أيام عبد الملك بن مروان ثم ابنه الوليد، حيث كان إنشاءُ قبّة الصّخرة، ثم المسجد العمري، أو الأقصى الموجود حالياً.

هذا ولدى استعراض الرّوايات العربية، ولا سيما المتأخرة منها، حول اختطاط أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لمسجده، جرى إقحام كعب الأحبار، الذي كان يهودياً من أهل اليمن، وجعلت أمير المؤمنين يستشيره بشأن القبلة، حيث قال له: «أين ترى نجعل المصلّى؟ قال: إلى الصّخرة، فقال: ضاهيت والله يا كعب اليهودية، بل نجعل قبلته صدره، كما جعل رسول الله عليه الصلاة والسلام قبلة مساجدنا صدورها، اذهب إليك فإنا لم نؤمر بالصّخرة، ولكن أُمرنا بالكعبة»[٥]، وفي الحقيقة إنّ إقحام كعب هنا لأمر عجيب، لأنه ليس من المعروف بشكلٍ أكيد تاريخ إسلام كعب، فقد أورد الأزدي، خبر إسلامه بعد فتح القدس، وقال: «إن إسلام كعب الحبر إنما كان في قدوم عمر رضي الله عنه الشام»، وأنه كان من مشجّعيه على التوجّه إلى الشام، لكن لم يرافقه[٦].

---

(١) الموسوعة الشامية ج٢/١٠٦٠ ـ ١٠٦١.

(2) Palestine pilgrims text society, vol. ll, pp 4-5.

(3) Ibid, p70.

(4) iety, Vol.xl, pp 28-32, Palestine pilgrims text soc.

(٥) الأنس الجليل ج١/٦٦٠٢.

(٦) الأزدي ٢٥٩ ـ ٢٦٢.

كما أن هناك روايات أخرى مخالفة حول تاريخ دخوله الإسلام، والمهم هو أنه لم يرافق أمير المؤمنين في رحلته إلى الشام، لانعدام الأسباب، ولأنه لم يكن موضع ثقة، ولأنه كان يمانياً لم يزر القدس قط قبل إسلامه، والعلاقة في فتح القدس إسلامية مسيحية لا شأن له بها، وكان كعب في المدينة حتى اغتيال أمير المؤمنين عمر، ونظراً لحومان الشكوك حوله، هرب خشية المحاسبة إلى الشام.

وفي تاريخ دمشق لابن عساكر ترجمة واسعة جداً لكعب الأحبار، فيها تقريباً كل ما حوته المصادر العربية عنه، وذكرت هذه الترجمة الروايات المختلفة حول سنة إسلامه، ومن ثم قدومه إلى المدينة، وأنه مارس في المدينة «القصّ على الناس»، ولضيق الناس به وشكوكهم، جرى تنكير أمير المؤمنين بحديثٍ نبوي نصّه: «لا يقصّ إلا أمير، أو مأمور، أو محتال» وبناءً عليه قال له عمر رضي الله عنه: «لتتركن الحديث أو لألحقنك بأرض القردة»، وواضح من مواد هذه الترجمة أنه لم يرافق عمر بن الخطاب إلى القدس، بل لحق بدمشق بعد اغتياله، ثم استقرّ بحمص التي مات فيها قبل مقتل عثمان بعام[1].

ومنح التحرير الإسلامي مدينة القدس حقبة من السلام والهدوء والحريّة والتسامح والعمران التي لم تعرفها قط في حياتها المديدة، واستردّت بعد أمد وجيز من تحريرها اسمها الأوّل رسميّاً وشعبياً، كما بانت في كثير من الأحيان تُعرف باسم «بيت المقدس».

وصحيح أن عدداً من الصحابة الكرام الذي شاركوا في فتوحات بلاد الشام، وكانوا حضوراً لعملية فتح القدس من قبل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، قد سكنوا في بلدة عمواس، لكن عدداً كبيراً زار القدس، حتى من الذين لم يشاركوا في فتحها، وكان ممن زارها من العشرة المبشرين بالجنة: أبو عبيدة عامر بن الجراح، أمين هذه الأمة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وسعد بن أبي وقاص ــ بطل القادسيّة.

ومن أمهات المؤمنين صفيّة بنت حيي.

ومن كبار الصحابة: معاذ بن جبل الأنصاري، وبلال بن رباح مؤذّن رسول الله عليه الصلاة والسلام، وعياض بن غنْم، وكان من قادة الفتح، وابن عمّ لأبي عبيدة، وخالد بن الوليد، سيف الله المسلول، وأبو ذر الغفاري، وأبو الدّرداء عويمر، وعبادة بن الصّامت، وسلمان الفارسي، وعمرو ابن العاص، وعبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن عمر بن الخطّاب، وواثلة بن الأسقع، مع عدد كبير آخر، ثم استمرّت زياراتها من التابعين عبر العصور[2].

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ج٥، ط بيروت ١٩٩٥ ص١٥٢ ــ ١٧٢.

(٢) الأنس الجليل: ج١/٢٦٠ ــ ٢٦٧، تاريخ القدس للدكتور شفيق محمود ط عمّان ١٩٨٤، ١٢٤ ــ ١٤٣.

٢ ــ لقد نجم عن أحداث الفتنة الكبرى ومقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان نتائج كبيرة، حيث بويع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فكان أن واجه استيلاء عائشة أمّ المؤمنين مع طلحة والزّبير على البصرة، فاضطر إلى مغادرة المدينة إلى العراق حيث خاض معركة الجمل واتخذ من الكوفة حاضرة لدار الخلافة بدلاً عن المدينة المنوّرة، وكانت الكوفة مدينة حديثة التأسيس، ليس لها عراقة المدينة المنوّرة أو دمشق، مجتمعها غير مستقر اجتماعياً، وحين وقعت الفتنة الكبرى، كانت بلاد الحجاز قد أفرغت طاقاتها العسكرية، حيث باتت أهمّ معسكرات قوّات الفتوحات، في: الكوفة، والبصرة، والجابية في الشام، وأنهت معركة الجمل قوّة البصرة وأتت على مكانة القرشيين من غير بني هاشم وبني أمية، واعترفت معظم أمصار دار الإسلام بخلافة الهاشمي، الإمام علي في الكوفة، إلا بلاد الشام بزعامة الأموي معاوية بن أبي سفيان، وكان معاوية في دمشق الموغلة في القِدم والعراقة، وكان يقود جيشاً منظّماً منذ عشرين عاماً.

وبعد معركة الجمل راسل الإمام علي معاوية ودعاه إلى البيعة. فرفض، وآلت الأمور إلى زحف الإمام علي على رأس قوّاته نحو بلاد الشام، وأعقب ذلك معركة صفّين غير الفاصلة، والاتّفاق على التحكيم، وخروج الخوارج، وأخفق فيما بعد التحكيم، واغتيل الإمام علي من قِبل عبد الرّحمن بن ملجم الخارجي، وكان ذلك سنة ٤٠هـ/٦٦١م[١].

وبعد مقتل الإمام علي، بايع أصحابه ابنه الحسن، وجرت مراسلات بين الحسن ومعاوية، أفضت إلى تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وكان ذلك سنة ٤١هـ/٦٦٢م، وسمّيت هذه السنة بعام الجماعة، وفيها جرت بيعة معاوية بالخلافة، في مدينة القدس[٢]، ولا شكّ أن في اختيار معاوية للقدس مكاناً لبيعته لفتة تقديرية، مع مفهوم شامي للقداسة، فيه تعويض عن قداسة المدينة المنوّرة، وفيه مؤشر على دخول تاريخ الإسلام مرحلة جديدة من حيث الانتشار والسّلطة والسياسة، فبلاد الشام مؤهّلة أكثر من سواها من بلدان دار الإسلام الجديدة، لتكون قاعدة لإيصال الإسلام إلى أطراف الصين شرقاً، وإلى جنوب فرنسا في أوربا، وشهدت بلاد الشام ازدهاراً كبيراً، واهتمّ الأمويون بالعلم والثقافة، ثم إن في بيعة معاوية في القدس، دليل على سرعة كسب المدينة المقدّسة للسمعة الإسلامية، وعلى اهتمام مؤسس الخلافة الأموية بها، ففي العقد الأول من خلافة معاوية ــ

(١) صفين لنصر بن مزاحم. تاريخ خليفة بن خيّاط: ج١/٢١٦. مغازي الزّهري ١٥٣ ــ ١٦٠. أنساب الأشراف للبلاذري ج٣/١٤ ــ ٢٦٦، ج٢/٢١ ــ ٢٧. تاريخ الطبري ج٤/٥٥٢ ــ ٢٧٦، ج٥/٥ ــ ٧١. الأخبار الطوال: ١٥٢ ــ ٢٠١. تاريخ اليعقوبي: ج٢/١٨٤ ــ ١٩٣.

(٢) مغازي الزهري ١٦٠، تاريخ خليفة ج١/٢٢٧ ــ ٢٣٤. أنساب الأشراف ج٣/٢٦٧ ــ ٢٩٦. تاريخ الطبري ج٥/٩٤ ــ ١٦٥. تاريخ اليعقوبي ج٢/١٩٤ ــ ٢١٥. الأخبار الطوال ٢٠٢ ــ ٢٢١. مروج الذّهب ج٢/٤١٥ ــ ٤٣٧، ج٣/٤ــ١١. الأنس الجليل ج١/٢٧٠. تاريخ القدس ١٩٥.

كما أشرنا من قبل ـ زار الرّحالة آركولف مدينة القدس، وقال بأنّ مسجدها يتسع لثلاثة آلاف مصلّي، وقد يُستخلص من هذا أن هذا المسجد قد بُني من قِبل معاوية أثناء ولايته، ولا بد أن بيعته للخلافة كانت فيه، وأن معاوية حافظ على محراب عمر بن الخطّاب، ودامت خلافة معاوية قرابة العقدين من الزمن، حيث خلفه بعد وفاته ابنه يزيد بن معاوية [٦٠ ـ ٦٤هـ/ ٦٨٠ ـ ٦٨٣م]، وتلطّخت أيام خلافة يزيد القصيرة بالدّم من كل جانب، وإثر وفاته لم يستطع ابنه معاوية الثاني القيام بأعباء الخلافة، كما لم تطل حياته، وشغر منصب الخلافة، فكان أن عُقد مؤتمر الجابية، الذي حضره رؤساء العشائر اليمانيّة مع عدد من أبرز رجالات البيت الأموي، وفي هذا المؤتمر بويع مروان بن الحكم بالخلافة [٦٤ ـ ٦٥هـ/٦٨٤ ـ ٦٨٥م]، وبذلك انتقل الحكم الأموي من البيت السفياني إلى البيت المرواني، ويُعدّ عبد الملك بن مروان [٦٥ ـ ٨٦هـ/٦٨٥ ـ ٧٠٥م] هو المؤسس الثاني للخلافة الأمويّة، وفي خلافة عبد الملك بن مروان لاقت مدينة القدس رعاية لا مثيل لها، واستحوذت على رموزها الإسلامية الدائمة.

فهو حين ولي الخلافة، كان عبد الله بن الزبير مستولياً على مكة، وفيها مقيماً، وعلى العراق ومعظم مناطق المشرق، لذلك مثلما كان مع معاوية بن أبي سفيان جرت بيعة عبد الملك في القدس، وكان ذلك في سنة ٦٥هـ/ ٦٨٥م، وبعد بيعته بسنة «ابتدأ ببناء قبّة الصخرة الشريفة، وعمارة المسجد الأقصى»، وكانت دوافعه إلى ذلك عربية إسلامية، فعبد الملك هو الذي عرّب الإدارة ووحدها في دار الإسلام. ووحّد أركان الاقتصاد، وعرّب النقود، ووضع خطة لتعريب جميع المسلمين ثقافة وعقيدة، فلقد رأى عبد الملك أن مظاهر المدن الشامية الكبرى، ولا سيما دمشق والقدس غير إسلاميّة، فيها كنائس فخمة جداً وتلفت الانتباه، ولذلك أراد أن يُظهر تفوّق الإسلام عقيدة ومظهراً ورموزاً، فكان أن أقدم أولاً على بناء قبّة الصخرة، والمسجد الأقصى، وما لم يكمل في أيامه أكمله ابنه الوليد بن عبد الملك، وأكمل بعضه سليمان بن عبد الملك.

والصخرة هي كتلة غير منتظمة من الصّخر الطبيعي، في وسط منطقة المسجد الأقصى، وهي قمّة ما عُرف باسم جبل موريا، وأبعادها الآن /١٨*١٣م/، وأقصى ارتفاع لها عن الأرضية الحاليّة /١,٥م/، وتحت الصخرة كهف مساحته حوالي /٤,٥م/، وله فتحة في السقف قطرها حوالي المتر(١)، ولا يمكن الرّكون إلى أخبار الإسرائيليات حولها، والمهم أن المسلمين يعتقدون بأن النبي عليه الصلاة والسلام عرج من فوقها نحو السماء، وذكر صاحب الأنس الجليل أن عبد الملك بن مروان حين حضر إلى بيت المقدس، أمر ببناء قبة على الصخرة، فبعث بكتبه إلى عمّاله في الأمصار، لاستشارة المسلمين، وإعلامهم أنه «قد أراد أن يبني قبّة على صخرة بيت المقدس، تقي المسلمين من الحرّ والبرد»، فوردت عليه إجابات الأمصار «نرى رأي أمير المؤمنين موقفاً رشيداً» فجمع

(١) الآثار الإسلامية الأولى لكرزويل ٣٣.

الصنّاع، ووفّر للعمارة المال اللازم، وعهد بالإشراف على العمل إلى رجاء بن حيوة الكندي، وكان عالماً معروفاً بالتقوى والاستقامة، يعاونه يزيد بن سلام مولى عبد الملك بن مروان، وكان من أهل القدس، وقد وُلد بها، وكان في بلاد الشام جميع ما أراده عبد الملك لمشروعه من مواد: من أخشاب ورخام، وأحجار، وفسيفساء، وحرفيين ومهندسين على درجة عالية من الأهليّة والخبرة والبراعة، وثابتٌ تاريخياً أن جميع الكنائس في العصر البيزنطي بُنيت بأيدي اختصاصيين محليين مع مواد محلية.

وشهر عبد الملك بن مروان بأنه كان أكثر أهل زمانه علماً وفقهاً، ونباهة، لذلك كان هو الذي صمّم لمشروعه الكبيرة في بناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى حيث «وصف ما يختاره من عمارة القبة وتكوينها للصنّاع، فصنعوا له وهو ببيت المقدس القبة الصغيرة التي هي شرقي قبة الصخرة التي يُقال لها قبة السلسلة فأعجبه تكوينها، وأمر ببنائها كهيئتها»، وجعل هذا القبّة «حاصلاً وشحنها بالأموال»، وأمر عبد الملك وكيليه بالسّخاء على مشروعه وأن لا يتقيّدوا بأية قيود، وبعد الفراغ من العمل كتب «رجاء ويزيد إلى عبد الملك بدمشق: قد أتم الله ما أمر به أمير المؤمنين من بناء قبّة صخرة بيت المقدس والمسجد الأقصى، ولم يبق لمتكلّم فيه كلام، وقد بقي ما أمر به أمير المؤمنين من النّفقة عليه، بعد أن فرغ البناء وأحكم، مائة ألف دينار فيصرفها أمير المؤمنين فيما أحب.. فكتب ليهما بأن تسبك وتفرغ على القبة، فسُبكت وأفرغت عليها، فما كان لأحد يقدر أن يتأمّلها مما عليها من الذهب، وهيّأ لها جلالاً من لبود وأدم توضع من فوقها، فإذا كان الشتاء ألبسها لتكنها من الأمطار والرياح والثّلوج»[1].

وصار كهف الصخرة مسجداً صغيراً، عمل له محراب صغير، ارتفاعه /١,٣٧م/، وعرضه /٧٦م/، وليس لهذا المحراب تجويف حينه كما هو معتاد، بل هنا عمودان، ما بينهما مسطّح، وتزيّن العمودين حزوز طولانية في الأسفل، وعرضانية في الأعلى، وفوق العمودين عقد كُتب عليه بالخط الكوفي «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وفوق العقد زينة جميلة وزخرفة بديعة[2].

«وكان رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام قد حفا الصخرة بداربزين، ومن خلف الدّرابزين ستور الدّيباج مُرخاةً بين العمد، وكان كل يوم اثنين وخميس يأمران بالزّعفران فيُدقّ أو يطحن، ثم يُجبل من الليل بالمسك، والعنبر والماء وورد الجوري، ويخمّر في الليل»، وكان يجري تخليق الصّخرة حتى يغمروها من الدّاخل، ثمّ يخلقون القبّة، ويأتون بعد ذلك بالمجامر، وقد وضعوا فيها أروع أنواع العود والبخور، وبعد انتشار الرّائحة في المكان كلّه «تشمّر السّتور فيخرج البخور ويفوح من كثرته حتى يبلغ إلى رأس السّوق، فيشمّ الرّيح من يمرّ من هناك، وينقطع البخور من عندهم، ثمّ يُنادي

---

(١) الأنس الجليل ج١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٢) القدس الإسلامية في أعمال ماكس فان برشيم ـ ترجمة عربية ط. دمشق ١٩٩٤ ص٦٩.

منادي في صفّ البزّازين وغيرهم: ألا إن الصّخرة قد فُتحت للنّاس، فمن أراد الصلاة فيها فليأت، فيُقبل النّاس مبادرين إلى الصّلاة في الصّخرة، فأكثر الناس من يدرك من أن يصلّي ركعتين، وأقلهم أربعاً، فمن شمّ رائحته قال: هذا من دخل الصّخرة، ثم تُغسل آثار أقدامهم بالماء، وتُمسح بالآس الأخضر، وتنشّف بالمناديل، وتُغلق الأبواب، وعلى كلّ باب عشرة من الحجبة، ولا تُفتح إلا يوم الاثنين ويوم الخميس، ولا يدخلها في غيرهما إلاّ الخدم»، وكان في وسط قبّة الصّخرة سلسلة علّقوا عليها «درّة ثمينة، وقرني كبش إبراهيم وتاج كسرى»، «وكان الفراغ من عمارة قبّة الصّخرة والمسجد الأقصى في سنة ثلاث وسبعين من الهجرة الشريفة»[1]، وهذا ما يفيد أنّ أعمال البناء استغرقت ثمانية أعوام، وأنها كانت شاملة من الأساسات حتى النهاية.

وكثرت في أيامنا الدراسات حول قبّة الصّخرة، وأجمعت على أنها كانت ذات تصميم فريد ورائد في تاريخ العمارة العربيّة والإسلاميّة، وكان قوام التّصميم جدار خارجي مثمّن الأضلاع تليه دائرة وسطيّة من الأساطين والأعمدة تحيط بالصّخرة التي تتوسّط المبنى، وترتكز عليها قبّة خشبيّة، ويفصل بين التثمينة الخارجيّة ودائرة القبّة الدّاخليّة تثمينة وسطيّة من الدّعائم تعلوها عقود دائريّة مدبّبة، وقد نجم عن التثمينة الوسطيّة رواقان خارجي وداخلي غُطّيا من الدّاخل بسقف خشبي، وسهّل هذا الشكل ووجود الأروقة للطّواف حول الصّخرة لمن أراد الطّواف للتّعرّف والتّمتّع بالمشاهدة، ومن ثمّ الصّلاة.

والتصميم الذي اعتمده عبد الملك بن مروان، كان فريداً وجديداً في بابه، والقبّة التي أقامها عبد الملك، جعلها من الخشب، قطرها /٢٠,٤٤م/ متموضعة فوق رقبة عالية فيها ستّة عشر نافذة، ومتكزة على أربع سواري، واثني عشر عموداً، على شكل دائرة أحاطت بالصّخرة، وقد قام ثلاثة أعمدة بين طرفي كلّ ساريتين، وغدت الدّائرة المركزيّة التي تشكّلت من ذلك لها ارتفاع يساوي قطرها تقريباً، وقامت دائرة السّواري والأعمدة وسط مثمّن، طول كلّ ضلع من أضلاعه قرابة /٢٠,٦٠م/ وتتألف من ثمانية جدران ارتفاع كل منها /٩,٥٠م/، وذلك باستثناء حاجز السّقف، وارتفاعه /٢,٦م/، وهناك من الخارج سبع مشربيّات في كلّ جانب، وتُعد المشربيّات المجاورة للزّوايا، وعددها ست عشرة، تجاويف صمّاء، ويخترق الجزء العلوي للبقيّة خمسة نوافذ، وهناك باب عرضه /٢,٦م/، وارتفاع /٤,٣م/، في كلّ جانب من جوانب المثمّن الأربعة، التي تُقابل النّقاط الأساسيّة، وبناءً عليه فإنّ النّافذة الوسطى فوق الباب على هذه الجوانب أصغر بكثير من النّوافذ الأخرى.

ويوجد في الرّواق المثمّن الوسيط أربعة وعشرين قوساً محمولة فوق ثماني سواري، وستة عشر عموداً، بين طرفي كلّ ساريتين، وقد ساعد هذا على حمل السّقف الذي جاء منحدراً، وعُملت قبّة

---

(١) الأنس الجليل ج١ / ٢٧٤ ـ ٣٧٥.

الصّخرة من الخشب، وقد تألفت من طبقتين من الخشب بينهما فراغ، وجرت تغطية السّقف والقبّة من الخارج بألواح من الرّصاص، وجرت العادة على وضع مواد عازلة بين السّقف الخارجي وألواح من الرّصاص، وتألفت هذه من حصر، ثمّ طبقة رقيقة من الطّين الذي فيه قش (بلة)، وكانت الألواح الرّصاصيّة يجري تثبيتها بمسامير، وطبعاً توفّرت حاجة دائمة إلى تفقد ألواح الرّصاص مع مطلع خريف كلّ عام، كما كان «للبلة» عمر محدّد توجب تبديلها بعده مع تفقد الخشب، ومن المعتقد أن الألواح الرّصاصيّة قد وُضع فوقها ألواح نحاسيّة مذهّبة، واختيار القبّة للسّقف الخارجي له روعته للناظر من الخارج، وهو نظام شاميّ قديم، تبنّاه الإمبراطور جستنيان، في عمارة كنيسة آيا صوفيا في القسطنطينيّة، أمّا من الدّاخل، فإن المتطلّع إلى مختلف أنواع الزّينة والنّقوش، يتفكّر نحو السّموات، ومن ثمّ يحلق بأفكاره ومشاعره، والحديث عن أنواع الرّخام وأعمال الفسيفساء الزّجاجي والرّسومات النّباتيّة يلاحظ تطوّراً مذهلا بصناعة الفسيفساء فاق ما عرفته في العصر البيزنطي، ذلك أنّ الصّور الكنائسيّة كان لها أشكال الأيقونات، أو بالحري مثّلت صور بعض الأشخاص، ومثل هذا النّوع أسهل من الصّور النّباتيّة، ولا يحتاج إلى طيوف الألوان نفسها، ويحتاج الحديث المفصّل الواصف لداخل قبّة الصّخرة وخارجها إلى عدّة كتب، ولعلّه يكفي القول «إنّ انسجام التّصميم وثراء الزّخرفة يجعل من قبّة الصّخرة أحد أروع الآثار الإسلاميّة في العالم».

ومن الواضح أنّ عبد الملك بن مروان خاض ببناء قبّة الصّخرة، والمسجد الأقصى ـ الذي سنتحدّث عنه ـ معركة مدروسة تغلّب فيها على عوامل الجذب التي امتلكتها أبنية الكنائس البيزنطيّة، ونجح في معركته، فغدت القدس مدينة عربيّة إسلاميّة، وانحسرت فيها الثقافة الإغريقية ولغتها حيث ما لبثت جلّ الكنائس أن تبنّت العربيّة، ولا بأس أن نضيف إلى هذه الجوانب الحضاريّة والفنيّة التي سوف تتطوّر مع الوليد بن عبد الملك في بنائه للمسجد الأموي بدمشق، وللمسجد النّبوي في المدينة، وفي إعادة تعمير المسجد الأقصى بالقدس، إن لم نقل بنائه من الأساس[1].

ويُستخلص ممّا ذكره المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم أنّ عبد الملك بن مروان هو الذي بنى المسجد الأقصى، وأنّ طول هذا المسجد ألف ذراع بذراع الملك الهاشمي، وعرضه سبعمائة،

---

(١) أحسن التقاسيم للمقدسي البشاري ط ـ ليدن ١٦٥/١٩٠٦ ـ ١٧١. الأنس الجليل ج١/٢٧٢ ـ ٢٧٥. تاريخ القدس لشفيق محمود ٢٠٠ ـ ٢٠٣. القدس الإسلاميّة في أعمال برشيم ٤١ ـ ٨٣. الآثار الإسلامية الأولى ٣٣ ـ ٦١. دراسات في تاريخ وآثار فلسطين ج١/ ٤٩ ـ ٦٥. الموسوعة الفلسطينية القسم العام، مادة "صخرة". الدراسات الخاصّة ج٢/٣٢٥ ـ ٣٢٩.

وفي سقوفه من الخشب أربعة آلاف خشبة، وسبعمائة عمود رخام، وعلى السّطح خمسة وأربعون ألف شقفة رصاص...

«وكانت وظيفته في كلّ شهر مائة قسط زيت، وفي كلّ سنة ثمانمائة ألف ذراع حصر، وخدّامه مماليك له أقامهم عبد الملك من خمس الأسارى، ولذلك يُسمّون الأخماس لا يخدمه غيرهم، ولهم نوب يحفظونها»[١].

وهذا أيضاً ما رواه القاضي مجير الدّين في الأنس الجليل حيث قال إنّه بعد انتقال الخلافة إلى «الوليد بن عبد الملك انهدم شرقي المسجد» وأنّ الوليد رمّمه، وبعدما تحدّث عن أبواب المسجد روى أنّه كان «فيه من القناديل خمسة آلاف قنديل، وكان يسرج مع القناديل ألفا شمعة في: ليلة الجمعة، وفي ليلة النّصف من رجب، وشعبان، ورمضان، وفي ليلتي العيدين، وفيه من القباب خمس عشرة قبّة سوى قبّة الصخرة، وعلى سطح المسجد من شقف الرّصاص سبعة آلاف شقفة وسبعمائة، ووزن الشّقفة سبعون رطلاً بالشّامي غير الذي على قبّة الصّخرة، وكلّ ذلك عُمل في أيام عبد الملك بن مروان، ورتّب له من الخدم القوّام ثلاثمائة خادم، اشتريت له من خمس بيت المال... وفيه من الصّهاريج أربعة وعشرون صهريجاً كبار، وفيه من المنابر أربعة»[٢]، وفيما يتعلق بتزويد المسجد بالماء، فقد قال المقدسي: «وفي المسجد عشرون جبّاً متبحّرة»[٣].

وتناول كريزويل موضوع بناء المسجد الأقصى، وقرّر أن الباني هو الوليد، وذلك اعتماداً على ورقتين من أوراق البردي المصريّة، ترقيان إلى أيّام قرّة بن شريك، والي مصر للوليد ابن عبد الملك حيث وردت إشارة «إلى إعالة الصنّاع والعمّال المهرة المستخدمين في مسجد القدس»[٤]، وهذه ليست حجّة قاطعة إذا قبلنا برواية تهدّم جزء من المسجد، وإعادة عمارته من قبل الوليد، لكن إذا اعتمدنا رواية أنّ إعادة البناء الأولى للمسجد كانت في أيّام أبي جعفر المنصور، بعد سقوط الدّولة الأموية، فهذا يفيد أنّ البناء كان في أيّام الوليد، وليس في أيّام أبيه.

وتمتّع المسجد الأقصى من حيث التصميم الأموي بمزايا خاصّة، تختلف عن تصميم مسجد دمشق الذي بناه الوليد بن عبد الملك، فالمسجد الأقصى كان بلا صحن، ولم يتوسّط محرابه

---

(١) أحسن التقاسيم ١٧١.

(٢) الأنس الجليل ٢٣٧. ٢٨٠ ـ ٢٨١.

(٣) أحسن التقاسيم ١٦٨.

(٤) كريزويل ٦٦.

جدار القبلة، وبلاطات هذا المسجد عموديّة على جدار القبلة وليست موازية له[١]، وهذه السّمات تزيد من ترجيح نسبة عمارة المسجد إلى عبد الملك بن مروان، وأمّا قضيّة المحراب، وكونه في الجهة الشّرقيّة، فمردّها إلى المحافظة على المحراب الذي خطّه أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب، ولم يعرف العصر الأموي تعدّد المحاريب، لأنّه لم يعرف تعدّد مذاهب أهل السّنة.

والتّشابه كبير بالنسبة لمواد العمارة والخشب والرّخام، والأعمدة، والفسيفساء، والنّقوش البديعة والزّينة، بين قبّة الصّخرة والمسجد الأقصى، فهذا ما تبرهن عليه العناصر المتبقية منه والعائدة إلى العصر الأموي، لأنّ تعديلات كبيرة قد طرأت على بناء هذا المسجد وزينته عبر العصور، ويُطلق الآن على المنطقة الحاوية للمسجد الأقصى مع قبّة الصخرة اسم الحرم القدسي، أو الحرم الشّريف، ومساحة هذا الحرم /١٤٠,٩٠٠ متراً مربّعاً/[٢].

وحظيت القدس بأعظم عناية من سليمان بن عبد الملك [٩٦ ــ ٩٩هـ/ ٧١٥ ــ ٧١٧م]، الذي كان والي أخيه الوليد على فلسطين «فأحدث مدينة الرّملة وبنى مسجدها، وأتاه نعي الوليد، وكان والي العهد بعده»[٣]، وتوجّه سليمان من الرّملة إلى القدس «وأتته الوفود بالبيعة، فلم يُر وفادة كانت أهنأ من الوفادة إليه، فكان يجلس في قبّة في صحن مسجد بيت المقدس، ممّا يلي الصّخرة، ولعلها القبّة المعروفة بقبّة سليمان [بن عبد الملك] عند باب الدّويداريّة، ويبسط البسط بين يدي قبّته، عليها النّمارق والكراسي فيجلس، ويأذن للنّاس فيجلسون على الكراسي والوسائد، وإلى جانبه الأموال وكتّاب الدّواوين، وقد همّ بالإقامة ببيت المقدس، واتّخذها منزلاً، وجمع الأموال والنّاس بها»[٤].

وحال بين سليمان وبين اتخاذه القدس عاصمة لدار الخلافة، إرساله حملة كبيرة بريّة وبحريّة، بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك، لفتح القسطنطينيّة، فاضطّر إلى مغادرة القدس والاستقرار بمرج دابق في شمالي بلاد الشّام ليُشرف بنفسه على أعمال الحملة[٥].

ويُلاحظ أنّ الأمويين اهتمّوا أيام دولتهم بالقدس، فبنوا الدّور والقصور فيها، وزادوا من عدد بركها، وأعجبتهم القدس، وفضّلوها على دمشق، لأنّ دمشق كانت موبوءة، كثيفة عدد السّكان، ولم تكن شروط السّكنى في خارجها مريحة، وبالمقابل كانت القدس مدينة متوسّطة

(١) دراسات في تاريخ وآثار فلسطين ج١/٦٦.

(٢) دراسات في تاريخ وآثار فلسطين ج١/ ٦٥ ــ ٧٢. تاريخ القدس لشفيق محمود ٢٠٠ ــ ٢١٠. القدس الإسلاميّة في أعمال برشيم ٨٣ ــ ٩٣.

(٣) أنساب الأشراف ج٨/٩٩.

(٤) الأنس الجليل ج١/ ٢٨١ ــ ٢٨٢.

(٥) تاريخ خليفة ج١/ ٤٢٣، ٤٢٥، ٤٣٢. الطّبري ج٦/ ٥٣٠ ــ ٥٥٣. العيون والحدائق ٢٤ ــ ٣٣. معجم بني أميّة ١٦٤.

الحجم «لا شديدة البرد، وليس بها حرّ، وقلما يقع بها ثلج» وبنيان أهلها «حجر لا ترى أحسن منه، ولا أتقن من بنائها، ولا أعف من أهلها، ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا أكبر من مسجدها، ولا أكثر من مشاهدها... وفيها كلّ حاذق وطبّيب، وإليها قلب كلّ لبيب، ولا تخلو كلّ يوم من غريب»، فالقدس «بلدة جمعت الدّنيا والآخرة، فمن كان من أبناء الدّنيا، وأراد الآخرة وجد [مسجدها] ومَن كان من أبناء الآخرة، فدعته نفسه إلى نعمة الدّنيا [وجد سوقها]، وأمّا طيب الهواء فإنه لا سمّ لبردها، ولا أذى لحرّها، وأمّا الحُسن فلا ترى أحسن من بنيانها، ولا أنظف منها، ولا أنزه من مسجدها، وأمّا كثرة الخيرات، فقد جمع الله تعالى فيها فواكه الأغوار، والسّهل، والجبال، والأشياء المتضادة»[١].

وكان سليمان بن عبد الملك استخلف عمر بن عبد العزيز، الذي لم يدم حكمه طويلاً، وبعد عمر بن عبد العزيز، دبّ الخلاف بين أفراد البيت الأموي، وكثرت الاضطرابات، وترافق ذلك مع الإعداد للثورة العبّاسيّة ثمّ تفجيرها وإسقاط الحكم الأموي، وكانت فلسطين مسرحاً لبعض الثورات، لكنّ ذلك لم يؤثر بشكلٍ مباشر على الأمن والاستقرار بالقدس، وفي ظلّ الدّولة الأمويّة سادت أجواء التّسامح الدّينين وظلّت القدس لها بطريركها، وصار الآن تنصيب البطريرك، بعد انتخابه من قبل الهيئات الكهنوتيّة، خاضعاً لموافقة الخليفة، وتمتعت القدس في العصر الأموي بالرّخاء والازدهار، وبحرّيّة الفكر، وفوق هذا كله بانحسار اللغة الإغريقيّة وثقافتها، لحلول العربيّة محلّها، وقد أسهم المسيحيّون السّريان العرب في هذا المجال كثيراً[٢].

المصادر والمراجع:

المصادر:

ـ ابن الأثير الجزري (أبو الحسن علي): الكامل في التّاريخ ـ القاهرة ١٣٤٨هـ.
ـ الأزدي (محمّد بن عبد الله): فتوح الشّام ـ القاهرة ١٩٧٠م.
ـ الأزرقي (أبو الوليد محمّد بن عبد الله): أخبار مكّة ـ بيروت ـ مكتبة خيّاط.
ـ ابن إسحاق (محمّد): المغازي والسّيَر ـ بيروت ١٩٧٨م.
ـ الأصفهاني (حمزة بن الحسن): تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ـ بيروت ١٩٦١م.
ـ ابن الأعثم الكوفي (أحمد): كتاب الفتوح ـ بيروت ١٩٩٢م.
ـ الأنطاكي (يحيى بن سعيد): تاريخه ـ طرابلس ١٩٩٠.
ـ البلاذري (أحمد بن يحيى): البلدان أخبارها وفتوحها ـ بيروت ١٩٩٢م.

---

(١) أحسن التقاسيم ١٦٦.

(٢) تاريخ القدس لشفيق محمود ٢١٠ ـ ٢١٤. الموسوعة الفلسطينية ـ الدّراسات الخاصّة ج٢/ ٣٢٠ ـ ٣٢٣.

ـ أنساب الأشراف ـ بيروت ١٩٩٦م.
ـ البلوي (أبو محمّد عبد الله بن محمّد): سيرة أحمد بن طولون ـ دمشق ١٤٥٨هـ.
ـ ابن تغري بردي (أبو المحاسن يوسف): النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ القاهرة ١٩٢٩م.
ـ ابن الجوزي (عبد الرحمن): تاريخ عمر بن الخطاب ـ القاهرة: من دون تاريخ.
ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ـ تحقيقي بيروت ١٩٩٥.
ـ ابن حبيش (عبد الرحمن): المغازي ـ بيروت ١٩٩٢م.
ـ الحموي (ياقوت بن عبد الله): معجم البلدان ـ بيروت ١٩٦٨م.
ـ ابن حوقل (أبو القاسم النّصيبي) صورة الأرض ـ بيروت، دار الحياة.
ـ خسرو (ناصر): سفرنامه ـ بيروت ١٩٧٠م.
ـ ابن خيّاط (خليفة):
١ ـ تاريخ خليفة بن خيّاط ـ دمشق ١٩٦٨م.
٢ ـ طبقات خليفة بن خيّاط ـ دمشق ١٩٦٧م.
ـ دحلان (أحمد بن زيني): الفتوحات الإسلاميّة ـ القاهرة ١٣٥٤هـ.
ـ الدّينوري (أبو حنيفة أحمد بن داود): الأخبار الطّوال ـ القاهرة ١٩٦٠م.
ـ الزّبيدي (مرتضى): تاج العروس ـ بيروت ١٩٩٤م.
ـ الزّهري (محمّد بن شهاب): المغازي النّبويّة ـ دمشق ١٩٨٠م.
ـ ابن سلام (أبو عبيد القاسم): كتاب الأموال ـ القاهرة (بدون تاريخ).
ـ ابن أبي شبه (عمر): تاريخ المدينة ـ المدينة ١٩٨٣م.
ـ الطّبري (محمد بن جرير): تاريخ الرّسل والملوك ـ القاهرة، دار المعارف.
ـ ابن العديم (كمال الدّين عمر بن أحمد):
١ ـ بغية الطّلب في تاريخ حلب ـ دمشق ١٩٨٨م.
٢ ـ زبدة الحلب ـ تحقيقي ـ دمشق ١٩٩٧م.
ـ ابن عساكر (علي بن الحسن): تاريخ مدينة دمشق. ط. بيروت ١٩٩٥م.
ـ العليمي (مجير الدّين الحنبلي): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ـ بيروت ١٩٧٣م.
ـ القرشي (يحيى بن آدم): كتاب الخراج ـ القاهرة (بدون تاريخ).
ـ الماوردي (أبو الحسن علي بن محمّد): الأحكام السّلطانية ـ القاهرة ١٩٦٠م.
ـ المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين):
١ ـ التنبيه والإشراف، بيروت ١٩٦٥م.
٢ ـ مروج الذّهب، القاهرة ١٩٥٨م.
ـ المقدسي (محمّد بن أحمد): أحسن التّقاسيم ـ ليدن ١٨٧٧م.
ـ المقريزي (أحمد بن علي):

١ ـ المقفى الكبير ـ نسخة مصوّرة في مكتبي لما هو موجود في تركيّا وفرنسا وهولندا.
٢ ـ الخطط، القاهرة ١٩٠٦ ـ ١٩٠٨م.
ـ ابن المقفّع (ساويرس): تاريخ بطاركة الكنيسة المصريّة، القاهرة ١٩٥٩م.
ـ المنقري (نصر بن مزاحم): صفّين ـ القاهرة ١٣٦٥هـ.
ـ ابن هشام (أبو محمّد عبد الملك): السّيرة النّبويّة ـ بيروت ١٩٩٢م.
ـ الواقدي (محمّد عمر): المغازي ـ أكسفورد ١٩٦٧م.
ـ اليعقوبي (أحمد بن واضح): تاريخ اليعقوبي ـ بيروت ١٩٦٠م.
ـ أبو يوسف القاضي (يعقوب): كتاب الخراج ـ القاهرة (بدون تاريخ).

المراجع:

أكرم (الجنرال): سيف الله خالد ـ دمشق ١٩٧٨م.
الإمبراطوريّة البيزنطيّة ـ القاهرة ١٩٦٥م.
الباز العريني (السّيّد): الدّولة البيزنطيّة ـ القاهرة ١٩٦٥م.
جامعة الدّول العربيّة: مجلة معهد المخطوطات ـ القاهرة ١٩٥٨م (المجلّد الرّابع ـ الجزء الأوّل).
حميد الله (محمّد): مجموعة الوثائق السّياسيّة للعهد النّبوي والخلافة الرّاشدة ـ بيروت ـ دار الإرشاد.
خطّاب (محمود شيث): قادة الفتح الإسلامي ـ بيروت ١٩٦٦م.
زكّار (سهيل): الموسوعة الشّاميّة في تاريخ الحروب الصّليبيّة، دمشق ١٩٩٣..

المراجع الأجنبية:

Cambridge Medieval History, vol.iv.
Cambridge ١٩٩٦-٦٧.
Eihard.
The life of Charlemagne, Michigan press ١٩٦٢.
Ostrayosky (d).
History of the Byzantine state. Oxford ١٩٦٨.
Palastine piligrims text society. London ١٨٩٣.
Le stronge (guy) Palestine under the muslim. Beirut ١٩٦٥.
Vasiliev (A) History of the Byzantine Empire. Wisconsin ١٩٦٤.

المقادسة
وآثارهم العلمية بدمشق

د. نزار أباظة(*)

منذ مئات السنين ودمشق مقصد الهجرات، تستقطب إليها أقواماً شتى من الشرق والغـرب، يـجدون فيها راحة نفوسهم، واستقرار أرواحهم. فإذا نزلوا بها نسوا بلدانهم الأولى. واتخذوها وطنهم الذي لا يبرحونه البتة.

هاجر إلى دمشق في العصر الحديث الأرمن، ونزل بها الشراكسة، وتبعهم الأرنـاؤوط، وحل فيها المغاربة، وقصدها الأكراد، وتديرها كثير من الأتراك والتركمـان والتكريـديون والفرس، حتى كان فيها نسيج عجيب من خيوط الذهب والفضة والقطن والحرير.. إنه قماش الدامسكو التي تفتخر به دمشق، أو قل فسيفساء القصور الأسطورية.

هذا غير الرحلات العابرة التي يقوم بها طلاب العلم فيقصدونها لسماع الحديث أو حضور حلقات الشيوخ. وقد تعجب أن كثيراً من الحجاج المغاربة ومنذ أيام ابن بطوطة إذا رحلـوا للحج غيروا طريقهم إليها يمرون بها وينـزلون في طريق الذهاب، ثم في طريق الإياب ثم هاجروا إليها من الجزائر مع الأمير عبد القادر الجزائري وقبله.

أما الهجرات فمن أجل الأمان الذي بدمشق، وقديماً قالوا في الأمثال الشعبية التي تتناقلهـا الأجيال «**الشام الله حاميها**». وفوق هذا فلم تكن دمشق كسائر المدن، كان لها نكهة خاصـة يحسّ بها المرء كلما توغل في أعماق دروبها الأنيسة، وانسرب بين أزقتها الحانيـة، فيـشم عبق التاريخ الذي ما زال ينبعث من تراب الحاضر.

(*) باحث سوري.

في ذات يوم من أيام سنة ٥٥١ هجرية/١١٥٦ ميلادية، وفي عهد السلطان المجاهد العادل نور الدين محمود بن زنكي[١] (ــ ٥٦٩هـ/١١٧٤م) أخذت تتهادى على حدود دمشق الجنوبية قافلة تحمل مسافرين متعبين مؤرقين، نحال الجسوم، سمر البشرة جاؤوا من فلسطين، من الأرض المقدسة، بعد أن خرجوا من جهات نابلس، وبعد سفر متعب محفوف بالمخاطر دام ثمانية أيام طوال. دخلوا من باب الجابية فأحسوا بالأمان حين ضمهم سور دمشق، فحطوا رحالهم في أول فسحة، وافترشوا الأرض بعدما سجدوا لله شكراً على النجاة من العدو الذي كان يتهددهم في قراهم ومدنهم، ويلاحقهم في الطريق.

كانوا يمشون بالليل لئلا تراهم العيون الشريرة، ويمكثون بالنهار في أماكن آمنه.. قطعوا نهر الشريعة (نهر الأردن) على خوف من الفرنجة ومن اللصوص قطاع الطرق، وكادوا يقعون فريسة لهؤلاء وهؤلاء. فنجاهم الله.

كانوا خمساً وثلاثين نفساً ذكوراً وإناثاً كباراً وأطفالاً في أول دفعة، ثم لحق بهم آخرون بالمئات، جاؤوا من قرى مختلفة من حول نابلس، قرى جيت ومردا ودير اصطيا وجمّاعيل وقيرة وياسوف ودير عوريف وغيرها.

كان فرحهم عظيماً بوصولهم إلى بلدة نور الدين الذي أخذ الفرنجةُ المحتلون يهابونه ويحسبون حسابه؛ إذ أوقع فيهم وقائع مؤلمة في غزواته الموفقة بعد أن وحّد بلاد الشام، وهددهم في الأرض التي نزلوها من فلسطين، وهو إذ علم بالمهاجرين فقد أكرم وفادتهم وقرّبهم.

بحث أمير القافلة الأول الشيخ أحمد بن محمد بن قدامة الجمّاعيلي عن مسكن لجماعته، فلم يجده إلا في مسجد أبي صالح بالباب الشرقي، فنزلوا فيه، ويبدو أن اختياره لهذا المسجد لأنّ بانيه أبا صالح مفلح بن عبد الله (ــ ٥٣٠هـ/١١٣٥م)كان حنبلياً، وهو صوفي، صالح، ساح في جبل لبنان لمعرفة أحوال الزهاد المنقطعين فيه، وقف مسجده على الحنابلة من أمثالهم، فنزول جماعته به كان من حقهم، ولكن الجوّ الرطب في تلك المنطقة لم يناسبهم، ولم تناسبهم الظروف المحيطة، ربما لقلّة التغذية وسوء الحال، فمات خلال السنوات الثلاث التي مكثوا فيها هناك نحو من ٢٨ نفساً، كثير منهم من الصغار.

---

(١) نور الدين محمود بن زنكي، الملك العادل، ملك الشام والجزيرة ومصر وبعض بلاد المغرب وجانباً من اليمن، أعدل ملوك زمانه وأجلهم وأفضلهم، وخطب له بالحرمين، كان معتنياً بمصالح الرعية، مداوماً على الجهاد يباشر القتال بنفسه، موفقاً في حروبه ضد الصليبيين أيام زحفهم على بلاد الشام، حصّن قلاع الشام، وبنى الأسوار على مدنها، وأنشأ مدارس كثيرة، وعمّر الخانات في الطرق وكان يكرم العلماء، ويصل إليه من الرعية من يشاء. وأمن الناس في زمانه. مات في دمشق بعلة الخوانيق وقبره بها.

واتفق أن كان بالقرب منهم جماعة من المُجّان، يشربون الخمور، ويتعاطون المعاصي، فجعل هؤلاء المقادسة ينكرون عليهم، ويأمرونهم بالمعروف، فدخل بينهم وبين الجماعة شر عظيم، وضايقوهم، فقرروا الرحيل إلى منطقة أخرى توافقهم.

وزاد في رغبتهم بالرحيل مناكدة بني الحنبلي ومتولي الأوقاف على المسجد الذي خاف أن ينازعه هؤلاء المقادسة الحنابلة، وشرط الواقف أن يتولاه حنبلي، وعندئذ يضيع الوقف من يده، فجعل يضايقهم، بل جاء إلى المسجد مع جماعة فضربوهم، وأهانوهم. فبلغ خبرهم السلطان نور الدين، فغضب لهم ونزع الوقف من المتولي، وجعله إليهم.. ولكن الشيخ أحمد ابن قدامة المقدسي انزعج، وقال لمن معه: «ما هاجرنا لننافس الناس على دنياهم، ولا نريدها».

كان الشيخ أحمد عالماً زاهداً، وكان خطيب قرية جمّاعيل من قرى نابلس، أزعج الفرنجة بخطبه التي كانت تستقطب أهالي القرى المجاورة؛ يثير حماسهم ضد الاحتلال، ويقوي عزائمهم، فقرروا قتله للتخلص منه، وحاصروه، فلما رأى الشر منهم رحل فراراً بدينه.. كان على أخلاق الأنبياء، قرأ مرة في شهر رمضان ٦٥ ختمة، وكان السلطان نور الدين يأتي لزيارته، ويأنس بمجالسته.(١)

أخذ الشيخ أحمد يبحث عن مكان مناسب فوجده في سفح قاسيون بمحلة الصالحية اليوم، وكان مأوى للصوص وقطاع الطرق، معرضاً للذئاب والسباع، فعمروا فيه غرفهم، واستقروا. ودعي هذا المكان «دير الحنابلة».

ثم تتابع البناء من حولهم، ورغب الزنكيون والأيوبيون وخواتينهم(٢) بإعماره، فبنوا المدارس والمساجد والزوايا والبيمارستانات.. وازدهر العمران(٣).

وتابع نور الدين أخبارهم، فكان يزورهم ويهدي إليهم الهدايا، ثم أقبل عليهم الناس يصنعون صنعه لما عرفوا قدرهم ومكانتهم في العلم والصلاح، وأطلقوا اسم «الصالحية»

---

(١) انظر كتاب دمشق لعلي الطنطاوي ص ١٤٥ ففيه حديث مفصّل عنه.

(٢) مفردها خاتون: لفظ فارسي تركي دخل العربية مع المغول يطلق على سيدات الطبقة الأولى من ذاك العصر؛ انظر معجم المصطلحات والألقاب التاريخية لمصطفى الخطيب ص ١٥٥ د.م، د.ن، د.ت

(٣) تتبع ابن طولون الصالحي (ــ ٩٥٣هـ/١٥٤٦م) كل أبنية الصالحية وذكرها، ووصفها في كتابه «القلائد الجزهرية في تاريخ الصالحية» فأوفى على الموضوع في جزأين كبيرين. وقد زار ابن بطوطة الصالحية عام ٧٢٦هـ/١٣٢٥م وكانت مدينة مستقلة، منفصلة عن دمشق، فقال: هي مدينة عظيمة، لها سوق لا نظير لحسنه، وفيها مسجد جامع (هو الجامع المظفري) ومارستان. (رحلة ابن بطوطة ٥٨/١، طبعة مطبعة وادي النيل). وقال عنها القلقشندي : مدينة الصالحية ممتدة من سفح الجبل، تشرف على دمشق وضواحيها، ذات بيوت ومدارس وربط وأسواق. (صبح الأعشى ٩٤/٤.)

على السفح الذي سكنوه، وصارت نسبتهم إليها بالإضافة إلى نسبتهم إلى بيت المقدس وقراه، فيقال: فلان الجمَّاعيلي المقدسي الصالحي، أو المرداوي المقدسي الصالحي..

ولم يلبث بعد سنوات قليلة أن مات الشيخ أحمد سنة (٥٥٨هـ/١١٦٢م) فتولى رئاسة المقادسة ابنه أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة، فقام بأمر الجماعة ونهض بها، وحمل رسالة العلم والجهاد في آن معاً. كان على قدم راسخة في العلم، سمع الحديث الكثير في مصر والشام على كبار علمائهما، وتضلع من الفقه الحنبلي، كما كان على زهد وأخلاق عالية، عابداً متبتلاً، يشتغل بقضاء حوائج الناس، ويؤثرهم على نفسه، ويتفقد الفقراء، وربما تصدق ببعض ثيابه، ويبقى معوزاً، أو يفرق لباسه الجديد ويرتدي الخشن الخلق، وكان فضله يعمّ جيرانه كأنهم أهله المقربون. وكان أبو عمر كلما سمع بجهاد ضد الفرنجة خرج فيه مع السلطان نور الدين أو مع غيره.

وكان أبو عمر يهتم بالكتب، ونسخ منها الكثير بخطه الحسن، ومنها الأسفار الضخام.. وربما كتب في اليوم الواحد كراسين (٤٠ صحيفة) بالقطع الكبير مع كثرة أشغاله. وكان يكتب لأهله المصاحف وللناس كتاب الخِرَقي في فقه الحنابلة بغير أجر.

مات أبو عمر عام ٦٠٧هـ /١٢١٠م بعد أن أسس مدرسة من أعظم المدارس وأكبر مسجد في السفح هو جامع الحنابلة(١)، وخلف أسرة اهتمت بالعلم حديثاً وفقهاً وقرآناً وخرج منها مئات العلماء على مدى أجيال بعده، كلهم ينتسب إليه.. وطلاباً اعترفوا بفضله، ليتسلم الراية هذا الجيل المملوء بالإيمان.

المدرسة العمرية

وكان من أهم أعمال أبي عمر إنشاؤه المدرسة العمرية بالصالحية التي بدأ ببنائها سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م تقريباً، بدأت صغيرة لفقره، بسيطة العمران. ثم توسعت على نحو غير متوقع. وقد كان فيها أقسام متعددة لتحفيظ القرآن الكريم وعلومه، ورواية الحديث الشريف وعلومه أيضاً، وتعليم الفقه على المذهب الحنبلي أولاً، ثم على المذاهب الأربعة.

وذاع صيت العمرية بأساتذتها الكبار، فرحل إليها الطلاب راغبين، فقامت على إشغالهم بكل العلوم الإسلامية والعربية بدأب لا ينقطع، حتى قالوا: إنها لم تكن تخلو من حلقة علم، ومجلس مدارسة للقرآن، واجتماع على رواية الحديث لا في ليل ولانهار، ولذلك كانت جليلة

(١) ويسمى هذا المسجد الجامع المظفري نسبة إلى الملك المعظم مظفر الدين كوكبُري (ـ ٦٣٠هـ/١٢٣٣م) أمير إربل زوج أخت صلاح الدين الأيوبي .قاتل الفرنجة بالشام وكان له أشغال بالحديث (الأعلام ٥/٢٣٧). بدأ العمل به أبو عمر المقدسي حتى بلغ فيه مقدار قامة الرجل فعجز عن إكماله لضعف الإمكانات، فأقامه الأمير المذكور فنسب إليه، ويسمى جامع الجبل أيضاً وجامع الحنابلة، وجامع الصالحية.

الحرمة عند الناس وعند الحكام والأمراء. وكان لا يُقبل فيها طالب إلا بشفاعة، لكنه يخرج منها إذا أذنب وأساء.

قال علي الطنطاوي[١] في وصفها: «أما المدرسة العمرية فلا بد من أن أقف عليها وقفة، فإنها تستحق الوقوف، فلقد كانت تسمى «المدرسة الشيخة» أي الجامعة، وكانت جامعة حقاً، وكان فيها – على الرغم من أنها مدرسة حنبلية، ورغم العصبية المذهبية التي كانت للعوام ــ كان فيها أقسام (كليات) للمذاهب الأربعة يتولاها جلّة علمائها، وكان فيها كلية للقرآن وقراءاته وعلومه، وقسم خاص ــ وهذا من أعجب ما رأيت من عبقرية هذه الأسرة (بني قدامة) وسبق زمانها ــ قسم للمكفوفين (مدرسة للعميان) وقسم الأطفال (روضة أطفال).. وأعجب من هذا أن الدروس والتلاوات كانت تستمر فيها طيلة الليل والنهار، حتى إن الأمير منجك[٢] بعث من يراقبها، فلم يرها فترت من درس أو ذكر أو تلاوة، ولا ساعة من الأربع والعشرين ساعة، وكان فيها عدة خزائن، فيها نفائس الكتب»[٣].

وقال الطنطاوي أيضاً: «وكل هذا الجيش من الطلاب يأكل وينام في المدرسة، فكان يوزَّع كل يوم ألف رغيف، ويُطبخ للجميع، وتقدَّم لهم الفواكه والحلوى. ومعهم جيش من الموظفين، لهم رواتب وسجلات، وللطلاب سجلات تفقد، وكان لشيخها (مديرها) رتبة عالية، تعدل رتبة مدير الجامعة في هذه الأيام.. وكان ذلك كله في العصر الذي نسميه عصر الظلام»[٤].

أقام أبو عمر مدرسته، وكان موضعها مَقْصَبة[٥] على نهر يزيد[٦] وتألفت أول الأمر من مسجد وعشر غرف، ثم زاد عليها بعض الواقفين غرفاً أخرى، ما زالت تزيد مع الأيام

---

(١) علي الطنطاوي: أديب خطيب عالم موسوعي الثقافة، ولد بدمشق وتعلم بها، وقرأ على علمائها وتفقه بهم، ونال إجازة الحقوق، عمل بالصحافة والتعليم ثم بالقضاء، رحل إلى السعودية فكان أستاذاً في جامعاتها، وقام بالدعوة فيها، توفي في جدة سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

(٢) الأمير منجك: أمير، داهية، كان حاجب دمشق،وولي الوزارة بمصر مراراً، وناب في طرابلس بالقضاء، وولي حلب كذلك، ومات بمصر سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م. (الزركلي ٧/٢٩١) أقول: وبهذا الخبر نرى أن المدرسة كانت عامرة لزمنه منتصف القرن الثامن الهجري/منتصف الرابع عشر الميلادي، لم تتطرق إليها الحوادث

(٣) دمشق: صور من جمالها، عبر من نضالها، ص ١٥١.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المقصبة: الأرض التي يكثر فيها نبات القصب. وقد عرفت الصالحية مهنة صنع السلال والأخصاص من القصب التي تنبت بكثرة على فرعي بردى في الصالحية؛ يزيد وثورا.

(٦) نهر يزيد: باسم الخليفة الأموي الثاني يزيد بن معاوية (ــ ٦٤هـ/٦٨٣م) الذي أمر بحفر هذا الفرع المارّ في الصالحية لسقاية الأراضي العالية من سفح قاسيون.

وتتسع لما رأى الناس خيرها ورغبوا في المساعدة على الصدقات الجارية، حتى بلغت غرفها ٣٦٠ خلوة صغيرة وكبيرة.

وجميع علماء المقادسة الذين جاؤوا مع الشيخ أحمد بن محمد بن قدامة وابنه أبي عمر محمد بن أحمد والذين وفدوا إلى دمشق من بعدهم من أقاربهم ومعارفهم أقرؤوا في هذه المدرسة، فأقرا فيها إلى جانب شيخها أبي عمر أخوه الموفق، وصهره الحافظ تقي الدين عبدالغني المقدسي وأخوه إبراهيم المقدسي، ومحمد بن خلف بن راجح، صهره الآخر، وعبد الواحد بن أحمد زوج أخته، وكذلك أبناء عمه وكثير من علماء المقادسة(١).

وقد زادت حلقات المدرسة في أيام ازدهارها على خمسين حلقة تعقد في وقت واحد، في خلاويها وزواياها وأرجائها وإيوانها ومسجدها.. أي خمسين حصة دراسية معاً في الساعة الواحدة.

كانت العمرية هي المدرسة العظمى في بلاد الشام، وكان مدرسوها من أعاظم أهل العلم. وما من حنبلي عاش في دمشق وما حولها، أو في فلسطين إلا وأخذ منها علماً، حتى كانت الرحلة إليها مما يتنافس فيه طلاب العلم. إليها رحل الحافظ الكبير ابن حجر العسقلاني صاحب فتح الباري، وابن فهد، والسخاوي، وغيرهم. ومن علماء دمشق أخذ فيها الحافظ الذهبي، وابن الجزري، والحافظ المزي، وابن ناصر الدين، وابن تيمية وغيرهم.. وهؤلاء غدوا من كبار العلماء المشار إليهم.

وهكذا ازدحم على المدرسة الدارسون والعلماء حتى كان النازلون بها من شيوخ وطلاب وقراء وأيتام ربما بلغوا ألف نفس أو ما يقارب ذلك في وقت واحد. ونستطيع القول: إن أكثر سكان الصالحية على مدى القرون الماضية قد تعلموا فيها، غير من قصدها من الغرباء.

وكان لا يقبل فيها من الطلاب إلا من اتصف بصفات معينة، وكان قابلاً للخضوع إلى نظام المدرسة، يتأدب بآدابها، ولذلك نبغ الكثير من طلابها واشتهروا بالعلم والأخلاق وصاروا شيوخاً مقصودين.

ولم يكن طلاب المدرسة من الذكور فقط، وإنما حضر فيها الإناث لسماع أجزاء الحديث أو قراءة كتب الفقه..خصوصاً إذا سمعوا بأن شيخاً مسنداً ورد إليها.. ولكنهن لم يكن من المقيمات فيها.

على أن عدداً كبيراً من شيوخها عُرفوا بتصانيفهم في مختلف العلوم الإسلامية التي انتشرت في البلاد، وصارت مصادر يعتمد عليها ويرجع إليها.

---

(١) أتى ابن طولون الصالحي في كتابه «القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية» على ذكر علماء الصالحية، وعرّف بهم على طريق الاستقصاء، فليرجع إليه من أحب وذكرهم هنا يطول.

وفي منتصف القرن التاسع الهجري/ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي بدأ فيها تدريس الفقه الشافعي، ثم دخل فقه سائر المذاهب، وكان لكل مذهب حلقته التي يتولى التعليم فيها أحد كبار العلماء.

هذا وكانت المدرسة في الأساس وقفاً على تعليم القرآن الكريم والفقه الحنبلي وكان أبو عمر هو المشرف عليها، فلما توفي أشرف عليها شيوخ الإقراء والحفاظ والقراء وجامعو القراءات من أهله وتلاميذه المقادسة خصوصاً وغيرهم عموماً. ثم صارت جامعة لكل تخصصات العلوم الإسلامية والعربية.

وعيّن من أجل الأطفال شيوخ مختصون بهم يعلمونهم، يسمون شيوخ التلقين، ولهم وقف خاص بهم، كما وقف وقف آخر لتحفيظ المكفوفين والعناية بشؤونهم.

ويَحْسُب هنا في معرض الحديث عن ازدهار المدرسة الإشارة إلى أوقافها التي لولاها لم تستمر، فقد أخذ المحسنون منذ زمن منشئها حتى قرون من بعده يقفون عليها الأوقاف الدارّة، وقلما كانت تنقضي سنة لا يستحدث فيها وقف جديد حتى القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي، وكانت الأوقاف تقدم للنازلين في المدرسة من جميع أصنافهم شيوخاً وطلاباً كبارٌ وصغاراً، فكان المتولون يصرفون في أيام ازدهارها ألف رغيف كل يوم، ولحوماً وأطعمة متنوعة وحلويات وعسلاً في كل يوم كذلك، غير ما يزاد عليها في أيام الأعياد والمواسم. وتقدم كذلك ألبسة صيفية وأخرى شتوية.. هذا غير الجرايات الشهرية التي تدفع لأصحابها من مستحقيها.

وفي الوقف مخصصات لختان أبناء الفقراء والأيتام، ومخصصات أخرى لتسخين الماء، يقدم لمن وجب عليه الغسل من المقيمين فيها.. ثم صار ذلك مباحاً للجيران.

ولها وقف لحلوى في موسم رجب، وحلوى في نصف شعبان، ووقف زبيب وقضامة كل ليلة جمعة يُفَرَّق على النزلاء، وكعك ومشبك بعسل ليلة العشرين من رمضان، يستمر حتى آخر ليلة سبع وعشرين، وكنافة ليلة العشر الأول منه، ولها وقف لحُصُر المجاورين، وصابون وأباريق للوضوء، ووقف لزيت القنديل، يشعل طول الليل في المقصورة.

ومرّ آنفاً أن في المدرسة نفائس المخطوطات، وقد بدأت بكتب أبي عمر مؤسس المدرسة؛ إذ كان كما قلنا يكتب بخطه الكتب ويقدمها للطلبة.. ثم أخذ العلماء يقفون عليها كثيراً من كتبهم ومؤلفاتهم وأجزائهم الحديثة، وقيل إنه كان بها مصحف بخط الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وتطورت المكتبة بعدئذ وكبرت، حتى كان لكل علم من العلوم خزانة خاصة به، يشرف عليها عالم متخصص بذلك العلم.. وحتى بلغ عدد ما فيها في القرن الثاني عشر نحو ألف مجلدة، وهذا عدد كبير بالنسبة لذلك الوقت، وهو غير ما كان بين أيدي الطلاب من كتب

خاصة بهم، وما كانوا ينسخونه لأنفسهم. وهذه الفترة المشار إليها فترة تراجع للمدرسة؛ إذ كان عدد كتبها أضعاف ذلك في فترة ازدهارها، قال الشيخ محمد دهمان: «تعد المكتبة العمرية من أهم مكتبات دمشق وغيرها من مكتبات البلاد الإسلامية؛ فقد اجتمع فيها أهم الكتب الإسلامية، وكان كثير ممن يدرس أو يتعلم أو يؤلف كتاباً فيها يوقفه في هذه المدرسة، حتى اجتمعت فيها ألوف الكتب التي قلما يخلو كتاب فيها من إجازات وسماعات بخطوط العلماء، مما يجعل لها قيمة علمية وأثرية.»[١]

وزاد في أهميتها أن المدرسة الضيائية التي أنشأها الضياء المقدسي مؤلف كتاب «الأحاديث المختارة» كان لها مكتبة هي أعظم وأهم مكتبة في دمشق، ضمت إليها. فقد جاب الضياء المقدسي أقطار العراق وبلاد العجم والقطر المصري، وانتقى أحاسن الكتب وأجودها، فكان إذا رأى ما أعجبه لم يفلته من يده، ويبذل كل جهده للحصول عليه أكان بالاستهداء أم بالشراء أم بالنسخ، حتى اجتمع له ما لم يجتمع لغيره، وأوقف هذه الكتب على مدرسته التي أنشأها بسفح قاسيون، فكان مما فيها أوراق بخطوط الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وكان فيها توراة وإنجيل قديمان بالخط العبري والسرياني والإسطرنجيلي على ورق غزال[٢].

المدرسة الضيائية

ومن الأعلام الذين كان لهم شأنهم من المقادسة بدمشق ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي، عالم محدث مؤرخ، ولد بدمشق سنة ٥٦٧هـ /١١٧٢م لأسرة مجاهدة وتوفي بها عام ٦٤٣هـ /١٢٤٥م.

سمع الضياء بمكة وعسقلان وغيرهما. ورحل في طلب العلم والحديث إلى بغداد ومصر وفارس، فروى عن أكثر من ٥٠٠ شيخ وشيخة. وكان الضياء عالماً زاهداً. لزم التدريس والإملاء على الطلبة، وأكب على التصنيف والنسخ، واشترك مع أهله في جهاد الصليبيين مع السلطان صلاح الدين، وكانوا في جهادهم لا يتركون طلب العلم، ولا قيام الليل ولا التضحية بالنفس والمال.

وكان هو يقتنع باليسير، ويجتهد في فعل الخير ونشر السنة، كما كان كثير المبرات والمواساة، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهو إلى ذلك محبوب من الموافق والمخالف.

---

(١) ذكر ذلك الشيخ محمد أحمد دهمان في مقدمة تحقيقه لكتاب "القلائد الجوهرية"، قال: وما تزال بعض أوراقها محفوظة في دار الكتب الظاهرية بدمشق.

(٢) المرجع السابق.

قال المزي: لم يكن في وقته مثله، فيه نزاهة وعفة وصدق لسان وحسن حديث، وأخذ عنه ابن كثير المؤرخ الدمشقي المشهور.

بنى الضياء في الصالحية دار الحديث الضيائية المحمدية، ويقال لها دار السنة، وكانت شرقي الجامع المظفري (جامع الحنابلة اليوم)، لم يمنعه عن إنشائها فقره وضعف حاله، فكان يبني منها جانباً،ويصبر إلى أن يجتمع معه ما يبني به قسماً آخر، ويشتغل بنفسه في أعمال البناء وقد أعانه لصدق توجهه بعض أهل الخير حتى اكتملت.

اشتملت مدرسته على مسجد وغرف علوية وسفلية ومرافق. ووضع فيها أحسن الكتب التي حصلها في أسفاره والتي نسخها بخطه. وكان من أعظم مؤلفاته كتابه «الأحاديث المختارة» تسعون جزءاً، ولم يكمل، و«الأحكام» في الحديث، ولم يتمه، و «فضائل الأعمال»، و «فضائل الشام» أربعة أجزاء، و«فضائل القرآن»، و«مناقب أصحاب الحديث» أربعة أجزاء أيضاً، و«سبب هجرة المقادسة إلى دمشق» ويسمى كذلك «سير المقادسة» في عشرة أجزاء، و «مناقب جعفر بن أبي طالب» (١٥) وقد أعانه على تزويدها بالكتب جماعة من أهل الخير.

وإذا كانت العمرية مدرسة عامة، فإن الضيائية مدرسة مخصصة للحديث، جعلها للمحدثين والغرباء والواردين ولطلاب الحديث. وقد كان عليها أوقاف، غالب دكاكين السوق الفوقاني بالصالحية، وحوانيت، وبستان في النيرب، وأرض في قرية سقبا بالغوطة، وغير ذلك.

أقرأ بالضيائية كبار العلماء المقادسة وغيرهم، ومن الأولون ابن كمال المقدسي (ـ٦٨٨هـ/١٢٨٩م)، ومحمد بن إبراهيم المقدسي (ـ ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧ م) ومحمد بن إبراهيم المرداوي (ـ ٨٢٦هـ/١٤٢٢م)، وآخرون.

دار الحديث النظامية

أنشأها في الصالحية إلى شرقها أبو حفص نظام الدين عمر بن إبراهيم بن محمد بن مفلح الراميني المقدسي المتوفى سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م تولى القضاء بدمشق والقاهرة، وحدَّث بمصر والشام وبيت المقدس وغيرها، واستقل بقضاء غزة سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م وهو أول حنبلي ولي قضاءها، كما استقل أيضاً بقضاء الشام سنة ٨٣٣هـ/١٤٢٩م، ثم انقطع إلى التدريس. قال السخاوي: أخذ عنه الفضلاء والأئمة. وفي هذه المدرسة مكتب (كتّاب) للأيتام،

---

(١) انظر الأعلام ٢٥٥/٦ و "دور الكتب العامة" للعش ص٢٤٤، ويذكر الأخير قائمة بالكتب التي آلت إلى دار الكتب الظاهرية من الضيائية، كما يذكر كتاب "المدرسة العمرية" لمحمد مطيع الحافظ قائمة بالكتب التي حفظت بالظاهرية من العمرية.

ورواق للنساء، وفيها مرافق. تولى مشيختها الراميني نفسه، ثم وليها القاضي علاء الدين علي بن البهاء البغدادي الحنبلي.

هذه أهم المدارس التي أنشأها الحنابلة المقادسة بأنفسهم، أما بقية المدارس التي عمرت بالجبل وهي كثيرة جداً فقد قامت بسببهم، فما شجع الآخرين إلى كلّ بناء أشادوه إلا وجودهم وسبقهم، ولئن قاموا هم بعقد حلقات العلم والإشراف المباشر على دور العلم فإنّ علماء آخرين قصدوا الصالحية وحذوا حذوهم وعملوا على اتباع سننهم.

ثم تتالت الأيام وجاءت أحداث أتت على تلك النهضة شيئاً فشيئاً فتقلصت المدارس، ونُهبت أوقافها وسُرق الكثير من مخطوطاتها واعتدي على أبنيتها، فاقتطع منها معظمها، فلم يأت القرن الرابع عشر الهجري حتى أقفرت من طلابها ومدرسيها ولم يبق منها إلا أطلال دارسة، يحاول بعض الآثاريين والمعماريين اليوم إحياء ما يمكن من خرابها الداثر.

وبعد هذا الاستعراض السريع لما أحدثه المقادسة في دمشق عموماً وفي الصالحية خصوصاً نخلص إلى عدد من الاستنتاجات الهامة، نوجزها فيما يأتي:

١ ـ لم يحدث لجماعة مغتربة عن بلدها أن أقامت حضارة وعلى هذا النحو من الرقي، اللهم إلا ما أحدثه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في المدينة المنورة، وهؤلاء على هديه وسننه؛ قال الشيخ محمد أحمد دهمان[١]: «وإن المرء ليعجب حين تغدو الصالحية مدينة عظيمة في نحو ثلث قرن؛ وهذا يرجع إلى أمرين؛ رقي الجماعة المهاجرة، ورقي الحكومة التي كانت في ذلك العصر؛ فقد شاهدنا في عصرنا هذا عدة هجرات إلى دمشق، لم تؤثر فيها أي أثر يستحق الذكر؛ فكانت هجرة الأكراد ثم الكريدين إلى الصالحية والألبان والشركس والأرمن، والحجازيين أهل المدينة المنورة إلى دمشق، وكل هؤلاء لم يؤثروا أي أثر في تاريخ دمشق، أو عمرانها، أو حياتها الاجتماعية».[٢]

٢ ـ من استقراء تراجم المقادسة[٣] وسيرهم نرى أنهم تولوا وظائف كالقضاء وقضاء القضاة، وتداخلوا في الحكم والسياسة.

---

(١) محمد أحمد دهمان: مؤرخ محقق، ولد بدمشق، وتوفي بها عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م وقرأ على والده وغيره، وتعلق بعلم التاريخ، وتخصص بالعصرين المملوكي والعثماني، وعني بآثار دمشق. وله تحقيقات في الكتب المتعلقة بهما. انظر لتعليقه هذا مقدمة القلائد الجوهرية بتحقيقه، إذ أحدث بعض وافديه حركة علمية مثل الأمير عبد القادر الجزائري والشيخ طاهر الجزائري وبعض علماء الأرناؤوط.. وغيرهم

(٢) مقدمة القلائد الجوهرية.

(٣) انظر القلائد الجوهرية.

٣ ـ لم تقتصر حياتهم على العلم وإنما قرنوه بالجهاد حين اللزوم، مع التمسك بالعبادة والأخلاق المستقيمة.

٤ ـ لم تنحصر علومهم في الجبل، بل كانت لهم حلقات في الجامع الأموي، من أشهرها حلقة يوم الثلاثاء، يُدَرِّس بها الفقه الحنبلي كبارهم، مثل ابن رجب (٧٩٥هـ/١٣٩٢م) صاحب كتاب شرح العلوم والحكم وغيره، وركزوا لهم محراباً رسمياً في الجامع الأموي.

٥ ـ استطاعوا نشر المذهب الحنبلي بعد أن لم يكن معروفاً في غير قراهم، فكثر أتباعه في دومة والرحيبة والضمير شمال دمشق، كما نشروه في مدينة بعلبك بالبقاع، وأسسوا فيها مدارس لهم، وما زال فيها مسجد يعرف بمسجد الحنابلة. ثم انتقل المذهب على أيديهم إلى نجد في جزيرة العرب منذ أكثر من مئة وخمسين عاماً.

٦ ـ أنشؤوا خزائن كتب ضمت النوادر والنفائس، وكانت مقصد الطلاب وأهل العلم. وشجعوا على تزويدها بالمفيد من الكتب بعد أن وقفوا كتبهم فيها، فسارع أهل الخير فساقوا إليها كتباً أخرى.

٧ ـ ألفوا كتباً في الفقه الحنبلي صارت عمدة المذهب، وبقيت كذلك إلى يومنا هذا.

٨ ـ أثْرَوا علم الحديث، وبقوا نحو مئة عام يُعَدُّون من كبار علماء الحديث. وانتشرت لعهدهم دور الحديث في الصالحية ودمشق. وكان من مشاهيرهم الحافظ ضياء الدين المقدسي، الذي فضل كتابه «المختارة» على مستدرك الحاكم. وقد عدّ ابن طولون في القلائد الجوهرية مئات من المحدثين والمقرئين والحفاظ والقضاة المقادسة انقطعوا للعلم.

٩ ـ أثّروا في نهضة المرأة نهضة علمية، فأحضروهنَّ مجالس الإقراء والتحديث والإملاء والسماع منذ طفولتهن، فنشأت بناتهم على العلم، وقامت حركة ثقافية نسائية جلّ عالماتها من الحنابلة، منهن على سبيل المثال عائشة بنت محمد بن عبد الهادي المقدسي (ـ ٨١٦هـ/١٤١٣م) سيدة المحدثين في عصرها، روى عنها الحافظ ابن حجر العسقلاني، وقرأ عليها كتباً عديدة، ونزل المحدثون بموتها درجة في جميع الآفاق، وانفردت في آخر عمرها بعلم الحديث. وعائشة بنت عيسى بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة (ـ ٦٩٧هـ/١٢٩٨م) مسندة عابدة اشتهرت بعلم الحديث، وفاطمة بنت محمد بن أحمد المقدسي (ـ ٨٠١هـ / ١٣٩٨ م) محدثة مسندة أيضاً، وهي شيخة ابن حجر العسقلاني. وحتى لقبت بعض عالماتهم بست العلماء، وست القضاة، وست الفقهاء، وست العمائم لفضلهن وشهرتهن.

هذه نبذة سريعة عن المقادسة وأثرهم في دمشق، وتحتها تفصيلات كثيرة تناولها بالحديث الباحثون، مما لا يتسع له المقام في هذا المقال؛ إذ لكل مقام مقال.

أهم المصادر والمراجع:

ـ إتمام الإعلام ـ نـزار أباظة ومحمد رياض المالح ـ دمشق، دار الفكر ـ بيروت، دار صادر ط٢ ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م
ـ الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ بيروت، دار العلم للملايين، ط ٩ ـ ١٩٩٠م
ـ خطط دمشق من سنة ٤٠٠ ـ ١٤٠٠هـ ـ أكرم حسن العلبي ـ دمشق، دار الطباع ـ ١٤١٠هـ/١٩٨٩م
ـ دمشق: صور من جمالها، وعبر من نضالها ـ علي الطنطاوي ـ جدة، دار المنارة، ط٥ ٢٠٠٧م
ـ دور الكتب العامة وشبه العامة في العراق والشام ومصر ـ يوسف العش ترجمة نزار أباظة ومحمد صباغ ـ دمشق، دار الفكر، ١٤١١هـ /١٩٩١م.
ـ في رحاب دمشق ـ محمد أحمد دهمان ـ دمشق، دار الفكر، ١٩٨٢
ـ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ـ محمد بن طولون الصالحي ـ تحقيق محمد أحمد دهمان ـ دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.
ـ المدرسة العمرية بدمشق وفضائل مؤسسها ـ أبي عمر محمد بن أحمد المقدسي الصالحي ـ محمد مطيع الحافظ ـ دمشق، دار الفكر، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

القدس الشريف
في الماضي والحاضر والمستقبل

د. وهبة مصطفى الزحيلي

بسم الله الرحمن الرحيم

من أفضل ما تمخض عنه الفكر الإسلامي والعربي القرار الصادر من المنظمة العربية للتربية والعلوم (ألكسو - تونس) التابعة للجامعة العربية: اعتبار (القدس) عاصمة الثقافة العربية لعام ٢٠٠٩، وهذا أقل الواجب، لأن القدس الشريف كانت وما زالت بعلمائها وخطبائها ومكتباتها ورجالاتها المشاهير في العلوم الإسلامية تغص بعشرات الأعلام في العلوم الإسلامية والعربية من مؤرخين ومفسرين ومحدثين وفقهاء وأدباء ولغويين وشعراء، وغيرهم، ومن أشهرهم المقادسة الفقهاء كابن قدامة الحنبلي موفق الدين وغيره.

فجدير بنا أن تحتل احتفالية القدس للثقافة العربية منزلة عليا في القلوب وتظل حافزاً قوياً وراسخاً للحفاظ على عروبة هذا البلد الشريف.

وسميّ مسجدها في الماضي (المسجد الأقصى) لبعده عن مسجد مكة (البيت الحرام) مسافة أو زمناً، أو لكونه لا مسجد وراءه، أو لأنه أقصى موضع من الأرض ارتفاقاً وقرباً

إلى السماء، وسيظل أهل القدس المؤمنون والمؤمنات هم حماة هذا البلد الطاهر، ولو في ظل الاحتلال الغاشم والاستعمار الاستيطاني لحماية وحراسة مصالح دول الغرب الحاقدة والمتسلطة والكارهة في سويداء قلوبها للعرب والمسلمين، وجعل الكيان الصهيوني منذ بدء النشأة أداة لتنفيذ المخططات الاستعمارية في قلب المنطقة العربية. وسنحرر بمشيئة الله القدس وسائر فلسطين كما حررها القائد البطل صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ - ٥٨٩ هـ) / (١١٣٧ - ١١٩٣م) في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ (يوليو) تموز ١١٨٧م.

إن القدس عاصمة فلسطين الجريحة والمحتلة من الصهاينة الأوغاد ستظل ذات صفة دينية في المفهوم الإيماني الإسلامي والعربي، مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة، لأنها قبلة الأمم الماضية المؤمنة، ولأنها أولى القبلتين في العهد الإسلامي الأول، وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى النبي ﷺ ومعراجه، فالقدس وسائر أرجاء فلسطين أرض مباركة وجزء أساسي من بلاد الشام التي بارك الله فيها في قرآنه في ست آيات هي:

١- ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٢٧/٨].

٢- ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٧/١٣٧].

٣- ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١٧/١].

٤- ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٧١].

٥- ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٢٨/٣٠].

٦- ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٢١/٨١].

وكذلك نصت السنة النبوية على أن المسجد الأقصى موضع مبارك يقصد للعبادة، والصلاة فيه تعادل خمس مئة صلاة فيما سواه إلا المسجد النبوي الذي تعدل الصلاة فيه ألف صلاة، والمسجد الحرام الذي تعدّ الصلاة فيه بمثابة مئة ألف صلاة في ميزان الثواب، لا في إجزاء الفريضة، فقال النبي ﷺ: ((لا تشد الرحال[1] إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام،

(١) أي لا تقصد للعبادة، ولا فضيلة في السفر لغيرها، والنهي عند الجمهور للتنزيه، وقال القاضي عياض والجويني والقاضي حسين: النهي للتحريم، فيحرم شد الرحال (السفر التعبدي) لغيرها. وقال النووي: غلط، فإنها كقبور الصالحين والمواضع الفاضلة، أي تزار، وأخرج النهي مخرج الإخبار، أي لا ينبغي أن تقصد الزيارة بالراحلة إلا إلى هذه المساجد الثلاثة (فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٤٠٣/٦ وما بعدها).

ومسجد الرسول، ومسجد الأقصى))[١]. وفي رواية: ((إنما يسافر إلى ثلاثة مساجد: مسجد الكعبة، ومسجدي، ومسجد إيلِيَاء))[٢]، أي لا يسافر أحد لمسجد بقصد الصلاة فيه إلا لهذه المساجد الثلاثة، لا أنه لا يسافر أصلاً إلا لها.

وأورد ابن عساكر في تاريخ دمشق[٣] أحاديث كثيرة في فضائل بلاد الشام، والقدس كدمشق جزء من بلاد الشام، والشام الأرض المقدسة المذكورة في القرآن، منها حديث عبد الله بن حوالة الأزدي أنه قال:

((يا رسول الله، خِر لي بلداً أكون فيه، فلو علمت أنك تبقى لم أختر على قربك، قال: عليك بالشام ثلاثاً، فلما رأى النبي ﷺ كراهيته إياها، قال: هل تدري ما يقول الله في الشام؟ إن الله يقول: يا شام يدي عليك، يا شام أنت صفوتي من بلادي، أُدخل فيك خيرةً من عبادي، أنت سوط نقمتي وسوط عذابي، أنت الأندر[٤]، وإليك المحشرورأيت ليلة أُسري بي عموداً أبيض، كأنه لؤلؤة تحمله الملائكة، قلت: ما تحملون؟ قال: **عمود الإسلام**، أمرُنا أن **نضعه بالشام**، وبينا أنا نائم إذ رأيت الكتاب اختُلس من تحت وسادتي، فظننت أن الله قد تخلى[٥] من أهل الأرض، فأتبعته بصري، فإذا هو بين يدي حتى وضع بالشام، فمن أبى فليلحق بيمينه، وليستق من غُدُره، فإن الله توكل لي بالشام وأهله)).

ومن أهم المعالم الدينية التي يتعلق بها وجدان المسلمين في جميع البلاد: مساجد القدس، ومن أهمها المسجد الأقصى، ومسجد الصخرة مسرى النبي ﷺ ومعراجه في السماء.

أما المسجد الأقصى المبارك: فهو مسجد التوحيد الخالص لله عز وجل الذي لا يؤمن به (بالتوحيد) غير المسلمين، وقد أسس على التقوى، وهو موطن أبينا إبراهيم الخليل عليه السلام، ومسرى ومعراج نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وهو قبلتنا الأولى حيث كنا نصلي إليها في مبدأ الأمر لمدة ستة أو سبعة عشر شهراً، وهو ثالث الحرمين الشريفين في حياتنا الروحانية والإيمانية، وبارك الله حوله، وكان الإسراء إيذاناً بفتح بيت المقدس في عهد الخليفة الثاني عمر رضي الله عنه، وبشارة بنصر الله لجنده[٦]، فعلى المسلمين التمسك به وصيانته

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة (جامع الأصول لابن الأثير الجزري ١٠/١٨٠ وما بعدها).

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي (المرجع والمكان السابق).

(٣) ١/٥٠ - ٨٥.

(٤) الأندر: البيدر أو كُدس.

(٥) يقال: تخلى منه وعنه.

(٦) معركة الإسلام، أو وقائعنا في فلسطين بين الأمس واليوم للشيخ محمد محمود الصواف: ص ٣٦ وما بعدها.

وتخليصه من أيدي الغاصبين، روى أبو هريرة رضي الله عنه حديثين عظيمين عن النبي ﷺ وهما:

الأول : ((من مات في بيت المقدس، فكأنما مات في السماء)).

والثاني: ((أربع مدائن من الجنة: مكة، والمدينة، ودمشق، وبيت المقدس))(١) وبارك الله حوله، لكونه متعبد الأنبياء عليهم السلام، وقبلة لهم، ولكثرة الأنهار والأشجار حوله. وورد في الحديث أنه تعالى بارك فيما بين العريش إلى الفرات وخص فلسطين بالتقديس، وهو أحد المساجد الثلاث التي تشد إليها الرحال والأربعة التي يمنع من دخولها الدجال، أخرج أحمد في المسند: ((أن الدجال يطوف الأرض إلا أربعة مساجد: مسجد المدينة، ومسجد مكة، والأقصى، والطور)) والصلاة فيه مضاعفة في ثوابها وفضلها.

وهو ثاني مسجد وضع في الأرض، لخبر أبي ذر، قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أولاً؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة فصل، فإن الفضل فيه)).

وصلى النبي محمد عليه الصلاة والسلام بالأنبياء عليهم السلام في بيت المقدس، قبل عروجه إلى السماء كما صحح القاضي عياض وغيره، وصحح ابن كثير أنه بعده، وكان الأنبياء سبعة صفوف ثلاثة منهم مرسلون، وصلت معهم الملائكة عليهم السلام.

ثم عرج بالنبي ﷺ من صخرة بيت المقدس، واجتمع في كل سماء مع نبي من الأنبياء عليهم السلام، كما في صحيح البخاري وغيره، واطلع عليه الصلاة والسلام في معراجه على أحوال الجنة والنار، ورأى من الملائكة ما لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى. وكل ذلك يدخل تحت مفهوم آية: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١٧/١]. أي لنرفعه إلى السماء حتى يرى ما يرى من العجائب العظيمة(٢).

ومساحة الحرم الشريف داخل القدس القديمة ٥٠٠ × ٣٠٠ م٢، ويشتمل على منشآت إسلامية كثيرة أهمها ثلاثة:

١ـ المسجد الأقصى:

قبلة المسلمين، والمسيحيين في الكتب القديمة، وسجل الأحداث التاريخية لرسل الله وأنبيائه، وقد دأبت إسرائيل على انتهاك حرماته ومتابعة الحفريات تحته، وتدنيس مقدساته، فلم يكن إحراقها له أول اعتداء منها عليه، فعلى جميع المسلمين قاطبة والمسيحيين على

---

(١) أخرجهما ابن عساكر في تاريخه.

(٢) روح المعاني للألوسي ٩/١٥ - ١٣.

السواء في مختلف بقاع العالم استخلاصه من أيدي الصهاينة الظالمين، ونجدة هذا البيت المقدس، لأن الدين والواجب يفرضان عليهم في مثل هذا الاعتداء تقديم كل التضحيات مهما غلت(١).

أحرق الصهاينة المسجد الأقصى المبارك، ورتبوا قبل حريقه ببضعة أيام مظاهرة عدائية للمسلمين أمام أبواب المسجد الأقصى في داخل الحرم الشريف، وكانوا فيها يهتفون بشعارات عدائية، وبتاريخ ٢١ آب من عام ١٩٦٩ أعلنت السلطات الإسرائيلية رسمياً أن شخصاً مختل العقل اسمه (روهان) قد أحرق المسجد الأقصى، ثم أبعدوه إلى أستراليا موطنه الأصلي، والواقع خلاف هذا الإعلان، حيث شبّ الحريق في ثلاثة مواضع: في مسجد عمر في الزاوية الجنوبية الشرقية للمسجد الأقصى، وفي وسط الجدار الجنوبي، وفي منبر صلاح الدين، وفي الشباك الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية من المسجد الأقصى، الذي يرتفع (١٥ متراً) من المسجد الأقصى، لإحراق جميع المسجد، لكن انطفأت النار في الشباك، فلم يحترق إلا الوسط والجهة الشرقية، وبلغت مساحة الجزء المحترق من المسجد (١٥٠٠ متر مربع) من أصل المساحة الإجمالية البالغة (٤٤٠٠) م٢، أي ثلث مساحة المسجد تقريباً. وهو دليل على أن حريق الأقصى قد تم عن قصد وتعمد من الإسرائيليين. وأزيلت آثار الحريق، وتم إعمار المسجد مرات عديدة خلال السبعة القرون الماضية(٢).

والقدس كلها ومقدساتها وآثارها تتعرض للتدمير والحرق والإهمال والتهديد في ظل الاحتلال الإسرائيلي الغاشم، الذي ما زال سادراً في أعماله العدوانية على هذه المدينة المقدسة، مما ينم عن نوايا شريرة حاقدة على التراث الإسلامي الإنساني العظيم.

أما **الهيكل**(٣): فإن داود عليه السلام بدأ في بنائه للعبادة وأتى بالحجارة من المحجر قرب باب العامود المسمى الآن (مغارة سليمان) ثم أكمل سليمان سنة (١٠٠٥ ق.م) وكانت مساحته (٧٠) ذراعاً طولاً، و (٢٠) ذراعاً عرضاً. وقد هُدم هذا الهيكل على يد نبوخذ نصَّر الذي سبى اليهود، ثم أعاد ترميمه الملك هيرود سنة (١١ ق.م) وجاء طيطس الروماني بعد ذلك وهدم الهيكل الثاني سنة (٧٠ م) وجاء بعده هدريان وأزال آثارها كلها.

---

(١) نداء الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية: ((المسجد الأقصى أيها المسلمون!!)) ص ١٨.

(٢) القدس الشريف خلال فترة الاحتلال الإسرائيلي ١٩٦٧ – ١٩٨١، المهندس رائف نجم: ص ٢٦ وما بعدها، القدس في القلب والذاكرة، مجلة الوعي الإسلامي: ص ١٦ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق: ص ١٢.

٢- مسجد قبة الصخرة المشرفة[١]:

القبة مثمَّنة البناء فوق صخرة المعراج التي عرجِ منها النبي ﷺ إلى السماء في ليلة الإسراء نفسها، كما نصت الآية الكريمة: ﴿سُبْحانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١٧/١].

٣- حائط البراق:

وهو الجزء الجنوبي من الحرم الشريف، ويبلغ طوله (٥٠ م^2) تقريباً، وارتفاعه (٢٠ م) ويعد من الأوقاف الإسلامية الشهيرة، وهو جزء من الحرم الشريف، وله علاقة وطيدة بإسراء النبي عليه الصلاة والسلام. وقد تقدمت هيئة عالمية في زمن الانتداب البريطاني على فلسطين بتقرير سنة ١٩٣٠م يؤيد ملكية هذا الجدار الإسلامية.

وعلى الرغم من أن اليهود لا يملكون أي حق قانوني بهذا الحائط، إلا أن المسلمين بما عرف عندهم من سماحة أذنوا لليهود بزيارة هذا الحائط والبكاء تحته، فأطلقوا عليه (حائط المبكى) بينما اسمه الحقيقي هو (حائط البراق).

ويدّعي اليهود بأن هذا الجدار هو الجدار الخارجي لهيكل سليمان الذي رمَّمه هيرود سنة (١١ ق.م) ونسوا أن طيطس قد هدمه سنة (٧٠م) وجاء بعده هدريان وأزال آثاره كلها، وأصبح مكانه قاعاً مستوياً[٢]. وهذا كمئات المغالطات والأكاذيب وقلب الحقائق التي يمارسها اليهود في أثناء احتلالهم، فهم بكلمة واحدة: كذبة، قتلة، وحوش ضارية، لا عهد ولا أمان لهم. وحرب الصهيونية ضد العرب: **هي حرب دينية يهودية** وحرب إبادة جماعية، وحرب طبقية استعمارية استعماراً استيطانياً. وكل ذلك واضح من تاريخهم القديم والحديث، ومخططاتهم الإجرامية ضد الإنسانية في كتاب (بروتوكولات حكماء صهيون).

والقدس على الدوام تعبر عن فلسطين كلها دون استثناء، كما أنها جزء من دولة الإسلام، في العهود كلها، فلم تنعم القدس بالسلام ولم تلقب بأنها مدينة السلام أو زهرة المدائن إلا في العهد الإسلامي منذ تاريخ فتحها وإلى الآن قبل تعاون الغرب والشرق على تسليم فلسطين بقيادة ومخططات ومكائد بريطانيا إلى الصهاينة. ولن يكون هناك بقاء للصهاينة في فلسطين، لأنهم مبطلون، مغتصبون، سفاكو دماء، وإرهابيون، فلا يوجد في التاريخ قديمه وحديثه مثل جرائمهم الإرهابية من قتل وتدمير وتخريب ومصادرة لأراضي العرب، وطردهم بوسائل

---

(١) المرجع نفسه: ص ١٥.

(٢) المرجع والمكان السابق.

مختلفة، وهم بكل وقاحة على لسان (ليفني) وزيرة الخارجية الإسرائيلية يريدون تهويد جميع فلسطين وطرد العرب منها.

وقبل احتلال فلسطين من الصهاينة وأعوانهم الغربيين ظل بيت المقدس ممثلاً عقيدة التوحيد واستقرار الدين الإلهي والأمن والسلام، سواء على عهد آدم، وعهد إبراهيم، وداود وسليمان وغيرهم من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ [البقرة: ٢/١٢٤]، أي إن إبراهيم عليه السلام كان إمام المسلمين على أرض الأقصى وحرم الله الآمن بمكة. وقال سبحانه: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٣٨/٢٦]، أي إن داود عليه السلام كان خليفة في الأرض على دولة إسلامية مدة حياته وحياة ابنه سليمان عليه السلام عاصمتها بيت المقدس[١].

وبيت المقدس وما حولها كانت **أرض الأنبياء**، أقام فيها إبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام، وكان الوحي الإلهي ينزل عليهم يحمل رسالة الإسلام.

وبيت المقدس أيضاً هي **أرض المحشر والمنشر**، وكذا الشام، كما أخبر النبي ﷺ، وأهلها مرابطون مجاهدون إلى يوم القيامة، وفيها يكون نزول عيسى عليه السلام الذي يقتل المسيخ الدجال، في آخر الزمان، عند باب اللدّ بعد أن ينزل على المئذنة الشرقية في الجامع الأموي بدمشق.

وهي **مثوى كثير من الأنبياء** وقبورهم فيها كإبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وهارون عليهم السلام، وفيها قبور كثير من القادة الفاتحين والصحابة الكرام والتابعين لهم بإحسان، ومنهم حجة الإسلام الغزالي الذي كتب معظم كتبه في بيت المقدس، ومنها (إحياء علوم الدين)[٢].

القدس في التاريخ:

بدأ تاريخ القدس ببناء المسجد الأقصى فيها، أي ببدء سلالة آدم في هذه الأرض. أما بيت المقدس في ماضي التاريخ السياسي فهي منذ أربعة آلاف سنة ونيف قبل الميلاد ذات نشأة عربية، بناها العرب اليبوسيون الذين عاشوا في شبه الجزيرة العربية، ونزحوا عنها (عن الجزيرة) مع الكنعانيين العرب، الذين استوطنوا هذه الديار سنة (٣٠٠٠ ق.م) فاستوطنوا في فلسطين.

وكان اسم القدس الأصلي (أورشليم) أو (يبوس) في عهد اليبوسيين العرب. وظل اليبوسيون يسكنون القدس حينما خضعت لمدة سبعين عاماً فقط لحكم داود وسليمان عليهما السلام فيما بين عامي ١٠٣٢ و ٩٦٠ ق.م، وحكمها العرب أكثر من خمسة آلاف سنة، وهم الذين أسسوها كما تقدم.

---

(١) القدس في القلب والذاكرة، المرجع السابق: ص ١٣.

(٢) المرجع السابق: ص ١٣ – ١٤.

أما الإسرائيليون فقد قدموا من مصر في عهد فرعونها (رمسيس الثـاني) متـوجهين إلـى فلسطين سنة ١٣٥٠ ق.م مع النبي موسى عليه السلام، أي بعد أن اسـتوطنها اليبوسـيون بـ (١٦٥٠) عاماً تقريباً، وتاهوا في صحراء سيناء مدة أربعين عاماً، ثم دخلوا جنوبي مدينة الخليل.

ولم يدخل اليهود إطلاقاً إلى القدس في عهد موسى عليه السلام.

واستمرت القدس عربية تحت راية المسيحية، بعد تنصر الإمبراطور الروماني قسطنطين سنة ٣٢٥م.

وظلت القدس عربية إسلامية بعد زوال الحكم البيزنطي (الرومافي) وبعد الفتح الإسلامي لها سنة ١٥ – ١٧ هـ/ ٦٣٦ – ٦٣٨م[١].

والحاصل أن أرض كنعان أو فلسطين لم تكن أصلاً أرض شعب بني إسرائيل القـدماء، وإنما كانت موطن شعوب أخرى من جزيرة العرب، وبعد مجيء اليهود إلى فلسطين عاشوا مع العرب، ثم انتهى وجودهم فيها، وبقي العرب فيها[٢].

فتح فلسطين وتسليم مفتاح القدس إلى الخليفة عمر:

في السنة الثالثة عشرة إلى بداية السنة الرابعة والعشرين من الهجرة، وفي عهد الخليفـة الراشدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه تم فتح بلاد الـشام ومـصر والعـراق، بـسبب اعتداءات الروم والفرس على المسلمين وبلادهم، وكان فتح بيت المقدس وما حولها في السنة الخامسة عشرة الهجرية، بقيادة أبي عبيدة الجراح رضي الله عنه حيث حاصر بيت المقـدس وضيق عليهم حتى أجابوا إلى الصلح بشرط وضعوه وهو أن يقدم إليهم أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب، وتم المسير إليهم بمشورة علي بن أبي طالب، ليكون أخف وطأة على المسلمين في حصارهم، فلما وصل عمر إلى الشام تلقاه أبو عبيدة ورؤوس الأمراء كخالد بن الوليـد، ويزيد بن أبي سفيان، ثم سار عمر حتى صالح نصارى بيت المقدس، واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث، ثم دخل عمر بيت المقدس من الباب الذي دخل منـه رسـول الله ﷺ ليلـة الإسراء[٣].

اشترطت (إيلِيَاء) (بيت المقدس) في فلسطين أن تسلم للخليفة نفسه، على أن يمنحهم الأمان لدينهم وكنائسهم، فقبل عمر، وقدم في سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م[٤]، وهو راكب بعيراً أحمر وخلفه

---

(١) القدس الشريف، رائف يوسف نجم: ص ١١ وما بعدها، مقال (عروبة القدس) د: عصام شبارو ص ٤٣، مقـال (القـدس وتحديات التهويد) د: أسعد السحمراني: ص ٦٠ وما بعدها، قصة غزو فلسطين للأستاذ محمد عزة دروزة: ص ١٦ ومـا بعدها، منشورات مجلة الوعي الإسلامي – الكويت.

(٢) قصة غزو فلسطين: المرجع السابق: ص ٢٦ – ٢٨.

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ٥٥/٧ وما بعدها، التاريخ السياسي للدولة العربية، د: عبد المنعم ماجد ١٨٨/١.

(٤) فتوح البلدان، البلاذري: ص ١٣٦، والصواب السنة الخامسة عشرة بنص المعاهدة، والسنة الميلادية ٦٣٢.

جَفْنة[1] مملوءة، ودخل القدس التي سلم مفاتيحها إليه البطريرك صفرنيوس[2]، فمنح أهلها الأمان[3]، وصلى ركعتين في الأقصى تحية المسجد بمحراب داود، كما صلى ركعتين على الصخرة المقدسة، وخط المسجد (مسجد عمر) المعروف.

والمعاهدة المشهورة مع أهل بيت المقدس (العهدة العمرية) ذات أهمية بالغة يحسن إيرادها للدلالة على أحقية العرب المسلمين بالقدس وتوابعها على مدى أربعة عشر قرناً ونصها ما يأتي[4]:

- صالح عمر أهل إيلِيَاء (أي بيت المقدس) بالجابية (أي بالشام)، وكتب لهم فيها الصلح، لكل كُورة كتاباً واحداً، ما خلا أهل إيلِيَاء. ونصها:

- أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها: أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيِّزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، ولا يَسكن بإيليا معهم أحد من اليهود.

- وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية[5] كما يُعطي أهل المدائن.

- وعليهم أن يخرجوا منها الروم، واللُّصوت[6]، فمن خرج منهم، فإنه آمن على نفسه وماله حتى يَبْلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية.

- ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بِيَعهم[7] وصُلُبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وبِيَعهم، وصُلُبهم حتى يبلغوا مأمنهم.

- ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم عقد، وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية.

- ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصَد حصادهم.

- وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

---

(١) فتوح الشام للواقدي: ٢/٢٥٧.

(٢) سعيد بن بطريق ٢/١٧.

(٣) المرجع السابق.

(٤) مجموعة الوثائق السياسية، د: محمد حميد الله الحيدري آبادي: ص ٣٤٥ وما بعدها.

(٥) الجزية: ضريبة للدفاع عن المقيمين غير المسلمين في بلاد الإسلام ، على المكلفين القادرين، ومقدارها دينار واحد على الشخص في السنة.

(٦) اللصوت جمع لصت: وهم اللصوص.

(٧) البِيَع جمع بيعة: معابد النصارى.

- شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية ابن أبي سفيان، وكتب وحضر **سنة خمس عشرة**)).

دلت هذه المعاهدة العظيمة والدالة على ضرورة الحفاظ على الأمن والحقوق، ومنها حق المواطنة، وحق الانتقال والمغادرة، والحريات الدينية، وضمان ممارسة غير المسلمين شعائرهم الدينية، وغير ذلك من أصول سماحة الإسلام.

حققت الأمان لجميع المواطنين في بيت المقدس وما حولها، وأكدت على الحرية الدينية، **وعدم السماح لليهود** بسكنى القدس، لأنهم منذ القديم عناصر تدمير ومكيدة ودسائس، وتآمر مع الروم ضد المسلمين.

ونصت المعاهدة على الجزية ضريبة الولاء للدولة الإسلامية، في مقابل ضمان الأمن والاستقرار بإبعاد الروم واللصوص.

وورد النص صراحة على حرية المواطنة للمسلمين والنصارى، وعلى حرية تبليغ المأمن الآخر، لمن غادر القدس من غير المسلمين بحرية واختيار.

وأوضح النص وجوب تحقيق الأمان للكنائس أو المعابد، وعلى أن هذه المعاهدة دائمة دوام التاريخ، وعلى أن تاريخ العهدة في السنة الخامسة عشرة من الهجرة، سنة ٦٣٢م.

وكشفت الوثيقة (وثيقة تسليم القدس) على سرعة استجابة الخلافة الإسلا ية لمطالب أهل القدس على أمرين مهمين[(١)]:

أولهما: أن كبار أهل الحل والعقد من الصحابة، وهم مجلس الشورى أكدوا ارتباط الأصول الدينية للقدس بالدين الإسلامي الجديد.

وثانيهما: أكد الخليفة من جانبه أن تحرير القدس لن يتم إلا بتحرير فلسطين، والجهاد في تلك الأرجاء في فلسطين والشام: جهاد مقدس.

والتاريخ خير شاهد على أن جرائم الصهاينة الوحشية في فلسطين هي سبب الفتن والقلاقل وافتقاد الأمن والسلام في منطقة الشرق الأوسط.

وحاضر القدس وسائر نواحي فلسطين ومنها قطاع غزة في مطلع سنة ٢٠٠٩: شاهد قاطع على أنه واقع وحشي إجرامي، مليء بالتدمير، والقتل، والتشريد، وكبت الحريات، ومصادرة الأراضي، وهدم المنازل، وإتلاف المزارع، وتخريب المصانع، بالإضافة إلى بناء جدار الفصل العنصري الذي يجعل المنطقة العربية سجناً كبيراً، فالدولة وجميع الصهاينة نازية ونازيون جدد ومجرمو حرب، وأداة فتك وقتل وسفك لدماء الصغار والكبار والنساء، وتاريخهم في فلسطين على مدى الستين سنة الماضية سجل أسود ودموي رهيب وإرهاب

---

(١) القدس في القلب والذاكرة: ص ٢٢ وما بعدها.

دولي، سواء في بداية أمرهم بعد ١٩٤٨ على يد الموساد، أم بعدها في مذابح دير ياسين[١]، أو في قانا أو مذابح صبرا وشاتيلا، أو في جنوب لبنان عام ٢٠٠٦م، فهم عنصريون لا يضمرون الخير لأحد حتى دول أوربة وأمريكة التي تمدهم بكل أنواع السلاح ومنها الطيران المتفوق أو المتطور، وبالدبابات والمصفحات في قلب المعركة في سيناء وغيرها سابقاً، وبالقنابل العنقودية والنابالم والقنابل الذرية المحدودة، وقنابل الفسفور الأبيض المحرمة دولياً، حتى في حربهم على قطاع غزة أمدّوهم بـ (٣٠٠٠ طن) من القنابل الحديثة الصنع، ومليون دولار كل يوم، وأكثر من (٣٠) مليار دولار في السنوات الحالية والقادمة إلى خمس أو عشر سنوات في عهد الرئيس بوش، وجرائمهم أخيراً لمدة ٢٣ يوماً، في غزة في مطلع عام ٢٠٠٩ شاهدها العالم كله، وشهد حصارهم غزة جواً وبراً وبحراً، وكان عدد الضحايا استشهاد أكثر من ألف شهيد، وجرح وتعطيل أكثر من خمسة آلاف إنسان فيها أكثر من ٣٣٥ طفلاً، وأكثر من ٩٥ امرأة، وخسائر غزة أكثر من مليار دولار، وليلة إيقاف القتال ألقوا ألف قنبلة.

إنهم بعنصريتهم واستكبارهم يعتبرون أنفسهم هم السادة، وغيرهم العبيد، ويتدخلون في مختلف أوضاع كل دولة السياسية والعسكرية والاقتصادية، ويحتكرون تجارة الذهب، ولم ينفذوا جميع قرارات الأمم المتحدة البالغة (١٨٥) قراراً ولا قرارات مجلس الأمن المتعلقة بجرائمهم في فلسطين، ولا يحترمون اتفاقاً ولا هدنة ولا تهدئة ولا ميثاقاً، وهم إباحيون، ويزعمون مع ذلك أنهم شعب الله المختار، وأنهم لن يدخلوا النار في الآخرة.

إنهم قوم متمردون على الإنسانية كلها ماضيها وحاضرها ، ويهددون العالم، وهم وراء كل فتنة وحرب عالمية ومحلية، لتآمرهم مع الأطراف المختلفة أو المتصارعة، وتكوينهم وطبعهم الخسيس، ونشاطهم المدمر المستمد من التلمود وكتاب العهد القديم، الذي يدوّن تاريخ أحداث بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام، والذي كتب بعد موسى بمدة طويلة، كما في هذا الخطاب لبني إسرائيل:

((إذا أدخلك الرب إلهك[٢] الأرض التي أنت صائر إليها لترثها، وأسلمهم الرب إلهك، وضربتهم، فأبسلهم إبسالاً[٣]، ولا تقطع معهم عهداً، ولا تأخذك بهم رأفة، ولا تصاهرهم، لأنك شعب مقدس، مقدس للرب إلهك، وإياك اصطفى لتكون له أمة خاصة من جميع الأمم التي على وجه الأرض.

وهذا ما تصنعه في الأمم التي يعطيك الرب إلهك، أرضها ومدنها ميراثاً، فلا تستبق منها نسمة، بل أبسلهم إبسالاً.

---

(١) الإرهاب الإسرائيلي، د: غازي حسين، ص ٧ – ٢٣.

(٢) الرب والإله كما يبدو من كتبهم ليس هو الرب الحقيقي، وإنما شخصية موهومة أخرى.

(٣) أي أهلكهم إهلاكاً، من أبسله: أسلمه للهلكة، والمراد: أبدهم إبادة.

أما المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن أولئك الأمم، فإذا تقدمت إلى مدينة لتقاتلها، فادعها أولاً إلى السلم[1] فإذا أجابتك، وفتحت لك، فجميع الشعب الذي فيها يكونون لك تحت الجزية، ويتعبدون لك، وإن لم تسالمك، بل حاربتها فحاصرتها، وأسلمها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب كل ذكر بحد السيف، وأما النساء والأطفال وذوات الأربع وجميع ما في المدينة من غنيمة فاغتنمها لنفسك، وكلْ غنيمة أعدائك التي أعطاكها الرب إلهك))[2].

ومهمتهم العامة: إفساد الأخلاق والقيم الإنسانية، وتهديم كيان الأسرة كما هو واضح في (بروتوكولات حكماء صهيون). جاء في ترجمتها: والحقيقة التي لا شك فيها هي: أن أصبعاً من الأصابع اليهودية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية، وترمي إلى هدم القواعد التي يقوم عليها مجتمع الإنسان في جميع الأزمان[3].

وأصدق أوصافهم: ما ذكره القرآن الكريم في مواضع كثيرة، منها: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٥/٦٤].

إن حقيقة الأطماع اليهودية والإجراءات القمعية والحروب المدمرة، التي يعتمد عليها الكيان الصهيوني: هي ابتلاع القدس وسائر فلسطين، وطرد ما بقي فيها من العرب، والرمي بهم خارج الأسوار، وهدم المسجد الأقصى والتخريب المنظم لمعالم فلسطين، والتزوير الفاضح للتاريخ، معتمدين على التأييد والدعم المتواصلين من أمريكة وأوربة، وكل رئيس أمريكي مثل بوش السابق، وأوباما اللاحق يتفانى في إرضاء (إسرائيل) حيث يقول الرئيس أوباما: إن كيان إسرائيل والحفاظ عليها شيء مقدس عنده، ويدعو الآن لمؤتمر دولي لمنع تسرب الأسلحة لحركة المقاومة الإسلامية (حماس) وتقديم كل سلاح فتاك لم يجرب للكيان الصهيوني.

إن هذا المخطط والتآمر على الشعب الفلسطيني كله ابتلاع عنصري للقدس زهرة المدائن وجميع أراضي فلسطين.

ولقد أوضحت مجلة (العربي) في العدد (٥٨٢) ربيع الآخر عام ١٤٢٨هـ/ وأيار (مايو) ٢٠٠٧ أن المؤرخين الإسرائيليين قطعوا بعدم وجود أي حق تاريخي للصهيونية في القدس، ومع ذلك تمضي خطط تهويد المدينة على الأرض، مع مزاعم مختلفة لا تكف عن تزوير التاريخ. وانطلاقاً من مزاعم عمليات الترميم، تقوم (إسرائيل) دولة الاحتلال الباطل باقتلاع أحجار تاريخية، وزرع بدائل لها تحمل علامات وكتابات عبرية. وما يحدث في القدس الآن

(١) أي الاستسلام والذل والمهانة.

(٢) الإصحاح ٧ و ٢٠ من سفر تثنية الاشتراع.

(٣) الخطر اليهودي - بروتوكولات حكماء صهيون: ص ٨٣.

وفي بقية بلدان فلسطين هو أبشع أنواع الفصل العنصري، وهي كلها ممارسات معادية للثقافة. وفي بداية القرن الحالي (الحادي والعشرين) هناك آلاف المقدسيين الذين حرمتهم دولة الاحتلال الإسرائيلي من بيوتهم، وهم يعيشون في العراء أو في الخيم، أو في الكهوف(١). وهل تقارن صواريخ حماس البلاستيكية المحدودة الأثر بما تقذفه إسرائيل من آلاف القنابل والصواريخ الجبارة البرية والبحرية والجوية، حتى إنهم ألقوا على غزة ليلة إيقاف القتال ١٠٠٠ قنبلة؟!

ومستقبل القدس أصبح معقداً وغائماً، بعد اعتراف أمريكة وغيرها من دول أوروبية بأنها عاصمة (إسرائيل)، واعتراف بعض الدول العربية بالكيان الصهيوني، ومراوغة هذا الكيان في مفاوضات السلام أو الإقرار بحدود الدولة الفلسطينية، على الرغم من بشائر انتصار المقاومة الإسلامية، سواء في جنوبِ لبنان عام ٢٠٠٦م، أو مطلع عام ٢٠٠٩م في غزة، وربما يكون ذلك مقدمة أو إرهاصاً لسقوط هذا الكيان العنصري البغيض على الرغم مما يلقى من تأييد ودعم أو مؤازرة من أمريكة والدول الأوربية.

ومما ينبغي أن يعلم أن بعض آيات القرآن الكريم في سورة البقرة: ٤٧، من تفضيل بني إسرائيل على العالمين، وفي سورة الإسراء: ٤ – ٦ من العلو الكبير وإمدادهم بالأموال والبنين وكثرة العدد، وسورة السجدة (فصلت): ٢٣ – ٢٤ من جعل أئمة هدى منهم، وتوريث الهدى والكتاب لبني إسرائيل في سورة غافر: ٥٣ – ٥٤، واختيار بني إسرائيل في سورة الدخان: ٣٠ – ٣٣، وإيتائهم الكتاب والحكم والنبوة وتفضيلهم على العالمين في سورة الجاثية: ١٦، كل ذلك كان في الماضي، وعالمِ زمانهم الغابر حينما كانوا ملتزمين بتعاليم موسى عليه السلام، وليس ذلك إطلاقاً محمولاً على الدوام والتأبيد، فإنهم لما انحرفوا عن الدين اليهودي الذي جاء به موسى عليه السلام، غضب الله عليهم ولعنهم، وجعل منهم القردة والخنازير، وسلّط عليهم من يسومهم سوء العذاب، مما يدل بنحو قاطع على إلغاء ما تميزوا به لانحرافاتهم الدينية والأخلاقية والاجتماعية وممارساتهم أبشع أنواع الظلم والعدوان.

اليهودية والصهيونية:

لا عداء في الدين بين أتباع الرسالات الإلهية في أصولها الأولى والصحيحة: اليهودية والنصرانية والإسلام، ويترك في منهج الإسلام لغير المسلمين الحرية في ممارسة عباداتهم وشعائر دينهم، ما لم يتجاوز حدود ما أنزل الله إليهم، أما **الصهيونية**: فهي حركة سياسية عنصرية عدوانية استعمارية استعماراً استيطانياً، وهذا ما نرفضه كل الرفض، فقد بدأ إيجاد هذا الكيان البغيض في فلسطين على حساب شعبها العربي بوعد بلفور وزير خارجية بريطانية سنة ١٩١٧م الذي يقضي بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين بعد انتهاء الانتداب

---

(١) مجلة العربي، العدد ٥٨٢: ص ١٠ – ١٣.

البريطاني على فلسطين، ولم يكن القصد من هذا الإعلام تحويل فلسطين جميعها إلى دولة يهودية، كما شرح الكتاب الأبيض الصادر في أول تموز (يوليو) سنة ١٩٢٢ بعد احتجاج وفد عربي سافر إلى لندن وأجرى مباحثات فيها(١).

هذا مع العلم بأنه في عام ١٨٩٧م أعلن اليهود حركتهم الصهيونية في مدينة (بال) بسويسرا للعمل على تحقيق فكرة الصهيونية الرامية إلى عودة اليهود إلى فلسطين وتأسيس مملكة يهودية فيها، والواقع أن كل اليهود في العالم وفي فلسطين هم صهاينة.

هذا الكيان على مدى أكثر من ستين عاماً لا يريد سلماً وإنما يريد على الدوام حرباً وقتلاً، وممارسة للإرهاب والتدمير والتهجير والتضليل، وقلب الحقائق، والتباكي أمام العالم بأنه مهدد، وأنه معرَّض للقتل والطرد، وقد خاض ضد الشعب الفلسطيني والعرب ثماني حروف بالإضافة لحوادث قتل شبه يومية، وبخاصة أيام أعياد المسلمين، وما من هدنة أو تهدئة إلا وبادروا إلى نقضها والخروج عليها. فهم وأصولهم نقضوا كل المعاهدات وهم الذين قال القرآن الكريم عنهم: ﴿الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٨/٥٦].

وتهدف الصهيونية إلى الاستيلاء على فلسطين وطرد سكانها أو إبادتهم، قال الدكتور إيدر رئيس اللجنة الصهيونية: ((أهداف الصهيونية: هي إبادة العرب جميعاً)) وقال وزير الحربية الأسبق موشي ديان بعد الاستيلاء على القدس في حرب ١٩٦٧م: ((لقد استولينا على أورشليم ونحن في طريقنا إلى يثرب وإلى بابل)).

واكتشفت السلطات الألمانية خريطة سرية في خزانة آل روتشلد في مدينة فرانكفورت تتضمن الاستيلاء على فلسطين كلها وشرق الأردن ولبنان وسورية والعراق حتى جبال كردستان شمالاً، وشبه جزيرة سيناء، ودلتا مصر، والمدينة المنورة وخيبر.

والهدف الحقيقي لبريطانية ودول الغرب هو بناء قاعدة عسكرية تمنع وحدة العرب في المشرق والمغرب، فقضية فلسطين هي قضية العرب والمسلمين قاطبة، ولا بد لهم من التخلص بوسائل مختلفة من ضغوط أوربة وأمريكة في إبقاء كيان إسرائيل.

مستقبل الكيان الصهيوني:

الكيان الصهيوني في فلسطين كيان هزيل ومضطرب واستعمار استيطاني وعنصر غريب، ويعتمد على حماية الغرب المسيحي، إيغالاً في عداوة العرب، وحماية لمصالح الدول الغربية، وهو لا يريد الاستقرار في الواقع، وأطماعه كثيرة من الفرات إلى النيل. ولا بد من زواله إن عاجلاً أو آجلاً، والمستقبل للعرب والمسلمين بمشيئة الله تعالى، وليس للإسرائيليين،

---

(١) معالم التاريخ الحديث، للأستاذ أنور الرفاعي: ص ٢٦٩.

وطريق الزوال هو وحدة الأمة العربية والإسلامية، والقوة الصامدة، لأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة.

وأسباب زواله كثيرة أهمها ما يأتي:

١- إن القدس وسائر فلسطين تعد خط الدفاع الأول عن الحرمين الشريفين، وسكانها عرب مسلمون، وجزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية والعربية.

٢- الاحتلال غير مشروع دوليا في عصرنا الحاضر، ومهما حاول الصهاينة طمس معالم القدس وبقية فلسطين، فكل شيء فيها ينطق بالعربية، ولا بد من عودة الحق لأصحابه، وعقيدة المسلمين الثابتة أنه لابد من زوال هذا الكيان والوجود البغيض والحاقد، لأسباب عديدة، منها البشائر النبوية، أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: ((لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود))[1].

٣- وجود تناقضات كثيرة تهدد مستقبل إسرائيل، سواء بين الشرعية الدينية للدولة اليهودية وطابعها العلماني التحديثي، وتناقضات قومية داخلية، وتناقض بين الكيان الاستيطاني ومحيطه الإقليمي والحضاري، مما يوقع المشروع الصهيوني في أزمة، تؤثر على مستقبل إسرائيل وتنذر بالتفجر في أي وقت.

وأشد من هذا: الصراع بين العرب والمسلمين وبين الهيمنة الاستعمارية الغربية، ووجود تعارض بين الموروث اليهودي والمشروع الصهيوني في أسطورة أرض الميعاد، ولا بد من تقويض مبدأ النفعية وحماية المصالح الغربية، والمأزق الحقيقي يكمن في الانتفاضات المتوالية وفي تأجيج نار المقاومة مع الممارسة العملية على أرض الواقع[2].

---

(١) جامع الأصول ٧٦/١١ رقم ٧٨٧٦. والغرقد: هو نوع من شجر العضاه وشجر الشوك، ومفرده: غرقدة.

(٢) ينظر كتاب (مستقبل إسرائيل) د. السيد ولد أباه، والأستاذ منير شفيق، منشورات دار الفكر بدمشق في حوارات لقرن جديد.

أهم المراجع

- الإرهاب الإسرائيلي وشرعية المقاومة والعمليات الاستشهادية، د. غازي حسين، ط أولى ٢٠٠٣م.
- البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، ط أولى، مكتبة المعارف - بيروت، ومكتبة النصر - الرياض.
- التاريخ السياسي للدولة العربية، د. عبد المنعم ماجد، مطبعة الرسالة بمصر، ١٩٥٦م.
- جامع الأصول لابن الأثير الجزري، مطبعة السنة المحمدية، مصر.
- الخطر اليهودي - بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة محمد خليفة التونسي، ط ثانية، دار الكتاب العربي، مصر.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة محمود الألوسي البغدادي، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- فتوح البلدان، البلاذري، القاهرة ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م.
- فتوح الشام للواقدي، ط أولى، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير، الشيخ محمد عبد الرؤوف المُناوي، ط مصطفى محمد، القاهرة.
- القدس في القلب والذاكرة، إصدار مجلة الوعي الإسلامي - الكويت، الإصدار الأول.
- القدس الشريف خلال فترة الاحتلال الإسرائيلي ١٩٦٧ - ١٩٨١، المهندس رائف يوسف نجم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٨.
- قصة غزو فلسطين، للأستاذ محمد عزة دروزة، منشورات مجلة الوعي الإسلامي، الكويت.
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، د. محمد حميد الله الحيدري.
- مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، دار الفكر بدمشق ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- مستقبل إسرائيل، د. السيد ولد أباه والأستاذ منير شفيق، دار الفكر بدمشق.
- المسجد الأقصى أيها المسلمون، مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، مطبعة الأزهر، رجب ١٣٨٩هـ.
- معركة الإسلام أو وقائعنا في فلسطين بين الأمس واليوم، للشيخ محمد محمود الصواف، ط أولى ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
- معالم التاريخ الحديث، الأستاذ أنور الرفاعي، مكتبة العلوم والآداب بدمشق.
- مكانة القدس في الأديان السماوية، أ-د: وهبة الزحيلي، دار المكتبي، ط أولى، دمشق.
- نفي الخرافات والأضاليل عن المسجد الأقصى المبارك، أ-د: عبد العزيز الخياط، ط الأردن.

يهود بلاد الشام في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين

أ. د. يوسف نعيسة(*)

«أنا أعرف تمردكم وقلوبكم الصلبة، إنكم بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم ويصيبكم الشر في آخر الأيام»

(النبي موسى عليه السلام)

المقدمة:

يخوض الفلسطينيون وإخوانهم العرب والمسلمون من ورائهم معركة ضارية من أجل عروبة فلسطين، وتحرير درتها «قدس الأقداس» التي اعتبرت ومنذ تحريرها في القرن السابع من البيزنطيين، قبلة أنظار العالم لموقعها وأهميتها الدينية لدى أتباع الديانات السماوية، تعرضت القدس عبر تاريخها إلى احتلال إلى احتلال آخر، وعادت بعد كل احتلال إلى أحضان أمتها عربية أصيلة، وهي الآن تعاني من احتلال جديد تمثل بالصهاينة، يسومون أهلها العسف

(*) أستاذ في جامعة دمشق

والعذاب، ساعين من وراء ذلك لإجبارهم على الرحيل، وتركها للغاصب، لتهويدها وطمس معالمها العربية والإسلامية.

أنشأ هذه المدينة أهلها الكنعانيون وقبل ظهور اليهود بقرون عديدة[١]، وسموها أورشليم أي مدينة السلام، ولم تنعم بالسلام إلا في ظل أهلها العرب، ويدعى الصهاينة اليوم أن اسمها هذا هو عبري، وأنها كانت عاصمة لمملكة يهوذا، وهذا الزعم يجافى الحقيقة، ويعتمد على مغالطة تاريخية، تخلط بين فترتي إبراهيم وموسى والعبرانيين والموسويين واليهود[٢].

وللرد على تلك الأكاذيب والتخرصات نترك الأمر لعلماء العالم والمؤرخين المنصفين فيجمعون على أن الوثائق التاريخية والأبحاث العلمية والتنقيبات الأثرية والتتبع العلمي الدقيق لتاريخ القدس يدحض مزاعم الصهاينة وشنشناتهم.

إلا أن الغاصب الذي اعتمد على القوة الغاشمة في ذلك يحاول إيجاد المبرر لاغتصابه في صفحات التاريخ حتى ولو كان ذلك تزييفاً وتزويراً، اعتماداً على التوراة الموجودة الآن بين أيديهم وهي غير التوراة التي أنزلت على موسى، وقد كتبها حاخاماتهم في السبى البابلي أي بعد نزول التوراة الحقيقية بـــ ٩٠٠ سنة، فأدخلوا فيها ما طاب لهم من الاقتباسات الحضارية الكنعانية والآرامية (العربيتين) لتحقيق أهدافهم العنصرية وحتى أسماء الأماكن التاريخية التي تظهر فيها مواضع فلسطينية هي من أصول كنعانية ومتقدمة تاريخياً على التوراة الأصل واللغة العبرية، فزجوا فيها بالكثير من غاياتهم وترهاتهم وحتى أحقادهم، بحيث امتلأت بالمتناقضات والأباطيل[٣] التي لا تخفى على أي لبيب.

وفي أيامنا هذه نتج عن الزواج غير الشرعي بين الاستعمار والحركة الصهيونية ثمرة عدوانية ظالمة ممثلة بإسرائيل التي زرعت في مفصل جغرافي يشطر الوطن العربي إلى شطرين، أحدهما في أفريقيا والآخر في آسيا إضعافاً لأمة العرب، ومنعاً لوحدتها وانبعاثها، وليكون هذا الكيان الغريب رأس جسر لقوات الاستعمار إذا ما حصل صراع ما في المنطقة، وقد أمدّوه بكل أسباب القوة للتفوق على العرب مجتمعين، وشكل الذراع الطويلة لضرب أية نزعة تحررية لدى العرب فضرب في تونس ومصر والعراق وسورية ولبنان، وفي كل مرة يبرر الاستعمار لهذا الكيان وبطريقة لا أخلاقية اعتداءاته تلك، وأرادوا أن يصير حال العرب الفلسطينيين كحال الهنود الحمر في العالم الجديد.

---

(١) انظر: سوسة ــ أحمد العرب واليهود في التاريخ، إصدار وزارة الإعلام في العراق، المقدمة، ثم الأعظمي، مجيد عواد، تاريخ مدينة القدس، وزارة الإعلام، العراق. ص ١٥.

(٢) الخطيب،د. نشأت، القدس بين الدين والتاريخ، دار الأنيس ــ بيروت، لبنان، ١٩٨٧م ص٨.

(٣) نصر الله، يوسف، الكنز المرصود في أخبار التلمود، بيروت، ١٩٨١م، ص١١.

ورغم القرارات الدولية، التهم الصهاينة أرض فلسطين، ولم يتركوا لسكانها الأصليين إلا الجزء اليسير من أرضهم في ضفة الأردن الغربية وقطاع غزة، وهما بمثابة معسكرات اعتقال لمن لم يهاجر منهم.

أما مدينة القدس الأسيرة التي نحتفل بها عاصمة للثقافة العربية، فقد كانت وأخواتها من مدن بلاد الشام مركز إشعاع للحضارة الإنسانية، وملاذاً آمناً لمن جاءها من المستضعفين، كفكفت دموعهم، وضمدت جراحهم، حانية عليهم حنو الأم الرؤوم على أطفالها، قاسمتهم حلو الحياة ومرّها، باسطة يد العطاء يوم عزّ العطاء عند غيرها، وكان ممن جاءها مهاجرون يهود من بلدان عدة وأصول عرقية مختلفة.

وفي هذه العجالة سنتناول بالبحث يهود بلاد الشام في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين من نواح عدة «اجتماعية، واقتصادية، وسياسية» حتى التصاقهم بالحركة الصهيونية.

واليهود يعترفون بأن عصرهم الذهبي، هو عصر الإسلام المتسامح، ففي ظله، ظفروا ولأول مرة في تاريخهم بسماحة منقطة النظير، في بغداد والأندلس وبلاد الشام، ومع ذلك، قابلوا الإكرام بالنكران، ووجهوا سهامهم المسمومة إلى صدور العرب والمسلمين في سورية، حصاداً لعمل دؤوب، بدؤوه في أوروبا بعد سقوط الأندلس، ومازال يشتد حتى الحرب العالمية الثانية، وكان العرب والمسلمون قد بوؤوهم المناصب الهامة في الدول الإسلامية المتعاقبة، سواء في مغرب الوطن العربي أو مشرقه، ومع ذلك آثر اليهود أن يبقوا منعزلين في أحيائهم السكنية، فلنرصد معاً تلك الملامح:

اليهود ملة من أهل الذمة:

بعد أن سقطت سورية بيد العثمانيين عام ١٥١٦/ ٩٢٣هـ شكل اليهود ثاني ملة من أهل الذمة من حيث العدد، بعد المسيحيين، ومثلهم في القسطنطينية الحاخام الأكبر، واستمرت القيود عليهم كأهل ذمة، من حيث التعامل والزي، والمخاطبة والضرائب والقضاء إلخ...

وبقي حالهم كذلك حتى مجيء المصريين إلى بلاد الشام عام ١٨٣١م، فرفعوا عنهم تلك القيود، ثم تابع السلطان عبد المجيد تلك الإجراءات لصالحهم بعد ذلك.

فكان عليهم دفع مال الجزية مقابل حماية الإسلام لهم، وكانوا يعفون من الخدمة العسكرية. وذلك حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكان ثمة ديوان خاص لدى السلطات العثمانية لجمع أموال الجزية، أطلق عليه ديوان الجوالي[1].

ورغم تكليف بعض اليهود بجمع أموال الميري كملتزمين، إلا أن أموال الجزية لم تدخل في شرط التزامهم للأموال الميرية. ولقد راعت السلطات العثمانية شروطاً لدخول أهل الذمة في ذمة الإسلام، شأن ما سبقها من الدول الإسلامية، وكانت تلك الشروط شروطاً مستحقة، وشروطاً مستحبة[2].

وكانت مخالفتهم للشروط المستحقة تعتبر بمثابة نقض للعهد مع المسلمين، أما نقضهم للشروط المستحبة فلم تعتبر كذلك.

إلا أن الظروف الداخلية والخارجية التي أحاطت بالدولة العثمانية قد أثرت وبشكل سلبي، بين الحين والآخر، على معاملة أهل الذمة. وبخاصة المسيحيين، على المستوى الرسمي والشعبي، فالجهل الذي سيطر على البصائر، والتعصب الذي ران على الأفئدة، نتيجة لتركة الحروب الصليبية واستمرارها بأساليب أخرى ضد المسلمين، كحرب الاسترداد في الأندلس وما أعقب ذلك من هجوم البرتغال والأسبان على حواضر المسلمين في السواحل العربية. واستمرار الصدام والحروب بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية. ونشاط القرصنة (أو الجهاد) في حوض المتوسط كل طرف ضد الآخر، الأمر الذي أجج الأحقاد ضد الأوربيين ومن لاذ بهم خاصة وأن الرابطة الأساس مع الدولة العثمانية هي الرابطة الدينية، فنال المسيحيين أحياناً، النصيبُ الأكبرُ من الأذية، طالما تربطهم بالغرب رابطة الدين، ولهذا كانت معاملة السلطات لليهود أفضل بكثير من معاملة المسيحيين. وعندما جاءت قوات محمد علي باشا إلى بلاد الشام، نادى بالمساواة بين الطوائف فخفف الكثير من القيود عن أهل الذمة

---

(١) . الجزية خراج الرأس، أطلق على أهل الذمة الذين جلاهم الخليفة الثاني عمر (رض) عن الجزيرة العربية والجالية جلت عن القتل، ونُقلتُ التسمية إلى جزية رغم انه ليس بالضرورة أن يترك وطنه، وكانت تدفع الجزية في أول السنة عن كل فرد عاقل كامل، ويُعفى منها رجال الدين والقاصرون والعاجزون. انظر تفصيل ذلك في كتاب ابن عابدين. رد المحتار على الدر المختار، القاهرة ١٢٩٥هـ ج٣.ص٣٦٨.

(٢) الشروط المستحقة هي: على الذمي عدم ذكر الإسلام بذم، أو القرآن بطعن أو الرسول (ﷺ) بتكذيب، وألا يصيب مسلمة بزنى، أو يثني مسلماً عن دينه، أو يتعرض لمال مسلم، وألا يعين أهل الحرب على المسلمين، أما الشروط المستحبة: لبس الذمي زياً مخصصاً له مخالفاً لزي المسلم، وألا تعلو أصوات النواقيس وتلاوة كتبهم، وألا يتجاهر الذميون بشرب الخمر، وألا يظهروا صلبانهم وخنازيرهم، وألا تعلو أبنيتهم على أبنية المسلمين وألا يخفوا دفن موتاهم وألا يجاهروا بالندب والإناحة عليهم، وأن يمتنعوا عن ركوب الخيل الخ ... الماوردي، أبو الحسن علي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية. ص١٣٧وص١٣٨و ص١٣٩: مصر ١٣٩٦هـ/١٩٧٣م. ثم ابن قيم الجوزية احكام أهل الذمة ج١، ص٢٢ ـ ٢٣.

وبقيت الحساسية قائمة بين المسيحيين واليهود نتيجة للتركة التاريخية طويلة الأمد، ولتضارب المصالح الاقتصادية بينهما، فكاد كل طرف منهما للآخر، ويقول الحاخام موسى سيسون (إن المسلمين يضطهدوننا ككل الناس بسبب طبيعتهم الجافية، في حين أن المسيحيين يضطهدوننا عمداً)[١].

ولقد اندمج يهود سورية في الحياة العامة، وتمتعوا بجميع الحقوق التي تمتع بها المواطنون العرب، ما عدا القيود عليهم كأهل الذمة.

ففي الوقت الذي عاش اليهود في أوربا داخل «الغيتو» وتعرضوا للاضطهاد الديني، كانوا في سورية جزءاً من المجتمع المحلي، مع احتفاظهم بحريتهم الدينية، وتراثهم وانتمائهم الطائفي، ويعود وجود اليهود في سورية إلى موجات متتالية، كان أقدمها في القرن السادس قبل الميلاد. وقد ذابوا في كتلة أهل البلاد، فتكلموا العربية إلى جانب استخدامهم لبعض العبارات العبرية، خاصة في سلامهم وصلواتهم وتحياتهم في يوم السبت[٢]. ولم يختلف يهود سورية عن السوريين، من حيث الأخلاق والعادات الاجتماعية، إلا فيما يتعلق بالعقيدة الدينية، وكان لأسمائهم دخل قوي في الألفة مع مسلمي الشام، فأسماء أبنائهم أسماء عربية. مثل: صبحي وعارف ومراد ويحيى وعبده وبهية وعائشة وجميلة وقمر و ستوت ومريم ودلول وسميحة وطريفة، وبهجرة يهود السفارديم من الأندلس، وكذلك الاشكنازيين والفرنكفونيين إلى بلاد الشام. بدأت تظهر لديهم أسماء غير عربية مثل، بوليتزا وإليوكا. وأستيروبيريس ودوك، وبخوروبازينة ولينوده، وجورج وموريس وإدوار وتشارلز ومارسيل ولورا، على غرار الأسر الحاكمة في بريطانيا، حتى أن بعض اليهود في الحقبة الأخيرة غيروا أسماءهم، فأطلقوا على أنفسهم أسماء إنجليزية أو أوروبية[٣].

هجرات اليهود إلى سورية:

ما بين القرن السادس عشر والتاسع عشر جاء اليهود على شكل موجات. وأولى هذه الموجات كانت من الأندلس بعد طردهم مع العرب، فجاء بعضهم إلى سورية، واستقروا في صفد والخليل ودمشق وحلب وحمص وحماه وبعلبك وفي جبل الشوف ووادي التيم وفي

(١) رستم، اسد، الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا، المجلد ٢، ص٢٥.

(٢) كرد علي. محمد. خطط الشام. ج٦.ص٢١١.

(٣) سجلات محاكم دمشق الشرعية. السجل رقم ٢٥٠/لعام ١٢١٦ ـ ١٢١٧هـ/ص١٦٧ ص٢١٦ ص٢٣٢ ثم يوسف نصر الله. الكنز المرصود في قواعد التلمود. ص١١٥ ـ ص١٨٠. ص٢٠٤. ٢١٧. ٢١٩. ثم عالم المعرفة، اليهود في البلدان الإسلامية ١٨٥٠ ـ ١٩٥٠م صموئيل أتينجر ـ ترجمة جمال احمد الرفاعي ورشاد عبد الله الشامي. الكويت ١٩٩٥م.ص٦٧.

بعض المدن الساحلية مثل بيروت وطرابلس وصيدا وحيفا، وأطلقت عليهم تسمية السفارديم[١]. وهؤلاء كانوا يتكلمون لغة «اللادينو»، ثم أصبحت العربية لغة مشتركة بينهم وبين اليهود في سورية، وبلغ عددهم في دمشق عام ١٨٧٦م، ٥٤٠٠ نسمة.

ومع بداية القرن التاسع عشر جاءت موجة يهودية اشكنازية من أوربا الشرقية. كانوا يتكلمون لغة «اليديش»[٢] وهي لغة الثقافة ليهود شرقي أوربا، وعندما وصلوا إلى سورية، وجدوا أبناء دينهم يتكلمون العربية ولا يتقنون العبرية. فلعبت مدارس الاليانس اليهودية والتي التحق بها فتيان وفتيات يهوديات ما بين ١٨٨٠ ــ ١٩١٠م دوراً في التفاهم بين الطرفين. ولقد هاجر اليهود إلى سورية ومنها فلسطين، على شكل هجرات فردية ما بين ١٨١٢ ــ ١٨٨٠م، وهجرات جماعية وبأعداد كبيرة ما بين ١٨٨٠ ــ ١٩١٤م. وهجرات غير شرعية ما بين ١٩١٩ ــ ١٩٤٨م. ولقد عجّلت في تلك الهجرات، أحداث هامة اتهم بها اليهود، منها الاشتراك في اغتيال قيصر روسيا اسكندر الثاني عام ١٨٨٠م وكذلك إفشاء الضابط اليهودي الفرنسي درايفوس، معلومات سرية تتعلق بفرنسا للألمان، مما أثار الشعب الفرنسي ضد اليهود. واتهام اليهود في ازمير وبحر مرمرة بخطف أبناء المسيحيين لشرب دمائهم. وما جرّ عليهم من مذابح على يد المسيحيين إثر ذلك عام ١٨٧٢م. وما كان يقوم به المسيحيون من تفتيش حقائب التجار اليهود بحثاً عن أطفالهم الذين اختفوا في ظروف غامضة عام ١٨٧٠م، كل ذلك دفع باليهود للهجرة إلى سورية حيث الملاذ الآمن.

ومن جهة أخرى فإن التحسينات التي أجرتها الدولة العثمانية، في الثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر في مجال البريد والمواصلات والتلغراف انعكس ذلك بشكل ايجابي على حركة التجارة والاقتصاد بشكل عام، وأدى إلى تحسين المعيشة نسبياً. فوصل تعداد اليهود في حلب وما حولها إلى ٩٢٥٦ يهودياً، وفي دمشق وضواحيها إلى ٦٢٦٥ يهودياً. وبافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م ــ أثر ذلك على الوضع الاقتصادي فذوت بعض المراكز التجارية في داخل سورية، وازدهرت بعض مدنها الساحلية. فكان ذلك بمثابة الجاذب لبعض اليهود فتركوا مدن الداخل إلى المدن الساحلية. ناهيك عن تجمعهم في فلسطين حصراً. ولم

---

(١) السفارديم هم في أصلهم من يهود اسبانيا وحوض البحر الأبيض المتوسط، وليسوا من أصل عربي، وكلمة (سفرد) تحمل دلالة دينية إلى جانب دلالتها الاجتماعية والعرقية، وطقوسهم الدينية استمرار للتقاليد اليهودية في بابل، وتختلف عن التقاليد الأشكنازية. وعبرية السفارديم تختلف عن عبرية الاشكنازيين، لمجاورة الأول للعربية، وتأثرهم بها، ومع ذلك لا توجد لغة موحدة لهم، فتختلف بين أقلية منهم وأخرى، فهي عربية بالنسبة لليهود العرب، ويونانية بالنسبة لليهود اليونان. وكلمة سفارد تدل على اليهودي الشرقي، انظر: الموسوعة الفلسطينية ط١ ايطاليا. ج٢، ص٥٥٤.

(٢) لغة مركبة من عناصر لغوية متعددة (عبرية، آرامية رومانية قديمة، ألمانية، اسبانية، انجليزية وغيرها. أتتجير، المرجع نفسه، ص٢٤٣.

تقف السلطات العثمانية ضد هذه الهجرة بل وقفت ضد هجرة يهود أوربا. وبعيد الحرب العالمية الأولى وبعد أن صدر وعد بلفور ١٩١٧م. وسقوط فلسطين بيد الجنرال اللنبي وتعيين هربرت صموئيل اليهودي الإنجليزي مندوباً سامياً عليها، شجع الهجرة اليهودية إلى فلسطين. فبلغت أشدها ما بين ١٩١٤ ــ ١٩٤٨م(١).

تعداد اليهود في دمشق وبعض المدن السورية:

ليس لدينا إحصاءات دقيقة عن عدد اليهود في دمشق والحواضر السورية، وكل ما نعرفه عنهم أنهم استقروا في المدن الرئيسة من سورية، إلا أن اليهود لم يشكلوا سوى نسبة بسيطة من تعداد السكان، خاصة وأن هذه النسبة كانت تتأثر بالهجرة من سورية وإليها، على أن عدد المرتدين عن اليهودية والذين اعتنقوا المسيحية أو الإسلام كان قليلاً. ناهيك عن أن ظروفهم الأمنية والاقتصادية والسياسية والصحية كانت أفضل مما كانوا عليه في بلادهم الأصلية، ولقد تضاربت الأرقام في هذا الصدد. ففي القرن الثامن عشر يرى البعض أن دمشق كان تعدادها ٢٠٠ ألف نسمة في حين يرى بيكنجهام الذي زارها عام ١٨١٦م/ ١٢٣٢هـ أن تعدادها ١٠٠ ألف نسمة، منهم ١٥ ألف يهودي، ولكن هذه الأرقام يجب أخذها بحذر. إذ لم تكن هناك إحصاءات دقيقة للسكان لاعتبارات عدة منها: أن عادة الشوام كانت تقف حائلاً دون إعطاء الأرقام الحقيقية للنساء، ويرى بورتر porter الذي عاش في دمشق في الفترة ما بين ١٨٥٠ ــ ١٨٥٥م/١٢٧٢هـ. أن تعداد دمشق «مئة وخمسون ألف نسمة»، وان عدد اليهود منهم كان ٤,٦٣٠ نسمة حيث تناقص عدد اليهود فيها في النصف الأول من القرن التاسع عشر لهجرة البعض منها، وخاصة القراؤون إلى استانبول، وما إن أزف عام ١٨٣٢م/١٢٤٨هـ حتى غادرها آخرهم لأسباب غابت عنا.

فرق اليهود الدينية في سورية:

تمزق اليهود وعبر الزمن إلى فرق عديدة، زادت على السبعين فرقة، منها ما بقي حتى وقتنا الحاضر ومنها ما انقرض. وكان بسبب قربها أو بعدها عن العهد القديم أو تبنيها للتلمود أو بعدها عنه أو أسفار موسى الخ.... وكانت كل واحدة منها تضلل الأخرى، أما يهود سورية خلال هذه الحقبة من الدراسة كانوا عدة فرق، فما تراه في مدينة شامية قد لا تراه في المدن الأخرى، وبالعكس. ففي دمشق مثلاً كان هناك اليهود الربانيون والقراؤون

---

(١) قدر عدد يهود سورية في حزيران /يونيو بـ ٥٥٠٠ يهودي. كان معظمهم في حلب ودمشق، وبعد عام ١٩٩٣م، سمح ليهود سورية بمغادرتها تعبيراً عن حسن نواياها. وكان عدد من هاجر منهم ٣٥٠٠ يهودي إلى بلدان شتى. أنظر: أتينجر، المرجع نفسه ص١٧٤.

والسامرة وذلك حتى عام ١٢٤٨/١٨٢٢هـ ثم طائفة المستعرب التي ورد ذكرها في سجلات محاكم دمشق آنئذ، ويُعتقد أنها فرقة عرقية وليست فرقة دينية وتعود في أصولها القومية إلى غير العرب. جاءت دمشق واستقرت فيها فاستعربت، ويذكر المؤرخ الصهيوني صموئيل أتينجر أنه في عام ١٨٥٦م/١٢٩٢هـ كان في دمشق خمسون يهودياً من أصل إيطالي يعيشون تحت رعاية قنصل النمسا(١).

وكان اليهود الربانيون أكثر طوائفهم عدداً في دمشق، وكانوا يلقبون بالكتبة أو بالناموسيين، وكان المعلم منهم يلقب بالحبر أو الربي Rabbi تفخيماً له. وكان يستشار من طائفته في امور الحياة كالزواج والطلاق والعبادة.

أما الفرقة الثانية منهم فكانت فرقة «القرائين» ولا نعرف متى ظهرت، إلا أنها شُهِرَتْ على يد الحبر عنان بن داوود، وسميت أحياناً «بالعنانية» نسبة إليه، وقد قتل في زمن أبي جعفر المنصور، وكانت هذه الفرقة تناطح الفريسيين، وكان القراؤون لا يؤمنون إلا بالكتاب المقدس، ولا يؤمنون بالروايات الشفهية، المسماة «المشنا والجمارا» أي التلمود. واعتبروه من عمل الأحبار والحاخامات، ويبدو أنهم تأثروا بفكر المعتزلة في الإسلام، واشتد الصراع بينهم وبين الربانيين، وكفّر كل طرف منهم الطرف الأخر، فحرم الربانيون الاختلاط بهم أو الزواج منهم، واعتبر أولادهم من نسلهم أولاداً غير شرعيين، وانتقلت هذه الفرقة من بغداد إلى الأندلس، وبسقوط الأندلس بيد الأسبان تشتت أتباعها في المغرب العربي والدولة العثمانية، فكانت هذه الطائفة في دمشق. وكان لها حي يسمى باسمها ولها كنيسها، ولما غادر اتباعها دمشق إلى استانبول بقي كنيسها في حي الزيتون مهجوراً إلى أن جاء أحد أبنائها من استانبول وباع الكنيس للنصارى الكاثوليك في عام ١٨٣٢م/١٢٤٨هـ. فقام النصارى بتحويله إلى كنيسة لهم، وضموا حارة القرائين إلى حارتهم، وكان ذلك في العهد المصري، وقد أثار ما فعلوه جدلاً وخلافاً فقهياً لدى العلماء المسلمين في دمشق آنئذ، إذ اعتبروا أن عمل الكاثوليك غير جائز شرعاً، ويذكر أحد أقطاب المعارضة لذلك، وهو محمد أمين بن عابدين معلقاً على من أجاز من علماء المسلمين بقوله: إن ذلك غير جائز وأنه كتب لهم بعض المتهودين طمعاً في عرض الدنيا(٢) وما زالت كنيسة للمسيحيين الكاثوليك حتى يومنا هذا.

أمّا الفرقة الثالثة في دمشق فكانت فرقة السامريين samaritaions. فقد اشتق اسمهم من مملكة السامرة في فلسطين. وكانت تقع إلى الشمال من شكيم «نابلس» كما يزعمون، وكانت

---

(١) عالم المعرفة، اليهود في البلدان الإسلامية. ١٨٥٠ ــ ١٩٥٠م - الكويت ــ أيار ١٩٥٤م.

(٢) رد المحتار على الدر المختار. ج٢. ص٣٧٦.

هذه الفرقة بشكل عام تقسم إلى قسمين إحداهما تعترف بنبوة موسى وهارون ويوشع، وتجحد من عداهم من النبيين، وأخرى تعتقد بنبوة كل الأنبياء ما عدا عيسى ومحمد. وكان عدد هذه الفرقة قليلاً. فلم يتجاوز عدد أفرادها في دمشق الـ ٧٠ شخصاً، ولعلها اصغر طوائف الأرض. ترأس هذه الطائفة (الربي) ولم يعتبر القراؤون والربانيون السامريين منهم، بل اعتبروهم وثنيين ومشركين ومتعاونين مع أعداء اليهود، وأطلقوا عليهم اسم (شومارنيم)، ولكن السامريين حرفوا الكلمة إلى شمرنيم، أي المحافظين على الدين الموسوي الأصيل، ويعزو السامريون سبب انشقاقهم عن سائر أسباط بني إسرائيل إلى خلاف ديني نشأ بينهم وبين هذه الأسباط، ذلك أن اليهود ظلوا إلى القرن الثالث من دخولهم أرض كنعان يقدسون جبل جرزيم «جبل نابلس الجنوبي» ويقربون عليه قرابينهم، اعتقاداً منهم أن يوشع أقام هيكل العبادة الأولى على هذا الجبل، وكان إلى ذلك التاريخ مركز حجهم ومقام إمامهم الأكبر، وكاهنهم الأعظم، فلما ورث الإمامة الكبرى الإمام «عزي بن حقي» وكان حديث السن، حسده الكاهن الأعظم الذي شعر بالحرج في كونه مرؤوساً له، فأخذ يدس عليه الدسائس حتى نجح في استمالة فريق من اليهود، فهجروا جرزيم وانتقلوا إلى سيلون «قرب القدس»، وكان ماهراً بالشعوذة وأعمال السحر، فعظم حوله الجمع، فأقام هيكلاً وصندوقاً للشواهد، وادعى أنهما الأصليان. وأوجب تقديسهما، وصرف الوجوه عن جرزيم، وعندما جاء المسلمون إلى فلسطين، دخل العديد من السامريين الإسلام، فقل عددهم مع الزمن. واختلف السامرة مع اليهود في القبلة ووقت الختان ومواعيد الأعياد، وتجويز بعض الأنكحة والتشدد في الشعائر الدينية ولا سيما يوم السبت وأحكام الدم والنجاسات ومواعيد الطهارة ..الخ.

أما شروط العقيدة الأصلية عندهم فهي الاعتقاد بوحدانية الله، ونبوة موسى وأن التوراة كتاب منزل، وأن جبل جرزيم مقدس، وان الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله منزّه عن جميع الصفات، وأن البشر يحاسبون على أعمالهم في اليوم الآخر، ويمنون بمجيء المهدي ويسمونه «حاشاحيب وحاطاحيب ومرجع» وأن لظهوره علائم، فيظهر كلمة الله، وينقل عصا موسى وألواحه العشرة، ويجيء بقدرة المن وهي الحلوى الإلهية ويعتقدون بالملائكة، ولهم صلاتان: صلاة الصبح وصلاة الغروب، والصلاة جماعة أفضل، وهي مفروضة على نسائهم ورجالهم، دون اختلاط، ويقومون بالوضوء قبل الصلاة ويتلون التوراة بلسان عبري قديم أثناء الصلاة، أما الحج عندهم فإلى جبل جرزيم، وهو ثلاث حجات «حج الفطير، وحج العنصرة، وحج المظال» يصومون أربعاً وعشرين ساعة قبل حج المظال ويفرضون ذلك

على الرضّع منهم، والزكاة عندهم إعطاء واحد من عشرة من الأرباح للكاهن الفقير، وهم بذلك يخالفون أصول الشريعة عند بقية الموسويين(١).

سكن اليهود في الحواضر السورية:

توضع اليهود في المدن والحواضر السورية التي سكنوها متجمعين في حارات خاصة بهم، شأن معظم الأقليات العرقية والدينية. ففي دمشق استقر اليهود داخل أسوارها في الجزء الشرقي والجنوبي الشرقي والشمالي منها. ففي شرق المدينة كان الربانيون. وفي شمالها القراؤون «حي الزيتون» وبالقرب من برج الروس استقر السامرة، وكان أكبر تجمع لهم في الجزء الشرقي من دمشق. وأطلق على أماكن سكنهم اسم «محلة أو حارة» وفي حالات قليلة اسم ثلاج(٢). وكانت الحارة تقسم بدورها إلى أزقة ودخلات غير نافذة، تتوضع بيوتهم على جانبي الطريق والزقاق. ولقد ورد ذكر لتلك الحارات والمحلات اليهودية في سجلات محاكم دمشق، فمنها «محلة تحت العنابة» بالقرب من برج الروس في الناحية الشمالية من دمشق ضمن أسوارها، ووجد كنيس للسامرة بالقرب من درب السامري، ومن المرجح أنه كان في حارة العنابة نفسها(٣) ثم حارة القرائين في محلة الزيتون قرب السور القديم. وهذه المحلات ما زالت قائمة داخل أسوار دمشق، وبلغ عدد كُنُس اليهود في دمشق ١٠ و١٢ مدرسة يدرس فيها ٣٥٠ تلميذاً يدرسون فيها أمور دينهم باللغة العبرية(٤). أما اليهود في مدينة حلب فسكنوا في حارات خاصة بهم، منها «القلة والبندرة ومحلة اليهود وبحسيتا»، وشاركهم في السكن في حي القلة الماردينيون، وكان يسميهم الحلبيون الماردل(٥). وكان معظم هذه الحارات مغلقة وغير نافذة ليسهل الدفاع عنها عند الأزمات والطوارئ. وفي حي بحسيتا وجد سوق تجاري، وقد اشتق اسم هذا الحي من الاسبانية، وهو مركب من كلمتين هما: «باح» وتعني المنخفض و«سيتا» تعني المدينة، فيكون معنى الاسم «المدينة المنخفضة» وهذا الحي يقع ما بين تلين هما «تل الباب وتل القلة» قرب باب الفرج، وربما أطلق هذه التسمية يهود الأندلس عندما هاجروا إلى حلب، بعد سقوطها بيد الأسبان، ولقد أدخل هؤلاء بعض الألفاظ والأطعمة

(١) انظر: كرد علي، محمد. خطط الشام، ج٦، ص٢١٥.ص٢١٦. ص٢١٨.؟ ص٢١٩. بيروت. ١٣٩١هـ.

(٢) رستم، أسد، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا، ص٥.

(٣) الزيات. حبيب ص١٧٠.

(٤) كرد علي، محمد. المرجع نفسه ج٥. ص١٤. ثم عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ ـ ١٩١٤م. دار المعارف بمصر ١٩٦٩م/ص٣٠٧.

(٥) الأسدي، خير الدين، أحياء حلب وأسواقها، وزارة الثقافة. دمشق. ١٩٨٤م. ص١٢٨.

والعادات الأندلسية، ولا زالت بعض الأسر اليهودية تحمل أسماء اسبانية فيها مثل: بلانكا جولدمان، بازديس، فرانكو[(١)].

ومن جهة أخرى كان لكل حارة باب كبير يعزلها عن الحارات الأخرى إذا أُقفل، وبه باب صغير يفتح تحت السيطرة والحراسة للدخول والخروج من الحارة. وكان لبعض الحارات طالع ماء خاص بها لتوزيعه على بيوتها ومحلاتها، ولكل حارة شيخها من اليهود الذي يشكل صلة الوصل بين أبناء طائفته والسلطات الرسمية، ولقد ورد ذكر بعض أولئك الشيوخ في سجلات المحاكم المختلفة. ففي دمشق مثلاً كان فرج ولد موسى شيخاً لحارة اليهود في عام ١٢٢٧هـ/١٨٠٣ ـ ١٨٠٤م[(٢)].

ولقد حرص اليهود على شراء بيوتهم في حارات اليهود، ويمكن رصد ذلك من خلال عمليات البيع الواردة في سجلات محاكم بلاد الشام، ولقد حرص اليهود أن تكون أيضاً مقرات عملهم وحتى مراكز حرفهم في الحارة نفسها، أو بالقرب منها. ولهذا كانت عمليات بيع ما بحوزة اليهود من العقارات تتم فيما بينهم بالدرجة الأولى، أو مع مجاوريهم من المسلمين والنصارى[(٣)].

وكانت كنس اليهود مقامه ضمن أحيائهم السكنية، ولم يشذ عن هذه القاعدة آنئذ سوى كنيسهم الذي كان مجاوراً لحي اليهود الجنوبي في دمشق، وكنيسهم الأقدم في قرية جوبر[(٤)] الذي يعود سبب بنائه إلى اعتقاد اليهود بان النبي الياس (الياهو) عند هروبه من اضطهاد إيزابيل قد لجا إلى ذلك المكان في عام ٤٣ للخليقة، وبشر أليشابن سافاط نبياً على يد إلياهو النبي، لهذا أقام اليهود كنيساً في ذلك المكان، وكانوا يحتفظون فيه بثلاثة قناديل مضاءة، ويقيمون فيه صلواتهم. وقد تداعى مع الزمن. فطلب اليهود من السلطات المصرية إعادة ترميمه عام ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م[(٥)]. وكان يشرف على كنيسهم في مدينة دمشق عام ١٨٤٠/١٢٥٦هـ. رئيسهم الحاخام يعقوب عنتابي الذي كان «ربي» الديانة اليهودية في دمشق، ولم يكن عارفاً للكتابة العربية، وكان حاخاماً لليهود في دمشق في عهد إبراهيم باشا

---

(١) الأسدي، خير الدين، المرجع نفسه، ص١٢٨، ص١٢٩.

(٢) سجلات محاكم دمشق الشرعية. السجل رقم ٢٥٠ لعام ١٢١٦ ـ ١٢١٧هـ/ص٢١٦ ـ ص٢٣٣ ـ ص٢٥١.

(٣) مثال ذلك، اشترى إسحاق ولد شحادة شامة اليهودي بماله لنفسه نصف دار بمحلة اليهود، منطقة باب شرقي بالقرب من طالع القبة تحت القناطر بتلة الحراث بـ٤٥٠ قرشاً رايجة شامية، سجلات محاكم دمشق – السجل رقم ٢٥٠ ـ ص١٠٧ ـ ص١٣٠.

(٤) أنظر: كتابنا مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين ١٧٧٢ ـ ١٨٤٠م. دار طلاس – دمشق ١٩٨٧م. ج٢. ص٦٢١.

(٥) أنظر: كتابنا مجتمع مدينة دمشق. ج١، ص٩ وص٧٠.

ابن محمد علي باشا، ميشون (أي موسى) بيخارا يهودا، وميشون أبو العافية الذي أسلم إثر حادثة مقتل البادري توما الكبوشي[1].

أوقاف اليهود:

لم تتدخل السلطات العثمانية في أوقاف اليهود منذ احتلالها لبلاد الشام عام ١٥١٦م. حيث تركت إدارتها لمجالس طوائف اليهود وذلك لاختلاف العقيدتين، وكانت أوقافهم محبوسة على جهات خيرية كالبيع والكُنس. أو أوقافاً أهلية (ذرية) تخص أبناءهم وذريتهم. وسجلت أوقافهم في سجلات محاكم بلاد الشام المختلفة أمام القضاة ونوابهم، ولم تصل تلك الأوقاف في غناها واتساعها إلى ما وصلت إليه اوقاف المسلمين أو المسيحيين. لسبب بسيط هو كون اليهود أقل عدداً في بلاد الشام. وكانت معظم أوقافهم الخيرية محبوسة على كنسهم وبيعهم وبخاصة كنيس جوبر، وكان ناظراً عليه ومتولياً على وقفه عام ١٨٠٢م/١٢١٧هـ يوسف آرازي اليهودي الذي جرى تعيينه في هذا المنصب بعد وفاة من سبقه، بالتماس قدم من طائفة اليهود لقاضي قضاة دمشق[2].

وكانت مهمة ناظر تلك الأوقاف تنحصر في القبض والصرف والإيجار والتعمير والترميم وغير ذلك.

وتسعفنا سجلات محاكم دمشق بذكر وقف لأحد يهود دمشق. وهو يعقوب اليهودي الذي كان ناظراً عليه عام ١٢٢٢هـ/١٨٠٢م يعقوب إسحاق بموجب تقرير حصل عليه في عام ١١٨٤هـ/١٧٧٠م من قاضي قضاة دمشق. ولكننا لم نستطع أن نقف على نوع هذا الوقف. هل كان وقفاً ذرياً ام خيرياً؟ وقد حبست على أوقافهم المختلفة أراضٍ وبيوت ودكاكين وغيرها. وكان يستثمرها أناس من طوائف دينية مختلفة، فمثلاً وقف كنيس اليهودي في جوبر حبست عليه أراضٍ في غوطة دمشق تقع بالقرب من قرية جوبر. وكان يعمل في تلك

(١) ولد البادري توما الكبوشي في «كجلياري» من جزيرة سردينيا التابعة لإيطاليا عام ١٧٨٠م. وسمي فرانسوا إنطوان. ودخل الرهبنة الكبوشية، إذ كان له من العمر ثماني عشرة سنة، وكان ذلك في يناير /كانون الثاني ١٨٠٧م، وبارح روما إلى دمشق حيث بقي فيها إلى يوم ذبحه اليهود عام ١٨٤٠م، وكان مرسلاً ومبشراً بالمسيحية ولمدة ٣٣ سنة. وكان مطلعاً على علم الصيدلة والكتب الطبية ويعالج المرضى من أبناء دمشق مجاناً. دون تمييز، وكان ماهراً في التطعيم ضد مرض الجدري، أنظر: الكنز المرصود في قواعد التلمود. يوسف حسن نصر الله ص٢٨. ثم كتابنا المرجع في وثائق تاريخية عن الشام في أثناء حملة محمد علي باشا ١٢٤٧ ـ ١٢٥٦هـ/١٨٣١ ـ ١٨٤٠م. جامعة دمشق. ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤م ص٧٧ وص٩٧.

(٢) المحكمة الكبرى بدمشق: السجل رقم ٢٥٠/لعام ١٢١٦ ـ ١٢١٧هـ/ص٣٦٢.

الأراضي عام ١٢١٧هـ/١٨٠٢م الحاج أمين برنايا وعلي الذيّاب ومصطفى بن عبيد مطر من أهالي قرية جوبر[١].

وإذا نشب خلاف وصعب حله بين متولي الأوقاف أو نظارها من جهة وبين مستثمري أوقاف اليهود من جهة ثانية فيلجأ إلى محاكم دمشق لحله.

ولقد استخدمت طرق ملتوية للسيطرة على «أحباس الأوقاف» كما حصل أحياناً لأوقاف المسلمين، والمسيحيين. فمثلاً: استخدمت طريقة «الاستبدال» وهي وسيلة احتيال أحياناً لاستبدال ملكية للوقف بما هو أسوأ لدى الآخرين، وتتم العملية بموافقة القاضي، ونرى أمثلة على ذلك مبسوطة في سجلات محاكم بلاد الشام، ونسوق إحداها ما قام به المعلم إسحاق ولد شحادة شامة اليهودي من استبدال الجنينة مع الماء التابعة لها وغراسها في قرية النبك بدكان موجودة في محلة الحراث، الخراب بدمشق، والتابعة لوقف النصارى اليعاقبة وتمت عملية الاستبدال بموافقة القاضي بدمشق في ٩ محرم ١٢١٧هـ/١٨٠٢م[٢].

الأسر اليهودية:

ليس لدينا ارقام دقيقة عن عدد الأسر اليهودية أو متوسط عدد الأفراد في كل أسرة في سورية. وبرغم أن أولى الإحصاءات في الدولة العثمانية كانت في بدايات القرن التاسع عشر، إلا أنها لم تكن لتعبر تعبيراً دقيقاً عن الواقع الديمغرافي في كافة أنحاء الدولة، ومنها ولاياتها في سورية. ومع ذلك تبقى لها أهميتها. ومن أهم الإحصاءات في الدولة العثمانية ما تم ما بين ١٨٨١ ــ ١٨٩٣م، ففيها كثير من المعطيات الهامة، وشمل بعض اليهود، لأن بعضهم كان تحت الحمايات الأوروبية، وبعض تلك الإحصاءات اعتمدت على تقارير القناصل ووكلائهم أو كتب الرحالة وهيئة الأليانس والصحف الأوروبية التي كانت تهتم بالهجرات[٣] إلى سورية أو بالعكس. وبخاصة الهجرة إلى فلسطين في هذه الحقبة التاريخية، فمرت بلاد الشام بظروف عديدة شكلت عامل جذب أحياناً وأحياناً أخرى عامل نبذ بالنسبة لليهود. ففي عام ١٨٤٨م/ بلغ عدد اليهود في حلب ٢٠٠٠ عائلة أي حوالي ١٠ آلاف يهودي، وفي

---

(١) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠/القضية ٧ ذي الحجة هـ/ص٢٦٤.

(٢) السجل نفسه. ص١٢٩.

(٣) أولى الهجرات المنظمة إلى فلسطين كانت ما بين ١٨٨٢ ــ ١٩٠٣م، حيث وصلها ٢٥ ألف يهودي أوروبي، بالرغم من حظر السلطات لها، ثم دخلها بطرق مختلفة ٤٠ ألف يهودي معظمهم من روسيا ما بين ١٩٠٤ – ١٩١٤م، وإبان سنوات الانتداب ما بين ١٩١٩ ــ ١٩٢٣م، دخلها ٥٩ ألف أشكنازي و٢٤٠٠ سفارديم، وما بين ١٩٢٤ ــ ١٩٣١م، دخلها ٨١،٦٠٢، منهم ٦٤ ألف أشكنازي وما بين ١٩٣٢ ــ ١٩٣٩م، دخلها ١٧٠ أشكنازي وما بين ١٩٣٩ ــ ١٩٤٨م، دخلها حوالي ٥٦ ألف، الموسوعة الفلسطينية، المجلد الأول، ص٤٣٢.

دمشق بلغ عددها ٦٠٠ عائلة وقدر عدد أفرادها بـــ ٣ آلاف يهودي، وكان منهم يهود أشكناز إضافة إلى ٥٠ يهودياً إيطالياً وهذه الأرقام استناداً لما ذكره الرحالة اليهودي «بنيامين هشني» الذي زار بلاد الشام في العام المذكور.

في حين ذكر الرحالة «داوود هليل» الذي زار بلاد الشام قبل بنيامين أي في عام ١٨٢٤م انه وجد ٢٠٠ عائلة يهودية في دمشق و ٦٠٠ عائلة يهودية في حلب، و٢٥٠٠ عائلة يهودية في بيروت وطرابلس. وكانت طائفة اليهود في حلب أكبر الطوائف اليهودية في بلاد الشام ما عدا فلسطين، وذلك لأهمية حلب الاقتصادية.

وفي عام ١٨٥٦م قدر عدد اليهود في دمشق بحوالي ٥ آلاف يهودي، ورغم أن هذه الأرقام غير دقيقة إلا أنها مؤشر. ولكن يجب أخذها بعين الحذر، وذلك لفقدان الإحصاءات الدقيقة آنئذ.

وما يستدعي انتباهنا، أن وضع المرأة لدى الطوائف اليهودية في الشرق بشكل عام كان متدنياً، سواء من الناحية الاقتصادية أم الاجتماعية، فلم تشارك في الحياة الدينية أو الاجتماعية واقتصر نشاطها على تدبير شؤون المنزل وتربية الأولاد، وكان وضعها متدهوراً وكان عبء إعاشة الأسرة ملقياً على الزوج فقط. وكانت تخرج للعمل بالزراعة ضمن الأسرة، ولم تحظ بأي قدر من التعليم إلى فترة متأخرة من دراستنا، باستثناء بعض الحالات النادرة، وانتشرت ظاهرة تعدد الزوجات. وكانت العصمة بيد الرجل وكان اليهود لا يعترفون بزواج يهودية من غير يهودي ولا يرثها زوجها إن لم تسلم قبل وفاتها[1]، وحتى إرثها لم تحصل عليه في الغالب إلا عن طريق المحاكم، لذلك كان القضاة اليهود يمنحون المرأة حقها كي لا تلجأ إلى المحاكم الإسلامية. ولم يطرأ تغيير على وضعها حتى الحرب العالمية الأولى[2].

لهذا كان التغير الاجتماعي لدى اليهود بطيئاً، وظلت مؤسساتهم تمارس عملها على النمط الموروث والقديم إلى أن هبت عليهم رياح التغيير بفعل المؤثرات الصهيونية وما جاءهم من الغرب الأوروبي.

ولقد استطعنا أن نرصد أسماء الأسر اليهودية الهامة في سورية. وغابت عنا أخريات منها. وهي أسر من أصول عرقية متنوعة، أو عن طوائف يهودية متعددة. فمنها الاشكنازية والسفاردية والعربية والمستعرب وغيرها، ومن فرقهم المتعددة وهذه الأسر هي: أوديك،

---

(١) انظر: سجل المحكمة الكبرى بحلب رقم ١٥٣، ص١٦ وص١٧ وص٣٨ وص٨٥ وص١٢٦.

(٢) أنظر: أتينجر، صموئيل. يهود البلدان الإسلامية. ١٨٥٠ ــ ١٩٥٠م ص٦٧.ص٦٨.

أرليل، أشكنازي، آرازي، ألتون، بيجوتو أو بيتشوتو، بتاراندا، بنحور، بازينة، خمري، خطوب.

داود، دانيال، سلمون، السكروج، سلانيكي، سروكو، شعليا، طوطح، الفنال، فارحي، فوشة، كمخةجي، كرمونة، كدع، كتافاكو، كوارع، كومان، لينداو أو لينودة، اللاوي، لترنبونا، ميزبز، منة، ندافيت، نلوسا، يوسف، هراري[1].

وكانت أهم الأسر اليهودية في حلب من أصل إسباني مثل: بلانكا وجولدمان وباريديس وفرانكو ولم يكن يهود حلب من القرائين والسامرة بل كانوا (كوهن). وينسبون إلى هارون ولاوي، وإسرائيلي، وقد انضم إليهم في نهاية القرن السابع عشر بعض الأسر اليهودية من أصل إيطالي، وكان يهود حلب أيضاً من أصول قومية متعددة مثل: البرتغال ــ والألمان ــ والهنغار ــ والمولداف ــ ومع ذلك عاملتهم السلطات العثمانية كيهود محليين. وقد حافظت كل مجموعة من هؤلاء اليهود بعاداتها وتقاليدها واجتماعاتها الخاصة. وبقيت منعزلة عن الأخرى[2] حتى بداية نشاط الحركة الصهيونية.

أوضاع اليهود الاقتصادية في سورية:

لم يكن اليهود في سورية على درجة واحدة من الناحية الاقتصادية. فقلة منهم برزت في هذا المجال، وما تبقى كانوا كبقية أبناء الشعب السوري يعيشون من كد اليمين وعرق الجبين، وآخرون منهم كانوا فقراء، ففي دمشق برزت أسرة «فارحي» اليهودية السفاردية، أندلسية الأصل، عملت في الصيرفة والشؤون المالية، وإدارة الخزينة في ولايتي دمشق وصيدا بدءاً من عهد ظاهر العمر ١٧٥٠ ــ ١٧٥٥م/١١٦٤ ــ ١١٦٩هـ. وأول من برز من هذه الأسرة شحادة فارحي، الذي كان صرافاً وذا نفوذ كبير، وخلفه في ذلك ولداه رافائيل وجوزيف. وشاركهما في ذلك بعض أفراد أسرة الفارحي مثل سلمون وحاييم وموسى

---

(١) حصلنا على سماء الأسر اليهودية في سورية من مصادر ومراجع مختلفة منها: رستم، أسد، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا، المجلد٥ ص٦ وص١٧ و ص٢٠ وص٢٢ وص٢٣ وص٢٤. ثم يوسف حنا نصر الله، الكنز المرصود في قواعد التلمود ص١٤٤ ص١٤٥ ص١٤٦. ثم سجلات محاكم بلاد الشام. السجل رقم ٢٥٠. ص١١١ ص١٤١ ثم سجل القسمة البلدية بدمشق رقم ٣٢٧/لعام ١٢٤٧ ــ ١٢٤٩م. وكرد علي محمد، خطط الشام ــ أجزاء ٦. كتابنا: مجتمع مدينة دمشق جزءان، ثم كتابنا المرجع في وثائق تاريخية عن الشام في أثناء حملة محمد علي باشا، جامعة دمشق ٢٠٠٣ ــ ٢٠٠٤م وغيرها من المصادر والمراجع – إضافة إلى زيارة ميدانية للمقابر اليهودية في دمشق، وقراءة شواهد الأضرحة بالعبرية والعربية.

(٢) الأسدي، خير الدين، المرجع نفسه ص١٢٨ ــ ص١٣١ ثم الصباغ، د. ليلى، الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني – بيروت ١٩٨٩ ــ ج٢. ص٨٧٦.

فارحي، وقد حاقت بحاييم المصائب من جراء غضب والي صيدا عليه، وهو احمد باشا الجزار، وبوفاة الجزار، سافر حاييم إلى استانبول للعمل على تعيين والٍ خلفاً للجزار على ولاية صيدا، وهو سليمان باشا عام ١٨٠٥م/١٢٢٠هـ. وبلغ نفوذ حاييم فارحي درجة كان بها قادراً على عزل كل من يقف في وجه أسرته في ولاية دمشق وصيدا وحلب، ومع ذلك لم ينج حاييم من كيد الحاسدين، فأغروا صدر الوالي عبد الله باشا فأمر بإعدامه عام ١٨٢٢م/١٢٣٦هـ. فأعدم، الأمر الذي دفع بأخوة حاييم فارحي للانضمام إلى خصوم الوالي، وتمكنوا من عزل الوالي، ولم يكن ليتم لهذه الأسرة ذلك النفوذ السياسي لولا مواردها المالية الضخمة من خلال استلامها إدارة خزينة الدولة في دمشق، فلعبت دوراً سياسياً هاماً في بلاد الشام، حتى أن أهل دمشق ضجوا من ذلك، فرفعوا الشكاوى إلى الباب العالي يحذرون السلطان من خيانة اليهود وألاعيبهم لابتزاز الأموال، وأنه ليس من الجائز ائتمانهم على خزانة الدولة[1]، ولم يقتصر الأمر على آل فارحي بل برزت في مجال الاقتصاد أسر يهودية أخرى مثل: أسرة هراري ولينودة وأبو العافية واسلامبولي وسلونكلي وغيرهم. ونرى أربعة من آل فارحي وهم «حاييم وأصلان ويوسف ويحيى فارحي» وأربعة من آل هراري وهم «داود وإسحاق وهرون ويوسف»، واثنين من آل أبي العافية وهما «موسى ويعقوب» ويوسف لينودة وموسى سلونكلي وهارون اسلامبولي.

مجموع هؤلاء كانوا يملكون (١٤,٢٥٠ كيساً) وكل كيس يساوي ٥٠٠ قرش وكل مئة قرش تساوي ليرة ذهبية عثمانية[2] فهي مبالغ هائلة بمقياس ذلك الزمن.

وقد سيطر بعض اليهود على التزام الجمارك والأعمال الدفترية (المالية) العائدة لولاية دمشق، وسيطروا على الصيرفة والأعمال الربوية، ومارسوا دوراً استغلالياً بشعاً، فضج الشعب وجأر بالاحتجاج. حتى أن بعض الشعراء المعاصرين قال في ذلك:

يهود هذا الزمان قد بلغوا ... غاية آمالهم وقد ملكوا

المال منهم والجاه عندهم ... ومنهم المستشار والملك

يا أهل ذا العصر قد نصحتكم ... تهودوا قد تهود الفلك[3]

وقد استخدموا طرقاً ملتوية للحصول على الأموال، فاضطر السلطان محمود الثاني لعزل الصبارفة من ديوان السراية، وأمر بالاستعاضة عنهم بالغير ممن يحسنون القيام بهذا العمل، وعندما جاء البديل وجد دفاتر الديوان كأنما كتبت بالقلم القلفطيري أي باللغة العبرية التي لا

(١) الموسوعة الفلسطينية ج٣، ص٤٢٢و ص٤٢٣.

(٢) انظر: يوسف نصر الله. الكنز المرصود في قواعد التلمود. بيروت ١٩٦٨م. ص٢٢٢.

(٣) مجلة المجمع العلمي العربي، بدمشق، عام ١٩٢٩م. ج١١ ـ المجلد ٩. ص٦٤٢.

يفهمها سوى اليهود آنئذ، فاضطر الوالي لإعادة اليهود إلى مناصبهم خوفاً من وقوع ماليته في الارتباك.

كما استخدم صيارفة اليهود سبلاً لجمع الأموال من الفلاحين الذين عليهم دفع أموال الميري. مستغلين خروج قافلة الحج الشامي، بحسب وقوع شهر ذي الحجة من السنة الشمسية، فيدفعون الأموال سلفاً لمرافقي قافلة الحج على أن يحصلوها من الفلاحين، وكانوا يتلاعبون بقيمة النقد رفعاً وتخفيضاً على ضوء تأمين المرابح الهائلة. وكان على الفلاحين أن يدفعوا ليملؤوا بذلك جيوب اليهود، وبحلول القرن التاسع عشر ملك اليهود مساحات واسعة من غوطة دمشق وغيرها من البقاع الشامية[١].

كما سيطر اليهود على تمويل قافلة الحج، وكانوا يجنون منها المرابح الطائلة، وعندما كان ينافسهم آخرون كانوا ينصبون لهم المكائد والأفخاخ للتخلص منهم. ففي عهد والي دمشق ولي الدين باشا جيء برجل مسيحي من حمص من آل اسكندر، فدفع اليهود مبالغ كبيرة من المال لعزله، قيل إنها بلغت مليوناً وسبعمئة ألف قرش. وعندما جاء صالح باشا والياً على دمشق في ١٨٢٦م/١٢٤٢هـ تمكنوا من عزل اسكندر المذكور لكنه لم يوافقهم على قتله. وتمكنوا من قتله في عهد رؤوف باشا عام ١٨٢٨م/١٢٤٤هـ. ليكون عبرة لمن ينافسهم في الوظائف المالية الهامة في دمشق وغيرها[٢].

وفي عهد محمد علي باشا ١٨٣١ـ١٨٤٠م/١٢٤٧ـ١٢٥٦هـ أصيب بعض اليهود بنكسة اقتصادية نتيجة للترتيبات المالية الجديدة.. التي أجراها في بلاد الشام، ففقدوا بعض مناصبهم، لكن من جهة أخرى أصابتهم بعض الامتيازات لإزالة القيود عن أهل الذمة.

ويجب وفي هذا المقام، ألا يخطر على بالنا أن جميع اليهود عاشوا حياة الرفاه والبحبوحة في بلاد الشام. بل نرى أسراً عديدة منهم كافحت من اجل تأمين معاشها، فعملت في حرف متواضعة لا بل محتقرة مثل: حرفة البويجية والغناء في المقاهي (بيوت القهوة) وتعزيل حفر فضلات الإنسان والمراحيض. وجمع خرق الأقمشة البالية من المزابل وغيرها لصنع أكياس تباع للباعة لاستخدامها في صر السلع ومواد التموين، وبياعين للصوفات ليجعلوها حشواً للصرامي[٣] وبياعين للأمشاط المصنوعة من الحديد، وكذلك سمكرية (لحام التنك) وبيع الكتب والخياطة وصناعة النحاس والظاهزي (إدخال عروق من الفضة أو الرسم على

(١) لمزيد من الإيضاح يمكن العودة إلى كتابنا: يهود دمشق - دار المعرفة ١٩٩٤م. ص٢٠ ــ ص٢١ ــ ص٢٢و ص٥٧.

(٢) أنظر كتابنا: يهود دمشق. ص٢٤.

(٣) سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٢١/ص١٤٥ ص٢٠٨ ص٢٤٠ ثم سجل محكمة حلب رقم ١٥/ص٦٨٨ والقاسمي - محمد سعيد - قاموس الصناعات الشامية. ج٢. ص٢٢٠.

الأواني النحاسية) وباعة متجولين وفي الصناعات الخشبية والعاج والموزاييك والبروكار والدمسكو وفي الصباغة والعقادة والشموع وفتل الألياف وفي الطحن والصابون إلى غير ذلك من الحرف. وفي مطلع القرن العشرين عمل بعضهم في حمل المياه إلى البيوت[1]. وكان بعضهم من أصحاب البقاليات وورش لإصلاح السيارات والساعات والأحذية وتجارة الجلود والملابس. وكان ثمة خلاف في نشاط اليهود الاقتصادي في حلب ودمشق، وعندما تدهورت أوضاع اليهود الاقتصادية في نهاية الحرب العالمية الأولى لانفصال بلاد الشام عن تركيا، قدمت لهم مساعدات مالية من يهود أوربا (الحلوقان) ومن ابرز الأسر اليهودية في حلب أسرة بيجوتو الإيطالية التي خدم أفرادها لدى القنصليات الأجنبية، وسيرت بعض الأسر اليهودية القوافل التجارية إلى العراق وجنوا المرابح فيها.

أما ما يتعلق بالتنظيم الحرفي الذي كان سائداً في بلاد الشام قبل الثورة الصناعية في أوربا، فلم يصل اليهود فيه إلى المراتب العليا. وجل ما وصلوا إليه اليكيت باشي[2] الذي كان يعين من قبل شيخ الحرفة.

وقد برع اليهود بتجارة الرقيق قبل إلغائه فكان منهم الياسرجي والنخاس وكان البيع يتم في حلب وخان الجمرك بدمشق.

علاقات اليهود الدولية وموقفهم من الحداثة:

بقي اليهود على اختلاف طوائفهم منغلقين على أنفسهم ومعزولين عن يهود العالم إلى قيام التنظيمات في الدولة العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر ودخول محمد علي باشا إلى بلاد الشام فتحركت بذلك المياه الراكدة. وبخاصة بعد مقتل البادري توما الكبوشي[3] في دمشق عام ١٨٤٠م. ولقد شاهد منتصف القرن التاسع عشر العديد من التحولات الاجتماعية العميقة، تعرض فيها اليهود للمؤثرات الغربية، فأدخلت إلى مجتمعهم أفكار وأساليب الحياة الحديثة التي تتناقض مع ما كان عليه اليهود فزادت من تطلعات اليهود. للحصول على المساواة التامة مع المسلمين، ثم ظهرت الدعوات لإنصاف المرأة ومساواتها بالرجل.

---

(١) أتينجر، صموئيل. عالم المعرفة ص١٨٨.

(٢) كان مساعداً لنقيب الحرفة، وتعني رئيس الفتيان، وكان يشترك مع شيخ الحرفة بانتقاء أعضاء الحرفة، وناب عنه أحياناً. رافق – عبد الكريم، مجلة دراسات تاريخية. دمشق العدد الرابع. ص١٣٨.

(٣) يقول القنصل الفرنسي بدمشق دارفيو «اليهود أسوأ شعوب العالم، يبغضون المسيحيين كالموت. وهم دائمو التحفز لإيذائهم ويثيرون موظفي الدولة ضدهم، ومع ذلك فهم وسطاء تجاريون وصرافون يعرفون من أين تؤكل الكتف، يعرفون أسرار المهن كلها. وهم كتومون وبعضهم يملك بيوت دعارة سرية، وأكثرية المغنيات والراقصات منهم. وزادت صلة الأوروبيين باليهود بغضاً على بغض»، الصباغ. المرجع نفسه ج ٢، ص٧٦٦.

وتطلعوا لمحاكاة أساليب حياة الأوروبيين الذين احتكوا معهم كبعثات دبلوماسية أو تجارية، وأدى ذلك للصدام بين اتباع المحافظة والحداثة، وأثر ذلك بدوره على البنية الاقتصادية لليهود. وانتقل عدد ممن كان يعمل منهم بالحرف إلى العمل في التجارة والمهن الحرة، فأدى ذلك إلى اتساع علاقات اليهود بالأوروبيين، وتمتنت تلك العلاقة مع المستعمرين الأوروبيين أيضاً[(١)].

ثم تأسست في الخمسينيات أو الستينيات من القرن التاسع عشر العديد من المدارس اليهودية الحديثة بالإمبراطورية العثمانية والتي سعت لنشر فكر التنوير الأوروبية في أوساط يهود الشرق، فأقيمت في دمشق عام ١٨٦٥م أول مدرسة تابعة للأليانس وأقيمت مدرسة أخرى في حلب عام ١٨٦٩م. وقد كان الوضع الثقافي والتعليمي آنذاك في سورية متدنياً للغاية، وهكذا نرى أن ما تسمى بحركة التنوير اليهودية لم تصل إلى يهود سورية إلا في بدايات القرن العشرين، وقد ذكر افراهام المالح الذي تولى آنذاك إدارة إحدى المدارس اليهودية بدمشق «بالرغم من أن مدينتنا لا تبعد كثيراً عن حيفا إلا أن يهود حيفا أكثر تقدماً من الناحية الثقافية من يهود دمشق»[(٢)].

كان يهود دمشق يتحدثون اللغة العربية فقط، ولم تكن لهم أية معرفة باللغة العبرية أو باللغات الأوروبية إلا بعد تأسيس مدارسهم الخاصة بهم. ففي عام ١٩٠٩م كان في دمشق ١٢ مكتباً (مدرسة يدرس فيها ٣٥٠ تلميذاً يتعلمون أمور دينهم[(٣)] باللغة العبرية، ثم ما لبثت الأليانس أن درست اليهود في مدارسها التي أسستها في سورية اللغة العبرية، والعلوم العصرية لتقوية الإحساس بالوحدة بين يهود سورية ويهود أوربا[(٤)] ولتكون اللغة إحدى الروابط القومية لليهود. وقد قام بإحياء هذه اللغة أحد علماء الصهاينة اليعزر بن يهودا[(٥)] وأشرف على تلك المدارس نسيم بخر ١٨٤٨ ــ ١٩٢١م. واعتبر اليهود هذه اللغة من تراثهم. وتدرس من خلالها كتب شريعتهم وصلواتهم تقام بها، إلا أن العبرية الحديثة سهلت عليهم الكثير.

التعليم لدى يهود سورية:

---

(١) أتينجر. صموئيل. المرجع نفسه. ص٩١ ــ ص٩٢.

(٢) أتينجر. صموئيل. المرجع نفسه ص٢٤١ ــ ٢٤٢ ــ ٢٤٣.

(٣) بطرس البستاني، دائرة المعارف (مادة دمشق) مجلد ٨. ص١٠ ــ ص١٢.

(٤) هذا كان من ضمن المخطط الصهيوني لتوحيد جهود اليهود باتجاه الهدف المرسوم لهم في فلسطين.

(٥) ولد في اوشكي في ليتوانيا عام ١٨٥٨م ودفن في القدس عام ١٩٢٢م.

مر اليهود في هذا المجال في مرحلتين كما نرى، الأولى وهي ما نسميها مرحلة التعليم التقليدية، وكان عدد الذين يرتادون مدارسهم قليلاً، ووقفاً على الأغنياء منهم، أو من ينخرط في سلك الدين، أو خدمة للأغراض الإدارية والتجارية والمصرفية. وكانوا يعتمدون اللغة العبرية القديمة أساساً في التعليم، خاصة وأن التعليم في سورية كان تعليماً دينياً بالدرجة الأولى لكل الطوائف. وعندما أنشئت المدارس التبشيرية التحق بها النصارى وبعض الطوائف الأخرى، وتعلموا فيها اللغات الأوربية مع شيء من العربية، وكانت تلك المدارس تخدم الدول الأوربية ومخططاتها في المنطقة، لكنها من جهة أخرى نشرت بعض العلوم العصرية، والوعي الصحي الذي خفف من آثار الجائحات الوبائية المدمرة (مثل الكوليرا، والطاعون، الجدري الخ).

وفي عام ١٨٦٠م تأسست في باريس جماعة لمساعدة يهود الشرق تحت اسم «جماعة كل شعب إسرائيل أصدقاء» وذلك لشد يهود الشرق ومنهم يهود سورية إلى يهود الغرب ولتقوية الرابطة بين الطرفين، فكان لا بد من الارتقاء بيهود الشرق فكرياً وروحياً ليكونوا أهلاً لتقوية تلك الرابطة معهم، ولتحقيق مشاريعهم الصهيونية، فأصدرت هذه الجمعية صحيفة «جويش كرونكل» وغيرها من الصحف. وقامت تلك الصحف بنشر مشاكل اليهود خاصة في الشرق على صفحاتها، لتعريف يهود الغرب بها وليساعدوهم على حلها[(١)].

وكانت مرحلة التعليم التقليدي لليهود قبل التحديث والعصرنة تتم في مدرسة «بيت سيفر» مقامة إلى جوار معابدهم، يتلقى فيها الطفل المعارف الأولية للقراءة ويدرس أجزاء من التلمود، ثم ينتقل التلميذ إلى المرحلة الأعلى التي تسمى همدارش «المدرسة» والتي يدرس فيها مدرس واحد يطلق عليها «بيت زف» أي بيت سيدنا، وكان المدرس يمسك بالعصا في الصف الذي يضم ٢٠ تلميذاً وكانوا يدرسون كتاب الصلوات وبعض آيات من العهد القديم اعتمد المدرسون على ترجماته بلغة اللادينو. ولم تبدأ هذه المدارس بتدريس مبادئ الحساب واللغة العبرية إلا في القرن التاسع عشر. وكان تدريس بعض فصول التلمود في الفصول المتقدمة، وكان هذا التعليم في هذه المدارس متدنياً للغاية، وكانت ترجمات العهد القديم المتداولة قديمة جداً لدرجة لم يفهمها التلاميذ ولا الأساتذة إلا بصعوبة بالغة.

أما مدارس الأليانس، فيما بعد، فقد كانت فصولها تشمل قسماً خاصاً للبنين وآخر للبنات. أما أثرياء اليهود فقد أرسل بعضهم الأبناء للدراسة في المدارس المسيحية، لذلك قامت

---

(١) أتينجر، صموئيل، المرجع نفسه، ص٧٤.

الأليانس بفتح مدارس جديدة في سورية عام ١٨٨٠م للبنين، وفي ١٨٨٣م. مدارس للبنات. وفي ١٩١٠م، افتتحت مدرسة التحق بها مئات التلاميذ اليهود. وأصبح معظم قادة الحركة الصهيونية من خريجي هذه المدارس التي عرفت يهود الشرق بالثقافة الغربية (العنصرية).

زي اليهود:

أُلزِمَ اليهودُ شأنَ المسيحيين بزيٍ خاص ليميّز كل طائفة عن الأخرى «كأهل ذمة» ولقد مر ذلك عبر مرحلتين: أولاهما بدءا من قيام دولة الإسلام وحتى منتصف القرن التاسع عشر «عصر التنظيمات في الدولة العثمانية» ثم المرحلة الثانية بدءاً من نشر المساواة، فألغيت تلك القيود ومعها قيود أخرى وأصبحوا تقريباً كالمسلمين في مظهرهم عدا ما أراده اليهود لأنفسهم. فقد حافظ العثمانيون على تلك القيود وألزموا اليهود بأزياء تميزهم عن المسلمين وبقية أهل الذمة، فمنعوا من ركوب الخيل واقتناء الجواري ومن رفعهم أصواتهم على المسلمين أو حمل السلاح وعدم المرور على يمين المسلم في الشارع. وأجبروا على دفع الجزية وأعفوا من الخدمة في الجيش.

ورغم أن السامرة اعتبروا من اليهود غير أنهم ميزوا بزيهم الخاص عن القرائين والربانيين الذين كانوا يميزون باللون الأصفر والتربان الأزرق أما السامرة فكان غيارهم أحمر اللون وكان التربان لليهودي أصغر حجماً من تربان المسيحي، والأخير أصغر من تربان المسلم. وعندما أبطل السلطان العثماني عام ١٢٦٣/١٧٩٩ ـ ١٢٦٤هـ لبس القاووق، قام اليهود بإبطاله. وأبقوا على سوالفهم الطويلة. أما بقية ثيابهم فبقيت كثياب الآخرين. ولكنها تختلف بين غنيهم وفقيرهم من حيث نوع القماش والفراء[(١)].

وقد اختلف زي المرأة اليهودية عن زي بقية نساء سورية من حيث اللون والمظهر الخارجي إلا أنها كانت محجبة شأن بقية النساء «مسلمات – ذميات» لكن حجاب المرأة اليهودية تميز بالإزار أو الملاءة وكانت تضعها على رأسها دون أن تكشف منه شيئاً وكان الإزار ابيض اللون بالنسبة للعازبات منهن، أما المتزوجات فكان مصنوعاً من الشيت القطني «ساذجاً أو مخططاً أو على شكل مربعات رقعة الشطرنج» وكانت اليهودية تترك إحدى ذراعيها حرة خارج الإزار، وكان بعضهن يرتدين الإزار أصفر اللون، لدى السامرية أحمر، والحذاء لديهن من لونين متباينين لتمييزهن عن المسلمات. واستغلت نساء اليهود إهمال مراقبة السلطات لزيهن، فأصبحن يرتدين كزي النصارى أو المسلمات. وقد لاحظ الصدر

---

(١) تطالعنا سجلات محاكم الشام وخاصة تركة المتوفين من اليهود بما كان لدى أغنيائهم من ثياب، من حيث العدد والأنواع. وأكثر ما يستدعي الانتباه أيضاً عدد الطواقي في تركة اليهودي، فقد ارتدوها كتقليد ربما يعود للحقبة التاريخية في تيه سيناء. وما زال الكثير منهم حتى الآن يستخدمها. كتابنا: مجتمع مدينة دمشق. ج٢. ص٦٢٥.

الأعظم يوسف باشا ذلك عندما مر بدمشق كقائد للحملة العثمانية إلى مصر لطرد نابليون منها، فأمر بالتشديد في قيود الزي على أهل الذمة. وقد سعى اليهود للتخلص من تلك القيود بالحصول على حمايات القناصل الأوروبيين وأصبحوا يتزيُّون بزيهم[١] وعندما جاء إبراهيم باشا المصري إلى بلاد الشام ألغى تلك القيود عن أهل الذمة وبخروجه عام ١٨٤٠م أعيدت تلك القيود، إلى أن صدر فرمان عبد المجيد الذي أزال به الفروق في الزي بين أهل الذمة والمسلمين. وتمّ ذلك إثر انتهاء حرب القرم. وفي عام ١٨٥٦م بدأت بذلك مرحلة جديدة في عالم الأزياء بشكل عام. فحل القنباز الطويل والشالة والزنار الحريري والطربوش الإسلامبولي محل الثياب القديمة. وصغر حجم العمامة وحل قماش الاغباني محل القماش على الطربوش، واختفت الطيلسانات الطويلة فوق الثياب وبدا الرجال يحلقون شعر الرأس ويشذبون اللحية، ويرسلون الشوارب. وبقي الحجاب لدى النساء وأصبحن يقلدن في ذلك الأوربية «خاصة المرأة المسيحية واليهودية» وأصبحن يظهرن كل يوم بزي جديد، وينبذن الأقمشة المحلية ويفضلن الأوربية عليها، واعتبرن كل قماش غير أوربي شيطاناً رجيماً[٢].

وأول من قلد الأزياء الأوربية هم صفوة اليهود، رغم اعتراض حاخاماتهم الذين حظروا على نساء اليهود التزين والاختلاط بالرجال الأجانب من المسلمين وغيرهم، وما بين ١٨٥٢ ـ ١٩١٤م قام شباب اليهود بتقصير الأجزاء العليا من لباسهم، وأطالوا السفلى، وبدأوا يقصون شعورهم ويلمعون أحذيتهم ويتكحلون، أما فتيات اليهود فسرن في شوارع المدن حاسرات مكشوفات الرؤوس والوجوه، يرتدين ملابس غربيّة لدرجة الفجور وملابسهن قصيرة حتى الأفخاذ دون أن يغطيها سوى جورب رقيق. ويرتدين معطفاً أسود كمعطف القسيس يغطي أجسادهن من الإمام إلى الخلف فخلعن جميعاً برقع الحياء[٣].

أعياد اليهود:

وكان لديهم أعياد شرعية وأعياد محدثة. وثمة اختلاف بين أعياد اليهود الربانيين والسامريين، من حيث الاحتفال ومكان التضحية وأيام الأعياد الخ.... ويذكر الأخوان راسل أعياد اليهود في حلب فيقولان إن الأعياد الشرعية هي خمسة أعياد:

١ ـ عيد رأس السنة اليهودية وموعده اليوم الأول من شهر تشري وهو أحد شهور السنة اليهودية ويصادف ٢١ أيلول. وكان الربانيون يحتفلون به بنفخ الأبواق أثناء الصلاة في

---

(١) مجهول، مذكرات تاريخية، مطبعة القديس بولص، لبنان، ص٢٤٠ ـ ص٢٤٣.

(٢) القساطلي، نعمان، المصدر نفسه، ص١٢٦.

(٣) احتفل اليهود في أعيادهم بحرية تامة وتلقوا فيها قمة أفراحهم.

معابدهم يثنون قرون الكباش وفيه ذكر افتداء الله سبحانه لإسماعيل بعد أن كاد إبراهيم يذبحه تنفيذاً لأوامر الله سبحانه وتعالى وفيه أطفال اليهود يثنون قرون الكباش.

٢ ــ عيد صوماريا أو الكبور «الغفارة أو الكفارة» مدته لدى الربانيين خمس وعشرون ساعة تبدأ من غروب الشمس التاسع من تشرين وتنتهي بعد مضي ساعة من غروبها. وهو يوم الصوم الكبير لدى اليهود.

٣ ــ عيد المظلة أو الظلال أو قبة العهد، وكان الاحتفال به في الخامس عشر من تشري، وهو سبعة أيام كلها أعياد عندهم، وتبنى قبة العهد في الطرق وأماكن مختلفة حسب أوضاع بيوتهم «فوق المصاطب، أمام الغرف العليا، وفي فسحات البيوت، وكان على كل أسرة أن تبني هذه القبة مهما كان وضعها المادي، ويستضيف اليهود زواراً من مختلف المذاهب والأديان ويرسلون الهدايا من الطعام والحلويات إلى أصدقائهم»(١).

٤ ــ عيد الفطير: أو عيد الفصح ويكون في الخامس عشر من نيسان. ويعتبر عندهم من أجل أعيادهم، احتفل به الربانيون ثمانية أيام، وفيه يأكلون الفطير، إذ يعتقدون أن الله قد خلص اليهود من يد فرعون فأغرقه، وخرجوا من التيه الصحراء يأكلون اللحم والخبز والفطير. ولا يجوز أن يبدأ لدى الربانيين يوم الاثنين أو الأربعاء أو الجمعة، ويحجون فيه إلى القدس حيث يضحون على الصخرة المقدسة، أما السامرة فيحجون فيه إلى جبل جرزيم. ويضحون على صخرته.

٥ ــ عيد العنصرة أو شبعوت أو عيد الخطاب، ويسمى بالعبرية «عيد عشرتا» وموعده في السادس من شهر «سيوان» المقابل لــ ٣أيار، ويجب أن يكون لدى الربانيين يوم ثلاثاء أو خميس أو سبت، ويعتقد اليهود أنه في هذا اليوم خاطب الله بني إسرائيل مع موسى، ونزلت فيه الفرائض والوصايا العشر:

وفيه يأكلون القطائف بدلاً من (المن) الذي أنزله الله عليهم في هذا اليوم(٢).

أما العيدان المحدثان فهما:

١ ــ عيد الفوز (البوريم) موعده الرابع عشر والخامس عشر من شهر آذار يسبقه صوم أستير(٣) وهو بمثابة كرنفال لديهم يقضونه في مرح وحبور.

---

(١) أتينجر. صموئيل، المرجع نفسه. ص٦٧.

(٢) أنظر: القلقشندي، المصدر نفسه، ج٢. ص٤٣٧. محمود، سلام شافعي. المرجع نفسه. ص٢٠٧ ــ ص٢٠٩.

(٣) ثمة رواية مؤادها انه بعد تدمير الهيكل عام ٥٨٦ق.م سبي اليهود إلى بابل، ولقد وقع كسرى الفرس أزدشير بن بابك بغرام فتاة يهودية اسمها (استير) فتزوجها. وعندما صمم وزيره هامان على استئصال شأفة اليهود، وحدد يوم ١٣ آذار لذلك كانت استير وقبل وقوع الكارثة بقومها تقوم بالسعي لقتل الوزير. فنزل كسرى عند ارادتها. وكتب عهداً بالأمان لليهود، فاتخذوا من هذا اليوم عيداً لهم. القلقشندي، المصدر نفسه. ج٢. ص٤٢٩.

٢ ــ عيد الحنكة أو الحانوكة[١] ومعناه التنظيف، لأنه فيه نظفوا الهيكل من تماثيل الآلهة الوثنية، ويحتفل به الربانيون دون غيرهم من طوائف اليهود، ويستمر ثمانية أيام، أولها الخامس والعشرون من شهر «كسيلو» الموافق لــ ١٣ كانون الأول، ويوقدون في الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابه سراجاً وفي الليلة الثانية سراجَيْن وهكذا إلى الليلة الثامنة ثمانية سرج.

ويذكر الأخوان راسل: أن يهود حلب كانت لديهم مواسم صيام كصوم «كيداليا» في الثالث من تشري، ويعقب عيد رأس السنة الجديدة مباشرة، ويبدأ الصوم الوحيد لعيد الموزاييك في العاشر من تشرين الموافق لــ ٢٣ أيلول، وهو أكثرها قساوة صوم ٢٤ ساعة كاملة، وقلما يعفى أحد من صوم الكفارة (صوم كيبور).

ثم الصوم الثاني بمناسبة رجوعهم من الأسر. ويتم في اليوم العاشر من شهر «نيبت» ويقع ما بين كانون الأول وكانون الثاني، وهو في ذكرى حصار الجيش الكلداني للقدس. ثم صوم استير والصوم الرابع قبل عيد البوريم وصوم خامس وسادس في ذكرى دمار القدس. وهناك أيام للصوم الطوعي لا داعي لذكرها هنا.

أفراح وأتراح اليهود في سورية:

أقيمت أفراحهم في مناسبات عدة. وكان لهم فيها تقاليد معينة شأن بقية الطوائف التي يلتقون معها أو يختلفون، بحسب الموروث والعقيدة، وكانت أفراحهم تتم في مناسبات عدة. منها ختان ذكورهم وفي أعيادهم الدينية التي ذكرناها. وفي أعراسهم، وفي مناسبات أخرى، وشكلت الأعراس ذروة أفراحهم. وكان الاحتفال بالعرس مزيجاً من عادات المسلمين والنصارى وتتم في هذه المناسبة إجراءات دينية ومدنية، وكانت الفتاة اليهودية تخطب إلى أهلها صغيرة، أي عشية نضجها، ويتم زواجها بعد خطبتها بعدة أشهر، ولا يكون زواجها إلا من أبناء دينها وبخاصة أقرباءها وكانت عادة العريس أن يسأل أهلها عند خطبتها، مايرون وهبها لها من المال[٢].

---

(١) تعود مناسبة هذا العيد إلى عام ١٦٥ ق.م، عندما كانت بلاد الشام تحت حكم البطالمة، فحاول انتيخوس أبيفانس إرغام اليهود على عبادة الأصنام، إلا أن كاهنهم الأكبر (مناتيا) قاومهم واستطاع ابنه يهوذا استعادة الهيكل وقهر جيوش البطالمة، وحطم تماثيلهم وزود الهيكل بمذبح جديد، واضاؤوا الهيكل رغم فقدان الزيت المطلوب. ولهذا يحتفلون بهذه الذكرى بإيقاد القناديل ليلاً على أبواب بيوتهم. واتخذوا من ذلك عهداً سموه عيد الحنكة أو الحانوكة، أنظر محمود، سلام شافعي، أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٥٥م. ص٢١٠ ــ ص٢١١.

(٢) القساطلي، نعمان، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء. ص١٢٩.

وكانت العادة كتابة ما يسمى (قنيان) بين الخطيبين. وهو بمثابة عهد يسمونه «شيطاراً» يعيّنون، بموجبه المهر، وما اتفق عليه من شروط. وفي اليوم المحدد تعقد جمعية يسمونها «كتبة» فيستلم العريس من العروس ما اتفقا عليه، وبعد ثلاثة ايام من ذلك تكون حفلة الزفاف المعروفة لديهم باسم «القدوس»(١).

وكان العرس لدى اليهود مشهوراً، بما يتم فيه من مظاهر الفرح، حيث تقام وليمة لمدة سبعة أيام كاملة، للأقرباء والأصدقاء. وقد يظهر بينهم عدد من نساء المسيحيين والمسلمين المدعوات، وتعزف الموسيقى ويرافق ذلك الرقص، وأحياناً يقدم المهرجون ألعابهم، وكانت العادة أن يشارك الجنسان في إحياء العرس.

وكان اليهود شديدي التمسك بهذه التقاليد(٢).

وعند إحضار العروس إلى بيت العريس تصاحبها أمها وقريباتها، فتجلس على كرسي ذي مسندين «فوتيل» في وسط إيوان مفتوح، وتشعل شمعات رقيقة أمامها، وتغطى بحجاب أحمر من الشاش، يشف عن وجهها وثيابها. وتطبق جفنيها وأحياناً بشدة، أما بشرتها فكانت تطلى بمادة حمراء وقد تضع إحدى يديها على ابزيم حزامها، وأحياناً تكون ثيابها من الحرير البندقي «الفينيسي» وتزينها المجوهرات الذهبية بالأحجار الكريمة واللآليء، وتجلس القريبات على كراسي من حولها. وبقية النسوة يكن محجبات، ولم تختلف الاحتفالات بهذه المناسبة بين يهود حلب ودمشق في مجملها.

فتبقى العروس على الحال المذكور حتى ظهور الرجال الذين يقومون بالإجراءات الدينية المطلوبة. وحالما تنتهي الطقوس المذكورة، يأتي الرجال بموكب يتقدمهم الحاخام ومن ٢ ــ ٣ من الربانيين، ويدخلون إلى مكان العروس. فتتوقف الموسيقى والغناء ويقود العريس والده إلى يسار عروسه، ويغطي رأسيهما بنقاب صوفي يسمى «طليطة» أي طيلسان، ويقدم العريس لعروسه قطعة من الفضة. فتأخذها ويشهد بذلك رجلان، ليس لهما قرابة بهما ويخاطبها بعبارات عبرية «هاري آن مقديشت لي بي طباعت زكيران موسى وإسرائيل» أي أنت مقدسة لي بشريعة موسى وإسرائيل، ويعود والد العريس إلى الوراء، ليقدم للحاخام زجاجتين من الخمر، فيبارك ذلك بدعاء باللغة العبرية، ثم يشرب جرعة وتدار على الحاضرين، فيشرب كل واحد منهم جرعة، وتعاد إلى الحاخام، فيرميها على الأرض لتتحطم وتسفح ما فيها من الخمرة، وبعد ذلك ينزع الحجاب عنهما، فيتقدم العريس لتقبل التهاني من أصدقائه، ويصحبونه إلى بيته الخاص، حيث يجتمعون على وليمة كبيرة تكون معدة سلفاً

---

(١) كرد علي محمد. خطط الشام. ج٦. ص٢٩.

(٢) تاريخ حلب الطبيعي في القرن الثامن عشر، الأخوان ألكسندر وباتريك راسل ــ ترجمة خالد الجبيلي، حلب ١٩٩٧م. ص٢٥٥.ص٢٥٦.

ومكونة من الفواكه والحلويات المتنوعة. في حين ذلك تصل العروس إلى بيت الزوجية بصحبة النساء ونصدح الموسيقى يرافقها الغناء، وتبقى قريبات العروس حتى نهاية الأسبوع، أما بقية النساء فينصرفن مع الليل، وبعد زواجهما يمسك العريس عنها خمسة عشرة يوما.. وعليه أن ينغمس في حوض خصوصي «ينبطل» وفي اليوم الثاني يدعو عشرة رؤساء دينيين ليولم لهم، وعلى رئيسهم أن يبارك سبع مرات قبل الأكل كما بارك على كأس الخمر يوم الزفاف[1].

ـ أما عادات السامرة في هذا المجال فلا تختلف عما كان لليهود، ولكنهم كانوا يجوزون الزواج ثانية، إذا كانت المرأة عاقراً أو مريضة أو ذات عيب شرعي[2].

وبذكر ليون مودينا، أن يهود حلب كانوا يتزوجون في سن مبكرة ومهما كانوا فقراء، وأن تعدد الزوجات نادرا ما حدث بين اليهود، ولا يحدث إلا في حالة العقم، أو الرغبة في إنجاب الأطفال الذكور، ومن الشائن أن يتزوج الرجل زوجتين دون أي عذر[3].

وفيما يتعلق باحتفال اليهود بختان أولادهم فكانت مناسبة مفرحة، ويتم ختان الولد بعد يوم من ولادته، فإذا كان من سبط إسرائيل وبكرا لوالديه، وجب على أبيه أن يفتديه من كاهن من سبط هارون فيضع الطفل في حجره قائلاً لوالده هذا المولود حق سبط الكهنة، فيستوهبه أبوه منه بمقدار معلوم من الفضة، وعند بلوغ الطفل سنة يأخذه أبوه كل سنة إلى وليمة قدوس أو زفاف، فيطعمه من طعام السعوداه، فإذا بلغ الثانية عشرة يؤمر بصيام ذلك اليوم، وإذا بلغ الثالثة عشرة يلبسونه «كنفوت» وهي صدرة تربط أطرافها بفتائل الغزل، ويشد على رأسه وعضده الأيسر «تيفلين» عبارة عن سير من الجلد يشتمل على الكلمات العشر من الإصحاح الأول من سفر الوصايا، وحينئذ يعتبر رجلاً متمماً صلاة الجماعة التي لا تتم إلا بعشرة رجال ويرث سهمين من تركة أبيه[4].

المآتم والأتراح:

تعتبر ذروة الأحزان لديهم عندما يرحل أعزاؤهم عن هذه الدنيا ويحاولون عند حضور أحدهم المنية، أن يجلس اثنان منهم عند قدميه يذكرانه بقولهما «شيماع إسرائيل ادوناي إيلوهيو إسرائيل أدوناي أحد» أي إسرائيل الديّان إلهنا واحد، فإذا قضى وضعوه على المغسل

---

(١) كرد علي. محمد. خطط الشام. ج٦. ص٢١٨.

(٢) كتابنا: مجتمع مدينة دمشق، ج٢، ص٧٠٦.ص٧٠٧. كما جاء في التلمود «أن امرأة ما إذا أساءت إدارة البيت أو وجد الرجل امرأة اجمل منها فله الحق في أن يطلقها» أنظر: خان ظفر الإسلام. التلمود تاريخه وتعاليمه – دار النفائس. د. ت ص٥٨.

(٣) تاريخ حلب الطبيعي. ص٢٥٦.

(٤) كرد علي – المرجع نفسه. ص٢٨٩.ص٢٩٠.

«اللوحوت» فتغسل الجثة بماء فاتر ثم يكفن بثوب من الكتان ويعيّب بالتقريض، كي لا يطمع به نباشو القبور، ثم توضع الجثة في النعش «الأوروت» ويقرأ عليه قداس (أي صلاة الميت ليوارى في الثرى، ويقول أحد الحاضرين بتكرار يا روح ديان ها ايميت، أي تبارك من شرع الحق. ومن مرافقي موكب الجنازة أو المارة، يرددون القول: «عينو لو رأوا، ويادينو لو شافيخو بيدام هذه» أي عيوننا ما رأت وأيدينا ما سفكت هذا الدم، وتجهز الأطعمة المتنوعة، وترسل إلى أهل المتوفى، ويقوم بذلك أحد الحاضرين، ويبارك لهم بالقول: «با روح ميناحيم أبيلين» أي تبارك الذي يواسي الحزانى. ويبقى أهل الميت ملتزمين بيوتهم، لا يقومون بأي عمل، ويسمون ذلك وبالتأبيل أي الحداد، وفي اليوم السابع يصنع الطعام للفقراء، وكذلك اليوم الثلاثين، وبمرور تسعة أشهر من وفاته.

ونادراً ما يستأجرون نادبات، بل كان يقوم بذلك نساؤهم، ويقمن بزيارة الضريح في صباح اليوم التالي، وفي اليوم السابع والثالث عشر[١].

أما مقابر اليهود فكانت خارج مدن وحواضر استقرارهم، ففي دمشق كانت المقبرة الأساسية لليهود تقع إلى الجنوب منها وما زالت حتى الآن، وكانت عادة أهل المتوفى أن ينقشوا على ضريحه اسمه واسم والدته وسنة وفاته وصورة لأداة حرفته في الحياة الدنيا، فمثلاً النقاش رسم شاكوش، والخياط رسم المقص وهكذا أما المرأة المتوفاة فكان يذكر اسمها واسم زوجها دون ذكر لأسرتها أو اسم أبيها، والضريح عبارة من كتلة واحدة من الصخر بازلتي أسود أو مزاوي أبيض وفي الحالين على شكل متوازي مستطيلات نافر قليلاً من جهة الرأس، ولقد استخدم اليهود التقويم العبري في ذكر الوفاة وإضافة صورة للنجمة السداسية، على زعمهم أنها نجمة داوود[٢] ولقد أقيمت أضرحة لقبور بعض حاخاماتهم على انفراد. وثمة كنيس صغير، استخدم على ما يبدو للقيام بالمهام الجنائزية.

عاش يهود سورية في هدوء واطمئنان لما لاقوه من معاملة حسنة من الحكومات الإسلامية المتعاقبة على حكمها. وتمتعوا بحريتهم الدينية الكاملة، وكانت الملاذ الآمن عندما عزّ عليهم وجوده في أوربا العنصرية، وعندما هبت رياح التغيير على أوروبا بفعل النهضة الأوربية والثورة الصناعية فيها، سعت دولها متدافعة بالمناكب، للحصول على المستعمرات والأسواق لتصريف ما زاد عن حاجاتها من الناتج الصناعي، والحصول على المواد الخام،

---

(١) كرد علي، محمد، خطط الشام. ج٦. ص٢١٧.

(٢) النجمة السداسية هي نجمة كنعانية. ولها فلسفتها، وجدت في مقابر ومعابد الكنعانيين في أكثر من مكان وقبل وجود اليهود في بعض فلسطين بقرون عديدة. وفي كنيسة إزرع (البلد) والتي كانت في الأصل معبداً كنعانياً. توجد النجمة السداسية في سقفها من جهة الشرق، فسرقة اليهود لتراثنا العربي القديم وادعاؤهم ملكيته مازال ديدنهم.

وتحقيقاً للنزعات القومية الشوفينية رأت تلك الدول في أقطار الوطن العربي التي تقبع قبالتها، والمحكومة من الدولة العثمانية ضالتها المنشودة، فكان لا بد لها من السعي لتمزيق أجزاء الرجل المريض، وذلك بجهودها الحثيثة من جهة، وبمساعدة العملاء من جهة أخرى. وفي نهاية القرن الثامن عشر، وجه نابليون نداءه المشهور لليهود، طالباً منهم التأييد وواعداً لهم إعادة فلسطين لهم. وفي بريطانيا الخصم الاستعماري اللدود لفرنسا، كانت قد تشكلت فيها عام ١٧٦٠/١١٧٤هـ. منظمة انجليزية يهودية مدعومة من الحكومة البريطانية، قوامها اليهود السفارديم ثم الاشكناز، ترأسها عام ١٨٢٥م الرأسمالي الإنجليزي اليهودي موسى مونتيموري كان له اليد الطولى في إنشاء المستعمرات اليهودية في فلسطين، وأقام هذا المجلس صلة مع يهود دمشق، عندما قتل البادري توما الكبوشي عام ١٨٤٠م فأنقذ اليهود الجناة من حبل المشنقة.

وكانت تلك الحادثة مناسبة للمزيد من الاتصال بيهود سورية. إذ كانوا منكفئين على أنفسهم، معزولين في حاراتهم، ينصبّ همهم على ما يجنون من مرابح مادية، وكان شيوخ حاراتهم يمثلون صلة الوصل مع السلطات العثمانية وبعضهم كان على صلة بالقناصل من خلال كونهم حمايات لهم.

وعندما أعلنت المساواة وإلغاء القيود المفروضة على أهل الذمة نهائياً في عام ١٨٥٦م وإنشاء (كل شعب إسرائيل أصدقاء) عام ١٨٦٠م وقيامها بفتح مدارس لها، تقوم بتدريس المناهج الأوروبية الحديثة في بعض الأقطار العربية، نشأ تيار من اليهود مستنير الفكر يمثل اتجاهاً معاكساً للاتجاه التقليدي الديني القديم، ناهيك عما حصل على الساحة العثمانية من تحولات عميقة واتساع علاقة اليهود بالغرب من خلال التجارة والحمايات متمثلاً في النخبة الثرية والمثقفة منهم، والتي اطلعت على الفكر الصهيوني في الغرب، وأسهمت في ذلك الصحف العبرية التي عُنِيَت بأخبار اليهود في العالم، ومع ذلك لم تشارك في البداية المؤسسة الدينية التقليدية المحافظة بالأنشطة الصهيونية، بالرغم من إنشاء بعض المدارس ذات الاتجاه الصهيوني في بغداد والبصرة في نهاية ١٩١٣م.

وقد سعى الصهاينة لدى السلطان عبد الحميد الثاني لأخذ موافقته على إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، عندما قابله تيودور هرتزل، وبمساعدة من عمانويل قره صو المحامي اليهودي الصهيوني، إلا أن السلطان عبد الحميد رفض ذلك رفضاً قاطعاً، رغم العروض التي قدموها. الملايين من الليرات الذهبية، والتغطية الإعلامية في الصحف الأوروبية لتبرئة العثمانيين من دم الأرمن.

فأدرك الصهاينة أن لا سبيل إلى تحقيق حلمهم إلا بإزاحة السلطان عبد الحميد، فاشترك اليهود بالتنظيمات السرية وعلى رأسها جمعية الاتحاد والترقي لإزاحته عن العرش عام ١٩٠٨م. وباستلام الاتحاديين السلطة عمل اليهود في اتجاهين.

الأول: خلق الانقسام بين الأتراك والعرب، ثم الهجرة المكثفة إلى فلسطين، التي لم يحرك الاتحاديون ساكناً لمنعها، وانعكست ظروف الدولة العثمانية السيئة على فلسطين إبان الحرب العالمية الأولى، فرحل عنها عدد كبير من اليهود في هجرة معاكسة، ولم يعودوا إليها إلا بعد احتلالها من قبل الانكليز وصدور وعد بلفور في / نوفمبر / ١٩١٧م. وتوقيع اتفاق سان ريمو عام ١٩٢٠م ووضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وتعيين المندوب السامي الإنجليزي اليهودي هربرت صموئيل، فبدأت الهجرات المكثفة اليهودية إليها، وأسهم يهود العراق بشراء الأراضي لصالح اليهود[1].

وعندما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، وصلت إلى سورية عدة شخصيات يهودية وبينهم بعض رجال الأعمال والمفكرين الصهاينة أمثال: «يهود أبو رلا، يوسف ريفلين، افرام المالح، حاييم نحمان بياليك، وبيرل كاتسنلسون وناحوم جولد مان وشخصيات أخرى عديدة» لدراسة أوضاع اليهود عن كثب.

ولقد لعب الاتحاد الدولي لليهود السفارديم دوراً نشيطاً في نشر الفكر الصهيوني، فشكل قادته فروعاً عديدة في سورية، وأرسلوا مدرسين صهاينة لتعريف يهود سورية إلى طبيعة الأوضاع السائدة في فلسطين ولربطهم بالحركة الصهيونية.

ونشط الصهاينة في حلب بُعيدَ الحرب العالمية الأولى ثم تشكلت في دمشق عام ١٩٢٩م جماعة الرواد الصهاينة تمثلت أنشطتها في تشجيع اليهود على الهجرة والاستيطان في فلسطين. وكان «حاييم أوربا» من ابرز أعضاء هذه الجماعة، وعمل الكثير لتمكين يهود سورية من الهجرة سراً إلى فلسطين، وفي الحقبة ما بين الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، تشكلت في سورية منظمتان هامتان للصهاينة هما «منظمة مكابي» ومنظمة «بني بريت» وساعد الجنود اليهود الذين وصلوا إلى حلب إبان الحرب العالمية الثانية[2] على

---

(١) باعت الأسر الارستقراطية التي كانت تسكن داخل فلسطين الأراضي لليهود في سهل بن عامر. أما الأسر الساكنة خارج فلسطين فهي: آل بسترس، سرسق، تويني، فرح، خوري. مدور وتيان، انظر: القضية الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني. ج١، ص٢٠٣.

(٢) شكل اليهود خلال الحرب العالمية الثانية فيلقاً لقتال المحور إلى جانب الحلفاء، فحققوا بذلك هدفين، أولهما كسب ود الحلفاء والانتقام من الألمان، وليقبضوا على ذلك مساعدة الحلفاء في قيام الكيان الصهيوني في فلسطين، ثم تدريب عناصرهم لقتال العرب في فلسطين، كما حصل عام ١٩٤٨م.

هجرة اليهود إلى فلسطين. ثم قامت اليهودية «راحيل يايئبت بن تسفي» بتهجير العديد من الفتيات اليهوديات من سورية إلى فلسطين[1].

وهكذا تناقص عدد اليهود في دمشق وغيرها بهجرتهم السرية إلى فلسطين، خاصة بعد نيل سورية استقلالها، ولم يبق منهم في سورية إلا أعداد قليلة وفي عام ١٩٦٧م، بقي منهم ٥٥٠٠ سمح لهم بمغادرتها عام ١٩٩٣م[2].

مما تقدم نرى أن سورية فتحت ذراعيها وعبر تاريخها المديد لاحتضان من لاذ بحماها، فكفكفت دموعهم وضمدت جراحهم، وقابل هؤلاء شعب سورية بالوفاء والعرفان بالجميل، إلا اليهود الصهاينة، الذين غلت في صدورهم مراجل الحقد والكراهية، يحركهم في ذلك أسطورة «أرض الميعاد لشعب الله المختار» فقابلوا الوفاء بالعقوق. كالصل الذي آنس من نفسه الدفء في سورية، فتحالف مع الغرب العنصري المستعمر. ليشكل من دعمه كياناً غربياً وفاصلاً بين المغرب العربي والمشرق العربي، مانعاً وحدة التراب العربي، ومرسخاً تخلفهم، وعلى نتيجة الصراع القائم سيتقرر مصير العرب والمنطقة وربما العالم.

---

(١) لتيندبر، صموئيل، المرجع نفسه، ص٢٢١، ص٢٢٢.

(٢) اتينجر، المرجع نفسه. ص١٧٤.

ثبت المصادر والمراجع

١ ـ مصادر البحث

آـ سجلات المحاكم الشرعية في بلاد الشام:

ـ سجلات محاكم حلب:

١ـ سجل المحكمة الشرعية الكبرى رقم ١٥٣ من ٢/ رجب/ ١١٩١هـ إلى ٢٠/ جمادى الأولى ١١٩٢ هـ.
٢ـ سجل المحكمة الشرعية بحلب رقم ١٥ من ٣٠ / ربيع الثاني/ ١٠٣٥ هـ إلى ١٤/ شوال / ١٠٤٦هـ.

ـ سجلات محاكم دمشق:

١ـ سجل المحكمة الكبرى في دمشق رقم ٢٢١ من ١١ ربيع الأول ١٢٠١ هـ. إلى غرة ربيع الثاني ١٢٠٣هـ.
٢ـ سجل المحكمة الكبرى بدمشق رقم ٢٥٠ من ختام شعبان ١٢١٦هـ إلى ١٧ شعبان ١٢١٧هـ.

ب ـ شواهد قبور اليهود في مقبرتهم خارج أسوار دمشق الواقعة جنوب مقابر المسيحيين وعلى محاذاة طريق مطار دمشق الدولي حالياً. «زيارات ميدانية لها من قبل الباحث».
جـ ـ الروضة الغنّاء في دمشق الفيحاء. القساطلي، نعمان صورة للمخطوطة في مكتبة المعهد العلمي الفرنسي بدمشق تحت رقم ١٦٦٣٠/٨.
د ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية، الماوردي، أبو الحسن علي، مصر ١٣٩٦هـ/١٩٧٣م.
هـ ـ مذكرات تاريخية، مجهول، أحد الكتاب الدمشقيين، مطبعة القديس بولص، لبنان، د. ت.

المراجع:

١ـ أحياء حلب وأسواقها، الأسدي، خير الدين. وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٤م.
٢ـ الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا، رستم، أسد، المجلد ٦، بيروت ١٩٣٠ ـ ١٩٣٤م.
٣ـ الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ١٨٦٤ ـ ١٩١٤م ـ عوض، عبد العزيز، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م.
٤ـ أهل الذمة في مصر في العصر الفاطمي الأول، محمود، سلام شافعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٥٧م.

٥ــ تاريخ حلب الطبيعي في القرن الثامن عشر. الأخوان راسل، الكسندر وباتريك، ترجمة خالد الجبيلي، حلب ١٩٩٧م.

٦ــ الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني، الصبّاغ، د. ليلى، جزءان، بيروت ١٩٨٩م.

٧ــ تاريخ مدينة القدس. عوّاد، مجيد الأعظمي، وزارة الإعلام العراقية، د، ت.

٨ــ الحرف، رافق، د. عبد الكريم، بحث في مجلة دراسات تاريخية، العدد الرابع. دمشق.

٩ــ خطط الشام. كرد علي، محمد، ٦ أجزاء، بيروت ١٣٩١هــ / ١٩٧٢م.

١٠ــ دائرة المعارف، البستاني، بطرس، مادة دمشق، المجلد ٨.

١١ــ رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين، محمد أمين، ٥ أجزاء، القاهرة ١٢٩٩هــ.

١٢ــ العرب واليهود في التاريخ، سوسة، أحمد، إصدار وزارة الإعلام في العراق.

١٣ــ القدس بين الدين والتاريخ، الخطيب د. نشأت، دار الأنيس، بيروت لبنان ١٩٨٧م.

١٤ــ الكنز المرصود في قواعد التلمود، نصر الله، يوسف، بيروت، ١٩٨١.

١٥ــ مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد ٩، عام ١٩٢٩م.

١٦ــ مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين ١٧٧٢ ــ ١٨٤٠م. نعيسة، د. يوسف جزءان، دار طلاس ١٩٨٧م.

١٧ــ المرجع في وثائق تاريخية عن الشام في أثناء حملة محمد علي باشا ١٢٤٧ ــ ١٢٥٩هــ / ١٨٣١م ــ ١٨٤٠م. نعيسة، د. يوسف ــ جامعة دمشق، ٢٠٠٣ــ ٢٠٠٤م.

١٨ــ الموسوعة الفلسطينية، المقدمة، دار النفائس ١٩٨١م. ثم ج٢ إيطاليا.

١٩ــ يهود دمشق، نعيسة، د. يوسف، دمشق، دار المعرفة، ١٩٩٤م.

٢٠ــ اليهود في البلدان الإسلامية، ١٨٥٠ــ ١٩٥٠م. أتينجر، صموئيل. ترجمة د. جمال أحمد الرفاعي، مراجعة د. عبد الله الشافعي، عالم المعرفة. الكويت، ذو الحجة ١٤١٥هــ / مايو أيار ١٩٩٥..

القدس في التاريخ

أ. شحادة الخوري(*)

المقدمة:

تاريخ القدس هو التاريخ ذاته، التاريخ برمته، ببياضه وسواده، بإشراقه الإنساني وحلكته الوحشية بألقه الحضاري وعتمته البدائية.

... هو صفحات من تاريخ البشرية زاخرةٌ بسمو الروح وخضرة الأمل وحرارة المحبة ونداوة التسامح، إزاء صفحات أخرى مليئة بالطمع الجامح والقسوة المفرطة والعنف المنفلت من عقاله والحقد شديد المرارة.

من الحق تنبع المودة والطمأنينة.

ومن الباطل يخرج البغض والعدوان.

وفي فصول التاريخ تشابه، وبين الأمس واليوم تماثل.

قبل الميلاد بألف وربع ألف من السنين دمر بنو إسرائيل أريحا الكنعانية وقتلوا أهلها مثلما دمر الرومان قرطاج.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

وبعد الميلاد بألفي عام دمر النازيون الصهاينة من مدن فلسطين ما استطاعوا ومازالوا يدمرون وقتلوا من أصحابها من قتلوا ومازالوا يقتلون.

كيف لي أن أتحدث عن تاريخ القدس وهو ملء الزمان؟ وهل يقدّم البحر في كأس، أو تختصر الشمس في شعاع.

هي كلمات مختصرات، وعبارات موجزات قد تعطي اللوحة شمولاً ولكنها تُغفل التفصيلات.

القدس

في مواجهة الخطر

القدس ظاهرة حضارية فذة ومتفردة بين مدن العالم. وقد ظلت، على تعاقب الأزمنة وتوالي الأيام ذات أهمية بالغة وشأن كبير، على الرغم مما شهدت من أحداث جسام وما اعترضها من حروب ونكبات. غزاها الأقوياء طمعاً بموقعها وخيراتها، ولم يخرج منها غازٍ، فكانت مدينة السلام بحق. ولكنها خلال مقاومتها المعتدين وتعرضها لعمليات الحصار والتدمير، تهدمت ثماني عشرة مرة، مُدّة عمرها الممتد خمسة آلاف سنة، ثم أعيد بناؤها من جديد.

وعلى الرغم من الأحداث العاصفة التي مرت بها القدس، فقد بقيت على الدوام مهوى الأفئدة ومقْصدَ الحجاج من كل صوب، وملاذ القيم الروحية والأخلاقية.

وحافظت القدس على تراث حضاري غني ومتنوع، وكان أهلها وما زالوا يشكلون نسيجاً بشرياً وثقافياً متصل الحلقات متكامل الأجزاء، لم يبدله تعاقب الدول والحكام ولا غيرت طبيعته تقلبات الظروف والأحوال، هو النسيج الكنعاني العربي، وكل نسيج آخر قاربها ظل طارئاً غريباً عابراً ما لبث أن تبدد كما يتبدد الزبد عن وجه الماء.

عرض تاريخي

- لقد سكن الإنسان العاقل فلسطين في عصور ما قبل التاريخ، العصور الحجرية الثلاثة: القديم والمتوسط والحديث، والعصور المعدنية الثلاثة: النحاسي والبرونزي والحديدي.

ودلت التنقيبات الأثرية على أن فلسطين قد مرت بهذه العصور جميعها وعرفت الحضارات البدائية بكل أشكالها.

وبدأت العصور التاريخية في حوالي منتصف الألفية الرابعة قبل الميلاد، باختراع الكتابة حوالي عام ٣٥٠٠ ق.م في بلاد الرافدين ووادي النيل وسيناء فلسطين. وفي هذه الفترة بدأت

الهجرات البشرية من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الهلال الخصيب وسورية بسبب الازدياد البشري، وشحّ الموارد الطبيعية اللازمة للعيش.

ويرجَّح أن تكون هجرة العموريين والكنعانيين والفينيقيين إلى شمال سورية وجنوبها وساحلها أعوام ٣٠٠٠ – ٢٨٠٠ ق.م وهجرة الآراميين إلى سورية الداخلية عام ١٥٠٠ ق.م .... إلخ.

وقد تعايشت هذه القبائل والجماعات وتجاوزت في السكن واتّصل بعضها ببعض بل وتداخلت أحياناً. جاء في سفر العدد الفصل ٣٠/١٣: «العمالقة مقيمون بأرض الجنوب والحثيون واليبوسيون والعموريون مقيمون بالجبل والكنعانيون مقيمون عند البحر وعلى عُدْوة الأردن».

إن العمالقة واليبوسيين قبائل كنعانية، والحثيّين قلة ولكن الكثرة من سكان فلسطين كانت من العموريين والكنعانيين.

- أمّا العموريّون ومعنى الاسم سكان الغرب، فسكنوا الجبال وكانوا رعاة، أقوياء الأجسام، طوال القامات.

وقد كان للعموريين مدن ابتنوها أهمها ماري بتل الحريري وهي اليوم جوار أبو كمال وإيبلا بتل مرديخ ويمحاض وهي حلب وقطنة وهي المشرفة بشرقي حمص. وكان لهم في فلسطين مدن كثيرة مثل مدينة حبرون (الخليل) وعاي (دير دبوان) وحُسبان (في شرقي الأردن) ولخيش وتل النجيلة قبل غزة وعمريت على الساحل السوري.

- أما الكنعانيون فقد تداخلت هجرتهم مع العموريين، وهم يعدون أكبر هجرة جرت من جزيرة العرب إلى أرض الشام. ومن المدن التي بنوها في فلسطين أريحا الجديدة (يريحو) عام ٣٠٠٠ ق.م في فترة بناء اليبوسيين، وهم فصيل من الكنعانيين، مدينة يبوس (القدس)، بعد أن كانت القديمة قد بنيت قبل ذلك بثلاثة آلاف سنة، ومعنى أريحا «القمر». ومن مدنهم: بيت شان (بيسان) وعمون (عمان). وقد انتشر الكنعانيون في أرض فلسطين حتى سميت باسم «أرض كنعان».
- واستقر فريق من الكنعانيين في الساحل السوري اللبناني حالياً، فعرفوا بكنعانيي الساحل، وسماهم الإغريق الفينيقيين، نسبة إلى الصبغ الأرجواني (الفينيكس) الذي اشتهروا به. وكانت من مدنهم: أوغاريت (رأس شمرا) وبيريتوس (بيروت) وأرادوس (أرواد) وبيبلوس (جبيل) وصيدون (صيدا) وصور (بمعنى الصخر) ثم قرطاجة (القرية الحديثة) على الساحل التونسي، واشتهروا بالملاحة والتجارة والصناعات اليدوية.

- وأما الآراميون الذين هاجروا إلى بقاع سورية الشمالية والعراق في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، ويعني اسمهم (آرامو) الأرض المرتفعة، فقد أسسوا ممالك عديدة منها مملكة دمشق وآرام النهرين بين الخابور والفرات وآرام صوبا من غرب الفرات إلى حماة وآرام معكة من جبل حرمون إلى شرق الأردن، ومملكة جشور في شرقي الأردن، ودولة رجوب قرب حماة واسما سورية و آرام مترادفان.
- وهناك شعب ذكر أنه جاء من البحر ونزل الساحل الجنوبي من سورية وهو الشعب الفلسطيني. إنه من أصل سامي عروبي كالشعوب السابق ذكرها ولكن هاجر إلى كريت و عاد منها عام ١١٨٥ ق.م، وسكن بين يافا وغزة فدعي الساحل باسمه ثم أطلقه المؤرخ اليوناني هيردوت عل أرض كنعان بكاملها. وقد كان للفلسطينيين خمس مدن مهمة هي أشدود الحاضرة الرئيسية وغزة وعسقلان وعاقر وجات التي تدعى اليوم عراق المنشية، وهذه المدن ما تزال قائمة حتى اليوم.

ومع الزمن نسي الفلسطينيون لغتهم الكريتية وتكلموا اللغة الكنعانية واقتبسوا طراز حياة الكنعانيين وعبدوا الآلهة الكنعانية: بعل وسواه.

٢ ـ بناء القدس:

يرتفع موقع المدينة /٧٥٠/ متراً عن سطح البحر المتوسط و/١٥٠/ متراً عن سطح البحر الميت، ويبعد عن البحر المتوسط /٥٢/ كيلو متراً، وعن بحيرة لوط /٢٢/ كيلو متراً.

إن هذا الموضع الذي شيدت فيه القدس جعلها مدينة مركزية في فلسطين، سورية الجنوبية، وعقدة اتصال بين جهات سورية الطبيعية الأربع، وجعل منها قبلة أنظار الفاتحين على مر العصور.

- كانت النواة الأولى التي بنيت تقع على تلال الضهور أو الطور لأسباب أمنية. ويمكن أن ندعو هذه النواة القدس التاريخية أي القدس التي شادها اليبوسون، وهي تقع خارج السور وإلى جنوبه الشرقي. وفيما بعد حلت نواة أخرى محلها وتشمل مرتفع جبل الزيتون في الشمال الشرقي ومرتفع ساحة الحرم ومرتفع صهيون، هذه الأماكن التي سكل ما ندعوه «القدس القديمة أو القدس العربية» التي تشتمل على الأماكن المسيحية والإسلامية المقدسة: وهي الحرم القدسي الشريف، المسجد الأقصى، مسجد الصخرة، حائط البراق،كنيسة القيامة، درب الآلام، كنيسة الجثمانية.

وأما القدس الجديدة فتشمل جميع ما يقع خارج السور.

- وقد عرفت القدس بأسماء عدة خلال التاريخ. أطلق عليها بناتها الأولون اليبوسيون اسم أحد آلهتهم أو ملوكهم أو أجدادهم «سالم» فعرفت بأور سالم أي مدينة سالم، أو

أورشالم، إلى جانب اسم جماعة المؤسسين «يبوس» وتوافق اسم أورشالم مع أورشيلم بمعنى مدينة السلام.

أما في النص التوراتي فقد وردت باسم «أورشليم» أكثر من (٨٦٠) مرة، كما وردت فيه بأسماء أخرى: ساليم، شاليم، مدينة العدل، مدينة القدس، مدينة الله، مدينة السلام.

وعندما استولى عليها الملك داود عام ١٠٠٠ ق.م وجعلها عاصمة ملكه أضاف إلى أسمائها اسم «مدينة داود» واستخدمت هذه التسمية مدة من الزمن ثم زالت.

وفي زمن الحكم الروماني لفلسطين، حملت القدس اسم أورشليم، حتى جاء الإمبراطور إيليوس هادريانوس الذي قمع ثورة باركوبا (١٣٢ – ١٣٥م) ونسف القدس بكاملها وأعاد بناءها وأطلق عليها اسمه فدعيت «كولونيا إيليا كابيتويونا».

وعند دخول الخليفة عمر بن الخطاب مدينة القدس عام ٦٣٨ م وجه العهدة العمرية المشهورة إلى أهل إيلياء.

وهذه المدينة عند العرب تدعى القدس والقدس الشريف، وبيت المقدس، وكلها أسماء تشير إلى قداستها أو قدسيتها.

٣ ـ العبرانيون والقدس:

- خرج إبراهيم من أور الكلدانيين في جنوبي العراق إلى مدينة حاران وهي حُرّان (الرُها) شمال سورية. ويذكر العهد القديم أن اسم أبيه تارح، وتارح من اولاد سام أحد أولاد نوح الثلاثة: سام وحام ويافث.

وغادر إبراهيم حاران، وتنقل ومن معه من أهله وجماعته ومواشيه في سورية، ثم انتقل إلى أرض كنعان حوالي عام ١٩٠٠ ق.م وجاء في سفر التكوين الفصل ٦/١٢ أن إبراهيم «اجتاز في الأرض إلى مكان شكيم وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض» وشكيم هي بلاطة المجاورة لنابلس اليوم.

وانتقل إبراهيم إلى جهات رام الله والقدس وبئر السبع ثم رحل إلى مصر عندما حصل قحط شديد. وبعد إقامة قصيرة فيها عاد مع امرأته سارة إلى أرض كنعان ومعه جارية تدعى هاجر. مرّ بجوار غزة ثم تجول بين بئر السبع والخليل ثم صعد إلى أورشليم اليبوسية، وتنقل في جبال القدس والخليل.

ولدت له جاريته هاجر «إسماعيل» فحملته سارة ،غَيْرةً ،على إبعاد إسماعيل وأمه. وبعدها اختتن وسمي إبراهيم (أبو الجمهور) بدل إبرام(البيت الرفيع) وسميت (المجاهدة) ساراي سارة أي (أميرة) وحملت منه وولدت له اسحق وكان عمر إبراهيم إذاك مئة سنة.

ويذكر العهد القديم أن الرب أعطى وعداً بأرض كنعان في سفر التكوين ٨/١٧: «وأعطيك أرض غربتك لك ولنسلك من بعدك جميع أرض كنعان ملكاً أبدياً».

ولكن الملاحظ أن إبراهيم عندما أراد مدفناً لزوجته بجوار الخليل لم يتذكر ذلك الوعد، بل اشترى بماله الخاص قطعة أرض صغيرة من صاحبها الحثي عفروت ودفن زوجته في مغارة في تلك الأرض تدعى مغارة المكفيلة. وعندما توفي إبراهيم كان عمره ١٧٥ عاماً.

ونوجز فيما يلي الأحداث التي تمت بعد إبراهيم:

- هاجر بنو إسرائيل، أبناء يعقوب بن إبراهيم من أرض كنعان إلى مصر.

ولبثوا في مصر من عام ١٧٢٠ ق.م إلى عام ١٢٩٠ ق.م أي مدة (٤٣٠) سنة.

- خرج موسى ببني إسرائيل من مصر إلى سيناء مع العبيرو وهم جماعة غرباء ومتعددو الأصول ومغامرون، ذلك عام (١٢٩٢) ق.م. أعطاهم موسى الوصايا العشر التي تسلمها وعلمهم الشريعة – الناموس – ومات قبل أن يدخل أرض كنعان.
- في عام ١٢٥٠ ق.م دخل الإسرائيليون أرض كنعان التي كانت آهلة عامرة، بقيادة يشوع بن نون، وفتحوا مدنها بالقتل والتدمير والإبادة. بدأ يشوع بأريحا فحاصرها ثم دكَّ أسوارها ودمرها. يقول العهد القديم قال له الرب: «احرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد فاجعلوها في خزانة بيت الرب» ثم غزا مدينة عاي وفتحها: «انثنوا وضربوا رجال عاي. ضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت ... وأحرق يشوع عاي وجعلها تلاً أبدياً خراباً إلى هذا اليوم» يشوع ٨/ ٢ ـــ ٢٨.

عن الأرض قال: «اقسمها بالقرعة لإسرائيل ملكاً» يشوع ٦/١٣. وثم حكمهم حكّام عرفوا بالقضاة ومنهم: جدعون وشمشون وصموئيل».

- وعندما حكم الملك شاول وهو أول من سمي ملكاً لبني إسرائيل عام ١٠٢٥ ق.م أقام في جبعة شمال أورشليم وتدعى اليوم تل الفول، وحكم /٢٢/ سنة. وحكم بعده داود بن يسى من سبط يهوذا عام ١٠٠٣ ق.م، وبعد ثلاث سنوات من حكمه أي في عام ١٠٠٠ ق.م استولى على مدينة أورشليم عاصمة ملكه وحكم ثلاثين سنة (١٠٠٣ – ٩٧٣) ق.م.

وبعده حكم ابنه سليمان الملقب سليمان الحكيم وبنى الهيكل في أورشليم بمعونة حيرام ملك مدينة صور، وكانت مدة حكمه ٤٣ سنة. وعند وفاته عام ٩٣٠ ق.م انقسمت المملكة إلى دولتين: دولة يهوذا عاصمتها أورشليم وتضم سبطين هما يهوذا وبنيامين، وإسرائيل وعاصمتها السامرة وتضم عشرة أسباط.

وهكذا تكون مدة الدولة الإسرائيلية الموحدة (٩٥) عاماً (١٠٢٥ – ٩٣٠) ومدة اتخاذها أورشليم عاصمة (٧٠) سنة لا غير.

وقد كان أكثر سكان القدس في عهد داود وسليمان من اليبوسيين والكنعانيين والعموريين والفلسطينيين. وقد تكلم بنو إسرائيل اللغة العربية القديمة (السامية) ثم تكلموا اللغة المصرية في مصر ثم اللغة الكنعانية عند عودتهم ودخولهم أرض كنعان ثم اللغة الآرامية عند انتشارها في بلاد الشام ابتداءً من القرن الثالث قبل الميلاد. أما العبرانية فهي مشتقة من اللغة الآرامية (آرامية التوراة).

٤ ـ الغزوات والاحتلالات:

أ ـ مصر وآشور وبابل وفارس:

- في عام ٩٢٦ ق.م اجتاح تحوتمس فرعون فلسطين واحتل القدس ونهب الهيكل.
- وفي عام ٧٢٢ ق.م استولى الآشوريون بقيادة سرجون الثاني على مدينة السامرة وسبى رجال إسرائيل وأخذ الجزية من مملكة يهوذا.
- وعام ٧٠١ ق.م غزا سنحاريب ملك آشور فلسطين وحاصر القدس ثم تراجع عنها لما أصاب الطاعون جيشه.
- وعام ٥٩٧ ق.م البابليون بقيادة نبوخذ نصر الثاني، واستولوا على مدينة أورشليم ودمر هيكل سليمان (الدمار الأول) ٩ وقد أبعد نحو عشرة آلاف من سكانها اليهود إلى مدينة بابل.
- وفي عام ٥٣٩ سمح الملك الفارسي كورش الذي أسس الإمبراطورية الفارسية للعبريين أن يعودوا من منفاهم ببابل إلى فلسطين فعاد قسم منهم ورمموا الهيكل في القدس، وكانت مدة السبي (٥٨) عاماً. ولبثت القدس وفلسطين تحت الحكم الفارسي (٢٠٧) سنوات حتى كان الفتح المكدوني.

ب ـ الإغريق وروما وبيزنطة:

- في عام ٣٣٢ ق.م دمر الاسكندر المكدوني إمبراطورية الفرس في غزوة صاعقة حملته من مكدونيا إلى ضفاف الهندوس. ودخل الإسكندر القدس عام ٣٣٢ ق.م ثم تعاقب عليها خلفاؤه البطالسة الذين اتخذوا الإسكندرية عاصمة لهم مدة (١٣٥) سنة (٣٣٢ – ١٩٧ ق.م) والسلوقيون الذين اتخذوا أنطاكية عاصمة لهم (٥٥) سنة (١٩٧ ـ ١٤٢ ق.م) وفي العهد السلوقي قام اليهود في القدس بتمرد قمعه أنطوخيوس الرابع عام ١٦٥ ق.م وألزم اليهود باتباع الديانة اليونانية الوثنية وخرَّب الهيكل. ثم

قامت ثور المكابيين عام ١٣٥ ق.م وحصلوا على الحكم الذاتي لمدة ٥٩ عاماً (١٣٥ – ٧٦ ق.م) وانتهى باستيلاء الرومان على القدس.

- دخل القائد الروماني بومبيوس مدينة القدس عام ٦٣ ق.م، بعد فترة من الفوضى، وصارت فلسطين ولاية رومانية حكمتها روما تارة بصورة مباشرة عندما نصبت عام ٣٧ ق.م هيرودس الآدومي الذي اعتنق اليهودية ملكاً على الجليل ويهوذا فظل بحكمها حتى عام ٤م، وتارة بصورة مباشرة كما فعلت بتعيين بيلاطس البنطي حاكماً عليها. ومن الجدير بالذكر أن الملك هيرودس هو الذي وسع الهيكل وحصّنه بسور هو ما يعرف اليوم بحائط المبكى.

وكانت ولادة السيد المسيح في بيت لحم حدثاً كبيراً في تاريخ القدس وفلسطين بل العالم بأسره. و منها انطلق تلاميذه إلى أنحاء العالم ينشرون العقيدة الخلاصية .

وفي عهد الإمبراطور نيرون ثار اليهود على الحكم الروماني، فقام القائد تيطوس عام ٧٠ م باحتلال القدس وهدم الهيكل (الدمار الثاني) وبدأ الشتات اليهودي في العالم.

وهكذا يكون الهيكل قد بني وهدم مرتين: هيكل سليمان بني عام ٩٦٩ ق.م وهدمه البابليون عام ٥٩٧ ق.م وهيكل زر بابل الذي بناه اليهود بعد عودتهم من السبي البابلي وأتمه هيرودس عام ٢٠ ق.م ثم هدمه القائد الروماني تيطوس عام ٧٠ م.

وكانت آخر ثورات اليهود وتمرداتهم ثورة باركوبا عام ١٣٥ م فأسرع الإمبراطور إيليوس هادريانوس إلى قمع هذه الثورة وخرب المدينة وحولها مستعمرة وسماها باسمه «إيليا كابيتوليونيا» وبنى معبداً لجوبتر مكان الهيكل.

وكانت مدة الحكم الروماني لفلسطين ٣٦٨ سنة (٦٣ ق.م – ٣٠٥ م).

- وفي عام ٣٠٥ م نشأت الدولة البيزنطية في القسطنطينية (روما الجديدة) وبعد ذلك بثماني سنوات عام (٣١٣م) تحول الإمبراطور قسطنطين إلى المسيحية وأصدر مرسوم ميلانو الذي اعترف فيه بالديانة المسيحية ومنحها الحرية.

أعاد قسطنطين إلى القدس اسم أورشليم وزارت والدته هيلانة هذه المدينة عام ٣٢٦م وبنت كنيسة المهد في بيت لحم، كما بنيت كنيسة القيامة في القدس بأمر منه.

وكانت مدة الحكم البيزنطي لفلسطين (٣٣١) سنة (٣٠٥ – ٦٣٦م) ولكن تخلل هذه المدة فترة (١٥) سنة من الحكم الفارسي إذ اجتاح كسرى الثاني فلسطين عام ٦١٣م ودمر الكنائس بمساعدة اليهود ولبث الفرس يحكمونها حتى أخرجهم منها الإمبراطور البيزنطي هرقل عام ٦٢٨م.

٥ ـ العرب المسلمون:

أ- ورد ذكر القدس في القرآن الكريم والحديث النبوي مرات عديدة، وكانت قبلة الإسلام الأولى وإليها إسراء الرسول الكريم ومنها عروجه.

وبعد معركة اليرموك التي انتصر فيها العرب على الروم، حاصرها أبو عبيدة الجراح، فطلب بطريركها صفرونيوس الدمشقي الأصل حضور الخليفة عمر بن الخطاب لتسليمه مفاتيح المدينة. حضر عام ٦٣٨م فاستقبله أهلها ولم ترق نقطة دم واحدة، فأعطاهم العهدة العمرية بأن تصان أرواحهم وأموالهم وكنائسهم وبألا يسمح لليهود بالعيش بينهم .. وقد رفض الصلاة في كنيسة القيامة لئلا تتخذ صلاته سابقة لمن يأتي بعده، وذهب إلى موقع المسجد الأقصى ونظّف الصخرة وبنى مسجداً في الزاوية الجنوبية من الحرم. ومنذئذ تكاثر عدد الصحابة والتابعين والمسلمين عامة في القدس، واحتفظ المسيحيون بكنائسهم وحرية أداء شعائرهم الدينية.

ب ـ الأمويون والعباسيون ومن تلاهم:

- بويع معاوية بن أبي سفيان بالخلافة في مدينة القدس، وكذلك سليمان بن عبد الملك وبنى عبد الملك بن مروان قبة الصخرة المشرفة سنة ٧٢ هـ/ ٦٩١م وأقام الوليد ابن عبد الملك المسجد الأقصى عام ٩٠ هـ/ ٧٠٩م، وبنى فيها الأمويون قصوراً ودوراً لهم فيها. وأما العباسيون فقد زارها بعض خلفائهم: المنصور والمهدي والمأمون وأحدثوا تجديدات في المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وكان الأمن فيها مستتباً في العهدين الأموي والعباسي.
- ودخلت القدس في حكم الطولونيين حكام مصر من عام ٨٧٨ – ٩٠٥م أي مدة ٢٧ سنة، ثم تلاهم الإخشيديون من عام ٩٣٩ – ٩٦٩م أي مدة ٣٠ سنة وقد دفن فيها الإخشيديّون تبركاً بها، بناء على وصيتهم.

وفي عام ٩٦٩م دخلت القدس في حكم الفاطميين وحكموها مدة (١٠١) سنة ثم انتقلت إلى حكم السلاجقة عام ١٠٧٠م الذين حكموها ٢٦ سنة حتى عاد إليها الفاطميون من جديد مدة ٣ سنوات(١٠٩٦ – ١٠٩٩) م.

- وفي العام الأخير من القرن الحادي عشر١٠٩٩م احتل الفرنجة القدس وارتكبوا مذبحة شنيعة ونهبوا ما كان في المسجد الأقصى وقبة الصخرة من كنوز، وحولوا المسجد الأقصى إلى مقر لفرسان الداوية ونصبوا بطريركاً لاتينياً على القدس.

ودامت مملكة القدس اللاتينية /٨٨/ سنة إذ حرر صلاح الدين القدس المدينة المقدسة عام ١١٨٧م بعد انتصاره على الصليبيين في معركة حطين، وسمح للفرنجة بمغادرتها وأعاد للمسيحيين الشرقيين حقوقهم وأوقافهم وبنى فيها مستشفى ومدارس...

- وبعد وفاة صلاح الدين قام لملك الكامل أحد خلفائه بتسليم القدس إلى الإمبراطور فردريك الثاني ملك الفرنجة ــ ما عدا الحرم الشريف ــ بموجب اتفاق عقده معه عام ١٢٢٩م وظلت المدينة في أيدي الفرنجة عشر سنوات حتى استردها الملك الناصر داود ابن أخيه عام ١٢٣٩م، كما استقرت تحت الحكم الإسلامي نهائياً عام ١٢٤٤م على ابن أخيه عام ١٢٣٩م، كما استقرت تحت الحكم الإسلامي نهائياً عام ١٢٤٤م على يد نجم الدين أيوب ملك مصر.

ودخلت القدس في حوزة المماليك عام ١٢٥٣م وبقيت في أيديهم حتى دخول الأتراك العثمانيين عام ١٥١٧م وحظيت باهتمام السلطان الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون بشكل خاص.

وهكذا تكون مدة الحكم العربي الإسلامي وما تبعه ٨٧٩ سنة (٦٣٨ م– ١٥١٧م).

٦ ـ الحكم العثماني:

انتصر السلطان العثماني سليم الأول على المماليك في معركة مرج دابق عام ١٥١٦م وفي السنة التالية ١٥١٧م دَخل مدينة القدس.

ومن كبار السلاطين العثمانيين سليمان القانوني الذي أقام في القدس عدة إنشاءات، وانتشرت فيها زمن العثمانيين التكايا والروابط والمؤسسات الصوفية. وخضعت القدس بين عامي ١٨٣١و١٨٤٠م (٩سنوات) لحكم إبراهيم باشا ابن محمد علي حاكم مصر.

وامتد الحكم العثماني حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ فكانت مدته /٤٠٠/ سنة (١٥١٧ – ١٩١٨م).

٧ ـ الغزو الاستعماري والصهيوني:

بتاريخ ١٩١٧/١٢/٩ دخلت القوات البريطانية القدس بقيادة الجنرال اللنبي. وقبل ذلك بقليل في ١١/٢/ ١٩١٧ كان اللورد بلفور وزير الخارجية البريطانية قد أعطى اليهود وعداً باسم حكومته ينص على إقامة وطن قومي لهم في فلسطين. وهكذا التقت الحركة الصهيونية بالاستعمار البريطاني الذي وجد فيها أداة يحتاج إليها للحفاظ على مصالحه الاقتصادية والسياسية في الشرق الأوسط والقارتين الإفريقية والآسيوية.

- وتولت الحكومة الإنكليزية الانتداب على فلسطين وبقيت فيها حتى أيار ١٩٤٨ بعد قيام دولة إسرائيل، فكانت مدة الانتداب /٣١/ سنة وبضعة أشهر.

وفي هده الأثناء جرت أحداث متتالية تهدف إلى إنشاء دولة صهيونية في فلسطين وتهويد القدس وجعلها عاصمة لتلك الدولة. وبين الحربين العالميتين كانت مساعٍ محمومة للمشروع الصهيوني برعاية الدولة المنتدبة بريطانيا، قابلتها مقاومة عربية مستمرة اتخذت أشكالاً متعددة من الاضطرابات والثورات والأعمال الفدائية. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها رقم ١٨١ تاريخ ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧ بتقسيم فلسطين إلى دولتين يهودية وعربية فرفض العرب هذا القرار، وأعلنت إسرائيل قيام دولتها، وجرت أول حرب عربية إسرائيلية انتهت بهدنة بين إسرائيل وكل من مصر ولبنان وسورية والأردن. واشتركت إسرائيل مع بريطانيا وفرنسا في العدوان الثلاثي على مصر (١٩٥٦) ونشبت الحرب العربية الإسرائيلية الثانية عام ١٩٦٧ فاحتلت إسرائيل القدس العربية الشرقية والضفة الغربية وسيناء والجولان. وبعد سبع سنوات تقوم الحرب العربية الإسرائيلية الثالثة عام ١٩٧٣ وتستعيد مصر سيناء وتبرم مع إسرائيل اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٩. وفي عام ١٩٨٢ تغزو إسرائيل لبنان وتدخل بيروت.

وفي عام ١٩٨٧ تندلع الانتفاضة الفلسطينية ضد الاحتلال الصهيوني، ويقدم أطفال الحجارة أروع أشكال النضال ضد المحتل الإسرائيلي. وعام ١٩٩١ ينعقد مؤتمر مدريد للسلام على أساس مبدأ: الأرض مقابل السلام و في عام ١٩٩٣ وقع عرفات اتفاقية أوسلو المجحفة بالحقوق الفلسطينية، وتلتها اتفاقية واي بلانتيشين عام ١٩٩٨ في السياق نفسه. وكذلك عقدت الأردن اتفاقية سلام مع إسرائيل(وادي عربة). وتبذل إسرائيل ومؤيدوها جهوداً حميمة مدعومة بالنفوذ الأميركي لتطبيع العلاقات بين البلدان العربية وإسرائيل وقد أحرزت مع الأسف بعض النجاح، كذلك تمارس الضغوط الشديدة على الفلسطينيين لتقديم المزيد من التنازلات.

٢ ـ القدس قبل الاستيطان الصهيوني:

لقد كانت القدس حتى عام ١٨٧٠ مدينة تقع داخل سور تاريخي كبير يحيط بها من كل الجوانب، بناه السلطان سليمان القانوني العثماني. وكانت المدينة عند حلول الظلام تغلق على نفسها الأبواب التي يشير كل واحد منها إلى ناحية من نواحي فلسطين.

ويذكر أن عدد الآثار والمواقع الدينية في القدس القديمة التي لبثت في عهدة العرب حتى عام ١٩٦٧ يبلغ /٢٧٤/ أثراً وموقعاً، منها وتسعة وتسعون أثراً وموقعاً إسلامياً من عهود الأمويين والعباسيين والفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين وهو متنوعة: جوامع وقباب

ومآذن وزوايا وأبواب ومدافن وأرومة وسبل ومدارس وأسواق وقناطر وغيرها، وستون أثراً وموقعاً مسيحياً من كنائس وأديرة وبطريركيات ومدارس من أيام الحكم البيزنطي حتى اليوم، وخمسة عشر أثراً وموقعاً يهودياً من كُنُس ومدارس أقيمت خلال القرنين الأخيرين التاسع عشر والعشرين من خلال عملية التهويد.

وبعد عام ١٨٧٠ ضاقت مدينة القدس بسكانها، فخرج القادرون منهم يبنون خارج السور، على الهضاب والمرتفعات التي تحيط بالقدس التاريخية القديمة، واتجهوا شمالاً وشرقاً فأقاموا منازل في وادي الجوز والشيخ جراح، كما توجه آخرون غرباً. وعندما بدأ القرن العشرون كانت عدة أحياء قد ظهرت للوجود مثل حي الطالبية وحي القطمون، وحملت أحياء أخرى أسماء العائلات التي شيدت فيها مباني لها مثل الوعرية والنمرية. واستخدم المقادسة في البناء الجديد الحجر الأبيض والقرميد الأحمر وأقاموا الحدائق والبساتين حول بيوتهم، فكانت هذه الأحياء الجديدة متعة للناظرين.

ومع انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨م، كان العرب يشكلون الأكثرية الساحقة من سكان القدس، وكان عدد اليهود قليلاً بعضهم كان يسكن بيوتاً مستأجرة من العرب داخل السور وبعضهم يسكن على جانبي شارع يافا خارج السور.

ونستعرض فيما يلي عملية الاستيطان والتهويد بداية من فرض الانتداب على فلسطين غداة الحرب العالمية الأولى ومنها مدينة القدس.

٣ ـ الاستيطان خلال الانتداب البريطاني ١٩١٧ – ١٩٤٨م:

نسجل بعض ملامح الاستيطان اليهودي مدة الانتداب البريطاني على فلسطين.

شجعت بريطانيا التنظيمات الصهيونية على التوجه إلى فلسطين بداية من القرن الثامن عشر، وازداد هذا التشجيع خلال القرن التاسع عشر، بدافع المخطط البريطاني الرامي إلى اختراق الوطن العربي، وفصل مشرقه عن مغربه، بإيجاد جماعة بشرية من غير العرب في فلسطين، تكون معادية للعرب بغية إضعافهم وإخضاعهم لمصالحها الاقتصادية والسياسية.

- ففي القرن التاسع عشر، أقام موسى مونتيفيوري أول توطين لليهود في فلسطين، خارج أسوار القدس عام ١٨٥٥م. ويقدر عدد اليهود في القدس بعد نحو عشرين سنة من ذلك التاريخ أي في عام ١٨٧٤م بثلاثة آلاف شخص فقط.

وقد التقى هذا المخطط بمخطط باعث الصهيونية تيودور هرتزل (١٨٦٠ – ١٩٠٤م) الذي دعا في المؤتمر الصهيوني الأول ببال ١٨٩٧م إلى انتزاع فلسطين من العرب: مسلمين

ومسيحيين، وجعلها خالصة لليهود. **قال هرتزل: «إذا حصلنا يوماً على القدس، وكنت لا أزال حياً وقادراً على القيام بأي شيء فسوف أزيل كل شيء ليس مقدساً لدى اليهود فيها وسوف أحرق الآثار التي قد مرت عليها قرون»!**

- نص الوعد الذي أعطاه بلفور وزير خارجية بريطانيا لليهود، باسم حكومته، بتاريخ ٢/ ١١/ ١٩١٧ على منحهم وطناً قومياً في فلسطين. ونصت المادة السادسة من صك، الانتداب على تشجيع استيطان اليهود في فلسطين والسكن في أراضي الدول والأراضي الفارغة غير اللازمة للاستعمال العام.

وعملاً بهذا التوجه تم نقل ١٩٥ ألف دنم من الأرض إلى الوكالة اليهودية. بدأ الاستيطان في القدس على جبل هداسا المطل على المدينة ثم جرى العمل على تطويقها تدريجياً.

ونظراً لعدم قدرة المدينة القديمة على استيعاب السكان الجدد، أخذ اليهود يشيدون الأبنية والأحياء الجديدة خارج السور من كل الجهات ـ القدس الجديدة ـ بالإضافة إلى الضواحي والقرى التي ألحقت بالمدينة وأهمها: سلوان، بيت حنانيا، عين كارم. كذلك أقيمت أبنية على الجبال مثل: جبل المشارف وجبل المكبر، وفي غرب المدينة أقيمت أحياء استيطانية كاملة مثل حي شعرين (هوشرم) وشارع يافا. وفي تلك الفترة أنشئت إضافة إلى ما سبق مستوطنات زراعية جماعية (كيبوتسات) كريات أنافيم (١٩٢٠) رامات راحيل (١٩٢٦) موتساعيليت (١٩٣٣) معالية هحمشاء (١٩٣٤) كفاراورباه (١٩٤٤) غفعات شاؤول (١٩٤٤).

وعلى مدى سنوات الانتداب الثلاثين تزايد يهود القدس إلى ٣٨ ألفاً عام ١٩٢٤ ثم إلى ٧٩ ألفاً عام ١٩٤٥.

وأصبحت مساحة الأرض التي يملكها اليهود ١,٨ مليون دنم من أصل مساحة فلسطين البالغة ٢٧ مليون دنم.

هذا وقد نص قرار تقسيم فلسطين رقم ١٨١ تاريخ ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ والصادر عن هيئة الأمم المتحدة على تدويل القدس. ولكن المنظمات الصهيونية الإرهابية تجاوزت هذا القرار واحتلت بعض أحياء القدس بما فيها حي المسكوبية قبل انسحاب الجيش البريطاني في ١٤/ ٥/ ١٩٤٨ ثم احتلت أحياء القدس الغربية بكاملها.

٤ ـ الاستيطان الصهيوني في مدينة القدس: ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧:

اعترفت الأمم المتحدة بقيام إسرائيل بتاريخ ١٥/ ٥/ ١٩٤٨ بعد يوم واحد من انسحاب بريطانيا وقامت بين إسرائيل والعرب حرب دامت عشرين شهراً. وفي نهاية الأمر أبرمت اتفاقية هدنة بيمن المملكة الأردنية الهاشمية وإسرائيل عام ١٩٤٩.

وقد قسمت مدينة القدس، وفقاً لهذه الاتفاقية إلى ثلاثة أقسام:

١ــ القدس المحتلة (الغربية) ومساحتها ٤٠٦٥ فداناً[١] أي ما يعادل ٨٤% من مساحة القدس، وتضم الأحياء العربية التالية: القطمون، الكولونية الألمانية واليونانية، البقعة التحتا، البقعة الفوقا، حي سعد الطالبية، حي النبي داود، حي الطوري، وحي شنلر، وكلها تقع في القسم الغربي والجنوبي من القدس الجديدة، وخضعت للسيطرة الإسرائيلية.

٢ــ القدس العربية (الشرقية) ومساحتها ٥٥٥ فداناً أي ما يعادل ١١,٥% من مساحة مدينة القدس بما فيها الحي اليهودي، ووضعت تحت السيطرة الأردنية.

٣ــ قطاع هيئة الأمم المتحدة والأراضي الحرام ومساحتها ٢١٤ فداناً أي ما يعادل ٤,٥% من مساحة مدينة القدس، وهي تضم مقر المندوب السامي البريطاني على جبل المكبر ومستشفى هداسا والجامعة العبرية ومنطقة حرام تفصل بين المنطقتين السابقتين.

وكانت بوابة (مندليوم) تصل القطاعين، وبقيت الأماكن المقدسة الإسلامية والمسيحية في القسم العربي أي المدينة القديمة.

إن السكان اليهود قد ارتفع عددهم خلال هذه المدة من ٩٧ ألفاً إلى ١٩٧ ألفاً. أما السكان العرب فقد طرد من القدس ٦٠ ألفاً خلال حرب ١٩٤٨ ولم يسمح لهم بالعودة.

وأصدر الكنيست الإسرائيلي بياناً جاء فيه: إن القدس جزء لا يتجزأ من إسرائيل وهي عاصمتها.

وقد عمدت إسرائيل، بغية تغيير واقع مدينة القدس إلى مصادرة الأراضي العربية داخل القدس المحتلة من أصحابها العرب، والاستيلاء على الأراضي على محيط الجزء المحتل من القدس أو الضواحي والقرى المجاورة.

وقد تم بناء واستيطان عدد كبير من المستوطنات في منطقة القدس (مدن، قرى، كيبوتسات، موشافات[٢]) نجملها في الجدول التالي:

٦ـ خطة تهويد مدينة القدس:

يقصد بتهويد القدس تحويلها من مدينة عربية مثلما كانت حتى قيام دولة إسرائيل، من مدينة عربية المعالم الأثرية (الإسلامية والمسيحية) عربية الأهل، وعربية اللسان، إلى مدينة يهودية بسكانها وعمرانها ومؤسساتها ولغتها. وتقوم خطة التهويد على خطين متوازيين هما:

١ــ مصادرة الأراضي العربية.

---

(١) الفدان يساوي ٥٧١٣ م٢.

(٢) الموشاف: تعني بالعبرية مستعمرة وهي قرية تقوم على الملكية الخاصة للأرض وعلى المجهود الفردي.

٢ـ تهجير العرب من القدس وإسكان مهاجرين يهود مكانهم.

وتحاول السلطة الإسرائيلية أن تسلك هذين الخطين تحت غطاء قانوني مزيف كاذب، وهذا ما أوجد مفارقة بين القانون والحق، إذ أن مهمة القانون في الأصل أن يحمي حقاً مهدداً بالخرق وهذا يثبت حقاً لضعيف يخشى أن يغتصبه الأقوياء، وأما القانون في نظر إسرائيل، فهو أداة لاغتصاب حق ثابت مستمر ووسيلة لإلباس الباطل ثوب الحق.

مصادرة الأراضي العربية:

نذكر القوانين التالية التي ترمي جميعها إلى اغتصاب الأرض من أصحابها العرب:

١ـ **قانون أملاك الغائبين:** ملك الغائب قابل للمصادرة.

٢ـ **قانون سقوط الحق بمرور الزمن:** يلزم كل صاحب أرض عربي بإثبات استعماله أرضه من خمسين سنة. وباعتبار أنه يصعب الحصول على وثائق إثبات فقد خسر كثيرون أراضيهم.

٣ـ **قانون التوزيع:** يُعلن أن هذه الأرض عسكرية فتصادر من صاحبها.

٤ـ **قانون الأراضي غير المزروعة:** تقسم الأراضي إلى أقسام صغيرة لا تكفي لمعيشة أصحابها، فإن تأخروا في استغلالها تصادر.

٥ـ **قانون الأراضي المكثفة:** لوزير الزراعة أن يعلن أي منطقة زراعية منطقة زراعية مكثفة فتصادر.

٦ـ **قانون ضريبة الملكية المعدل:** وضعت ضرائب باهظة على الأرض المستعملة للأبنية السكنية فغادرها أصحابها إلى المناطق المحيطة بالقدس.

٧ـ **قانون المناطق الخضراء:** كل مساحة صنفت عل الخريطة خضراء للسلطة بناؤها مساكن للمستوطنين.

٨ـ **قانون الغابات:** يحق للسلطة بموجبه الاستيلاء على المساحات الغابية.

٩ـ **قانون الطوارئ لمصادرة الأراضي:** يخول هذا القانون الإسرائيليين دخول أية منطقة للحفاظ على أمنهم أو توفير السكن للمهاجرين منهم. وبموجب هذا القانون صودرت أراضي خمسٍ وثلاثين قرية في مقاطعة القدس وتم تهجير سكانها عام ١٩٤٨، وبموجب هذا القانون ارتفع عدد المستوطنات من ١٢ مستوطنة عام ١٩٤٨ إلى ٦٤ مستوطنة عام ١٩٦٧.

ب ـ تهجير العرب من القدس:

لا يتم تهويد مدينة القدس بالاستيلاء على الأراضي العربية التي سرعان ما تبنى عليها المستوطنات ويسكنها اليهود الوافدون من أنحاء الأرض، بل ينبغي لكي يتم ذلك تهجير

العرب من بيوتهم وإخراجهم من المدينة التي ولدوا فيها وعاشوا والتي ولد فيها وعاش آباؤهم وأجدادهم.

وسلكت الصهيونية كل سبيل يؤدي إلى هذا الهدف. وهنا لابد كذلك من التمويه والتضليل لكي يبتلع العرب من حولهم أحرار العالم هذه الجريمة التاريخية جرعة جرعة، بدلاً من ضربة صاعقة كمذبحة دير ياسين التي ما زال العالم يذكرها بغيظ واشمئزاز.

واتخذت عملية التهجير/ الطرد الأشكال والأساليب التالية:

١ـ عدم منح رخص لعرب القدس من أجل بناء مساكن. وإذا منحت لأحدهم رخصة في حال من الأحوال فرضت عليه الضرائب الباهظة التي تجعل غيره يحجم عن طلب الترخيص: ضريبة الأرض غير المبني عليها، ضريبة الآثار، ضريبة البنية التحتية، ضريبة الجيش...

٢ـ إذا وسّع عربي مقدسي منزله بإضافة غرفة أو غرفتين إليه ليستوعب أفراد أسرته بدون رخيص أو بنى منزلاً خارج المدينة فقد حقه بالإقامة في القدس وشطبت هويته.

٣ـ إذا اتهم عربي مقدسي بعدم الإقامة في القدس سبع سنوات متواصلة، ولم يستطع إثبات العكس لصعوبة الحصول على الوثائق اللازمة، سحبت منه هويته وهوية أفراد أسرته. وقد بلغ عدد الهويات المصادرة (١١) ألف هوية.

٤ـ بعد اتفاقية أوسلو ١٣/ ٩/ ١٩٩٣ نسف في القدس (١٠٢) مئة بيت وبيتان في حين أنه لم يسمح قط ببناء حي جديد للعرب منذ سقوط القدس بيد إسرائيل عام ١٩٦٧.

٥ـ جرت ملاحقة سلطات الأمن الإسرائيلية للمؤسسات الفلسطينية العاملة في القدس، بحجة أنها تمارس نوعاً من السلطة السياسية، وذلك مخالف لاتفاقية القاهرة ووضعت إسرائيل ثلاث عشرة مؤسسة فلسطينية على لائحة «السلطة» من بينها بيت المشرق، جامعة القدس، وزارة الأوقاف والمقدسات، مؤسسة الأرض والمياه...

٦ـ تمارس على عرب القدس سياسة التمييز العنصري. إنهم يدفعون الضرائب التي يدفعها غيرهم ولكن أحياءهم تعاني الإهمال التام، وقدر بعضهم أنها تحتاج إلى مئة مليون دولار لتحسين البنى التحتية فيها.

٧ـ جعل الاحتلال الصهيوني مدينة القدس مغلقة في وجه الفلسطينيين إذ يمنع الفلسطيني من غير سكان القدس من القدوم إلى المدينة إلا إذا حصل على تصريح خطي يعطى ليوم واحد!

قال شمعون بيريس، وهو من حمائم حزب العمل، في الكنيست بتاريخ ٧/ ٦/ ١٩٩٤:

«القدس لن تقسم، ولن تكون عاصمة لكيانين، وإنما هي عاصمة دولة إسرائيل. سوف تبقى موحدة وفق الخريطة التي صادق عليها الكنيست وتحت سيادة إسرائيلية. القدس لنا ولن تكون برلين ولن تجزأ ...هذا هو موقفنا وهذا هو هدف الصراع».

جـ ـ محاولات هدم المسجد الأقصى والتعدي على الكنائس:

ينص المخطط الصهيوني الرامي إلى تهويد القدس وجعلها عاصمة موحدة وأبدية لإسرائيل التخلص من المعالم الإسلامية والمسيحية فيها، ولاسيما المسجد الأقصى، وهو المعلم الإسلامي البارز لإعادة بناء الهيكل على أنقاضه إذ يزعمون أنه بني فوق الهيكل الثالث الذي أقامه هيرودس ـ في موقع حائط البراق ـ حائط المبكى.

ولئن لم يتجرأ الصهاينة على هدم هذا المسجد بعد حرب الأيام الستة في شهر حزيران ١٩٦٧ مباشرة، فلأنهم بعد هذا العدوان الإسرائيلي الكبير الذي احتلوا به مساحات شاسعة من أرض فلسطين والبلدان العربية المجاورة، لم يجرؤوا على إثارة الرأي العام العربي والإسلامي والعالمي من جديد.

ومع ذلك ظل تدمير المسجد هدفاً لهم. وكانت المحاولات متعددة. في ٢١ آب عام ١٩٧٩ أقدم رجل أسترالي يدعى مايكل دينيس روهان على إشعال حريق في المسجد فأسرعت السلطة الإسرائيلية لتغطية عمله زاعمة أنه معتوه. وفي عام ١٩٨٣ وضعت عصابة يبلغ عدد أفرادها ٤٦ شخصاً متفجرات تحت المسجد، وحاولت جماعة أمناء الهيكل وضع حجر أساس للهيكل المراد بناؤه.

وفي كل مرة كان أبناء القدس يتصدون للمؤامرات، ويسقط شهداء وجرحى، وفي كل مرة كانت إسرائيل تراوغ وتخادع. ولكن أليست دائرة الآثار هي التي تقوم بالحفريات تحت المسجد، ووضعت جهازاً إلكترونياً داخل النفق يظهر القدس القديمة بدون مسجد.

إن الحكومة الإسرائيلية لا تستطيع أن تخفي مسؤوليتها المباشرة أو تتنصل منها، وإن كانت تختبئ وراء جماعات وجمعيات غير حكومية هدفها هدم المسجد وبناء الهيكل مثل جماعة غوشيه .ونيم (جيش المؤمنين) وحركة أمناء جبل الهيكل وحركة إعادة بناء الهيكل.

ولم يتوانَ الصهاينة عن التعدي على كنائس القدس وممتلكاتها الدينية نذكر منها:

١ـ اقتحام بعض اليهود كنيسة القيامة وسرقة تاج العذراء، عام ١٩٦٧ بعد الاحتلال بأشهر قليلة.

٢ـ اقتحام يهودي أمريكي القبر المقدس نفسه وتحطيم ثريات فيه في ٢٣/ ٣/ ١٩٧١م.

٣ـ هجوم الشرطة الإسرائيلية على دير الأقباط الملاصق لكنيسة القيامة في ١٤/ ٤/ ١٩٩٧ وضربها رهبانه.

٤ــ اقتحام ثلاثة يهود مسلحين كنيسة القيامة في ١٢/ ٤/ ١٩٧٣ وضربهم أحد الرهبان.

كل هذا يشير بوضوح إلى أن القضية الصهيونية هي من ناحية ما، قضية دينية، فثمة حقد دفين على المسيحية والإسلام يفعم قلوب اليهود ويدفعهم إلى الاعتداء والعدوان لا على البشر فحسب بل على الأثر والحجر كذلك.

ب ـ أسئلة وتساؤلات:

اليوم، وقد انقضى على مؤتمر مدريد تشرين الأول ١٩٩١ الذي انعقد على أساس الأرض مقابل السلام، ما يقرب من ثماني عشرة سنة، وعلى اتفاقية أوسلو بين منظمة التحرير الفلسطيني وإسرائيل الموقعة بتاريخ ١٣/ ٩/ ١٩٩٣ ما يقرب من اثنتي عشرة سنة، تخطر في الأذهان عدة تساؤلات عن قضية القدس ومآلها في السنوات القادمة.

وقبل أن نطرح هذه التساؤلات المهمة، نشير إلى أن أسوأ ما في اتفاقية أوسلو أنها أرجأت التفاوض في قضية القدس إلى مفاوضات الوضع النهائي مع بعض القضايا المهمة الأخرى كقضايا عودة اللاجئين الفلسطينيين، والمستوطنات، والحدود والترتيبات الأمنية. وكان المنطق السليم يقضي بأن تكون قضية القدس حجر الزاوية في المفاوضات، منذ بدايتها والأساس في أية اتفاقية أو تسوية بين الطرفين. ومن المؤكد أن إسرائيل بإرجائها قضية القدس إلى ما بعد، قصدت أن توحي بأن قضية القدس ليست القضية الأهم، بل هي واحدة من القضايا الأخرى. أضف إلى ذلك أن السنوات التي تلت اتفاقية أوسلو قد استغلتها إسرائيل لخلق واقع جديد في القدس فكثفت عملية الاستيطان بشكل لم يسبق له مثيل بقصد تغيير الواقع الجغرافي والديموغرافي للقدس غير آبهة بالقانون الدولي والاعتراضات والاحتجاجات وأعمال الرفض والمقاومة.

ومن هذه التساؤلات:

١ــ تطالب السلطة الفلسطينية بدولة فلسطينية عاصمتها القدس. فأية قدس تعني؟

القدس بحدود ما قبل عام ١٩٤٨، أم القدس العربية أو الشرقية التي كانت قائمة حتى ٤ حزيران ١٩٦٧؟

إذا كان احتلال القسم الغربي من مدينة القدس عام ١٩٤٨ قد مثّل البداية لعمليّة تهويدها، فقد شكل احتلال القسم الشرقي وما حولها عام ١٩٦٧ المنطلق للتوسع في الاستيطان لتحقيق مشروع القدس الكبرى وتغيير معالم القدس التاريخية بكل الوسائل والإجراءات السياسية والعسكرية والقانونية الزائفة.

لقد قفز عدد سكان القدس الموحدة (الشرقية والغربية) من ٢٦٦ ألفاً عام ١٩٦٧ إلى ٦٤٥ ألفاً عام ١٩٩٤، وفي هذه الفترة ذاتها زاد عد اليهود فيها من ١٩٥ ألفاً إلى ٤٧٣ ألف بنسبة ٧٣,٤% بينما زاد عدد العرب من ٧١ ألفاً إلى ١٧٢ ألفاً بنسبة ٢٦,٦% وصار عدد الإسرائيليين في القدس الشرقية وحدها ١٦٠ ألفاً عام ١٩٩٣ بعد أن كان صفراً عام ١٩٦٧.

أما أرض القدس الشرقية فإن ٨٧% منها صارت تحت السيطرة الصهيونية.

فماذا سيكون الموقف من الإضافات التي أدخلتها إسرائيل على القدس بعد عام ١٩٦٧ وحتى اليوم من أبنية وأحياء ومستوطنات جعلت منها ما يسمى بالقدس الكبرى التي يراد توسيعها أكثر فأكثر لخلق القدس الميتروبوليتية التي ستضم القسم الأكبر من الضفة الغربية بقصد تغيير معالم المدينة للوصول إلى تعذر استيعاب أحد من مواطنيها الفلسطينيين المغادرين إذا رغبوا في العودة، واستحالة تقسيم المدينة كما كانت في السابق.

٢ ـ والتساؤل الآخر الذي نطرحه: ماذا فعلت السلطة الفلسطينية لوقف الاستيطان في القدس، خاصة، وفي الضفة الغربية، عامة؟ ألا تمضي في مفاوضتها مع إسرائيل أو تتطلع إليها، في ظل استمرار الجريمة الرهيبة التي يمارسها الصهاينة في عمليات الهدم والاغتصاب والتوسع لوضع الفلسطينيين والعرب والمسلمين والمسيحيين في العالم أمام واقع جديد مصنوع ومفروض يلغي الواقع التاريخي الطبيعي الذي كان من قبل؟

٣ ـ هل ستكون القدس عاصمة لدولتين، وكيف؟ إن إسرائيل ترفض تدويل القدس وتعلن بإصرار أن القدس عاصمة أبدية لها وحدها، ولا شريك لها فيها. ثم هل ترضى السلطة الفلسطينية، إن تحولت إلى دول قائمة على أشلاء من الأرض، أن تكون أبو ديس عاصمة لها؟ ثم أليس هناك خطة إسرائيلية لتهويد أبو ديس ذاتها؟

٤ ـ ونتساءل هل تملك السلطة الفلسطينية وهي لا تمثل في أحسن الحالات إلا أقلية من أبناء فلسطين أن تبت بمصير القدس وأماكنها لدى المسلمين والمسيحيين؟ ومن سيتولى إدارة هذه الأماكن والإشراف عليها إذ صارت القدس عاصمة لإسرائيل وصار مسيحيوها ومسلموها العرب أقلية لا حول لهم ولا طَول؟

أسئلة وتساؤلات عديدة لا نجد جواباً عنها وإنها في اعتقادي ستظل معلقة إلى أمد بعيد، وستظل معلقة ومنبئة بصراع دامٍ طويل الأمد، صراع الحق ضد الباطل، والحرية ضد الظلم، صراع قوى الخير والنور ضد قوى الشر والظلام.

الخاتمة:

إن الشرعية الدولية تتمثل بقرارات الأمم المتحدة التي بنيت على تغيير هوية فلسطين العربية . ولكن ثمة شرعية أخرى هي الشرعية التاريخية والحضارية والثقافية وهذه الشرعية لها منطق آخر ومقاربة أخرى، إنها حال محتملة وقادمة، ستتند إلى خلفي عمرها آلاف من السنين، وحقٍ ثابت لا يزعزعه ادعاء زائف، وقدرة بشرية لا حد لا وموار اقتصادية ومالية هائلة.

إن الواقع القائم قابل للتحول، في لحظة ما، إذا فاجأته إرادة جماعية في التحرير، ولعل القدس تكون نقطة التحول أو تكون الدافع إليه.

إن أمتنا العربية قد واجهت في الماضي محناً أصعب من محنة الصهيونية ولكنها استطاعت أن تتغلب عليها عندما اتحدت كلمتها وعزمت على امتلاك الحرية.

تلك ليست مسؤولية جيلنا فحسب بل مسؤولية الأجيال القادمة كذلك، ولن يكون المستقبل إلا للحق والحرية وكرامة الإنسان.

ازدهار الحركة الفكرية في القدس في عهد المماليك شيّد السلاطين المدارس، وأسس العلماء والقضاة النهضة العلمية

محمد مروان مراد

ازدهرت الحركة العلمية في مدينة القدس زمن المماليك، فتألق بذلك وجه المدينة الفكري إلى جانب وجهها الديني، وتمثّل هذا الازدهار بتأسيس الكثير من المرافق العلمية والأدبية التي تنوعت بين مدارس ومساجد ومكتبات وخوانق ورباطات وزوايا...وتجسد النشاط الفكري في تدريس العلوم الشرعية، واللغة العربية والتاريخ والعلوم العقلية والعملية، كما تمثّل في ظهور المفكرين والأدباء الذين ألفوا مصنفات في شتى العلوم والفنون، وأغنوا المكتبة العربية بعشرات المصادر في معارف متنوعة. كذلك تجسّدت الفعاليات الفكرية في العديد من المجالس العلمية والأدبية التي نشطت فيها المناظرات بين العلماء، وخاصة في مواضيع الحديث والتفسير والأدب والخطابة.

دور السلاطين والأمراء والقضاة:

-من الجدير بالذكر أن ازدهار الحركة الفكرية والعلمية في مدينة القدس، كان مبعثه ومحرّكه الفعال، عاملين:

الأول: الدور الهام الذي قام به سلاطين الأيوبيين ومن بعدهم سلاطين المماليك وأمراؤهم في تقدم العلوم والآداب، انطلاقاً من اهتمامهم ورعايتهم للمسجد الأقصى والصخرة الشريفة، حيث قام الظاهر بيبرس،والمنصور قلاوون، والناصر محمد، والناصر حسن بن محمد، والملك الأشرف شعبان والملك الأشرف أينال، والملك الظاهر خشقدم بترميم وتجديد معالم الأقصى(أبوابه، أروقته، ثم قيام هؤلاء بإنشاء المدارس، ودور القرآن والحديث، وقد نسبت هذه المدارس إلى منشئيها، وامتد اهتمامهم إلى المعالم الإسلامية الأخرى من حيث ترميمها وصيانتها وتجديدها، وقد أنفق السلاطين والأمراء على المرافق الدينية والعلمية بسخاء، واحتضنوا الحركة الفكرية، واكرموا العلماء والشيوخ وقرّبوهم، وفي هؤلاء من العهد الأيوبي السلطان صلاح الدين، الملك المعظم عيسى بن العادل، ومن العهد المملوكي كتبغا المنصوري، والناصر محمد بن قلاوون، والناصر حسن، والأشرف شعبان، والملك الظاهر برقوق، والملك المؤيد شيخ المحمودي، والملك الظاهر جقمق العلائي وغيرهم..

الثاني: إسهام القضاة والعلماء في تفعيل الحركة العلمية من خلال إنشاء الرباطات والزوايا والخوانق، وهي مؤسسات دينية وفكرية واجتماعية أدت دورها الفعال في سائر مجالات العلوم، كما كانت مراكز إعداد للجهاد، إضافة إلى دورها الديني والعلمي... ولقد اجتمع في هذه المرافق العلمية أفاضل العلماء وأكابر الشيوخ، وجهابذة القضاء من مدينة القدس نفسها، ومن الوافدين إليها من أرجاء العالم الإسلامي. ولم يكتف هؤلاء بالتعليم والتوجيه والإعداد، بل إن كثيرين منهم اشتغلوا بالتعليم تطوعاً، وأنفقوا عليه وعلى المتعلمين من أموالهم الخاصة، وقد وجد الوافدون إلى مدينة القدس للدراسة والتعبد في المدارس والزوايا والرباطات والخانات مأوى يفيئون إليه، وينفق عليهم فيه من أوقاف واسعة من القرى والبساتين والدور.

- **مدارس القدس:**

١ ـ مدارس أيوبية المنشأ:

ـ المدرسة الصلاحية: من أشهر مدارس بيت المقدس تقع داخل باب الأسباط في سور القدس، أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد تحرير القدس عام ١١٨٧/٥٨٣م، وأوقفها مدرسة على المذهب الشافعي في سنة٥٨٨هـ وفوّض تدريسها إلى القاضي بهاء الدين بن

شداد، وبلغ عدد الشيوخ الذين تولوا التدريس فيها ٣٦ شيخاً. منهم ابن شداد، شيخ الإسلام وقاضي القضاة، ومجد الدين طاهر بن جهبل إمام الفقه والفرائض، وفخر الدين ابن عساكر الدمشقي، وكان من أكابر علماء عصره، ومنهم شيخ الإسلام الحافظ تقي الدين أبو عمرو بن الصلاح وهو من كبار أئمة الفقه والحديث، وابن واصل الحموي الذي أسهم بدور هام في إحياء الحركة الفكرية في القدس، والقاضي محيي الدين الغزي، وشيخ الإسلام علاء الدين المقدسي، الذي تخرّج عليه علماء أجلاّء في بيت المقدس. ومنهم قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن جماعة الكناني الذي جمع بين التدريس في المدرسة الصلاحية والخطابة في المسجد الأقصى، وممن تولوا التدريس في المدرسة الصلاحية شيخ الإسلام شمس الدين محمد بن الجزري، وكذلك شهاب الدين بن الهائم الذي تفوق في الفقه والعربية والرياضيات، واجتمع عليه عدد من كبار العلماء وأخذوا عنه، ومن مدّرسي الصلاحية شيخ الإسلام شمس الدين الهروي، والقاضي عز الدين المقدسي من كبار العلماء المسلمين، درّس في الصلاحية الفقه والحديث والأصول.

ـ المدرسة النحوية(المعظمية): وتقع في أقصى الجنوبي الغربي من صحن الصخرة، أنشأها الملك المعظم عيسى ابن العادل الأيوبي سنة ٦٠٤هـ ـ ١٢٠٧م، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة، وخصصّها لتعليم العربية وخاصة النحو، واللغة والأدب والبلاغة والعروض، ومن أبرز العلماء الذين تولّوا التدريس فيها: قاضي القضاة تقي الدين أبو بكر بن عيسى، وابنه علاء الدين المعروف بابن الرصاص.

ـ المدرسة البدرية: وموقعها بين شارع باب السلسلة وشارع السرايا، وقفها بدر الدين محمد بن أبي القاسم الهكاري٦١٠هـ، في عهد الملك المعظم عيسى بن العادل الأيوبي.

ـ المدرسة المعظمية(الحنفية)، عند باب الدوادارية، أمر بإنشائها الملك المعظم عيسى ٦١٤هـ، وكانت من المعاهد العلمية ذات الأثر البليغ في الحركة الفكرية في بيت المقدس، وكان ممن درّس فيها: القاضي شمس الدين محمد الديري، والقاضي خير الدين الغزي المعروف بابن عمران، وبلغ عدد من درّس فيها ١٥ عالماً، منهم الشيخ كمال الدين الشريحي، الذي درّس الفقه الحنفي والتفسير، والشيخ كريم الدين القرماني من أشهر علماء الحنفية، وشيخ الإسلام شمس الدين الديري مفتي بيت المقدس، درَّس الفقه والحديث والمعاني والبيان، والشيخ سعد الدين الديري الذي درّس النحو والتصوف.

٢ ـ المدارس المملوكية:

ـ المدارس الدوادارية: وتقع عند باب شرف الأنبياء، شمال الحرم، وقفها الأمير علم الدين بن سنجر الداوادر سنة ٦٩٥هـ في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، درّس فيها قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة، وكان خطيباً أيضاً في المسجد الأقصى.

ـ المدرسة الوجيهية: وتقع عند باب الغوانمة، تنسب إلى منشئها وواقفها الشيخ وجيه الدين التنوخي إمام الحنابلة بدمشق وناظر الجامع الأموي، ودرّس فيها الشيخ عبد الرحمن الحنبلي.

ـ المدرسة السُلامية: تقع عند باب شرف الأنبياء بجوار المدرسة الدوادارية، وتنسب إلى واقفها الخواجا(المعلم) مجد الدين السلامي سنة ٧٠٠هـ، وممن تولى التدريس فيها عدد من العلماء المغاربة أصلاً، المقادسة مولداً ونشأة ومنهم: شمس الدين بن خليفة المغربي، وولده كمال الدين إمام جامع المغاربة بالمسجد الأقصى.

ـ المدرسة الجاولية: في الجهة الشمالية من الحرم، وتنسب إلى واقفها الأمير علم الدين ابن سنجر الجاولي، زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون، أنشئت سنة ٧١٥هـ، وقامت المدرسة بدور هام في الحركة الفكرية في بيت المقدس حتى أوائل القرن التاسع الهجري، ودرّس فيها الفقه الشافعي والحديث.

ـ المدرسة الكريمية: تقع عند باب حطة جوار الحرم، وتنسب إلى واقفها الصاحب كريم الدين بن المعلم وقفها سنة ٧١٨هـ، وقامت المدرسة بدور هام في الحركة الفكرية في المدينة ومن بينهم: الشيخ أبو عبد الله الغرناطي مدرّس المالكية، وشيخ الإسلام صلاح الدين العلائي وخير الدين القلقشندي.

ـ المدرسة التنكزية: عند باب السلسلة بجوار المسجد الأقصى، وتنسب إلى واقفها الأمير سيف الدين تنكز الناصري أنشأها عام ٧٢٩هـ، ووقف عليها أوقافاً كثيرة، ومن أشهر شيوخها الإمام علاء الدين علي بن أيوب المقدسي، والشيخ صلاح الدين العلائي الذي درّس الفقه والحديث والتفسير والعربية وتخرج على يديه الكثيرون من العلماء، وكذلك الشيخ كمال الدين محمد المعروف بابن النقيب، وكان يلقّب «خزانة العلم» درّس الحديث والفقه واشتغل بالقضاء..

ـ المدرسة الأمينية: تقع عند باب الأنبياء(باب الدوادارية) وتنسب إلى واقفها أمين الدين عبد الله، في عهد ناصر الدين بن قلاوون سنة ٧٣٠هـ، ودرّس فيها الشيخ برهان الدين الموصلي وقرأ الناس عليه التصوف وأخذوا عنه، ومن شيوخها عبد الملك الشيباني من

أعيان الزهاد بالقدس، والشيخ زين الدين القلقشندي الذي درّس الفقه والحديث، وصنّف في القراءات.

ــ المدرسة الملكية: وتقع شمال الحرم على يمين الداخل إلى الحرم، وتنسب إلى منشئها ملك الجوكندار الملكي الناصري سنة ٧٤١هـ في عهد الناصر محمد بن قلاوون وتولى التدريس فيها عدد من العلماء المقادسة والوافدين، ومنهم: أبو عبد الله الغرناطي والشيخ سراج الدين عمر شيخ المالكية بالقدس، درّس وافتى. والشيخ جمال الدين الأنصاري، اشتغل بالتدريس والقضاء.

ــ المدرسة الفارسية: وتقع شمال الحرم بالقرب من باب العتم، وتُنسب إلى واقفها الأمير فارس البكي سنة ٧٥٥هـ، واشتغل بالتدريس فيها عدد من العلماء بينهم الشيخ زين الدين القبابي، الذي اشتغل بالحديث وأصوله.

ــ المدرسة الأرغونية: عند باب الحديد بجوار الحرم تنسب إلى واقفها الأمير ارغون الكاملي ٧٥٨هـ ومن أشهر شيوخها: علاء الدين بن النقيب الذي درّس الفقه الحنفي.

ــ المدرسة القشتمرية: تقع عند باب الناظر، جوار الحرم من جهة الغرب، وتنسب إلى واقفها الأمير قشتمرُ السيفي من أمراء الملك الناصر حسن سنة ٧٥٩هـ، ودرّس فيها الشيخ زين الدين القلقشندي، وأدت دوراً في الحركة العلمية ببيت المقدس.

ــ المدرسة الخاتونية: تقع عند باب الحديد ــ قبلي المدرسة الارغونية ــ تنسب إلى واقفتها:«أغل خاتون» بنت شمس الدين محمد،سنة٧٥٥هـ.

ــ المدرسة الأسعردية: تقع في الجهة الشمالية من الحرم، وتنسب إلى واقفها الخواجا مجد الدين عبد الغني الاسعردي سنة٧٧٠هـ

ــ المدرسة المحدثية: تقع عند باب الغوانمة بجوار الحرم، تنسب إلى واقفها المحدّث عز الدين الاردبيلي الذي اشتغل بالحديث الشريف ودرّسه فيها.

ــ المدرسة الحسنية: عند باب الأسباط شمال المسجد الأقصى، تنسب إلى واقفها شاهين الحسني سنة ٧٦٢هـ

ــ المدرسة الكيلانية: في الجانب الشمالي من طريق باب السلسلة، أنشأها الحاج جمال الدين الكيلاني، سنة ٧٥٣هـ، وقامت بدور واضح في الحركة الفكرية في القدس.

ــ المدرسة المنجكية: عند باب الناظر غرب الحرم، وتنسب إلى واقفها الأمير سيف الدين منجك سنة ٧٦٢هـ زمن الملك الناصر حسن، ومن شيوخها: شمس الدين الديري ــ كان مدرّساً بالمدرسة المعظمية ــ درّس الفقه الحنفي وعلوم اللغة والشريعة، وخلفه عدد من شيوخ آل الديري.

ـ المدرسة الطازية: وتقع قرب باب السلسلة من جهة الشمال، وقفها الأمير طاز بن قطغاج، من أمراء الملك الصالح إسماعيل ٧٦٣هـ، ومن شيوخها: زين الدين القلقشندي، المدرس بالصلاحية ودرّس فيها الفقه والحديث والعربية.

ـ المدرسة البارودية: تقع عند باب الناظر، وتنسب إلى أبي بكر محمود البارودي، والد واقفتها «سفري خاتون» من ربات البر والاحسان، سنة ٧٦٨هـ

ـ المدرسة الحنبلية: وتقع عند باب الحديد، تنسب إلى منشئها وواقفها الأمير بيدمر الخوارزمي سنة ٧٨١هـ، وكانت تدرّس المذهب الحنبلي.

ـ المدرسة اللؤلؤية: تقع بجوار حمام علاء الدين جنوب المدرسة البدرية، تنسب إلى واقفها الأمير بدر الدين لؤلؤ غازي صاحب الموصل ٧٨١هـ.

ـ المدرسة البلدية: تقع بباب السكينة قرب باب السلسلة في الحرم، وتنسب إلى واقفها الأمير سيف الدين منكي بغا الأحمدي ٧٨٠هـ.

ـ المدرسة الطشتَمُرية: وتقع قبالة الطريق المؤدية إلى باب السلسلة، وتنسب إلى منشئها الأمير سيف الدين طشتمر العلائي ٧٧٥هـ.

ـ المدرسة الموصلية: تقع عند باب شرف الأنبياء شمال المسجد الأقصى، وتنسب إلى الخواجا فخر الدين الموصلي سنة ٧٩٥هـ، ومن شيوخها أبو بكر الشيباني الذي درّس فيها التصوف.

ـ المدرسة الجهاركسية: تقع بجوار الزاوية اليونسية، وتنسب إلى واقفها الأمير جهاركس الخليلي من عهد الملك الظاهر برقوق، سنة ٧٨٥هـ...

ـ المدرسة الطولونية: وتقع عند الرواق الشمالي للمسجد الأقصى، وتنسب إلى منشئها شهاب الدين أحمد بن محمد الطولوني، زمن الملك الظاهر برقوق سنة ٧٩٠هـ، وممن درّس فيها الشيخ تقي الدين الطولوني واشتغل بالتصوف سلوكاً وعلماً، والشيخ شهاب الدين أبو البقاء أحمد الزبيري.

ـ المدرسة الفنرية: تقع قبالة المدرسة الطولونية من جهة الشرق، أنشأها شهاب الدين الطولوني، منشئ المدرسة الطولونية ٧٩٠هـ، وعمّرها معها، وجعلها للملك الظاهر برقوق، درّس فيها عدد من العلماء بينهم الإمام شمس الدين الحنفي، وشهاب الدين الأنطاكي.

ـ المدرسة الصبيبية: تقع في جهة الشمال من الحرم القدسي، وتنسب إلى واقفها الأمير علاء الدين علي ٨٩٠هـ درّس فيها الشيخ شرف الدين حوس القادري، وكان لها دورها في إحياء الحركة الفكرية في بيت المقدس.

ـ المدرسة الكاملية: تقع بجوار باب حطة، وتنسب إلى واقفها الحاج كامل الطرابلسي في عهد الملك المؤيد ٨١٦هـ

ـ المدرسة الباسطية: تقع جوار باب شرف الأنبياء شمال الحرم، وتنسب إلى واقفها القاضي زين الدين عبد الباسط الدمشقي سنة ٨٣٤هـ، وكان قد أنشأ عدداً من المدارس والمساجد بدمشق والقدس والقاهرة وغزة. وممن درّس فيها الشيخ شمس الدين المصري وهو من العلماء الأعلام، وكذلك شرف الدين بن العطار الشاعر والأديب والخطاط، وتقي الدين القلقشندي الذي درّس بالمدرسة الصلاحية وحدّث في بيت المقدس، واشتغل بالإفتاء.

ـ المدرسة الغادرية: تقع عند باب حطة شمالي ساحة الحرم، تنسب إلى واقفها الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادر، في عهد الملك الأشرف برسباي سنة ٨٣٦هـ وقد عمّرتها زوجة الأمير ناصر «مصر خاتون» ومن مدرسيها الشيخ شمس الدين المقدسي المعروف بابن سعيد، والشيخ شرف الدين الرومي من كبار علماء بيت المقدس، درّس العلوم الشرعية واللغوية والعقلية، ومن شيوخها شمس الدين بن خليفة المقدسي الماكلي.

ـ المدرسة الحسنية: تقع بباب الناظر غرب الحرم، وتنسب إلى واقفها الأمير حسام الدين الكشكي سنة ٨٣٧هـ، ومن شيوخها تقي الدين أبو بكر الحسيني الوفائي ـ ابن أبي الوفاء ـ من كبار علماء بيت المقدس وعلّم فيها اللغة العربية والعلوم الشرعية والتصوف.

ـ المدرسة العثمانية: تقع عند باب المتوضأ إلى الغرب من ساحة الحرم، تنسب إلى واقفها أصفهان شاه خاتون بنت الأمير محمود العثماني، في عهد السلطان الأشرف برسباي، وذلك سنة ٨٤٠هـ.درّس فيها: الشيخ سراج الدين الرومي، تفوق في علم المنطق والكلام والمعاني والبيان والنحو والصف، وابنه الشيخ جمال الدين الرومي الذي درّس وأفتى فيها حتى وفاته.

ـ المدرسة الجوهرية: تقع عند باب الحديد، وتنسب إلى واقفها صفي الدين جوهر القنقبائي سنة ٨٤٤هـ في عهد الملك الظاهر جقمق العلائي. ومن شيوخها: الإمام شمس الدين محمد القباقبي درّس القراءات والحديث، ودرّس من بعده ابنه برهان الدين المعروف بابن القباقبي تصدرّ للتدريس والإفتاء والتصنيف، ومنهم الشيخ شمس الدين اليمني، والشيخ شمس الدين محمد الناصري، والشيخ كمال الدين ابن أبي شريف.

ـ المدرسة المزهرية: تقع عند باب الحديد، تجاه المدرسة الأرغونية، تنسب إلى واقفها زين الدين أبي بكر بن مزهر الأنصاري سنة ٨٨٥هـ... وكان من أفاضل العلماء، أنشأ العديد من المبرات والسبل والمدارس. قامت المدرسة بدور ناشط في الحركة الفكرية في القدس، وتجلت العناية بالفقه والحديث والتفسير والنحو.

ــ المدرسة الزَّمينية: تقع غرب الحرم، تجاه المدرسة العثمانية، تنسب إلى واقفها شــمس الدين محمد الزمني الدمشقي المعروف بابن الزّمن سنة ٨٨١هــ..

ــ المدرسة الأشرفية: تقع غرب الحرم بالقرب من باب السلسلة، وتنسب إلى السلطان أبي النصر قايتباي سنة ٨٧٢هــ، وتولى مشيختها الشيخ شهاب الدين العميري.

زمن الملك الظاهر خشقدم، واهتم السلطان الأشرف قايتباي بالمدرسة وعيّن لها شــيوخاً للتدريس، وصرف عليها من أوقاف وقفها عليها، وعقد المجالس الأدبية والعلمية فيها وكانت في المدرسة ثلاث خزائن للكتب، وقفت عليها مصاحف وكتب. ودرّس فيها الشيخ كمال الدين بن أبي شريف التصوف والعلوم الشرعية والعربية. وقد قامت المدرســـة الأشــرفية بــدور مشهود في الحركة الفكرية في بيت المقدس، واستمرت تؤدي مهمتها حتى بعد انتهاء العصر المملوكي.

المصادر:

١ ــ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: ابن العماد الحنبلي...

٢ ــ الفتح القسي: العماد الأصفهاني

٣ ــ المفصل في تاريخ القدس: عارف العارف..

٤ ــ بلادنا فلسطين: مصطفى مراد الدباغ

٥ ــ معاهد العلم في بيت المقدس: كامل العسلي...

خطبة أول جمعة بعد تحرير القدس

غفران الناشف

مقدمة:

قال اللّه تعالى في كتابه العزيز: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١)

المسجد الأقصى قبلة المسلمين الأولى ومسرى النبي صلّى الله عليه وسلّم وأحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها. وقد دخل الخليفة عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه القدس قبل أربعة عشر قرناً فاتحاً، وظلت راية الإسلام ترفرف فوق مآذنه عبر القرون. كما ظلت هذه المدينة المقدسة تحت رعاية الخلفاء المسلمين وقد تعاهدوا أسوارها ومسجدها بالبناء والترميم، وكثير من مرافقها تحتفظ بلمسات العصور الأيوبية والمملوكية والعثمانية حتى اليوم.

لقد بقيت القدس تحت الحكم الإسلامي منذ الفتح العمري ١٧هـ/ ٦٣٨م، وحتى اجتزاء اليهود قسماً منها ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م. وهي الآن بأسوارها ومسجدها الأسير تنتظر الفاتحين العرب المسلمين بعدما عاث اليهود في القدس الفساد فهدموا وضربوا ودمروا بعض أحيائها ودنسوا مسجدها المبارك لإعادة ترميم الهيكل المزعوم لنبيهم سليمان عليه السلام.

والمكتبة العربية والإسلامية زاخرة بالمخطوطات والكتب النادرة التي تتناول فضائل هذه المدينة المقدسة ومسجدها وقبة الصخرة المشرفة. ومن هذه النوادر مخطوط (مثير الغرام بفضائل القدس والشام) لمؤلفه الشيخ العلامة أبي محمود أحمد بن إبراهيم بن هلال بن تميم ابن سرور المقدسي الشافعي الذي ولد ببيت المقدس(٧١٤هـ/١٣١٤م) وتوفي فيها (٧٦٥هـ/١٣٦٤م). وهذا المخطوط يشتمل على سبعة وعشرين باباً، يُذكر فيه فضائل المسجد الأقصى والأحداث التاريخية التي مرت عليه، وقد اخترنا منه الخطبة المقولة فيه عند فتح القدس على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) والموجودة في القسم الأخير المتعلق بالصحابة والتابعين (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين) الذين قدموا بيت المقدس وأقاموا فيه أو توفوا أو دفنوا فيه، وقد حصلنا على صورة المخطوط بفضل من اللّه سبحانه وتعالى ضمن مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق ونرمز له بـ (ظ) وتاريخ نسخه السادس من شهر جمادى الآخر من شهور ٩٨٨هـ .

كما وفقنا الله بالإطلاع على نسخة شبه محققة من قبل الباحث أحمد سامح الخالدي والتي مصدرها نسخة ثانية من المخطوط نفسه والموجود بالخزانة الخالدية ونرمز له بـ(خ).

وكما ذكر الباحث الخالدي بأن تاريخ النسخ سادس عشر من ذي الحجة ٩٨٧هـ، وبالمقارنة بين التاريخين يتضح أن النسخة (خ) أقدم من النسخة (ظ) بـاثني عشر عاماً، وكذلك تم الاستعانة بكتاب (الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل) لمؤلفه قاضي القضاة أبو اليمن القاضي مجير الدين الحنبلي (رحمه الله تعالى) وقد تم طبعه بالمطبعة الوهبية الكائنة بمصر المحمية في أوائل جمادى الأولى من ١٢٨٣هـ.

والذي يهمنا من هذه الدراسة المتواصفة أن نقدم للقارئ العربي نص هذه الخطبة العظيمة لما لها من أهمية تاريخية باعتبارها أول خطبة لصلاة الجمعة تقام بهذا المسجد الفضيل بعد طول أسر واحتلال. آملين من الله تعالى بالقريب العاجل أن يتم تحريره ويعود لأهله العرب المسلمين، كما نأمل أن نكون قد أدينا الأمانة العلمية بعض حقها عند قيامنا بهذا العمل.

* * * * *

قال القاضي الإمام العلامة شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان في وفيات الأعيان[1]: ولما فتح السلطان القدس تطاول إلى الخطابة يوم الجمعة كل واحد من العلماء الذين كانوا معه في حديثه[2] حاضرين. وجهز كل واحد منهم خطبة بليغة طمعاً في أن يكون هو الذي يعني[3].

(والسلطان لا يعين الخطبة لأحد، فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان واجتمع الناس لصلاة الجمعة، وامتلأ الجامع ونصبت الأعلام على المنبر، وتكلم الناس فيمن يخطب والأمر مهم حتى حان الزوال وأذن المؤذن للجمعة فرسم السلطان وهو بقبة الصخرة)[4].

وخرج المرسوم إلى القاضي محيي الدين أبي المعالي... بن القاسم عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان القرشي أن يخطب هو، وحضر السلطان وأعيان دولته، وذلك في أول جمعة صليت بالقدس بعد الفتح [وأعاره العماد الكاتب أهبة سوداء كانت عنده من تشريف الخلافة لبسها في الحال][5]. فلما رقي المنبر استفتح بسورة الفاتحة فقرأها إلى آخرها ثم قال[6]: «فقطع دابر الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين»[7]، ثم قرأ أول سورة الأنعام: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور. ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾[8] ثم قرأ سورة ﴿سبحان الذي أسرى﴾: «وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌ من الذلّ وكبره تكبيراً»[9]. ثم قرأ أول الكهف[10] ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً... ماكثين فيه أبداً»[11]. ثم قرأ من النمل[12]: ﴿الحمد لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى ءآللّه خيرٌ أمَّا يشركون﴾. ثم أول

---

(١) انظر وفيات الأعيان: محيي الدين بن زكي الدين.

(٢) في خ خدمته.

(٣) في خ: يعين.

(٤) في كتاب الأنس ولم ترد في خ و ظ.

(٥) في كتاب الأنس ولم ترد في خ و ظ.

(٦) في خ ثم قرأ من سورة الأنعام الحمد لله.

(٧) الأنعام: ٤٥.

(٨) في ظ الآية الأولى. وفي خ والأنس زيادة الآيتين الثانية والثالثة.

(٩) الإسراء: ١١١.

(١٠) في خ قرأ سورة الكهف.

(١١) في ط آيات ثلاث وفي خ ٦ آيات من سورة الكهف.

(١٢) في ظ: سورة النمل: ٥٨.

سورة سبأ: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض[١] وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير﴾[٢]. [(ثم قرأ من سورة فاطر ﴿الحمد لله فاطر السموات... وهو العزيز الحكيم﴾[٣] [وكان قصده أن يذكر جميع حميدات القرآن الكريم] [٤]. ثم شرع في الخطبة فقال: الحمد لله معز الإسلام بنصره [ومُذل الشرك بقهره ومصرّف الأمور بأمره ومديم النعمة بشكره][٥] ومستدرج الكفار بمكره الذي قدر الأيام دولاً بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده لا يمانع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والظاهر على خليقه[٦] فلا ينازع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهيره لبيته[٧] المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد بباطن سره وظاهر إظهاره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، شهادة من ظهر[٨] بالتوحيد قلبه وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشك وداحض الشرك، ورافض[٩] الإفك، الذي أسري به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى وعرج به منه من السموات[١٠] إلى ﴿سدرة المنتهى عندها جنة المأوى. ما زاغ البصر وما طغى﴾[١١]. صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار[١٢] الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان وعلى آله وأصحابه التابعين لهم بإحسان.

---

(١) في ظ تنتهي الآية عند الأرض.
(٢) سبأ: ١.
(٣) [لم ترد في ظ، فاطر:].
(٤) [وردت في ظ].
(٥) [في الأنس فقط].
(٦) في خ خليقته.
(٧) في الأنس بيته.
(٨) في الأنس: طهر.
(٩) في ظ: داحض.
(١٠) في الأنس عرج به منه إلى السموات العلى.
(١١) النجم: ١٣-١٤-١٥.
(١٢) في الأنس شعائر.

أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية[١] القصوى، والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة [من الأمة الضالة] [٢] وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتدالها في أيدي المشركين قريباً من مئة عام وتطهر[٣] هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه[٤]، وإماطة الشرك عن طرقه[٥] بعد أن امتد عليها روقه واستقر فيها اسمه ورفع قواعده بالتحميد[٦] فإنه بني عليه وشيد بنيانه[٧] بالتحميد فهو موطي[٨] أبيكم إبراهيم ومعراج نبيكم عليه السلام، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام وهو مقر الأنبياء ومدفن الرسل ومهبط الوحي [ومقصد الأولياء] [٩] ومنزل[١٠] به الأمر والنهي، وهو في الأرض المحشر وصعيد المنشر وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله بالملائكة المقربين وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذي كرمه[١١] الله برسالته وشرفه بنبوته فلم يزحزحه عن رتبة عبوديته فقال تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾[١٢] كذب العادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيداً ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون[١٣] عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾[١٤]. ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً﴾[١٥]. إلى آخر الآيات من المائدة.

---

(١) في ظ العناية.

(٢) لم ترد في ظ.

(٣) في الأنس تطهير.

(٤) في ظ: فيها.

(٥) في ظ: طرقها.

(٦) في الأنس بالتوحيد.

(٧) في الأنس وردت بعدها: فإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه.

(٨) في الأنس موطن.

(٩) في الأنس [زيادة].

(١٠) في الأنس: ينزل.

(١١) في الأنس أكرمه.

(١٢) النساء ١٧١.

(١٣) المؤمنون: ٩١- ٩٢.

(١٤) المائدة ١٦-١٧.

(١٥) الأنس: الوقعات.

وهو أول القبلتين وثاني المسجدين وثالث الحرمين لا تشدُ الرحال بعد المسجدين إلا إليه ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه فلولا أنكم ممن اختاره الله من عباده واصطفاه من سكان بلادكم لما خصكم بهذه الفضلة التي لا يجاريكم فيها مجار ولا يباريكم في شرفها مبار، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية والواقعات(١) البدرية والعزمات الصديقية والفتوحات العمرية [والجيوش العثمانية والفتكات العلوية](٢). جددتم الإسلام أيام القادسية والملاحم اليرموكية و (المقالات الحدية)(٣) والحملات الخالدية. فجزاكم الله عن نبيكم محمد ﷺ أفضل الجزاء وشكَر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من إهراق(٤) الدماء وأثابكم الجنة فهي دار السعداء فاقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها وقوموا لله بواجب(٥) شكرها فله تعالى المنة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة، وترشيحكم لهذه الخدمة فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء وتبلجت بأنواره وجوه الظلمة وابتهج به الملائكة المقربون، وقر به الأنبياء والمرسلون فماذا عليكم من النعمة أن جعلكم الجيش الذي يفتح على يديه بيت المقدس في آخر الزمان، والجند الذي يقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان فيوشك أن يفتحَ الله على أيديكم أمثالها(٦). وأن يكون التهاني لأهل العبر(٧). هو البيت الذي ذكره الله في كتابه ونص عليه في محكم كلامه(٨) فقال سبحانه(٩): ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾(١٠) هو البيت الذي عظمته الملل(١١) وأثنت عليه الرسل وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الله عز وجل. هو البيت الذي أمسك الله عز وجل لأجله الشمس على يوشع أن تغرب، وباعد بين جوانبها(١٢) ليتيسر فتحه ويقرب، أليس هو البيت الذي أمر الله عز وجل موسى أن يأمر قومه

---

(١) هذه العبارة تاريخياً في غير مكانها.

(٢) لم ترد في ظ.

(٣) في الأنس: المنازلات الخيبرية.

(٤) في ظ: مهراق

(٥) في الأنس كانتين بواجب.

(٦) في الأنس أمثاله.

(٧) في الأنس لأهل الخضراء أكثر من التهاني لأهل الغبراء.

(٨) في الأنس خطابه.

(٩) في الأنس: قال تعالى.

(١٠) الإسراء ١.

(١١) في الأنس: خطواتها.

(١٢) في الأنس: غضب الله.

باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان وغضب[١] عليهم لأجله فألقاهم في التيه عقوبة للعصيان، فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل وقد فضلت على العالمين ووفقكم لما خُذلت فيه أمم كانت قبلكم من الأمم الماضين وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى، وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف، وحتى، ويهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده، وجعلكم بعد ما كنتم جنود الأهوية جنده.. وشكر لكم الملائكة المنزلون على ما اهتديتم لهذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس والتحميد[٢] وما أبطأتم[٣] عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث واعتقاد الفاجر الخبيث.

فالآن تستغفر لكم أملاك السموات وتصلي لكم الصلوات المباركات فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم[٤] ومن اعتصم بعروتها[٥] نجا وعصم، واحذروا من اتباع الهوى ومواقعه الردى، ورجوع[٦] القهقرى والنكول[٧] عن العدا، وجدّوا في انتهاز الفرصة، وإزالة ما بقي من الغصّة، وجاهدوا في الله حق جهاده واسعوا عباد[٨] الله أنفسكم في رضاه إذ جعلكم من خيار عباده، وإياكم أن يستزلكم الشيطان وأن يتداخلكم الطغيان، فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد وجنودكم الجياد، وبجلادكم في مواطن الجلاد، لا والله ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، احذروا عباد الله بعد أن شرفكم[٩] الله بهذا الفتح الجليل والمنح الجزيل وخصكم بنصره المبين وأعلق أيديكم بحبله المتين[١٠] أن تقترفوا كثيراً من مناهيه وأن تأتوا عظيماً معاصيه فتكونوا ﴿كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً﴾[١١] وكالذي ﴿آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾[١٢]. والجهاد الجهاد فهو أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم

(١) في الأنس التمجيد.

(٢) في الأنس ما أمطتم.

(٣) في ظ يتقون الذي تمسك بها سلم.

(٤) في ظ بعروته.

(٥) لم ترد في ظ.

(٦) في الأنس: الغلول.

(٧) في الأنس بيعوا.

(٨) في الأنس زيادة الله.

(٩) في الأنس زيادة.

(١٠) في الأنس زيادة.

(١١) النحل ٢٧٧.

(١٢) الأعراف ١٧٥.

انصروا الله ينصركم، احفظوا الله يحفظكم، اذكروا الله يذكركم. اشكروا الله يزدكم ويشكركم، جدوا في حسم الداء وقلع شأفة الأعداء، وطهروا بقية الأرض من هذه الأنجاس التي عصت[1] الله ورسوله واقطعوا فروع الكفر واجتنبوا أصوله، فقد نادت الأيام بالثارات الإسلامية والملة المحمدية. الله أكبر فتح الله ونصر، غلب الله وقهر، أذل الله من كفر، واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها وغنيمة فخذوها[2]، ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها، وسيّروا إليها سرايا عزماتكم وجهزوها، فالأمور بأواخرها والمكاسب بذخايرها[3]، فقد ظفركم الله بهذا العدو المخذول وهم مثلكم أو يزيدون، فكيف وقد أضحى قبالة الواحد منكم منهم عشرون وقد قال الله تعالى: ﴿إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾[4] إلى آخر الآيتين.

أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره والازدجار بزواجره، وأيدنا معاشر المسلمين بنصركم[5] من عنده ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده﴾[6] إن أشوق[7] مقال يقال في مقام وأنفذ سهام تنفذ[8] عن قسي الكلام وأمضى قول تحلّى به الأفهام كلام الواحد الفرد العزيز العلام، قال الله تعالى: ﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾[9] أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم، وقرأ أول الحشر ثم قال: آمركم وإياي بما أمر الله به من حسن الطاعة فأطيعوه، وأنهاكم وإياي عما نهى الله عنه من قبح المعصية فلا تعصوه.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولجميع[10] المسلمين فاستغفروه، ثم دعا للإمام الناصر خليفة العصر ثم قال: اللهمَّ وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك الشاكر لنعمتك المعترف بموهبتك سيفك القاطع وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك المدافع الذاب عن حرمك، الممانع السيد الأجل الملك الناصر جامع كلمة الإيمان وقامع غيدة الصلبان صلاح

(١) في الأنس أغضبت.
(٢) في الأنس فحوزها.
(٣) في الأنس بذخائرها.
(٤) الأنفال ٦٤-٦٥.
(٥) في الأنس بنصر.
(٦) الأعراف ٢٠٣.
(٧) في الأنس لشرف.
(٨) في الأنس تمرق.
(٩) الأعراف ٢٠٣.
(١٠) في الأنس لسائر.

الدين والدنيا سلطان الإسلام والمسلمين مطهر البيت المقدس أبي المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين اللهم عم بدولته البسيطة واجعل ملائكتك براياته محيطة واجز عن النبي الحنيفي جزاه(١)، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاه، اللهم أبق للإسلام مهجته ووفق للإسلام حوزته(٢)، وانشر في المشارق والمغارب دعوته، اللهم وكما فتحت على يديه البيت المقدس بعد أن ظنت الظنون وابتلي المؤمنون، فافتح على يديه داني الأرض وقاصيها وملكهُ صياصي الكفرة ونواصيها، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزقها ولا جماعة إلى فرّقها ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها.

اللهم اشكر عن محمد ﷺ سعيه، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه، اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء الممالك وأكنانها، اللهم ذلل به معاطس الكفار وأرغم به أنوف الفجار وانشر ذوايب ملكه على الأمصار، اللهم ثبت به الملك منه(٣)، وفي عقبه إلى يوم الدين، واحفظه في بنيه الغرّ الميامين وشد عضده ببقائهم وانصر بإعزاز أوليائك وأوليائهم، اللهم كما أجريت على يده في الإسلام هذه السنة التي تبقى على الأيام، وتتخلدُ على مرور الشهور والأعوام، فارزقه الملك الأبدي الذي لا ينفذ في دار المتقين وأجب دعاءه في قوله: ﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾(٤). ثم دعا بما جرت به العادة. ونزل وصلى.

توفي القاضي محيي الدين رحمه الله في سابع شعبان سنة ثمان وتسعين وخمسمئة بدمشق ودفن من يومه بسفح قاسيون. وفي بعض المجاميع(٥) أن السلطان صلاح الدين لما كثرت فتوحاته للسواحل وأوجع فيهم بسهامه وسطوته وكان لا يتجاسر على فتح بيت المقدس لكثرة من فيه من الأبطال والعدة، ولكونه كرسي دين النصرانية وكان في بيت المقدس شاب ماسور في أهل دمشق كتب هذه الأبيات وأرسل بها إلى الملك صلاح الدين على لسان القدس لشريف:

يا أيها الملك الذي ... لمعالم الصلبان نكّس
جاءت إليك ظلامة ... تسعى من بيت المقدس
كل المساجد طهرت ... وأنا على شرفي منجَّس

(١) في الأنس جزاءه.
(٢) ووف للايمان حوزته.
(٣) في الأنس ثبت الملك فيه.
(٤) النمل ١٨
(٥) في الأنس وقد حكي أن السلطان.

فكانت هذه الأبيات الداعية له إلى فتح بيت المقدس فيقال: إن السلطان وجد في ذلك الشاب أهلية فولاه خطابة المسجد الأقصى وكانت وفاة الملك صلاح الدين قبل ذلك في صفر من شهور سنة تسع وثمانين وخمسمئة (وترجمته مدونة في سيره رحمه الله وجزاه عن الإسلام خيراً)[١]. ثم كان بعد الفتوح خطيب المسجد الأقصى أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن أحمد بن سيد زين الدين المفازي[٢] المالقي. كان محدثاً مجيداً سمع كتاب الجامع المستعصي على مصنفه (الحافظ بهاء الدين القاسم بن)[٣] الحافظ أبو القاسم بن عساكر بقراءته بالمسجد الأقصى في العشر الأوسط من شهر رمضان المعظم سنة ست وتسعين وخمسمئة، وتوفي الحافظ بهاء الدين بن عساكر صاحب كتاب الجامع المستقصي سنة ستمئة.

---

(١) وردت في الأنس (وقد سطرت مثوبة هذا الفتح المبين في صحائف حسناته وأرجو أن يسكنه الله في أعلى غرفات جنانه).

(٢) في الأنس المعافري.

(٣) في ظ (زيادة).

القدس
قبلة الأمس وقضية العصر

حكمت هلال

يذكر المؤرخون أن مدينة القدس قد شيدت منذ أكثر من ٣٨٠٠ عام قبل الميلاد، وتذكر المصادر التاريخية أن الذين شيدوها هم قبائل كنعانية نزحوا من الجزيرة العربية، وسموها: (أرض كنعان) باسمهم، وهذا أول اسم سميت به نسبة إلى الكنعانيين، وجاء اليونان فالرومان فأطلقوا عليها تسمية فلسطين نسبة إلى سكانها الفلسطينيين الأقدمين.

وحل اليهود بها فسموها (أرض الميعاد) زاعمين أن الله وعدهم بها، أما مسيحيو الغرب فأطلقوا عليها تسمية (الأرض المقدسة) لتقدسها بالأنبياء والرسل الذين ولدوا فيها أو زاروها.

وجاء المسلمون بعدهم فسموها (القدس) أو (بيت المقدس) لأنها مهد الأنبياء والمرسلين، ولأن رسولهم (ﷺ) أسري به ليلاً من مكة إلى بيت القدس.

كما تروي الآثار القديمة أن مدينة القدس كانت تحمل اسم (أورشليم) وتذكر بعض المصادر أن هذا الاسم عموري، ورد ذلك في رسائل تل العمارنة في القرن الرابع عشر قبل

الميلاد، حيث اكتشفت في عام ١٨٨٧م وتحمل الأرقام التالية: ٢٨٩ – ٢٩٠ – ٢٩١ – ٢٩٢ – ٢٩٣ – ٢٩٤، وتذكر المصادر الآرامية أن اسمها (أور سالم) بمعنى مدينة السلام.

ولقد ورد في العهد القديم: (هكذا قال الرب لأورشاليم: مخرجك ومولدك أرض كنعان، أبوك أموري وأمك حثية) (حزقيال ١٦: ٢-٣) وذكر اسمها في المكتشفات المصرية اسم (إروشاليم) وسميت (يبوس) نسبة إلى اليبوسيين، وسميت (مدينة داود) في عهد النبي داود، وورد اسم القدس في أسفار العهد القديم باسم (إيروشاليم). ونجد اسم (القدس) في بعض النقوش التي تعود إلى عهد الاسكندر الأكبر، ومملكة (كبلة) و(بيت حنانيا).

ثم صار اسمها (إيليا كابتولينا) في عصر الإمبراطور الروماني إيليوس هدريان. وقيل من أسمائها: إيليا، إليا، إيلياء، بيت إيل، بيت الرب، القدس، الأرض المقدسة، كما أطلق الأوربيون عليها.

أما زعم اليهود بأنهم ينتسبون إلى النبي إبراهيم عليه السلام، وأنه وعدهم بالقدس (أرض الميعاد) كما يزعمون، فهو محض افتراء دحضه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً﴾ (آل عمران): ٦٧ ونفى انتساب اليهود إليه.

وظلت تسمية العرب المسلمين لها بالقدس أو (الأرض المقدسة) هي السائدة في هذا العصر، لأنها تطهرت من الشرك، وجعلت مسكناً للأنبياء والمؤمنين، وظلت تسميتها (فلسطين) الغالبة في خرائط دول العالم الحديث رغم محاولات اليهود اليائسة إطلاق تسمية (إسرائيل) عليها، لطمس الحقائق وتزوير الوقائع التي تنطق بعروبة فلسطين، نسبة إلى الكنعانيين الذين وفدوا إليها من الجزيرة العربية منذ أقدم العصور.

كما ظلت القدس مهد حضارة العالم القديم، تتنازع الأمم في العصر الحديث للسيطرة عليها، كما تنازعت الأمم القديمة، ولقد كانت وما زالت ساحة حرب وميدان صراع بين الشعوب، فكم من قائد ظفر بها، وآخر سقط أسيراً، أو خرّ قتيلاً، أو هزم، أمثال: نبوخذ نصر، وصحوتميس، والاسكندر، وبومبي، ويوليوس، وأغسطس، ونيطس، وكسرى، وأبو عبيدة، وصلاح الدين، وقلب الأسد، والسلطان سليم، وبونابرت، وإبراهيم باشا، وليمان فون ساندرس باشا، واللنبي.

سكانها:

توطن في القدس جميع أجناس البشر، من سامي ومغولي وإرياني، ولم تقطنها أمة واحدة، بل كانت في سائر أدوارها تتعاقب عليها الأمم من سائر الملل والنحل، إن جميع التواريخ القديمة لا يعول عليها، ما لم يؤيدها العقل والعلم والحفريات والآثار، وأقدم تاريخ للقدس يبتدئ من عام ٣٨٠٠ ق. م بشهادة الحفريات المكتشفة أخيرا في جازر (أبو شوشة) وهي قرية قرب الرملة

وأثبت الأستاذ مكالستر رئيس جمعية انكليزية قامت بهذه الحفريات ما بين عامي (١٩٠٢ – ١٩٠٥) أن أقواماً غير ساميين قد سكنوا فلسطين. وبرهن على ذلك بما وقعت عليه يداه من شواهد وآثار، ومن رسوم وأحجار، وأول من سكنها أقوام من العصر الحجري، ثم تدفق على فلسطين شعوب كثيرة من العراق ومن جزيرة العرب، فنزلوا بها، وشادوا مدنها .

الكنعانيون :

من أهم هذه القبائل والشعوب التي حلت في فلسطين منذ القديم الكنعانيون، وهم قبائل عربية نزحت من جزيرة العرب ونزلت في فلسطين، واستقرت في الأراضي المنخفضة، فسموا بالكنعانيين، لأن معنى (كنعان) في لغتهم السامية (الأرض المنخفضة). وزاولوا الزراعة والتجارة فترة طويلة، حتى هاجمهم اليهود، فحاربوهم وتغلبوا عليهم، ولم يختلطوا بهم لوثنية الكنعانيين آنذاك.

الحثيون :

وهم قبائل وصلت إلى فلسطين من تركستان في عام ١٧٠٠ ق. م، وكانت عاصمتهم (ختي) التي يطلق عليها اليوم (بوغازكوى) وقد حاربهم رعمسيس فرعون مصر ١٤ سنة لكنه لم يتمكن من إخضاعهم فحالفهم، ولكن الملك ستي الثاني الذي جاء بعده حاربهم وانتصر عليهم. ويقال: إن النبي إبراهيم اشترى مغارة منهم، ودفن زوجته سارة فيها وبعض بنيه وأحفاده، وهذه المقبرة تدعى الآن (حرم الخليل وقبور الأنبياء) .

اليبوسيون:

لعلهم بطن من الكنعانيين، وكانت القدس قديماً تدعى (يبوس) فأخذوا تسميتهم منها، وحاول اليهود بعد عودتهم من صحراء التيه أن يحتلوا القدس بقيادة النبي يشوع بن نون فعجزوا عنها، إلى أن جاء النبي داود فحاربهم واستخلص القدس من أيديهم ، و جعلها عاصمة ملكه، وفرض الجزية على اليبوسيين حتى أيام سليمان .

الفينيقيون:

وهم من أصول كنعانية كما أثبتت النقوش المكتشفة حديثاً، سكنوا فلسطين وأبوا الخضوع لغيرهم من الشعوب القوية، ولما غلبوا على أمرهم انسحبوا إلى الشمال يترقبون الفرص كي يسترجعوا منطقتهم، ويعيدوا سالف ملكهم فيها، لكنهم لم يفلحوا في ذلك كما أفلح الأسبان في استرجاع أرضهم من العرب.

وبالرغم من ذلك فإن الفينيقيين وإن لم يسكنوا فلسطين فقد أثروا في تاريخها، وخلفوا نقوشهم وآثارهم على صخورها. ولقد كانوا من أعظم وأشهر الأمم القديمة التي سكنت سوريا وفلسطين، وكانوا حلفاء النبي سليمان إذ عاونوه على بناء الهيكل بنقل الأخشاب إليه من أحراج لبنان عن طريق البحر إلى يافا، وساهموا في بناء الهيكل بما عرف عنهم من إتقان البناء والعمارة التي كانت مفقودة عند اليهود.

وقد تزوج آخاب أحد ملوك بني إسرائيل من إيزابل الفينيقية بالرغم من ممانعة قومه، فرغبة الملوك في محالفتهم ومصاهرتهم دليل ساطع على عظمتهم ورفعة شأنهم. وقد ورد ذكرهم في إنجيل مرقس بأن امرأة فينيقية طلبت من السيد المسيح أن يشفي ابنتها.

وكان الفينيقيون أمة تجارية من الدرجة الأولى، وذلك بسبب ضيق بلادهم التي يحدها من الغرب البحر، ومن الشرق الجبال، فزاولوا التجارة، وخاضوا من أجلها لجج البحار واقتحموا الأهوال والأخطار، وأسسوا مستعمرات لهم على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ووصلوا إلى أسبانيا وانكلترا، وأسسوا مستعمرة عظيمة لهم في شمال أفريقيا (قرطاجة) التي كادت أن تقضي على دولة الرومان بقيادة البطل القرطاجي: هانيبال .

الفلسطينيون :

الفلسطينيون هم من الشعب الإرياني (الآري) قدموا إلى فلسطين عن طريق الأناضول من جزيرة كريت ومن مصر، وعندما هزمهم رعمسيس وقهرهم، وأسكنهم فلسطين ما بين يافا وغزة، دخلوا البلاد واستولوا عليها وحاربوا اليهود، وهزموهم هزيمة منكرة، فقتل شاول ملكهم نفسه من شدة غيظه (١).

من ملوك الفلسطينيين جالوت الذي قتله الفتى داود بمقلاعه،.

امتزج الفلسطينيون بالأمم السابقة، وغلبوا بتسميتهم عليهم، إلا اليهود لانعزالهم، وتحريم التزاوج مع غيرهم. وقد تركوا فلسطين ١٩ قرنا، والآن بعد هذه المدة الطويلة يحنون إليها ويطالبون بها، ولا ندري ما مصير الأمة التي سكنتها خلال هذه المدة الطويلة .

الآدوميون:

من الأقوام التي سكنت القدس الآدوميون أولاد عيسو بن إسحاق، وقد حاول ملك اليهود شاول أن يتغلب عليهم فلم يوفق في ذلك، وتغلب عليهم داود بعد ذلك وأخضعهم، واستمر خضوعهم لليهود حتى عهد سليمان، ولما هاجم نبوخذ نصر أورشليم وحاصرهم أعانه الآدوميون على نهبها وذبح أهلها، فكافأهم ووسع ملكهم، حتى جاء الأنباط العرب فتغلبوا عليهم وملكوا بلادهم، وبذلك انقرضت دولتهم .

المؤابيون :

وهم من سلالة لوط، وتقع مساكنهم ما بين الأزرق وتبوك وعربات مؤاب مقابل أريحا التي وصل نفوذهم إليها ، وظلوا يدفعون الجزية إلى سبط بنيامين ملك المؤابيين مدة ١٨ سنة.

العمونيون:

وهم كذلك من أبناء لوط، ومساكنهم في جهة السلط وعمان والزرقاء.

العماليق:

كانوا يقطنون صحراء سيناء بين المصريين والفلسطينيين والكنعانيين، وهم الجبارون الذين حاربوا اليهود وتغلبوا على ملكيهم: جدعون وشاول، ولم يكن لهم ملك منظم، بل كانوا قبائل كالترابين والتياها والعزازمة والجبارات والعدوان وبني صخر والحويطات، وتجتمع كل قبيلة حول شيخها الذي يمثل الحاكم والقاضي والقائد. وقد اهتموا بالزراعة وتربية الماشية، إلى جانب الغزو والسلب والنهب، ولم يكن لهم دين يرجعون إليه، والقوي يأكل الضعيف فيهم ويسود عليهم.

الأنباط:

وهم من العرب الذين استولوا على ملك الأدوميين، وأقاموا دولة لهم في وادي موسى، وقد عجز الرومان عن إخضاعهم، وكان لهم حكومة وملوك ووزراء، وضربوا النقود، واستولى ملكهم الحارث الثالث على البقاع ودمشق سنة ٨٥ ق.م.

ومن ملوكهم أيضاً الحارث الرابع الذي اتسعت مملكة الأنباط في عهده، فشملت سيناء من الغرب، وحوران وحدود العراق من الشرق، وبلغت وادي القرى من الجنوب، وظلت بلادهم مركزاً تجارياً هاماً ما بين أغلب الأقطار المعمورة آنذاك، إلى أن جاء إمبراطور الرومان تراجان، فتغلب عليهم، وقضى على حضارتهم سنة ١٠٦م.

من أعظم مدنهم البتراء وبصرى وأذرع وعمان وجرش والكرك والشوبك وأيلة والحجر ومأدبا ودمشق. وبلغ عدد ملوكها ١٨ ملكاً، فيهم أربع ملكات مما يثبت تساوي الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات منذ القديم.

اليهود في فلسطين:

وهم قبيلة سامية هاجرت من العراق سنة ٢٠٠٠ق.م ووصلوا إلى أرض كنعان (فلسطين)، واستقروا فيها، غير أن مجاعات فلسطين المتوالية اضطرتهم لانتجاع مصر ملتجئين إلى حوض نيلها الخصيب، حيث أصبحوا عبيداً للفراعنة، وظلوا كذلك إلى أن ظهر فيهم موسى، فأرسله الله نبياً إلى قومه، فأنقذهم من غربتهم وعبوديتهم، وعاد بهم إلى فلسطين عن طريق الجنوب الشرقي.

يقول المؤرخ الشهير يوسيفوس: إن قائد بني إسرائيل الذي فتح فلسطين كان يشوع بن نون، الذي عبر بجيشه واحتل أريحا من الكنعانيين، ويتكون هذا الجيش من قبائل أضرّ بها الجوع والهلاك، فدفعهم هذا إلى احتلال فلسطين بقوة السيف وبقسوة شديدة كما يفعلون الآن في غزة وفلسطين.

لكن قبائل المديانيين ــ وهم شعب عربي ــ لم يتركوهم وشأنهم، فكانوا يهاجمونهم ويستولون على أرزاقهم، ولم يفلح اليهود في تجنبهم، فاختلطوا بهم وتزوجوا بناتهم، وعجزوا عن رد هجمات البدو وغاراتهم القادمة من شرقي الأردن.

عصر القضاة:

كان يظهر من بني إسرائيل أيام الشدائد والأهوال قضاة عظام يخلصون قومهم من المآزق، وقد دامت مدة حكمهم من سنة ١٥٩٥ــ١٤٢٠ ق. م ومن أشهرهم:

جدعون: الذي حارب المديانيين وخلص قومه من شرهم، وحاول أن يجمع كلمة اليهود تحت لواء سلطته، لكن روح البداوة المتغلغلة في نفوسهم جعلته يفشل في ذلك

شمشون: هو من قرية صرعا من بلاد الخليل (العرقوب) الواقعة بين القدس والرملة، وكان شمشون من الجبابرة، وذا بأس وقوة، بطش بالفلسطينيين أعداء قومه ويقال: إن سر قوته في إطالة شعره، وقد أسره الفلسطينيون بعد أن قتل منهم ثلاثين رجلاً، ومات في غزة.

صموئيل: كان كاهناً تولى القضاء سنة ١١٤١ق.م، وعرف بعدله وأصالة رأيه وإخلاصه وأمانته وغيرته على أمته، وهو آخر القضاة الذين اجتمعت عليه كلمتهم، وأوحي إليه بعد ذلك بالنبوة، وطلب منه قومه أن يختار لهم ملكاً ينضوون تحت لوائه، فاختار لهم شاول ملكاً عليهم، فكان أول ملك من ملوك اليهود، وهو من أصغر أسباطهم، واشتهر بالبسالة والإقدام.

كانت حياته سلسلة معارك وحروب خاضها مع قومه ضد أعدائهم، فحارب العمونيين واستأصلهم، وقاتل العمالقة والمؤابيين والأدوميين فألحق بهم الهزيمة فضعف شأنهم .

ولكنه هزم أمام الفلسطينيين خصومه الألداء، حيث ألحقوا به هزيمة منكرة في مرج ابن عامر، فقتل شاول نفسه خوفاً من الوقوع في الأسر.

وعاش اليهود عصرهم الذهبي في عهد داود الذي انتخب ملكاً عليهم بعد قتلـه جليـات زعيم الفلسطينيين دفاعاً عن قومه، وخلفه في الحكم ولده سليمان الذي اسـتلم الملـك سـنة ١٠١٥ق.م فقام بأعبائه، ووسع حدود دولته فتجاوزت مـا وراء فلـسطين، ويقـول كتـاب اليهود: إن مملكة سليمان امتدت من الفرات إلى حدود مصر. وفي سـنة ١٠١٤ق.م تـزوج الملك سليمان ابنة فرعون آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين، وأعطاها والدها مدينة جازر (أبو شوشة) بائنة العرس، وبعد ذلك ضعف أمر إسرائيل إذ تركوا عبادة الله وعبدوا الأصنام والأوثان، لما اقترن آخاب ملكهم بالأميرة الفينيقية إيزابل، فإنها شجعت الناس علـى عبـادة آلهة قومها بعل وعشتروت، فعجزوا عن التصدي للآشوريين الذين اكتسحوا بلادهم(١).

وهدموا عاصمتهم، وأسروهم ونقلوهم إلى نينوى، فذهبت ريحهم، وانطفأت نارهم، وزالت مملكتهم سنة ١٧٢٠ ق.م بعد حكم دام قرنين ونصف.

السَّمرة:

ويدعون كوثيين أو كوفيين، وقد أتوا من الكويت كما روى الأب أنسطاس الكرملي، وقد نقلهم إلى فلسطين شلمناصر، ويقدر عددهم بعشرين ألفاً، فهبطوا البلاد وأسسوا دولة قوية لم تلبث أن ضعفت في حروبها مع القائد الروماني فسباسيانوس الذي أباد أكثرهم، ورجع اليهود بعد ذاك من السبي، فاشتدت العداوة بينهم وبين السمرة الذين أصبحوا نجـسين فـي نظـر اليهود. أما السمرة اليوم فلا يزيدون عن مائة نفس، يعيشون في مدينة نابلس ولا يختلطـون بغيرهم، ويقدمون كل سنة ذبيحة الفصح على جبل جرزيم، ويدعون أنهـم هـم شـعب الله المختار لا اليهود.

الآشوريّون:

فتح الآشوريين فلسطين، وجاء بعدهم البابليون فسبوا اليهود إلى العراق، وحـين تـولى كورش الكبير مملكة الفرس على أنقاض الدولتين استولى على فلسطين، وسمح لليهود سـنة ٥٣٦ق.م بالعودة إلى بلادهم، لاستخدامهم جسراً في احتلال مصر والمغرب، ولـم يتحقـق حكمه إلا على يد خلفه قمبيز الذي فتح مصر وضمها إلى سلطته. ومن أهم ملـوك الفـرس

---

(١) سفر القضاة ص١٣.

الذين حكموا فلسطين: كورش وقمبيز وداريوس وزركسيس ما بين الفترة الواقعة من عامي ٤٦٥ إلى ٥٥٨ ق.م.

اليونان في فلسطين: دبّ النزاع ما بين الفرس واليونان على امتلاك البلاد، فهاجم الإسكندر المقدوني الفرس في تركية وهزمهم شر هزيمة، واستولى على مستعمراتهم ومنها فلسطين. يقول المؤرخ يوسيفوس: إن الاسكندر لم يفتح القدس عنوة، بل أكرم رئيس كهنة الهيكل، وأستأنف السير إلى مصر، ففتحها، وبنى مدينة الإسكندرية، ثم كرّ راجعاً، فالتقى بجيش الفرس شمال العراق، فكبدهم خسائر فادحة، وكان الاسكندر يهدف إلى توحيد العائلة البشرية، ومزج الغرب بالشرق، فعمل على نشر الثقافة اليونانية. وقد تابع الرومان مهمته، لكنهم عجزوا عن مباراة اللغة اليونانية التي ظلت هي السائدة في عصرهم، وتوفي الاسكندر وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، فاقتسم قواده الأربعة إمبراطوريته بينهم، ولا يهمنا منهم سوى سلوقس حاكم سورية، وبطليموس ملك مصر، ووقعت فلسطين في منطقة النزاع بينهما، ومحاولة السيطرة عليها.

الرومان:

ورث الرومان سكان إيطاليا مملكة اليونان وحضارتهم في الغرب والشرق، واكتسح القائد الروماني بومبي فلسطين وقضى على الحكم السلوقي فيها، ودخل دمشق، ثم زحف منها إلى القدس، وحصرها وفتحها عنوة، وقسم البلاد خمسة أقسام، تدير كل قسم نظارة رومانية. وقد اشتد اضطهاد الرومان لليهود، فعذبوهم وشتتوهم في البلاد، وقد ثار اليهود ثورة عارمة ضد هذه المعاملة القاسية، لكنهم لم يفلحوا وهزموا هزيمة منكرة، وعذبهم الرومان بضراوة بقيادة القيصر (إيليوس هدريانس) الذي دمر عاصمتهم أورشليم، وغير اسمها، وأطلق عليها تسمية (إيلياء) نسبة إلى اسمه. لم يتمكن اليهود بعد ذلك من ممارسة شعائرهم الدينية، لعدم وجود مكان لصلاتهم، ولحق الدمار والخراب دير قمران اليهودي ، وكان يعيش فيه شرذمة من اليهود، فأحرق الرومان كتبهم عام ٧٠م، فهاجر اليهود إلى الأردن عام ٧٦م. تحدث القديس بولس عن اليهود فقال :إنهم طفيليون كذابون، احذروا الكلاب، عاقبتهم الهلاك، وإلههم بطنهم، ومجدهم عورتهم .

السيد المسيح:

لابد لنا ونحن نتحدث عن تاريخ فلسطين من أن نتوسع في سيرة المصلح الكبير السيد المسيح عليه السلام وأمه مريم العذراء ، فقد تربى ونشأ في أرض فلسطين، فأكل من خبزها،

وشرب من مائها، وتنسم من هوائها وعبير أزهارها، وطاف مدنها معلماً وهادياً، واختار حوارييه الأثني عشر من رجالها. ولد السيد المسيح عليه السلام في بيت لحم في عهد القائد الروماني أوغسطس قيصر، وعاش في الناصرة، وإليها ينسب أتباعه النصارى، وإذ بلغ الثلاثين من عمره بدأ ينشر دعوته وتعاليمه بين الناس البسطاء، ثم انتقل إلى أورشليم مركز التعصب الذميم فجاهر بدعوته، وصرح بمبادئه، فلم ترق هذه التعاليم لليهود، فسخروا من أقواله، وألبوا عليه الرأي العام ، فقبض عليه، وحكم عليه الوالي الروماني بيلاطس بالصلب بإيعاز من زعماء اليهود. عاش السيد المسيح على الأرض فقيراً، لا يملك من حطام الدنيا شيئاً، فقد كان زاهداً في الدنيا وما فيها. ويقول المؤرخ يوسيفوس: نشأ في أيام بيلاطس رجل حكيم، علم مريديه الحق، ومال إليه عدد كبير من اليهود وغيرهم، ويدعى هذا الرجل المسيح، وحين حكم عليه بيلاطس بالصلب بتحريض من اليهود لم يتخل عنه أشياعه ومريدوه، بل قاموا بنشر تعاليمه وتدوين أقواله في أناجيل عدة، وما زالت موجودة إلى يومنا هذا، ويدين بها عدد كبير من أبناء العالم .

أنظر (فيلبي: ٣/١٩، رو: ١١/٣٨) .

المصادر والمراجع

ــ آثار فلسطين: تأليف وليم ألبرايت، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر ١٩٧١م
ــ الآراميون: علي أبو عساف دار شمأل ١٩٩٨
ــ الأنس الجليل: للحنبلي، طبع عمان، مكتبة المحتسب عام ١٩٧٣م
ــ تاريخ سورية: للمطران الدبس دار مارون عبود بيروت ١٩٩٨م
ــ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين: لفيليب حتي دار الثقافة بيروت ١٩٦٧م
ــ تاريخ الطبري: للطبري دار المعارف بمصر ١٩٦٣م
ــ التاريخ العام: مير المطبعة الأمريكانية بيروت
ــ تاريخ فلسطين: لعمر الصالح البرغوثي وخليل طوطح، طبع في مطبعة بيت المقدس١٩٢٣م.
ــ التاريخ القديم: بورتر المطبعة الأمريكانية بيروت
ــ تاريخ القدس القديم: لخزعل الماجدي المؤسسة العربية للدراسات ١٩٩٤م
ــ العرب واليهود: لأحمد سوسة دار العربي للنشر والتوزيع دمشق ١٩٧٤م
ــ القدس سيرة مدينة: لخالد محمد غازي، طبع وكالة الصحافة العربية، القاهرة ، ط٢، ٢٠٠١م
ــ القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث: تأليف كارين أرمسترونج طبع القاهرة
ــ القرآن الكريم
ــ الكتاب المقدس
ــ معجم البلدان: لياقوت الحموي دار إحياء التراث بيروت ١٩٧٩م
ــ المفصل في تاريخ القدس: عارف العارف مطبعة المعارف بمصر ١٩٦١م
ــ الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني هيئة الموسوعة الفلسطينية بيروت ١٩٩٠م

قبة الصخرة في القدس الشريف بين التاريخ والهندسة

د. م. وفاء النعسان(*)

يُلاحظ الباحث في كتب التراث العلمي العربي أن هناك نقصاً كبيراً في المعلومات الهندسية التي تتحدث عن المباني التاريخية وطرائق الإنشاء، فضلاً عن النقص الكبير في بيان المنهجية التي استخدمت في الدراسة لتحديد السماكات والأبعاد، إذ لا يجد الباحث قاعدة أو قانوناً كان يُستخدم في الدراسة وتحديد السماكات، بل كان يعتمد التقليد والتجربة والنظرة الحسية. وقد توجد بعض الإشارات الهندسية في متون بعض الكتب التراثية تتضمن وصفاً هندسياً لقبة الصخرة التي ارتبطت بها أحداث إسلامية خلدتها، حيث كان معراج الرسول صلى الله عليه وسلم إلى السماء، وكان دخول الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاتحاً ومصلياً، وهذا ما لفت انتباه الرحّالة والمؤرخين العرب إلى الأهمية الدينية والتاريخية لهذا المعلم الأثري. بالإضافة إلى الأهمية الهندسية التي تتحدث عن تفاصيل المكونات الهندسية، وتطوّر أساليب البناء والعناصر الإنشائية الحاملة لهذه القبة التاريخية إضافة إلى الأسقف المائلة والأعمدة الحجرية والجدران والفتحات والأقواس المكونة لهذه القبة.

(*) مدرّسة قسم تاريخ العلوم التطبيقية والآثار، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب.

أنشئت قبة الصخرة تكريماً وتخليداً للصخرة المشرفة، فهي أقدم نماذج القباب في العصر الإسلامي، وأجمل الآثار التي خلفها لنا التاريخ، ويجمع المتخصصون على أنها أقدم أثر إسلامي يتحدى الزمن، ويحتفظ بتخطيطه وجمال زخارفه حتى عصرنا الحالي.

وقد عرف المهندس العربي المسلم فوائد تسقيف المساجد بالقباب، حيث تتميز القباب بخاصتين: الخاصة الأولى هندسية إنشائية فهي تساعد على توزيع الضغط الناجم عن ثقل السقف على أربعة جدران، وهذا الأسلوب الإنشائي أدى إلى الاستعاضة عن الأسقف المستوية، والخاصة الثانية هي الفنية التزيينية الزخرفية. وقد تطور بناء القباب في العصر الإسلامي حتى أصبحت القباب تختلف في طرازها وطريقة بنائها عن القباب التي تغطي الأضرحة.

يتضمن هذا البحث دراسة هندسية إنشائية بمنظور معاصر للمعلومات التي وُصفت فيها قبة الصخرة في الكتب التراثية، بُغية تحديد مستوى المعرفة الهندسية لدى المهندسين العرب المسلمين في مجال المكونات الهندسية والجمل الإنشائية، وهذا التحليل العلمي أثبت أن العرب المسلمين كانوا على دراية عملية ومعرفة علمية بالهندسة الإنشائية، سواءً في مجال البناء أم في طرائق الإنشاء، ويُستدل على ذلك بآثارهم الباقية التي تُظهر الكفاءة الواسعة التي كانت لدى المهندس العربي في بناء البيوت والقصور والحصون والمساجد والخبرة العملية، والمعرفة المكتسبة الموروثة من جيل إلى آخر.

١ ـ المقدمة:

إنّ فعالية البناء هي أولى صنائع العمران الحضري وأقدمها، وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل، وقد دأب الإنسان منذ وجوده على هذه المعمورة على تأمين المسكن الذي يؤمن له الحماية والأمن والاستقرار، لذا كان لابدّ له من استخدام مواد البناء المتوفرة حوله، فاستخدم أوراق الأشجار وجذوعها، كما استخدم الخشب والطين إلى أن وصل إلى استخدام الحجارة التي وجد فيها القوة والمتانة والديمومة، كما وفرت له الحماية الكافية من العوامل الجوية المحيطة به.

٢ـ أهمية البحث:

إن لهذا البحث أهمية في أنه يكشف عن جانب من المعرفة في التراث العلمي العربي الإسلامي ضمن سياق العلم الهندسي المعاصر، حيث سيتم رصد المكونات الإنشائية، والجمل الإنشائية لقبة الصخرة التي تعود للعمارة الإسلامية في العصر الأموي في القدس الشريف. وذلك للإفادة مما برع به المهندسون العرب المسلمون في مجال المكونات الهندسية والتقنيات الإنشائية.

٣ـ الهدف من البحث:

يهدف البحث إلى ما يلي:

* التعريف بالقيمة التراثية لقبة الصخرة في القدس الشريف، ومحاولة تسليط الضوء على استخدامات مواد البناء التي استخدمت في بناء هذه القبة التاريخية.
* التوثيق الهندسي للعناصر الإنشائية المستخدمة في بناء القبة التاريخية.
* دراسة أساليب وتقنيات البناء لهذه القبة التاريخية.

٤ـ نبذة تاريخية عن مدينة القدس الشريف:

تعتبر مدينة القدس من أقدم المدن التاريخية في العالم، وهي مهد الديانات السماوية الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام.

ومدينة القدس القديمة مدينة مسورة، تقع على هضبة مستوية ومرتفعة، يحدها شرقاً وغرباً وجنوباً انحدار شديد، وتعتبر بوابة دمشق هي نقطة الاتصال بين داخل المدينة وخارجها، حيث الامتداد الطبيعي. ويقع الحرم المقدس في الطرف الجنوبي الشرقي للمدينة(١).

عُرفت مدينة القدس منذ آلاف السنين قبل الميلاد باسم يبوس نسبة إلى اليبوسيين، واليبوسيون هم من أصل عربي، نزحوا إليها من الجزيرة العربية، وذلك ضمن القبائل الكنعانية الذين كانت لغتهم سائدة فيها، كما عُرفت القدس بأورشاليم نسبة إلى الإله (شاليم) إله السلام لدى الكنعانيين، ثم خضعت القدس للاحتلال الروماني، وفي العصر البيزنطي عام(٣٣٠ ـ ٦٣٦م)، اعترف فيه بالديانة المسيحية كديانة رسمية للإمبراطورية البيزنطية، عندما اعتنقها الإمبراطور قسطنطين، وفي عهده قامت أمه الملكة هيلانة ببناء كنيسة القيامة في عام (٣٣٥ م) . واستمرت القدس تحت سيطرة البيزنطيين زهاء ثلاثة قرون، وكان فيها أعداد قليلة من اليهود، عملوا دائماً على تقويض السلطة المسيحية(٢).

وفي عصر الفتوحات الإسلامية كانت فلسطين أول البلدان التي فتحها المسلمون، وبدخولهم إلى القدس تبدأ حقبة جديدة في تاريخها، وبعد هزيمة الروم في معركة اليرموك أصبح الأمر سهلاً بالنسبة للمسلمين للوصول إلى القدس وفتحها، حيث دخل الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب القدس صلحاً، وأعطى لأهلها الأمان من خلال وثيقته التي عرفت بالعهدة

---

(١) إبراهيم، محمد عبد العال، العمران والعمارة في الوطن العربي، دار المعارف، مصر، ١٩٨٤، ص ٧١.

(٢) بهنسي، عفيف، الشام الحضارة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٦، ص ١٦٠.

العمرية. و بعد ازدهار الإسلام انتشر الدين الجديد على أثر استسلام الحاكم الروماني وتسليم مفاتيح القدس إلى الخليفة عمر بن الخطاب عام (٦٣٨م).[١]

توالت سلالات الخلافة الإسلامية على حكمها تباعاً، فحكمها بعد الخلفاء الراشدين، الأمويون، والعباسيون، والطولونيون، والإخشيديون، والفاطميون، والسلاجقة.

وقد بنى الخليفة عمر بن الخطاب مسجده قرب قبة الصخرة قائلاً: «إنا لم نؤمر بالصخرة، ولكننا أمرنا بالكعبة»[٢]، ولا يزال اسم الخليفة عمر بن الخطاب يطلق خطأ في بعض الأحيان لقبة الصخرة[٣].

في عام (١٠٩٩ م) وقعت القدس في أيدي الصليبيين، وحولوا المسجد الأقصى إلى كنيسة، ثم جاء صلاح الدين الأيوبي وحررها في معركة حطين عام(١١٨٧ م)[٤]، وفي عام (١٥١٧م) ضمها العثمانيون حتى نهاية عام (١٩١٧م)، حيث وقعت تحت الانتداب البريطاني، وعمل حكم الانتداب على تحقيق وعد بلفور، فيسر للمهاجرين اليهود حق امتلاك الأراضي المقدسة التي تضم المسجد الأقصى وكنيسة القيامة ومقدسات الأديان، وأقدس الآثار الإسلامية والمسيحية.

تعرضت القدس إلى زلازل رهيبة خاصة في سنة(١٠١٦م)، سقطت على أثرها القبة التي على الصخرة[٥]، وهذا ما دعا إلى إعادة صيانتها، واهتمام الفاطميين بها وخاصة في زمن الظاهر، لرفعة دين الله سنة(١٠٢٢م)، وسنة(١٠٢٧م)[٦].

استطاع المعمار العربي المسلم في فترة العصر الأموي أن يضع تصاميم ومخططات لأبنية رائعة، مازالت تشهد بقاياها على مدى تقدم فن العمارة في العصر الأموي، ومن أهم وأشهر المساجد التي شيدت في العصر الأموي مسجد قبة الصخرة.

دخل المماليك القدس عام (١٢٦٠م) وفيها أصبحوا حكامًا للقدس. وكان الوضع الاقتصادي آنذاك في القدس سيئًا. ولم تكن القدس تمثل أية أهمية سياسية أو عسكرية للمماليك، ولكن أهميتها اقتصرت على الناحية الدينية بشكل كبير. وقد تم استعمال عظمة

---

(١) عبد الجواد، توفيق، تاريخ العمارة، ج٢، المطبعة الفنية الحديثة،القاهرة، ١٩٦٩، ص ٢٧٤

(٢) العليمي، مجير الدين، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، النجف، ١٩٦٨، ج١، ص ٢٥٦.

(3) Briggs. M.S, Muhammadan Architecture, Oxford, 1924, P. 32. Rivoira G.T., Moslem Architecture, Edinburgh, 1918 ,P. 12.

(٤) عبد الجواد، توفيق، تاريخ العمارة، ج٢، المطبعة الفنية الحديثة،القاهرة، ١٩٦٩، ص ٢٧٤

(٥) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ليدن، ١٨٦٧، ج١٠، ص٥٧.

(٦) زايد، عبد الحميد، القدس الخالدة، القاهرة، ١٩٧٤، ص ١٩٤.

وغنى الفن المملوكي في ترميم و بناء مدينة القدس. حيث قاموا ببناء المدارس، والزوايا والخانات. ورمموا منطقة الحرم الشريف. المسجد الأقصى وقبة الصخرة (اللذين تم بناؤهما في الفترة الأموية).

٥ ـ قبة الصخرة في بيت المقدس: (٧٢هـ/ ٦٩٢م)

٥ ـ١ـ نبذة تاريخية:

يعتبر بناء قبة الصخرة من أروع المنشآت المعمارية التي شيدها الأمويون، وعلى الأغلب أن الخليفة عبد الملك بن مروان الذي أمر ببنائها أراد إضفاء طابع التعظيم للصخرة المقدسة والحفاظ عليها، وهذا ما دفعه بالتالي إلى أن يسعى إلى بناء مبنى ينافس بناء الكنيسة المجاورة لها(١).

أجمع المؤرخون على إطلاق مصطلح اسم المسجد الأقصى على كل الأبنية التي يحيط بها السور، وتضم المسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وما أنشئ من مصليات وأسبله ومدارس وقباب، وأطلق عليها أيضاً اسم الحرم الشريف(٢).

كتب المقدسي عن قبة الصخرة «لم أر في الإسلام ولا سمعت في الشرك مثل هذه القبة»(٣).

ويذكر ابن بطوطة «من أعجب المباني وأتقنها وأغربها شكلاً، قد توفر حظها من المحاسن وأخذت من كل بديعة بطرف، فهي تتلألأ نوراً وتلمع لمعان البرق، يحار بصر متأملها في محاسنها»(٤).

كما يصفها ابن كثير «لم يكن على وجه الأرض بناء أحسن من قبة الصخرة ببيت المقدس»(٥).

كذلك كتب الخياري عن قبة الصخرة «إنها قبة تأخذ بالأبصار وتفضي لرائيها بالاعتبار»(٦).

بدئ ببناء هذه القبة سنة (٦٨٥م)، وأكمل البناء سنة (٦٩١م)(٧)، ويمكن اعتبار قبة الصخرة من أولى المنشآت الإسلامية في بلاد الشام، وهي لهذا السبب تحمل إلى حد بعيد

---

(١) الخضر، عبد المعطي، تاريخ العمارة، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، ٢٠٠٢، ج٣، ص ١٠.

(2) E Strange, G. Paiestine under the Moslems, (Beirut 1965) P. 90.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦، ص ١٧٠.

(٤) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، القاهرة، ١٩٣٨، ج١، ص ٣٣.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت، ١٩٦٦، ج٨، ص ٢٨٠.

(٦) الخياري، تحفة الغرباء وسلوة الغرباء، بغداد، ١٩٧٩، ج٢، ١٧٦.

(7) Creswell, K.A.C. Early Mauslim Architecture Oxford, 1940, P72.

طراز وشكل العمارة التي كانت سائدة في سورية[١]. وقد ذكر تاريخ بناء القبة من خلال نص مكتوب بالخط الكوفي المنفذ بالفسيفساء المذهبة على أرضية زرقاء أسفل السقف فوق التثمين الأوسط في النهاية الشرقية للواجهة الجنوبية من الداخل والنص يذكر: «بنى هذه القبة عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين في سنة اثنين وسبعين هجرية» [٢].

من هذا النص يفهم أن هذه الكتابة التذكارية قد خضعت للتحريف في زمن الخليفة العباسي المأمون سنة(١٩٨ــ ٢١٨هــ / ٨١٣ــ ٨٣٣ م)، وأن المحرف قد غير اسم الباني الأصلي وهو الخليفة عبد الملك بن مروان، ووضع بدلاً عنه اسم الخليفة المأمون دون أن ينتبه إلى تغيير تاريخ البناء وهو سنة(٧٢هــ / ٦٩١م)، وهو تاريخ حكم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان.

وقبة الصخرة كما يذكر اليعقوبي[٣]، أنشأها عبد الملك بن مروان للاستعاضة عن الكعبة المشرفة، بسبب ثورة ابن الزبير في الحجاز عام (٦٨٠م)، ولذا لم تكن مسجداً بالمعنى المألوف، بل قبة كما نقش على إفريزها، واستعملت للصلاة ولكن دون أن يكون لها مئذنة.

ويذكر د. ثروت عكاشة[٤] أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان كان قد شيد قبة الصخرة بالقدس عام /٦٩١م/. ويبدو من تصميمها أنه اقتباس عن الطرز المعمارية السابقة على الإسلام، وخاصة عن كنيسة المدفن المقدس المستدير والمعروفة بكنيسة القيامة في مدينة القدس، التي ظلت موضع تقدير المسيحيين، وملتقى حجاجهم قبل ظهور الإسلام لعدة قرون. لهذا تعتبر قبة الصخرة من أهم وأبدع آثار الأمويين، كما أنها أقدم أثر إسلامي في تاريخ العمارة الإسلامية، وقد شيدها عبد الملك بن مروان سنة (٧٢هــ/ ٦٩١م) كما ذكرنا آنفا، لتكون مشهداً يحج اليه المسلمون بدلاً من مكة التي كان بها منافسه عبد الله بن الزبير، كما أقيمت أيضاً لتنافس كنيسة المسيحيين الكبيرة[٥].

٥ ـ٢ـ الوصف الهندسي:

أـ الصخرة:

تقع في المركز وهي صخرة من حجر قاتم اللون صلد، قدرت أبعادها الوسطية بارتفاع (١،٥)م، وطولانياً (١٨)م، وعرضاً نياً (١٣)م. وقد اكتسبت قبة الصخرة مكانة خاصة في الإسلام، إذ يعتقد أنها المكان الذي قدم إليه النبي إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل قرباناً لله

---

(١) بهنسي، عفيف، الشام الحضارة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٦، ص ١٨٦.

(٢) العارف، عارف، تاريخ القدس، القاهرة، ١٩٥١، ص ٣٨٨. حسن زكي محمد، فنون الإسلام، القاهرة، ١٩٤٨، ص ٣٩.

(٣) بهنسي، عفيف، الفن العربي الإسلامي في بداية تكونه، دمشق، ١٩٧٣.

(٤) عكاشة، ثروت، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، ص ١٦٦.

(٥) سامح، كمال الدين، العمارة في صدر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١، ص ٢٤.

عز وجل، ومن فوقها عرج بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماء في ليلة الإسراء[١]. في وسط الصخرة ثقب دائري قطره حوالي المتر ينفذ إلى مغارة تحتها تسمى بئر الأرواح[٢] مساحة المغارة (٥×٧)م.

ب ـ القبة:

أقيمت قبة الصخرة فوق مسطبة في وسط الحرم الشريف، وهي مستوية بلطت بألواح الرخام وكذلك جوانبها[٣]، وكان يحيط بها من أعلاها درابزين من الرخام الأخضر[٤]، وعلى هذه المسطبة عدة قباب أهمها قبة الصخرة وقبة السلسلة[٥].

ويذكر د. عفيف بهنسي:[٦] بأن القبة بنيت فوق جبل موديا على المكان المسمى الحرم الشريف، ويقوم البناء على مخطط مثمن تتوسطه قبة قائمة على أعمدة وأكتاف دائرية الشكل، ويحيطها رواق دائري، ولقد زينت الجدران الداخلية بالرخام والفسيفساء، كما غلفت القبة من الخارج بالألمنيوم المذهب وكانت مغلفة بالنحاس.

إن بناء القبة يعبر عن القدرة المعمارية للمهندس الذي شيدها. فتصميم القبة يلائم الطواف حول الصخرة المقدسة، وقبة الصخرة بناء حجري مثمن الشكل، قوامه مثمن خارجي من الجدران، يليه مثمن داخلي من الأعمدة والأكتاف، وداخل هذا المثمن دائرة من الأعمدة والأكتاف أيضاً، وفوق الدائرة قبة مرفوعة على عنق اسطواني مضلع فيها (١٦) نافذة، والقبة مصنوعة من الخشب تغطيها من الخارج طبقة من الرصاص، ومن الداخل طبقة من المصيص، ويبلغ طول ضلع المثمن الخارجي حوالي (٢٠،٥) متراً، وارتفاعه حوالي (٩) أمتار، وفي الجزء العلوي من كل ضلع في هذا المثمن نوافذ يصل منها النور إلى داخل البناء[٧]. وفي الجوانب المقابلة للجهات الأصلية الأربعة من المثمن أربعة أبواب متعامدة، وقبة الصخرة بنيت من الحجارة الطبيعية وهي بناء أموي كما ذكرنا آنفاً، حيث كان استخدام القباب معروفاً عند المسيحيين الشرقيين قبل بناء قبة الصخرة، فمثلاً كان هناك في بلاد الشام

---

(١) المصدر السابق (١٧)، ص ٢٩١.

(2) Creswell, K.A.C. Early Mauslim Architecture Oxford, 1940, P65.

(٣) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، القاهرة، ١٩٢٤، ج١، ص ١٤٤.

(٤) ناصر خسرو، سفرنامة، ترجمة الخشاب، بيروت، ١٩٧٠، ص ٦٩.

(٥) نجم، رائف يوسف وآخرون، كنوز القدس، ميلانو، ١٩٨٣، ص ٧٥.

(٦) بهنسي، عفيف، العمارة عبر التاريخ، دار طلاس، حلب، ١٩٨٧، ص ١٧٥.

(٧) عبد الجواد، توفيق، تاريخ العمارة، ج٢، المطبعة الفنية الحديثة،القاهرة، ١٩٦٩، ص ٢٧٥

كنائس ذات قباب فوق أبنية مثمنة الشكل[١]، فمن البديهي أن يكون للمسلمين مساجد وعمائر تضارعها في البهاء والجمال.

يحيط بالصخرة المشرفة دائرة القبة قطرها (٢٠،٤٠)م، وتتشكل هذه الدائرة من أربع دعائم حجرية مستطيلة، تحصر بينها اثني عشر (١٢) عموداً رخامياً دائري المقطع، أما الدعائم فهي عبارة عن ركائز مستطيلة طول ضلعها الكبير (٣)م، ومقطعها مربع، مكسوة بالرخام الأبيض.

يذكر المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم تفاصيل إنشائية لقبة الصخرة في المسجد. فالقبة مقامة على أعمدة موزعة على محيط دائرة، ترتكز على هذه الأعمدة قناطر فوقها منطقة متعالية (وهي ما ندعوه الرقبة) بالعرف المعاصر. فيها نوافذ، وفوق الرقبة ترتكز القبة، وهذه القبة مكونة من ثلاث طبقات: الأولى وهي الداخلية، من ألواح الخشب المزوقة، والثانية من أعمدة الحديد قد شبكت لئلا تميلها الرياح، والثالثة من خشب عليها الصفائح، والمقصود بالصفائح صفائح الرصاص فوقها صفائح الصفر المذهب، وهناك فراغ داخل هذه القبة يسمح بصعود العمال إلى أعلاها لتفقدها ورمها[٢].

يبدو أن المقدسي استطاع أن يبرر وجود الطبقة الوسطى وهي أعمدة الحديد المشبك، فالقبة متعالية في الهواء وارتفاعها مع العمود الذي فوقها حوالي خمسين متراً، وهي ترى من بعد، أي أنها في منطقة معرضة لدفع الرياح. وهي مبنية من الخشب، وهو خفيف لا يصمد بوجه الرياح مما دعا إلى تثبيت الطبقة الوسطى، وهي الحديد المشبك.

ينقل كريز ويل عن ريتشموند أن القبة في عصره (القرن التاسع عشر) كانت مؤلفة من قبتين خشبيتين مستقلتين عن بعضهما[٣].

يبدو من هذا النص أن الكاتب قد نقل إلينا المعرفة الإنشائية التي كانت سائدة عن توزيع الحمولات في الأقواس والنجفات، وانتقالها إلى الأعمدة ومعرفة بتحمل المواد، واقتراح تخفيف الحمولات المطبقة على التربة.

أوضح كريزويل مصدر عمارة قبة الصخرة في القدس، وقارن بين مخطط هذه القبة الثماني، وبين مخطط كاتدرائية بصرى الشام والتي كان بتلر قد قام بدراستها مؤكداً مخططها الثماني، ونافياً الرأي بمخططها الدائري[٤].

ويتكون المبنى من فناء مركزي تغطيه قبة خشبية كبيرة، وتدور حوله ممرات خارجية مزدوجة لطواف الحجاج، وتشير نقوش الجدران عند قاعدة البناء إلى أنه أنشئ كأثر معماري

(١) نظيف، عبد السلام، دراسات في العمارة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٩، ص ١٢.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٦٩.

(٣) كريزول ، الآثار الإسلامية الأولى، ص ٤٨ .

(4) Creswell, K.A.C. Early Mauslim Architecture Oxford, 1940, P72.

إسلامي، يحيط بالصخرة المقدسة التي أسري إليها بالرسول عليه الصلاة والسلام. وتعد لوحات الفسيفساء التي تزين المبنى من الداخل من روائع ما صور من لوحات الفسيفساء الإسلامية، وهي تعكس ألواناً متنوعة من الأشجار كالزيتون والليمون والرمان وتكوينات تجريدية غريبة من الزهور المنسقة في أوانيها. واكتست واجهات البناء في عهد السلطان سليمان القانوني عام (١٥٢٠م) ببلاط مزجج باللونين الأبيض والأزرق، أبدعتها أيدي صناع من مدينة إزنيك.

ونلاحظ أن الطابع الساساني يغلب على هذه الزخارف، بما يخالف الأثر الإغريقي البادي في الكرانيش، وفي تيجان الأعمدة الأنيقة التي تزين الممشى الخارجي للبناء.

وفي العمارة الإسلامية كان استعمال الأقواس نصف الدائرية فتحاً جديداً في بناء المساجد[١]، بدأه عبد الملك بن مروان في بناء قبة الصخرة بالقدس عام (٦٩١م)، فجميع الأقواس المستخدمة في هذا المبنى نصف دائرية.

أما عن الدراسة الإنشائية للقبة، فقد تمت بشكل جيد، فقد ربطت تيجان الأعمدة بواسطة الروابط الخشبية لتزيد في متانة المبنى وصلابته، كما كان التصميم ملائماً لعملية الطواف حول الصخرة.

نجد أيضاً الإبداع في الزخرفة داخل القبة، ومن الخارج زخرفت بالقاشاني التي تمت بأمر من السلطان سليمان عام (١٥٤٥م)[٢]، كذلك نلاحظ النوافذ الكثيرة(١٦) نافذة والمزخرفة بالزجاج الملون والرخام، وهناك أيضاً (١٦) نافذة في رقبة القبة.

ج ـ رقبة القبة:

يعلو الدائرة المركزية لبناء قبة الصخرة رقبة القبة التي يبلغ قطرها حوالي (٢٠م) وارتفاعها(٩،٤٤م)[٣]، ومفتوح فيها (١٦) نافذة تغطيها ستائر من الزجاج الملون، وعليها تواريخ وأسماء مرمميها[٤].

د ـ المداخل:

للمبنى أربعة مداخل خارجية كبيرة ومزدوجة، مصنوعة من الخشب، ومكسوة بصفائح النحاس، وتقع هذه المداخل في الاتجاهات الأربعة، عرض كل مدخل (٢،٥٥) م، وارتفاعه (٤،٣٥)م[٥]، وهذه الأبواب هي:

---

(١) الرفاعي، أنور ، تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، دار الفكر ، ١٩٧٧، ص ٦٤.

(٢) زين العابدين، محمود، فضاءات من العمارة الاسلامية، نقابة المهندسين، حلب، ٢٠٠٦، ص ٨٥.

(3) Duncan, Op Cit, P 28.

(4) Creswell, K.A.C. Early Mauslim Architecture Oxford, , 1940, P78.

(٥) نجم، رائف يوسف وآخرون، كنوز القدس، ميلانو، ١٩٨٣، ص ٧٢.

أ ــ مدخل داود (باب إسرافيل): يقع في الشرق.
ب ــ مدخل الجنة.
ج ــ مدخل الأقصى.
د ــ المدخل الغربي المقابل لباب القطانين من أبواب الحرم، ويسمى بمدخل النساء.

وعلى كل مدخل صفة مرخمة، وله بابان أحدهما داخل الآخر مصنوع من الخشب، ويتكون من مصراعين[١] الخارجي منهما لوقاية الداخلي من الأمطار والثلوج، وبعض هذه الأبواب أرسلت بأمر من أم الخليفة المقتدر بالله عام (٩٠٨ــ ٩٣٢م)[٢]. وبكل من هذه المداخل أعتاب خشبية مغلفة بصفائح من النحاس ذات زخارف بارزة يحتمل أنها كانت مذهبة[٣]. ويقع المحراب والمنبر أمام الصخرة إلى يمين الداخل من المدخل القبلي في الجنوب[٤].

هـ - الأروقة:

يتكون مسجد الصخرة من مسقط دائري الشكل تتخلله الأعمدة والأكتاف، وهي أربعة أكتاف واثنا عشر عموداً موزعة ثلاثة أعمدة بين كل كتفين تحمل فوقها تركيبة القبة، وبين الدائرة المركزية والجدران الخارجية لهذا البناء رواق سقفه محمول على ما تخطيطه مثمن من العقود المحمولة على أكتاف وأعمدة، وهي ثمانية أكتاف وستة عشر عموداً موزعة زوجياً بين هذه الأكتاف ومكونة رواقين بين الصخرة والجدران الخارجية.

و - الأعمدة:

إن الأعمدة التي تشكل الأروقة متنوعة الطرز وكذلك تيجانها، وأطوالها متفاوتة مما يسبب صعوبة في ربطها مع الأكتاف بالروابط الخشبية الضخمة، وقد حلت هذه المشكلة برفع الأعمدة من أسفلها، وإحاطتها من الأسفل بألواح رخامية ذات أبعاد متساوية رتبت وسويت بطريقة تبدو للناظر وكأنها قواعد موحدة لكنها في حقيقتها محيطة بالجزء السفلي من أبدان الأعمدة وأخفت داخلها ذلك التفاوت.

ز - السقف:

يغطي الأروقة سقف بسيط مصنوع من الخشب مغطى من أعلاه بصفائح الرصاص ومائل إلى الخارج بميلٍ بسيط، يسهل عملية تصريف مياه الأمطار بواسطة ميازيب مفتوحة

---

(١) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢، ص ١٠٠.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٦٩.

(3) . Jairazbhoy, Op. Cit, P 142.

(٤) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، القاهرة، ١٩٢٤، ج١، ص ١٤٣.

في كل ضلع من أضلاع الستارة المحيطة به. وقد تعرض هذا السقف لترميمات عديدة وغطي من الداخل بطبقة جصية عليها زخارف جميلة.

ط ـ الجدران:

إن بناء المسجد مثمن الشكل طول كل من أضلاعه (٢٠,٦)م، وارتفاعه مع الستارة حوالي (١٢)م، وفي القسم العلوي من كل جدار خمس نوافذ للإضاءة مع نافذة صماء، وكانت النوافذ السبع مفتوحة ومغطاة بالشبكات المعدنية في أيام عبد الملك بدلاً من ألواح القاشاني الحالية، كما كانت الجدران مغطاة بألواح الرخام وبالفسيفساء من الخارج والداخل.

٦ ـ النتائج:

كان الهدف من هذا البحث تحديد سمات وخصوصية التراث الهندسي لقبة الصخرة، وتحليل الخواص الإنشائية لهذا التراث على ضوء العلم الهندسي المعاصر. والتعريف بالقيمة التراثية لها، والتوثيق الهندسي للعناصر الإنشائية المستخدمة، و تحديد مواد البناء ودراسة أساليب وتقنيات البناء المستخدمة في مسجد قبة الصخرة، وقد أمكن تحقيق الهدف بوساطة الرصد المكتبي، وقد أمكن التوصل إلى دراسة وصفية تحليلية ضمن إطار تاريخي بمنظور هندسي معاصر.

ويمكن تلخيص نتائج البحث حسب المواضيع التي جرت مناقشتها في الآتي:

ـ يعتبر مسجد قبة الصخرة المسجد الوحيد بشكله ومخططه المثمن فهو مسجد خاص لتخليد حدث عظيم.

ـ تمتاز القبة في هذا المسجد بأنها أول قبة بنيت في الإسلام. حيث جعلت القبة من الخشب وعلى طبقتين كما ذكرنا آنفاً بينهما فراغ وهذا الفراغ أعطى القبة تجسيماً واتساعاً وخفة في الوزن من الناحية الإنشائية، وساهم في تخفيض القوى الضاغطة على الأعمدة والدعائم والأساسات، الفراغ بين الطبقتين محشو باللباد للتخفيف من شدة حرارة الصيف، من الخارج صفحت القبة بصفائح رصاصية تعلوها صفائح نحاسية (١٠٢٠٠) لوحاً من النحاس المذهب، لهذه الصفائح دور جمالي في إعطاء البريق والانعكاس الضوئي، ودور آخر في عكس أشعة وحرارة الشمس وبالتالي تخفيف العوامل الجوية المؤثرة، زينت القبة من الداخل بالخشب المنقوش والملون وبآيات قرآنية بالخط ألنسخي «آية الكرسي».

ـ بنيت الدعائم والأعمدة بشكل محرف، يبلغ مقدار هذا الانحراف حوالي (٣) درجات، الغاية من هذا الانحراف منع حجب الأعمدة الواقعة أمام الناظر الأعمدة الأخرى المقابلة لها في الجهة الأخرى.

ـ عمد البناء إلى إعطاء الحلقة السفلية للقبة انحناءً نحو الخارج بمقدار (٨٥) سم، بغية منع تسرب مياه الأمطار والثلوج، ونفذ هذا الميل بواسطة سلسلة من العضادات. وللغاية

نفسها بنيت في أعلى الجدران الخارجية والجدران الساترة مزاريب مياه وعددها ستة في كل جدار من الجدران الثمانية.

ـ إن الأعمدة المحيطة بالقبة تتصل عند أعلى تيجانها مع بعضها بعوارض خشبية ضخمة، تغلفها صفائح برونزية مزخرفة، الغرض من هذه العوارض تخفيف القوى الضاغطة على العقود والأقواس، وتخفيف الضغط الناتج من القبة التي ترتكز عليها. أما التغطية البرونزية فقد حققت غرض الحماية من التغيرات الجوية كم حققت الغرض الزخرفي الجمالي.

ـ تعتبر المظلات التي تتقدم المداخل ابتكاراً جديداً في العمارة الإسلامية، وهي المثال الأول فيه.

ـ يعتبر مبنى قبة الصخرة من المباني المغطاة «المسقوفة» حيث قبة الصخرة تعلو دائرة الأعمدة المحيطة بالصخرة وتغطيها، أما الرواقان فيغطيهما سقف خشبي مزدوج الكسوة، وهو ما يتميز به، ويخالف بذلك جميع المساجد التي جاءت بعده.

ـ تحقق هدف الإضاءة والتهوية بشكل جمالي مثالي في بناء قبة الصخرة، ففي قاعدة القبة نافذة، وفي كل ضلع من أضلاع المثمن الخارجي خمس نوافذ، فيكون مجموع هذه النوافذ أربعين نافذة، والنوافذ الست عشر المنفتحة في رقبة القبة، هذا العدد الوفير من النوافذ وفر إمكانية كبيرة للإضاءة الطبيعية، وهذه الإضاءة كانت تعويضاً عن عدم وجود الصحن المكشوف. كما نلاحظ في الجدران الخارجية وجود نوافذ أو تجويفات صماء الغاية منها الناحية الجمالية فقط.

ـ كسيت الجدران الخارجية من الأسفل بطبقة من الرخام، وذلك لمنع تأثيرات العوامل الخارجية نتيجة عملية الحت بفعل مياه الأمطار.

ـ محراب المسجد مجوف من الداخل، مثبت في الجدار الجنوبي من الداخل، وهو محراب صغير أبعاده (١,٣٧ × ٠,٦٧) م. وهو عبارة عن عمودين صغيرين مزخرف عليه كتابة «لا إله إلا الله».

ـ بينت نتائج البحث أن للبنائين العرب المسلمين يمتازون ببراعة في الهندسة الإنشائية لا تقل عن براعتهم في الهندسة المعمارية. حيث تبين من خلال التوثيق المكتبي، أن قبة الصخرة هي من المنشآت المعمارية التراثية التي تميزت بالدقة في الإنشاء، والمهارة في البناء، واستعمال العناصر الإنشائية إضافة إلى العناصر الزخرفية التي وظفت لخدمة العمارة الإنشائية.

ـ أبدع المعمار العربي المسلم بالزخارف والنقوش المتنوعة في قبة الصخرة، وكان لها تأثير مباشر على الزخارف والنقوش في العمارة الإسلامية في البلاد الإسلامية المجاورة لها.

ـ يبدو أن معرفة مقاومة العناصر الإنشائية لدى البنائين المسلمين قد اعتمد على مبدأ التجربة والخطأ، والحس السليم والمهارة والخبرة، والمعرفة المكتسبة والمورثة من جيل إلى آخر. وهذا مما يفسر انتشار استعمال الأسقف والأقواس والعقود والقباب والجدران، والعناصر الزخرفية.

ـ إنّ المعلومات الواردة في الكتب التراثية والتي تصف مسجد قبة الصخرة، تدل على أن العرب كانت لهم معرفة كبيرة بالهندسة الإنشائية مبنية على الملاحظة والتجربة والحس السليم سواء في مجال مواد البناء أم في طرائق الإنشاء، ومن دراسة هذا المسجد يمكن استنتاج الكفاءة العلمية التي كانت لدى المهندس العربي المسلم في مجال بناء القباب والمساجد. حيث يعتبر مسجد قبة الصخرة المشيد في القدس الشريف، هو نتاج عمل إنشائي ناتج عن العديد من التجارب الإنشائية التي قام بها المهندسون العرب المسلمون.

ـ إن المنشآت القديمة التي مازالت باقية حتى اليوم تدل على خبرة المصممين والبناءين ومهارتهم، ويبدو أن معرفة مقاومة الجمل الإنشائية يعتمد على مبدأ التجربة والخطأ وعلى الحس السليم والمهارة والخبرة والمعرفة المكتسبة والمورثة من جيل إلى آخر، لكن يجب الإشارة إلى أن المنشآت التي ما تزال باقية حتى الآن هي المنشآت الناجحة التصميم، لأن مبدأ التجربة والخطأ يعني أن هناك كثيراً من المنشآت انهار واندثر، ومن جهة أخرى فان كثيراً من المنشآت يرتفع فيه عامل الأمان بسبب زيادة السماكات نظراً لنقص الأسس النظرية في الحساب مما يستدعي استعمال منشآت ذات قياسات أكبر، مما تتطلبه المقاومة الإنشائية وهذا يعني ارتفاع الكلفة.

٧ ـ المصادر والمراجع

أ ـ المصادر والمراجع العربية:

١ـ العمران والعمارة في الوطن العربي: محمد عبد العال إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٨٤م.
٢ـ الكامل في التاريخ: ابن الأثير علي بن محمد، ليدن، ١٨٦٧م، و دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٦م.
٣ـ رحلة ابن بطوطة: ابن بطوطة محمد بن عبد الله، القاهرة، ١٩٣٨م، و مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م.
٤ـ البداية والنهاية: ابن كثير إسماعيل بن عمر، بيروت، ١٩٦٦م.
٥ـ مختصر كتاب البلدان: ابن الفقيه، ليدن، ١٣٠٢هـ.
٦ـ مسالك الأبصار: ابن فضل الله العمري، القاهرة، ١٩٢٤م.
٧ـ العمارة عبر التاريخ: عفيف بهنسي، دار طلاس، حلب، ١٩٨٧م.
٨ـ الفن العربي الإسلامي في بداية تكونه: عفيف بهنسي، دمشق، ١٩٧٣.
٩ـ الشام الحضارة: عفيف بهنسي، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٦م.
١٠ـ فنون الإسلام: زكي محمد حسن، القاهرة، ١٩٤٨م.
١١ـ تاريخ العمارة: عبد المعطي الخضر، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية،٢٠٠٢م.
١٢ـ تحفة الغرباء وسلوة الغرباء: الخياري، بغداد، ١٩٧٩م.

١٣ـ تاريخ الفن عند العرب والمسلمين: أنور الرفاعي، دار الفكر، ١٩٧٧م.
١٤ـ القدس الخالدة: عبد الحميد زايد، القاهرة، ١٩٧٤م.
١٥ـ فضاءات من العمارة الإسلامية: محمود زين العابدين، نقابة المهندسين، حلب، ٢٠٠٦م.
١٦ـ العمارة في صدر الإسلام: كمال الدين سامح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م.
١٧ـ تاريخ القدس: عارف العارف، القاهرة، ١٩٥١م.
١٨ـ تاريخ العمارة والفنون الإسلامية: توفيق أحمد عبد الجواد، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٩ م.
١٩ـ القباب المخروطية: هناء عبد الخالق، بغداد.
٢٠ـ القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، ثروت عكاشة، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م.
٢١ـ الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: مجير الدين العليمي، النجف، ١٩٦٨م.
٢٢ـ الآثار الإسلامية الأولى: ك.كريزويل، ترجمة عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٤م.
٢٣ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: محمد بن أحمد المقدسي، ليدن، ١٩٠٦ م.
٢٤ـ سفرنامة: ناصر خسرو، ترجمة الخشاب، بيروت، ١٩٧٠م.
٢٥ـ كنوز القدس، رائف نجم يوسف وآخرون، ميلانو، ١٩٨٣م.
٢٦ـ دراسات في العمارة الإسلامية: عبد السلام نظيف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٩م.

ب ـ المصادر والمراجع الأجنبية:

1. Muhammadan Architecture: M.S, Briggs, Oxford,. 1924
2. Early Mauslim Architecture: K.A.C, Creswell, Oxford, 1940.
3. The Noble Sanctuary: A , Duncan , London, 1972.
4. An Outline of Islamic Architecture: R.A, Jairazbhoy, Bombay, 1972.
5. Palestine under the Moslems: G. LE, Strange, Beirut, 1965.
6. Moslem Architecture: G.T, Rivoira, Edinburgh, 1918.

صورة القدس
في الشعر الجزائري المعاصر

أ. د. بوجمعة بوبعيو (*)

قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ (١).

لقد آثرت ـ وأنا بصدد تناول موضوع صورة القدس الشريف، أن أستهل هذا البحث بتلك الآية القرآنية الإعجازية التي أراد الله ـ جلت قدرته ـ من خلالها أن ينبئ البشرية بأنه قادر على أن يسخر ملائكته للإسراء بنبيه محمد (صلى الله عليه وسلم)، ليلاً، وقطع تلك الرحلة (المعجزة) بين مكانين مقدسين هما المسجد الحرام ـ (نقطة الانطلاق) والمسجد الأقصى (نقطة الوصول)، ولعل الله أراد من وراء ذلك أن يرشد الناس إلى سبيل الهداية والإيمان بالرسالة الإلهية التي اصطفى محمداً لتبليغها، وليؤكد واحدة من معجزاته.

وإذا ما ذكرنا المسجد الحرام أو المسجد الأقصى، فإنما نذكرهما بصفتهما فضائين مقدسين للحرمة الدينية التي يتميزان بها، وقس على ذلك مكة، والقدس، هاتين المدينتين اللتين تخطيان بحرمة دينية ذات هيبة وقدسية في نفوس المسلمين في مختلف أصقاع المعمورة.

إن الإنسان يحمل في أعماقه للمكان حرمة ووفاء سواء أكان ذلك لكونه احتضنه منذ نعومة أظفاره فعاش في كنفه ذكريات جمعته بمن يحب ويألف، أم لكون هذا المكان يحمل بعداً دينياً معيناً كما هو الشأن بالنسبة للمدن والأماكن المقدسة التي تثير في مشاعره ووجدانه

(*) أستاذ التعليم العالي بجامعة ـ عنابة.

العبر والعظات والاستذكارات المؤثرة سلباً وإيجاباً، فرحاً أو قرحاً، فالقرية التي ولد الإنسان فيها تظل علاقته بها علاقة حميمية ما دامت قد احتضنت مراتع طفولته وصباه، وقس على ذلك انتقال هذا الإنسان إلى المدينة لمواصلة معترك الحياة العملية، أو لمتابعة الدراسة الجامعية، فقد تنشأ بينه وبينها علاقة أخرى تختزن فيها ذكريات عديدة، مما يولد حباً جارفاً، وارتباطاً شديداً، وأينما حل وارتحل هذا الإنسان فإن هناك فضاء مكانياً يحتضنه وتنشأ رابطة عاطفية معينة حتى لو كان ذلك الفضاء سجناً.

وقد يقول قائل إن أحاسيس الناس وارتباطهم بالأمكنة قد لا يختلفان كثيراً، بيد أن نقل تلك الأحاسيس والمشاعر إلى العالم الخارجي وجعلها صوراً حية تكاد تنطق عن نفسها، هو الذي يختلف بشأنه هؤلاء البشر، ولعل الأدباء والشعراء منهم بخاصة هم الأقدر على تصوير تلك الأماكن بحيث يمنحونها بعداً نفسياً وجمالياً مؤثرين، حتى إننا قد نتأثر لذلك التصوير الفني ذي النزوحات الخيالية والمشاعر الإنسانية الرقيقة التي يضفونها على أمكنتهم أكثر مما نتأثر للمكان الذي ضمنا يوماً، وذلك في ضوء الموهبة الإبداعية الخلاقة التي فطروا عليها، والتحويمات الخيالية المجنحة وما يكتنفها من حقائق تعود إلى الأزمنة الغابرة التي يجلون غبار النسيان عنها.

وبهذا الصدد فإن أحاسيس الناس ومشاعرهم إزاء الأشياء قد تكون متشابهة إلى أبعد الحدود، بيد أن التعبير عن تلك الأحاسيس والمشاعر ونقلها إلى العالم الخارجي بطريقة فنية جمالية هو حكم على الشعراء فحسب.

وانطلاقاً من أن الشعر الجزائري المعاصر جزء لا يتجزأ من الشعر العربي، هذا الشعر الذي ينتمي شعراؤه إلى العروبة والإسلام، فكيف صور هؤلاء الشعراء ـ والشباب منهم بخاصة ـ مدينة القدس وكيف عبروا عن ذلك الصراع المحتدم ـ منذ عقود ـ من أجل تهويدها في ظل اغتصاب أرض فلسطين من قبل الصهاينة اليهود، وما هي الرؤية الشعرية التي عبر عنها هؤلاء الشعراء في ظل الواقع الراهن، وهل هناك مستوى فني واحد أم أن هناك أكثر من مستوى جسده وعيهم الرؤيوي في التعامل مع تاريخية المكان وحميميته كبعد جغرافي عربي أولاً، وفضاء ديني روحي مؤثر ثانياً؟؟

تلك ـ إذا ـ بعض أهم الأسئلة التي تحاول هذه الدراسة الإجابة عنها في ضوء الشواهد الشعرية التي انتقيناها لتكون أنموذجاً في ظل ذلك الكم الهائل من الشعر الجزائري الذي تناول هذا الموضوع الحساس.

يستهل الشاعر مصطفى الغماري قصيدته قائلاً:

من باع وجه القدس قبل سقوطه   من الهزيمة فيئه المدرار!!

تركوك يا مسرى النبي معفرا   وتخايلوا.. لو تخجل الأعمار!

وجثوا على مبكى العروبة خشعا ... وبكل أسرار البلاغة ثاروا!!
تركوك مأوى للذئاب وموئلا ... للمترفين وربك الغفار
حتى نرى فيك الدروب سخية ... خضرا وكانت كالمآتم سودا
ويضم صوت الله عطر مآذن ... لم تسمُ إلا بالهوى تصعيدا
في كل شبر تلك تلك مواطني ... بالوحدة الخضراء تصنع عيدا (٣)

ولن نبرح هذه الروح المتفائلة التي يحاول الشاعر بثها في النفوس حتى نقرأ تلك الابتهالات والتأملات التي تسرح عبر مسيرة العقيدة الإلهية التي هيأ الله لها عدداً من الأنبياء والرسل لهداية البشرية ورسم المعالم التي تؤدي إلى الهدف المنشود، وكل ذلك يتم في ضوء تداعي الخواطر التي يتأتى من البؤرة الأم وهي القدس:

يا قدس كم فيك من ذكرى مقدسة ... طارت بأجنحة الأضواء نجواها
توهج الحزم في جل محمدها ... وأرق الطهر في أهداف علياها
مسرى الحنيفية السمحى وقبلتها ... يا طهر قبلتها.. يا عز مسراها (٤)

ويلجأ شاعر آخر إلى استدعاء شخصيات تاريخية ذات بعد رمزي، بحيث كان لها باعها في تاريخ الفتوحات الإسلامية؛ وفي رفع راية الإسلام خفاقة آنذاك أمثال صلاح الدين الأيوبي، وخالد بن الوليد، ويبدو أن الشاعر هنا لا يوظف هذه الرموز لمجرد استنطاق التاريخ الحافل بالبطولات والأمجاد، بل أراد أن يؤكد أن الأمة التي أنجبت هؤلاء قادرة على أن تنجب أحفاداً لهم في الزمن الراهن، أليس الشاعر ــ صلاح الدين باوية ــ في حد ذاته ــ يتقاطع اسمياً مع صلاح الدين الأيوبي، أليس في ذلك ما ينم على التواصل والاستمرارية والانتماء والعربي الإسلامي؟ أليس هؤلاء الأحفاد ممن يجري فيهم دم العروبة والإسلام قادرين على أن يصنعوا صنيع أجدادهم، وأن يستردوا ما أخذ منهم ظلما وعدوانا في زمن الخنوع والذل والاستكانة والخيانة:

باعوا فلسطين والأقصى متاجرة ... إن التجارة ــ منذ البدء ــ أرباح
فأين؟ أين صلاح الدين واخجلي ... وأين خالد غداء ورواح؟
وأين من فتحوا الدنيا وأجمعها؟ ... لم يبق في زمن الأقزام فتاح
لم يبق فحل من الفرسان أو بطل ... فكل من صنعوا التاريخ قد رحلوا(٥)
وتعهدت كلماتهم وتخثرت ... نظراتهم... وقلوبهم أحجار (٢)

لقد استهل الشاعر مقطوعته بجملة استفهامية مقصودة لذاتها، مؤلفة من (مـن) والفعل الماضي، «باع» الذي يعني أن الفاعل قد تخلى عن امتلاك ما كان يملكه من خلال فعل البيع حيث تم بموجبه ضياع المبيع أو المبيوع، وعدم استعادة ذلك إلا بمقايضة جديدة، إذا ما فكر في استرداده من جديد، وتلك إدانة صريحة من الشاعر لهذا الفاعل الذي فرط في حقه وحق غيره من أبناء جلدته، لا سيما إذا كان الأمر متعلقاً باستلاب القدس، فالقضية ــ إذا ــ تمثل هزة عنيفة أصابت الأمة العربية الإسلامية في لحظة تاريخية غاب أثناءها من يـذود عـن حياض الأمة في مالها وعرضها ودينها، بل والأدهى والأمر ــ في كل ذلـك ــ أن هـؤلاء المتخاذلين من القائمين على حماية الإسلام والمسلمين ــ وقتئذ ــ راحوا يتخايلون دون خجل أو وجل، ويتباكون على (مبكى العروبة) ويخترعون من أساليب البلاغة والخطابة ما يـستر عوراتهم المكشوفة، ويبرئ جريمتهم المفضوحة، من خلال تفريطهم فيما لا يجب التفـريط فيه، كيف لا والأمر متعلق بالقدس الشريف ومن ورائه مدن وقرى أرض فلسطين السليبة.

إن الأفعال «باع ــ ترك ــ تخايل ــ جثا ــ تعهد ــ تختر» تجسد في علاقتها بالكلمـات الأخرى المستندة إليها تشكيلاً شعرياً ذا دلالة قوية على إدانة هؤلاء المتآمرين على التفـريط في القدس، أو على الأقل ــ تدين تخاذلهم الذي جعل هذا الرمز الديني الذي تعيش قدسيته في قلب كل مسلم ــ يسقط بتلك السهولة «ولا يراق من جوانبه الدم».

وإذا كان الشاعر مصطفى الغماري قد وضع يديه على موطن الجرح من خلال الصورة الشعرية السابقة التي مثلت إدانة صريحة للمتسببين في ذلك السقوط، فإن الأمل كان يـراوده ــ بين الفنية والأخرى ــ وذلك بأن هذا الحق المغتصب سيسترد يوماً، ولكن ذلك مرهـون بضرورة تهيئة النفوس وتقوية العزائم وغرس الإيمان، وتجسيد التآزر والـتلاحم، وبـذلك يتحول الشاعر إلى داع، ومحرض، ولا ضير ــ في ذلك ــ ما دام الشاعر يـسخر شـعره لتغيير ما في نفوس المسلمين من كساد وركود وخنوع وجمود.

في القدس إيه يـا مـآذن زمجـري وخذي من الألـم الخـضير وقـودا

وعلى ما يبدو في نهاية هذه المقطوعة من روح متشائمة، فإن في ذلك ما يثير النفوس ويشحذ العزائم من أجل الصحوة التي تتبعها الوثبة كما هو الشأن في المقطوعة التالية الحافلة بروح وثابة متقدة تنزع نحو استعادة الذات المتيقظة الثائرة، والتي لا ترى بـديلاً عـن الثـورة المزلزلـة والإعصار الهائج الذي يقتلع قوى الشر والعدوان ويطهر الأرض من رجس الطغاة، وبذلك تمثل هذه المقطوعة صرخة أمل وتفاؤل بغد منشود مقابل صرخة اليأس والقنوط السابقة، مما ينم عن ذلك الجدل القائم بين الإحباط الذي يبلغ درجة اليأس حينا، وبين التوثـب والتـشنج مـن أجـل الانقضاض وخوض غمار الحرب لاستعادة الأرض المسلوبة والمجد الآفل، حيناً آخر:

يـا قـدس يـا غـراء يـا نغمـا فـي زحمـة التـاريخ ينكـسر

أنا قادم والنار في شفتي　　والكون في الأعماق يختمر
لأتم في الغمرات ملحمتي　　حتى يعود ربيعنا النضر
فلنحتشد للمعجزات إذن　　وليبدأ الإعصار والمطر (٦)

ولئن اختلف الشاعران السابقان في درجة الانفعال بين الروح المحبطة التي تستدعي التاريخ المشرق لترثي الراهن المحزن، وبين تلك الروح الشاعرية المتحمسة التي تسخر كل قواها لإعادة بناء الذات المتضعضعة، فإننا نقرأ في المقطوعتين رغبة دفينة في استعادة الحلم الضائع، والحق المسلوب، وذلك ما عبر عنه شاعر ثالث باستعماله لأداة النداء، طالبا الاستغاثة والنجدة، متوسلاً بمختلف المؤثرات الدينية، من أمكنة مقدسة، وصلوات العشاق في هياكل الحب العفيف، وبالجرح الصارخ الذي يدغدغ المشاعر والأحاسيس وغير ذلك من المؤثرات الأخرى التي تجسد الحوافز لتطهير تلك الأمكنة الحميمة، وتلك صوة شعرية تحمل في طياتها أكثر من بعد ديني وإنساني مؤثرين يعملان معاً لتحفيز المسلمين على ضرورة استرجاع تلك الحياض:

يا بروج التنزيل يا صهوة المعراج　　يا منبع الهدى والقداسه
يا صلاة العشاق في كل درك　　يا غراماً فيه انغمسنا انغماسه
أنت يا زهرة الدموع الهوامي　　يا حنيناً قد كمموا أنفاسه
هو ذا الجرح صارخ يشتهي　　عانقيه ودغدغي إحساسه
واركبي الريح والعباب وخوضي　　غسق الموت وانفضي أرماسه (٧)

وتحسن الإشارة ههنا إلى أن الشعر ليس بديلاً للمقاومة بالمعنى الحرفي للكلمة، ولكنه بإدراكه لطبيعة المآسي وتصوير مدى خطورتها ووطأتها على الشعوب والأمم، يجسد دعماً لهذه المقاومة من خلال ما ينفثه الشاعر من وعي وإيقاظ وتحفيز على الثورة والتمرد، فمأساة القدس ـ مثلاً فعلت فعلها في نفوس المسلمين بعامة، ومن ثمة فإن الشعراء قد خصوها بأشعار غزيرة تناولتها من جوانب متعددة، فهذا الشاعر «كمال سقني» يجعل من القدس البؤرة التي ينطلق منها للتعبير عن الراهن العربي الإسلامي المتردي، واختلال القيم، وضعف الأمة وتخاذلها، وإعلان الحزن الدفين الذي يعتمل في النفوس، بيد أن الصورة الشعرية في مجملها لا ترضى بذلك الواقع، بل إنها تتنامى شيئاً فشيئاً لتخلص إلى التململ والتمرد من أجل إعلان الثورة والرفض، وصولاً إلى فداء القدس بأعز ما يمكنه الإنسان وهو تقديم دمه رخيصاً، وتعبيد الطريق الموصل إلى تحريرها بالدماء، وتلك صورة لا تعبر عن قدسية هذه المدينة وما يحيط بها فحسب، وإنما تعبر ـ أيضاً ـ عن مدى وعي هؤلاء الشعراء الشباب بأن فلسطين

ـ والقدس جزء منها ـ هي أم القضايا وجوهر الصراع الوجودي بين العرب والمسلمين والصهيونية ومن خلفها الدول العربية الباسطة نفوذها على العالم:

يـــا قـــدس إن زماننـــا ... فيــــه العجائـــب تحـسب
فيـــــه الخيانـــــة عـــــزة ... فيـــــه الكرامـــــة تـــضرب
فيـــــه الأمانـــــة ضـــيعت ... فيـــــه المبـــــادئ تـــصلب
لـــم يبـــق إلا الـــصبر فيـــ ... نـــا نابـــضاً يتـــسرب
والعـــزم فينـــا ســـاكن ... فـــإذا اســـتفقنا يرهـــب
يعـــود يومـــاً صـــوتنا ... وســـجوننا ســـتخرب
وطريقنـــا يـــا قـــدس نحـــو ... ك أحمـــر يتخـــضب (٨)

لقد اختار لقصيدته التي اجتزأنا منها هذه الأبيات مجزوء بحر الكامل ليعبر من خلاله عن تلك المشاعر والأحاسيس المتأججة في نفسه الحرى بلواعج الأسى والحنين إلى ثورة حمراء لا تهدأ إلا بعد وقف النزيف واستعادة الزرع والضرع، ومما يحسب للشاعر من الوجهة الفنية الجمالية أنه استطاع أن يكثف المعاني ويختزلها في جمل قصيرة؛ بحيث تتسع تلك الجمل لأكثر من قراءة تأويلية «العجائب تحسب»، و«الخيانة عزة»، الأمانة ضيعت «المبادئ تصلب»، إلخ..

وفضلاً عن هذا التكثيف فقد اتكأ على بؤرة كانت الانطلاقة نحو تصوير الراهن المتردي، إنه يوجه الإدانة للزمان حيث يناجي القدس، ومن ورائها تلك الاختلالات التي حدثت، فيستعمل حرف الجر في((المتصل بالضمير)) «هـ» الذي يعود على الزمن، مما يجعل هذه اللازمة تكرر تكراراً إيجابياً بحيث يعدد المآسي الاجتماعية والإنسانية بعبارات موجزة مؤثرة.

أما الشاعر عز الدين ميهوبي فإنه حين يعرض لمدينة القدس، يصفها بالمدينة التي تنزف على مر الليالي، هذا النزيف الذي يكاد يغرقها لتتحول إلى مدينة مغمورة شأنها شأن مدينة «إرم» إلا أن ميهوبي لا يغرق في الحلم الأسطوري، بل يظل مشدوداً إلى واقعه القريب وأمله المنشود في إخراج المدينة من الغرق قبل فوات الأوان، من خلال ذرة أمل يجسدها ذلك الفارس المنتظر الذي قد يأتي ويخلص القدس من عذاباتها ويمسح دموعها ويضمد جروحها، وبذلك فإن الشاعر هنا لا يوظف الصورة المنفعلة التي يتجلى فيها الشاعر بصفته طرفاً معنياً، ولكنه يتوسل بأداة أخرى تجعله رقيباً حسيباً، كأن يوظف فعلاً سردياً يسرد من خلاله بكاء المدينة ونزيفها الدائم في انتظار الفارس المنقذ المخلص.

ولعل شكل القصيدة وطريقة عرضها يوحي بتلك الخطوات التي مرت وتمر بها المدينة في انتظار البطل المخلص:

تمر الليالي،،

وتبقى المدينة تبكي
تنادي الذين يموتون مثل الجراد،،
تنادي وتغمض جفنا
وتبحث في الحلم عن حلم
مضغته البلاد،،
لقد سحته الجراح
وفاضت عليه الدماء
وأصبح كوم رماد
وتبقى المدينة،،
تبحث في الحلم عن فارس
يدخل القدس دون جواد،،(٩)

وقد يتساءل القارئ، أي فارس هذا الذي يدخل القدس من دون جواد، مما ينم عن أكثر من مؤشر وأكثر من دلالة.

إن الحلم يجب أن تجسده حقيقة ما، هذه الحقيقة يجب أن تخترق الحلم لتحوله إلى واقع، ومن ثمة فإن الفارس الذي يتخيله الشاعر لا يدخل القدس من دون جواد..

ويتحول الشاعر إلى ذاكرة حية، ولكنها الذاكرة المثخنة بالجراح، غالباً ما تصاب بالهيجان وسورة الغضب لجلال الرزء وذلك الموقف العربي، وهذا ما ينطق به صوت الشاعر عياش يحياوي حين يسأل عن بعض المدن الفلسطينية التي هجر أهلها وتم استيطانها وتهويدها:

عندما يسألني الأطفال عن يافا
عن الأعراس عن غزة
تصب النار في صوتي
ويغدو الحرف سيافا (١٠)

وصفوة القول إن الشعر الجزائري الحديث ـ بدءاً من أشعار مفدي زكريا ومحمد العيد آل خليفة، وصالح خرفي وعبد القادر السائحي وقبلهم الأمير عبد القادر، قد تناول جوانب كثيرة من قضايا الأمة العربية والإسلامية، وفي مقدمة ذلك الموضوع الصراع العربي مع الصهاينة بعامة، وقضية فلسطين بخاصة.

ونظراً لضيق المقام هنا، فقد حاولنا إلقاء الضوء على ما أنتجه لفيف من الشعراء الجزائريين الشباب بأدوات فنية وأخيلة ـ ربما تختلف في بعض مناحيها عن سابقيهم من الجيل الأول.

لقد حاول الشعراء المعاصرون في الجزائر أن يقدموا وجهة نظر شعرية عن قضية فلسطين، والقدس بخاصة، وتراوحت هذه النظرية بين النظرة العميقة التي ترصد القضية في

مختلف أبعادها التاريخية والنفسية والجمالية أحياناً، كما أنها جاءت سطحية انفعالية أحياناً أخرى.

إلا أنّ ما يسترعي الانتباه أن جل هؤلاء الشعراء عبروا بصدق عميق عما يعتمل في نفوسهم من أسى وحزن عن ضياع القدس، وصوروا أساهم وحزنهم من منظور إحساسهم بالانتماء العروبي والإسلامي.

كما أن قصائدهم ـ في جلها ـ صورت مستوى من الإحباط، ولكنه الإحباط الذي لم يبلغ مرحلة اليأس، حيث ظل الأمل ـ في تحقيق الأمل المفقود ـ قائماً ـ.

توسل جل هؤلاء الشعراء بأدوات فنية تختلف باختلاف مستوياتهم الفكرية والثقافية، وبحكم هذا الاختلاف فإننا غالباً ما نقرأ شعراً تتجلى فيه روح المثاقفة والنظرة الناقدة التي تضع اليد على الجرح، وترسم شيئاً من عوامل هذه المأساة التي عكرت على الشعب الفلسطيني صفو حياته.

الهوامش والإحالات

١ ـ سورة الإسراء، الآية ١.

٢ ـ مصطفى الغماري، مجموعة، عدس في مأتم الحجاج، ش و ن ت، ط١، ١٩٨٢، ص ١٣.

٣ ـ مصطفى الغماري، أغنيات الورد والنار، ش و ن ت، الجزائر، ط١، ١٩٨٠، ص ١١٤.

٤ ـ مصطفى الغماري، حديث الشمس والذاكرة، م. ر. ك، الجزائر، ط١، ١٩٨٢، ص ١٨٠.

٥ ـ صلاح الدين بادية، نص أبكي العروبة والأعراب يا وجعي، ج. صوت الأحرار، ٢٠٠٣/١٢/٣١، العدد ١٧٧٤، ص ١٣.

٦ ـ عثمان لوصيف، الكتابة بالنار، م. و. ك، ط١، ١٩٨٢، ص ٣٠.

٧ ـ كمال سقني، عزف على وتر الشجا، دار هومة، الجزائر، ط١، ٢٠٠١، ص ٢٨.

٨ ـ عثمان لوصيف، الكتابة بالنار، م و ك، ط١، ١٩٨٢، ص ٣٠.

٩ ـ نماذج من الشعر الجزائري المعاصر، د٣٠، منشورات آمال، العدد ١٣، ص ١٠، ١٢.

١٠ ـ عياش يحياوي، تأمل في وجه الثورة، م وك الجزائر، ط١، ١٩٨٣، ص ٣١.

الورّاقون الأندلسيون
إشعاع حضاري على مر العصور

فريدة الأنصاري

«الكتابة من خواص الإنسان التي تميزه عن الحيوان، وأيضا تطلع على ما في الضمائر، وتتأدى بها الأغراض إلى البلاد البعيدة، فتقضي الحاجات ... ويطلع بها على العلوم والمعارف، وصحف الأولين، وما كتبوه من علومهم وأخبارهم، فهي شريفة بهذه الوجوه».

بهذه الكلمات المعبرة وصف العلامة ابن خلدون الكتابة[1] فهي صناعة شريفة تدل على رقي البلاد، ولعلها من أعظم الإنجازات التي حققتها البشرية على مر العصور، فهي أم العلوم، وبها استطاع الإنسان نقل المعرفة من جيل إلى جيل.

إنَّ أول حرف كتبه الإنسان كان على الطين، ثم على الحجر والمعدن، والشمع، وورق البردي، والجلود، وأخيراً الورق. وأول من عرفه الصينيون في عام ١٠٥ م، ومن الصين انتقلت صناعته إلى سمرقند ثم إلى بغداد فالأندلس، ليمتد شعاعه الحضاري إلى باقي أصقاع العالم .

أدى انتشار الورق إلى ازدهار حركة تأليف الكتب، وإلى ظهور طبقة جديدة تعرف بطبقة الورّاقين ويعرفهم ابن خلدون[2] قائلاً: «كانت العناية قديماً بالدّواوين العلمية والسجلات

(١) عبد الرحمن بن محمد، المقدمة (دار صادر ــ بيروت ٢٠٠٠) ص ٣١٠ .

(٢) أيضاً، ص ٣١٣.

في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط، وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة وحرص الناس على تناقلها بالآفاق والأمصار فانتسخت وجلدت، وجاءت صناعة الورّاقين المُعاينين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبيّة والدواوينُ». وجاء في أنساب السمعاني[1] بأن الورّاق اسم لمن يكتب المصاحف والحديث والكتب بأجر، وفي الموسوعة العربية بأن النساخة حرفة وهي الوراقة وكل من اتخذ النسخ حرفة فهو نساخ وورّاق أيضاً[2]. وبذلك يكون الورّاق اسماً مرادفاً للنساخ، والنسخ كما ذكر لسان العرب[3] نسخ الشيء ينسَخه نسخاً، والاستنساخ: كتب من كتاب، والكتاب ناسخ ومنسوخ، أما الكتب الحديثة فقد أطلق بعض الباحثين على النساخين، اسم الكتبين، والكراسين[4].

ورغم الدور الكبير والمهم للورّاقين في حفظ التراث العربي والإسلامي ونشره، لم تأت كتب التراث على ذكرهم منذ بداية ظهورهم إلى عصر الخليفة العباسي هارون الرشيد، إلا في نتف متفرقة هنا وهناك ولعل من أقدم الورّاقين مالك بن دينار البصري، مولى أسامة بن لؤي بن غالب «ت سنة ١٣١ هـ»،كان يكتب المصاحف بأجر[5]، وقيل إن عبيد بن شريّه الجرهمي قد وفد إلى معاوية، وقص عليه طرفا من قصص الأولين، فأمر معاوية ناسخيه بنسخها، وأنّ خالد بن أبي الهياج كان مختصا بكتابة المصاحف والأخبار للخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وقد كتب أيضاً للخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز مصحفاً، أعجب به الخليفة، ولكنه أعاده إليه لغلاء ثمنه[6].

ولعل سبب إغفال كتب التراث لهم يرجع إلى شيوع الرواية الشفوية، ولمنع الرسول «ص» كتابة أي شيء سوى القرآن الكريم للحفاظ عليه.

ونتيجة للتطور الحضاري الذي شهدته الدولة العباسية، وانتشار الورق وذيوع استعماله، واعتماد الخلفاء العباسيين على الورّاقين في نسخ الكتب، شاع اسمهم، وصار لهم منزلة كبيرة. فأخذ المؤرخون يعتنون بذكر أخبارهم، ولعل أشهر من كتب عنهم ابن النديم في كتابه

---

(١) أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور، تقديم البارودي، عبد الله بن عمر ،ج ٥ (بيروت ــ ١٩٨٨) ص٥٨٤.

(٢) الموسوعة العربية، غربال ،محمد شفيق، مادة نساخو (مؤسسة فرانلكين للطباعة) ص ١٦٤ ؛النملة، علي بن إبراهيم (الوراقة وأشهر أعلام الورّاقين ـ الرياض – ١٩٩٥) ص ٣١.

(٣) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، مج ٣ (دار صادر – بيروت – لا ت) مادة نسخ.

(٤) زيات، حبيب؛ الوراقة وصناعة الكتابة ومعجم السفن (بيروت – دار الحمراء – ١٩٩٢) ص١٢.

(٥) ابن خلكان ،أحمد بن محمد بن أبي بكر؛ وفيات الأعيان، تح: إحسان عباس / ج٤(بيروت ــ دار صادر – ١٩٨٨) الترجمة ٥٥١.

(٦) انظر: عليان، د. ربحي مصطفى، المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية ،(عمان ــ دار صفاء ــ ١٩٩٩) ص ٧٢؛ زيات، الوراقة وصناعة الكتابة ومعجم السفن، ص ١٣.

«الفهرست» وفيه ترجمة لعدد كبير من الورّاقين في المشرق والمغرب، وكذلك ياقوت الحموي في كتابه «طبقات الأدباء» وترجم فيه لخمسين ورّاقا من أصل ١١٤٢ ترجمة، وجاء ذكرهم أيضاً في مقدمة ابن خلدون.

وفي الأندلس «عراق المغرب» التي عرف أهلها حكاماً وعامةً بحبهم للعلم وتقديرهم للعلماء، وسعيهم إلى جلب الكتب من بغداد والشام ونسخها أو التأليف على منوالها، مما شجع الكثير من العلماء والطلاب على دخولها من شتى البلدان الإسلامية، فدخل معهم أمهر النساخين وأحسن الورّاقين.

فالأسرة الأموية الأندلسية التي أظهرت حبها الجم للعلم والمعرفة بدءاً من مؤسسها الأمير عبد الرحمن الداخل ـ الذي كان شاعراً محباً للعلم والعلماء ـ قد بلغت في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر أوج عظمتها الحضارية، فوصل شغفه بالعلوم إلى بيزنطة، وحين أراد إمبراطورها قسطنطين السابع أن يتقرب إليه لحاجة في نفسه[(١)]، فكر أن يهديه أحب شيء إلى قلبه، فأرسل إليه كتابا جديدا لم يعرفه من قبل وهو كتاب **ديوسقوريديس** في الطب وبه صور للحشائش التي ورد ذكرها في الكتاب بالتصوير الرومي في غاية الدقة والجمال «مكتوب باللغة اليونانية بحروف مذهبه في مجلد كبير، ولم يكن الخليفة الناصر يعرف اليونانية، ولا يوجد شخص في البلاط يستطيع ترجمة الكتاب، فطلب من الإمبراطور البيزنطي أن يرسل له شخصاً من عنده يجيد اللغتين العربية والإغريقية لترجمته، فأرسل له الراهب نيقولا، وبقي هذا في القصر ملازماً للخليفة الناصر. وفي عهده أيضاً وفد عليه أبو علي القالي ووضع له كتاب النوادر .

ورث ابنه الحكم المستنصر حب الكتب والمعرفة، فأولى مكتبة والده عناية كبيرة، وشاع بين رعاياه بأن أقصر الطرق إلى قلبه وأفضل وسيلة للوصول إليه ولإقناعهِ للحصول على مبتغاهم... هو أن يقدّم له كتاباً غير متوفر في مكتبته. ويذكر الحضرمي أنّه لم يسمع بأحد بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب وإيثارها، وكان يجالس العلماء ويناقشهم في كتبهم، ويستمع إلى آرائهم، وبدورهم كانوا يرسلون إليه مؤلفاتهم أو يهدون إليه نسخاً نادرة من الكتب[(٢)]، ومن أولئك العلماء ابن مفرج القرطبي» أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى[(٣)]، وكان بصيراً برجال التابعين، ورجال الحديث، صحيح النقل، جيد الكتابة على كثرة ما جَمَع، وعُرف أنه

---

(١) الحميدي، أبوعبد الله محمد بن أبي نصر فتوح اجذوة المقتبس في تاريخ الأندلس، تح: الايباري، ابراهيم (بيروت ـ دار الكتاب اللبناني) ص ٤٣ ؛المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ١ (بيروت – دار الكتب العلمية ١٩٩٥) ص ٣٥٢ ـ ٣٥١.

(٢) أيضاً: ٦٧/١ ـ ٧٧ ،ابن الأبار، الحلة السيراء مح: حسين مؤنس، (القاهرة – ١٩٦٣) ص ٢٠١

(٣) ايضاً: ٢ / ٤٢٨.

من أجود العلماء ضبطاً لكتبه وأكثرهم تصحيحاً، فبعد رحلة طويلة طاف بها مدن المشرق ذهب إلى الأندلس ليتصل بالحكم سنة ٣٤٥ هـ، وألف له كتباً عدة في فقه الحديث وفقه التابعين. ومن أمثلة ولعه بالكتب أنه عندما أراد القيام بإحدى غزواته في شمال الأندلس سنة ٣٢٥ هـ عرض على ابن الصفار «عبد الله بن محمد» ـ وكان مشهوراً بالعلم والأدب ـ أن يكون في صحبته، فاعتذر منه لضعف صحته، فطلب الحكم إلى حاجبه أن يخيّر ابن الصفار بين الذهاب معه أو وضع كتاب له عن أجداده بني أمية على غرار كتاب الصولي في أشعار خلفاء بني العباس، وحين أجابه بالموافقة على تأليف الكتاب خيَّره الحكم بين الكتابة في داره أو دار الخلافة، فاختار ابن الصفار دار الخلافة قائلاً « أنا رجل مورود في منزلي، وانفرادي في دار الملك لهذه الخدمة أقطع لكل شغل»[1].وفي دار الخلافة أكمل ابن الصفار كتابه في مجلد ضخم، وقبل أن يعود الحكم إلى العاصمة لقيه في طليطلة حاجبه أحمد بن نصر، ليقدم الكتاب إليه ففرح به كثيراً.

وبلغ شغفه بالكتب أنه كان يبعث الورّاقين إلى مختلف الأقطار للبحث عن جديد الكتب لينسخوها له «و بعث القالي إلى بغداد ليجلب له كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني مع ألف دينار من الذهب العين إلى مؤلفه، فبعث إليه الأصفهاني نسخه من كتابه قبل أن يخرجه في العراق»[2]. وفي ذلك يحضرنا قول حيدر بامات[3] فقد بلغت الأندلس في عصر الناصر والحكم أوج عظمتها، وصارت من أكثر دول الغرب ازدهاراً وحضارة، وظهرت قرطبة أكثر عواصم أوربا نوراً وبشراً «ومن ورّاقيه في بغداد محمد بن طرخان»[4].

وعلى خطى الحكم سار عدد من الخلفاء الأندلسيين فنجد المنصور بن أبي عامر ينافس الحكم في تشجيع الثقافة والعلماء ويخصهم بعناية كبيرة، وينفق عليهم الأموال الطائلة. وفي كل ليلة كان يقرأ الكثير من الكتب، ومن الكتب التي نالت إعجابه واستحسانه كتاب «الحواس» لصاعد البغدادي الذي حظي بمنزلة كبيرة عنده، وقيل إنَّ المنصور أراد أن ينافس الخليفة الناصر والحكم، فطلب إلى البغدادي أن يؤلف له كتاباً على نحو كتاب النوادر للقالي الذي وضعه للناصر، فألف له كتاب الفصوص، فكافأه على ذلك بخمسة آلاف دينار[5] في دفعة واحدة وأمره أن يسمعه الناس بالمسجد الجامع بالزاهرة فتجمع حوله عدد من أهل العلم والأدب.

---

(١) الضبي، أحمد بن يحيى، بغية الملتمس في رجال أهل الأندلس (بيروت ـ دار الكتب العلمية - ١٩٩٧)الترجمة ٨٨٣

(٢) نفح الطيب، ١ / ٣٧٠، ٤ /٦٤ ـ ٦٥

(٣) مجالي الإسلام، زعيتر، عادل (القاهرة - ١٩٥٦) ص ١٣٣

(٤) ابن الأبار، الحلة السيراء، ٢٠/١

(٥) الضبي، بغية الملتمس: الترجمة ٨٥٢ ؛ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك، الصلة (بيروت ـ المكتبة العصرية - ٢٠٠٣)الترجمة ١٥٠٩ نفح الطيب ٤ / ٦٥ ـ ٦٦، ٨٣.

ولم يكن الشغف بالكتب وحب العلم والمعرفة والتقرب إلى العلماء مقصوراً على طبقة الخلفاء، وإنما شمل جميع طبقات المجتمع الأندلسي رجالاً ونساءً، وكما يذكر المقري[(١)] فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد بأن يتميز بصنعة، ويستحي من نفسه أن يُرى فارغاً يعيش عالة على الناس فهذا عندهم في غاية القبح، والعالم يطلب العلم بباعث من نفسه، وهو معظم عند الخاصة والعامة «أما ياقوت الحموي فيصفهم بقوله «أهلها أئمة وعلماء وزهاد»[(٢)].

ومن الطبيعي أن يقدم ذلك للورّاقين فرصة كبيرة لاستنساخ الكتب، فتم على يدهم استنساخ العديد من الكتب القيمة. ولا عجب أن رأينا المقدسي يقول عنهم: «أهل الأندلس أحذق الناس في الوراقة»[(٣)]. ولا عجب أن كان لأبي المطرف ،عبد الرحمن بن فطيس قاضي الجماعة بقرطبة، ستة ورّاقين ينسخون الكتب له باستمرار[(٤)].

ومن أبرز الورّاقين الذين ورد ذكرهم في كتب التراث «ظفر البغدادي» الذي وفد على الأندلس وسكن قرطبة، وعرف بالضبط وحسن الخط، واستخدمه الحكم في الوراقة[(٥)] .

ومحمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدي النحوي من أهل جيّان قدم إلى قرطبة واستقر فيها وكان فقيهاً وإماماً موثوقاً، جيد النظر، دقيق الاستنباط اتخذه الناصر مؤدباً لابنه المغيرة، وجعله يراجع الكتب ويصححها[(٦)].

ونجد أيضاً الأديب اللغوي محمد بن أبي الحسين الفهري القرطبي، وهو ناسخ وورّاق أيام الحكم ،وتقدم في حفظ الأدب والعلم باللغات[(٧)].

وكذلك عباس بن عمرو بن هارون الصقلي[(٨)] خرج من صقلية إلى القيروان ثم إلى الأندلس، واتصل بالحكم عندما كان ولياً للعهد، فزاد من راتبه وصار من جملة الورّاقين الذين يعملون في مكتبته.

---

(١) النفح، ١ /٢١١ ــ ٢١٢.

(٢) الحموي، ياقوت، معجم البلدان، ج١ (بيروت ــ دار الكتب العلمية ــ ١٩٩٥) ٣١٣.

(٣) المقدسي، البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (بيروت ــ ١٩٨٧) ص ١٩٧.

(٤) الصلة، الترجمة ٦٨٥، ا لضبي، بغية الملتمس: الترجمة ٨٧٦ .

(٥) المقري، نفح الطيب٤ /٩٦.

(٦) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس (القاهرة ــ الدار المصرية ــ ١٩٦٦)، الترجمة ١٢٩٢؛ الضبي، بغية الملتمس، الترجمة ٣١٢.

(٧) الحميدي، جذوة المقتبس، الترجمة: ٣٩ ؛الضبي، بغية الملتمس، الترجمة ٩٤ .

(٨) الحميدي، جذوة المقتبس، الترجمة: ٧٣٠؛ الضبي، بغية الملتمس، الترجمة ١٢٤٦ .

ومن الورّاقين الأندلسيين البارزين الذين تركوا أثراً كبيراً في حرفة الوراقة وخلفوا كماً هائلاً من الكتب المستنسخة: محمد بن علي بن أحمد بن محمود الورّاق المعروف بحسن خطه ودقته[١] ومحمد بن خلف بن سعدان المُكتب[٢]، ومحمد بن إبراهيم الورّاق وهو من أهل قرطبة وكان حسن الخط وقد كتب صحيح البخاري[٣] وكذلك محمد بن يوسف الورّاق، وكان عارفاً بالنحو واللغة وحسن الخط والوراقة وضع للحكم كتاباً في مسالك إفريقية وممالكها[٤]. وتطالعنا كتب التراث باسم آخر من طليطلة هو عبد الله بن محمد بن أسد الجُهني الطليطلي[٥] وكان عالماً بالأدب واللغة ومعاني الشعر ذاكراً للأخبار والحكايات حسن الإيراد لها دقيق الضبط لكتبه، ولا يوجد أحدٌ في الأندلس أكثر منه حرصاً ورعاية لكتبه، وكان لا يعير كتاباً إلا لمن يثق به ثقة تامة ويتيقن من الحفاظ عليه، ولم يزل في نسخ ومقابلة إلى أن مات.

وأما المرأة الأندلسية التي عرفت بسعة علمها وثقافتها، فهي أيضاً قد برزت في هذا الحقل، ويذكر المراكشي نقلاً عن ابن فياض أنه كان في الربض الشرقي من قرطبة مئة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي، وهذا في ناحية من نواحيها، فكيف لجميع جهاتها[٦] ولعل من أبرز الأسماء التي تأتي على ذكرها كتب التراث[٧]، «مزنة» كاتبة الناصر المعروفة بحسن خطها و«لبنى» كاتبة المستنصر التي اشتهرت بجمال خطها ودقتها في النقل، وفاطمة التي بقيت تكتب حتى بعد أن تقدم بها العمر وأصبحت عجوزاً، فكانت تعرف «بفاطمة العجوز» ويطالعنا أيضاً اسم عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم القرطبية، التي لم يكن في زمانها من يضاهيها علماً وأدباً وشعراً وفصاحة وحصافة، حسنة الخط، تكتب المصاحف وتجمع الكتب، وتعنى بالعلم، ولها خزانة علم كبيرة

ونجد أيضاً راضية مولاة عبد الرحمن الناصر، وخديجة بنت جعفر بن نصير بن التمار.

ومن الطبيعي أن يكون للورّاقين أماكن خاصة ينسخون فيها الكتب، تتوافر فيها جميع المستلزمات العلمية والفنية، وغيرها من الأجواء التي تتيح لهم القيام بهذا العمل الجليل .

---

(١) الصلة، الترجمة ١١٧٢.

(٢) أيضاً: الترجمة ١٠٧٠ .

(٣) أيضاً: الترجمة ١١٠٧١.

(٤) الضبي، بغية الملتمس، الترجمة: ٣٠٤؛ المقري، نفح الطيب: ٤ / ١٤٤.

(٥) الصلة٥٦٣ .

(٦) المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب والأندلس (القاهرة ــ ١٩٩٤)، ص ٣٧٢ .

(٧) انظر باب النساء: ابن بشكوال ،الصلة، الترجمة :١٥٣٨ ــ ١٥٥٣؛ الضبي، بغية الملتمس ،الترجمة:١٥٨٦ ــ ١٥٩٦؛ كحالة، عمر رضا، أعلام النساء ،ج ٥ /٢٩ ــ ٣٠.

يمكننا القول إنّ المكتبات وخزائن الكتب الإسلامية التي اشتهرت الأندلس بكثرتها وتنوعها كانت من أهم الأماكن التي قبع الورّاقون في غرفها منذ الساعات الأولى للصباح، حتى ساعات متأخرة من الليل وعلى ضوء المصباح لينسخوا كتبهم. ففي كل مكتبة كان هناك غرفة أو أكثر ـ حسب سعة المكتبة – ومزودة بمستلزمات النسخ خصصت للوراقين ليجلسوا فيها ويستنسخوا الكتب ومن أشهر تلك المكتبات:

١ ـ المكتبات العامة:

وهي مكتبات خصصت لعموم المجتمع الأندلسي وبلغ عددها أيام الخلافة سبعين مكتبة، وقيل حوالي عشرين مكتبة[١] وتتضمن :

أ ـ مكتبات المساجد:

اشتهرت المساجد الإسلامية في الأندلس بوجود غرف خاصة تحوي آلاف المجلدات من الكتب التي أوقفها بعض العلماء سواء في حياتهم أم حينما شعروا بدنو المنية منهم لينتفع منها عامة الناس ممن لا يتمكنون من شراء الكتب، أو ممن لا يصل إليهم الجديد من الكتب وينقل لنا ابن الفرضي[٢] بأن يحيى بن مالك بن عائذ الطرطوشي اضطرته الحياة إلى التنازل عن مكتبته بحياته وكان يقول: «لو عددت أيام مشيي في المشرق، وعددت كتبي التي كتبت هناك بخطي، لكانت كتبي أكثر من أيامي بها». كما أن بعض الميسورين من أهل الأندلس بدافع حبهم للمعرفة والكتب وتشجيعا لطلب العلم وابتغاء لرضا الله ونيل الثواب كانوا يشترون الكتب ويوقفونها على المساجد. ويبدو أن هذه المكتبات كانت أوسع انتشاراً وفائدة من مكتبات القصور التي كانت مقصورة على الحكام والعلماء.

ب ـ مكتبات القصور:

وهي مكتبات عامة أيضا أنشأها أمراء وخلفاء وحكام الأندلس في قصر الخلافة ودور الحكومة لرعاية الحياة العلمية وتشجيع العلماء على التأليف، وتعد مكتبات عامة لأنها كانت مفتوحة لكبار العلماء والأدباء ورجال الحكومة ومن يتصل بهم[٣].

وتعد مكتبة قرطبة التي بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر من أشهر مكتبات القصور ولعلها من أشهر مكتبات العالم الإسلامي قاطبة. فقد احتوت على مئات المجلدات والكتب

---

(١) محمد كرد علي ،غرائب العرب، ج ٢ / ١٦٧؛ عجيل، كريم، الحياة العلمية في مدينة بلنسية (عمان – مؤسسة الرسالة) ٢٧٩؛ عليان، المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية، ص ٧٩؛ بامات، مجالي الإسلام ص ١١٣ .

(٢) تاريخ علماء الأندلس، الترجمة ١٥٩٩.

(٣) تاريخ علماء الأندلس، الترجمة ١٥٩٩.

النفيسة، وكما ذكرنا كانت أحب هدية إلى نفس الناصر كتاب جديد يضعه في مكتبته بجانب كتبه الأخرى. أما الخليفة الحكم المستنصر بالله فيذكر المقري[1] عنه بأنه قد جمع من الكتب أنواعاً عديدة ما لم يجمعه أحد قبله هنالك، وكان يرسل في طلب أي كتاب جديد في أي بلد كان غير مبالٍ بسعره، وقد آثر مكتبته على ملذات الخلفاء. وأما عن عددها فيذكر ابن الأبَّار[2] نقلاً عن تليد الفتى خازن مكتبة الحكم بأن عدد الفهارس التي تضمنت تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة في كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط، أما المقري[3] فيذكر بأن عددها بلغ أربعمئة ألف مجلد أو ستمئة ألف مجلد. وعندما أصبحت الكتب مكدسة فوق بعضها بعضاً، ولم تعد تتسع لكتب أخرى تدخل إليها، أصبح من اللازم نقلها إلى مكان أخر أكبر حجما منها، ولمدة ستة أشهر كاملة، تم نقل آلاف الكتب إلى المكان الجديد بكل دقة وعناية. فأصبحت تحفة فنية وعلمية لم يسبق لحاكم أو ملك قبله. ولعل ذلك مبالغ فيه ولكنه يدل على حب الحكم للكتب واعتزازه بمكتبته ولم يكن ولعه بالكتب مظهرياً، يجمعها ويرتبها في خزانته للتباهي بها، وإنما كان يقرؤها بإمعان، ويكتب نسب مؤلفها، ومولده ووفاته، ويعلق عليها تعليقات لطالما كانت موضع تقدير العلماء، ولطالما استفادوا منها[4] ومن الطبيعي بأن حبه هذا قد أشاع في الورَّاقين الثقة التي يستحقها كل عالم حجة.

جـ - مكتبات الحدائق:

ويبدو أن حب الأندلسيين للكتب وشغفهم لالتهام كل ما هو جديد منها أوجد نوعاً جديداً من المكتبات العامة بنيت في المتنزهات العامة، وقيل إنها بنيت أيام الأمويين والعامريين.

٢- المكتبات الخاصة:

أما النوع الثاني من المكتبات فهي المكتبات الخاصة، وتعود ملكيتها إلى العلماء والمتعلمين من الرجال والنساء وطبقات المجتمع الأندلسي كافة. وتفوق هذه المكتبات في عددها المكتبات العامة. ومن أشهرها مكتبة ابن فطيس «أبي المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى» من أسرة قرطبية غنية، ومن كبار المحدثين والعلماء والمسندين، جمع من الكتب أنواعاً متعددة في مختلف أصناف المعرفة والعلم، ولم يستطع أحد من معاصريه أن يضاهيه في ذلك، وكلما علم بصدور كتابٍ حسنٍ عند أحد من الناس طلبه لشرائه منه

(١) المقري، نفح الطيب: ١/٣٧٠.

(٢) ابن الأبار، الحلة السيراء: ١ / ٢٠٣؛ المقري، النفح: ١ /٣٦٩ - ٣٧٠ .

(٣) المقري، النفح ١ / ٣٦٩، ٣٧٧.

(٤) ريبرا، التربية الإسلامية في الأندلس: ص ١٦١؛ العبادي ،أحمد مختار، في تاريخ المغرب والأندلس (الانجلو المصرية - ١٩٨٦) ص ٢٢٥.

غير مبالٍ بثمنه، وإن لم يقدر على شرائه أعطاه للناسخ لينسخه، ثم يدققه، وبعد ذلك يعيده إلى صاحبه، وكان عنده ستة ورَّاقين ينسخون له الكتب باستمرار ويعطيهم لقاء ذلك راتباً معلوماً. ومن بين الكتب القيمة التي تضمنتها مكتبته كتاب «القصص والأسباب التي من أجلها نزل القرآن» في حوالي مئة جزء ونيف، وكتاب المصابيح في فضائل الصحابة «مئة جزء»، و«الناسخ والمنسوخ»، «ثلاثون جزء». وبنيت مكتبته بشكل هندسي وعلمي جميل يماثل ما عليه المكتبات الحديثة وما تحتويه من أجهزة تقنية حديثة، بحيث أنه من مكان معين يستطيع خازن المكتبة أو المشرف عليها رؤية جميع خزائن الكتب، وأمَّا مدخلها وسقفها وجدرانها وشرفتها وكل ما فيها من أبسطة طلي باللون الأخضر فكانت في غاية من الجمال والروعة، وفي ذلك يذكر النباهي[1] عند ترجمته لابن فطيس «بأنه كان له بداره مجلس عجيب الصنعة، حسن الآلة، ملبّس كله بالخضرة ،جدرانه وأبوابه وسقفه وفرشه وستائره ونمارقه، وكل ذلك متشاكل الصفات، قد ملأه بدفاتر العلم، ودواوين الكتب، وعين لها أميناً من العلماء والأدباء وجعل لها، فهارس منظمة، وكان أبغض شئ إلى قلبه أن يستعير منه أحد كتاباً، خشية ضياعه، وإذا ألحَّ عليه أحد بطلب الكتاب، أعطاه إلى الناسخ لينسخه له».

إضافةً إلى مكتبة ابن فطيس كان هناك عدد من المكتبات الثقافية التي ضمت نفائس الكتب مثل مكتبة قاسم بن سعدان وهو من ريَّة، وسكن قرطبة، وكان ضابطاً لكتبه، متقناً للرواية، حسن الخط، شديد العناية بكتبه ونسخها .

ولم تكن الأسر الأندلسية الغنية فقط تشتري الكتب القيمة وتعني بمكتباتها الخاصة، فالأسر الفقيرة كذلك كانت تشتري الكتب بقدر ما يسمح لها وضعها المادي، فحزم المعلم كان لا يملك من المال إلا النزر اليسير، ويقوم مع ابنه محمد، بتعليم الصبيان، والقليل الذي يدخره جزء من دخله ينفقه في شراء الكتب، وفي ساعات فراغه ينسخ الكتب التي يستعيرها من أصدقائه، فكوَّن مكتبة كبيرة لا تتناسب مع ملابسه وطعامه المتواضعة، ولعدم استطاعته تعيين خازن على مكتبته كان هو يقوم بالتصنيف والترتيب، وكان أدباء قرطبة يحسدونه على دقة مخطوطاته وندرة بعضها الآخر. وتذكر المصادر[2] بأنه فضل العلم على الوزارة حين عرضت عليه.

٣ـ مكتبات الهواة :

إضافةً إلى تلك المكتبات الخاصة التي ملكها المجتمع الأندلسي كان هناك مكتبات أخرى يطلق عليها الباحثون مكتبات الهواة[3]، ومنها يقتني الشخص الكتاب ويجهد في الحصول على

---

(١) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس ٨٧ – ٨٨؛ الضبي، بغية الملتمس: الترجمة ٩٧٦ ؛ ابن بشكوال، الصلة: الترجمة ٦٨٩.

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس: الترجمة ١١٦٣؛ المقري، نفح الطيب: ٤ / ١٦٨ .

(٣) انظر: عجيل، الحياة العلمية في مدينة بلنسية، ص ٢٨٤.

نوادر الكتب إشباعاً لرغبة في نفسه، أو لهواية يتفاخر بها على أصحابه، وليس ذلك غريباً على المجتمع الأندلسي فالعلماء كانوا موضع تقدير منه، وإن حب جمع الكتب وتكوين المكتبات صفة مميزة له وتدل على ثقافته ونضجه، وفي ذلك يقول المقري[1] نقلاً عن ابن سعيد «حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب وينتخب فيها ليس إلا أن يقال لفلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصّله وظفر به». وبذلك نرى هؤلاء الهواة قد صرفوا مبالغ طائلة على مكتباتهم، سواء في اختيار المكان المناسب لها، أو في تنسيق الكتب في المكتبة، أو في حرصهم على أن يكون الكتاب جيد الخط، متقن الضبط حسن التجليد .

ومهما كتب عن مكتبات الأندلس وتنوعها فلا نستطيع أن نغطي الدور الذي لعبته في تقديم أنفس الكتب للورّاقين وتوفير الأماكن العلمية، وتوفير أجود الأوراق، وأحسن الأدوات لهم.

ومما لاشك فيه أنّ أصحاب هذه المكتبات الذين أنفقوا على مكتباتهم أموالاً طائلة سواء كانوا حكاماً أم من عامة الناس، ووفروا للورّاقين جميع مستلزمات النسخ ودفعوا إليهم مبالغ طائلة شجع الكثير من النساخ على امتهانها حرفة يكسبون من ورائها لقمة عيشهم فأصبحت الوراقة مهنة الفضلاء والعلماء، وأصبحت أيضاً لقباً للكثير من العلماء.

يبدو من النصوص التي يوردها السبكي[2] بأن الأجور كانت تحدد وفق عقد يبرم بين الورّاق وبين مستأجره حيث يتفق الطرفان على أجر محدد يلزم به، ولا يحق للورّاق المطالبة بزيادة الأجر بعد ذلك، وأما المستأجر فعليه أن يحدد له عدد الأوراق والأسطر في كل صفحة ونوع الحبر المستعمل، وأن يتفق الطرفان على من يكون الحبر. وإذا لم يعين على من يكون، فالأصح الرجوع إلى العادة، فإن اضطربت وجب البيان وإلا بطل العقد بينهما. ومن تلك النصوص يتبين لنا أن أجرة النسخ كانت تغلو وترخص وفقاً لحسن الخط، ودقة النقل، والضبط، كما أن البعض كان يعمل في قصور الخلفاء والأمراء ويستلم أجره بسخاء، وتكون إما عن القطعة الواحدة أو عن الكتاب بأكمله، فمثلا إن عبد الرحمن بن عيسى بن فطيس[3] كان يعمل في مكتبته ستة من الورّاقين ينسخون له الكتب باستمرار وكي لا ينجز عمله بسرعة وإهمال للنص بغية نيل المكافأة أو العطاء كان يعطيهم أجراً ثابتاً لا على القطعة، وبعضهم الآخر كان ينسخ الكتب ويبيعها إلى العلماء والطلاب. ويلاحظ أيضاً أنّ الأجور التي تتلقاها المرأة من عملها بالنسخ أقل مما يحصل عليه الرجل، على الرغم من أنّ الكتب التي تستنسخها أوضح خطاً وأشد اعتناءً ونظافةً.

---

(١) النفح :٢ / ٩.

(٢) معيد النعم، ص ١٣.

(٣) ابن بشكوال، الصلة: الترجمة ٦٨٩ .

غير أن هذه المهنة قد أصابها الكساد فيصفها الشاعر الأندلسي أبو محمد عبد الله بن صارة البكري الأندلسي (ت ٥١٧ هـ / ١١٢٣ هـ) الذي انتحل الوراقة مهنة له بأنها أنكد حرفة إذ يقول:[١]

أمّا الوراقة فهي أنكد حرفة ... أوراقها وثمارها الحرمانُ

شبهت صاحبها بصاحب إبرة ... تكسو العراة وجسمها عريانُ

ولعل ذلك يعود إلى ضعف الدويلات الأندلسية، ودخولها في حروب مع بعضها البعض، فأخذت التوابع الحضارية بدورها تضعف، وأصبح الناس في شغل شاغل عن ملاحقة آخر مؤلفات العلماء، ولعل ربط ابن خلدون، الازدهار الحضاري بقوة الدولة، وقوة الدولة بازدهارها الحضاري، تأكيداً لما ذهبنا إليه فيقول في مقدمته المشهورة[٢]، «كانت العناية قديماً بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط، وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وحرص الناس على تناقلها في الآفاق والأمصار من نسخ، وجاءت صناعة الورّاقين وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران، بعد أن كان منه في الملة الإسلامية بحر زاخر بالعراق والأندلس». وإضافة إلى ذلك أعتقد أيضاً أنَّ هذه المهنة كغيرها من المهن تخضع لقانون العرض والطلب، إذ نجد أبا حيان التوحيدي ت ٤٤١ هـ يسميها حرفة الشؤم[٣] على الرغم من أن بغداد في زمانه لا زالت تعيش في عصرها الذهبي.

وبضعف الدويلات الأندلسية لم يذهب بريق الورّاقين فقط بل ذهب معهم بريق أسواق بيع الكتب التي اشتهرت بها الأندلس.

تذكر المصادر أنه لم يكن في الأندلس أكبر وأشهر سوق للكتب مثل سوق قرطبة، فقد كان يتردد على سوقها كل من أراد الحصول على نسخة من كتاب معين أو مخطوط في حاجة إليه وغالبا ما تباع في مزاد علني، وقد جاء في نفح الطيب أن[٤] الحضرمي بقي أياماً عديدة ملازماً سوق الكتب في قرطبة وهو يبحث عن كتاب كان بأمس الحاجة له، وحين وجده ــ وكان بخط جميل وتجليد جيد ــ فرح به فرحاً كبيراً ودخل في مزايدته إلى أن وصل سعره إلى حد لا يستطيع الاستمرار بالمزايدة، فطلب إلى الدلال أن يرشده إلى منافسه على هذا الكتاب، فإذا به شخص عليه لباس الرياسة، فتقرب منه وقال له: «أعز سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض بهذا الكتاب تركته لك فقد بلغت الزيادة بيننا فوق حده فرد

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، الترجمة ٣٤٦

(٢) المقدمة :٤١٩ – ٤٢١.

(٣) الحموي، معجم الأدباء ج٥ (بيروت – دار الحضارة) ص٣٩٣

(٤) المقري، النفح: ٢ / ٩ – ١٠.

عليه قائلاً: لست بفقيه ولا أدري ما فيه، أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته، ولم أبال بما أزيد فيه». وإضافة إلى قرطبة اشتهرت مدن أندلسية أخرى بهذا النوع من الأسواق.

ومما لا شك فيه أن هذه الأسواق التي كانت مركزاً حضارياً يتنافس فيه العلماء والطلاب والورّاقون في أحدث المؤلفات وأجودها نسخاً وأغزرها علماً، قد جلب إليها إضافة إلى الكتب القيمة أنواعاً أخرى من الكتب المستنسخة اتسمت بطابعها التجاري، مثل كتب السحر، والجن، والخرافات، وأخبار العشاق، وكتباً منسوبة لعلماء مشهورين مثل «كتاب الأغاني الكبير» المنسوب لأبي إسحق بن إبراهيم الموصلي. وكان بعض الورّاقين يزيد في الكتاب أو ينقصه وفق هواه، وبعضهم الآخر منهم يضيف على الكتاب ــ وخاصة كتب الشعراء ــ بعض القصائد والأبيات من الشعر القديم، أو يضعون اسم عالم مشهور بدل مؤلفه بغية زيادة ثمنه. ولوضع حد لمثل هذا التلاعب والغش وضع العلماء شروطا لنسخ الكتب ليلتزم بها الورّاقون.

من هذه الشروط التي يجدر على الكل الالتزام بها:[1]

ــ أن يكون الورّاق على قدر كبير من الثقافة والمعرفة بالعلوم. فالثقافة وسعة الإطلاع على العلوم هي المعيار الأساسي للتفاضل بين الورّاقين، فمثلاً لا بد للورّاق أن يكون عالماً باللغة حتى لا يقع في الأخطاء النحوية والإملائية، وأن يعرف أين يضع الفواصل والدوائر، وألا يوصل الكلام كله على طريقة واحدة، وأن يكون عارفاً بالعلوم الفقهية كي يلتزم بالأمانة الشرعية التي تمنع التزوير والكذب، وعندما يكون هناك خطأ ما في الكتاب الأصلي يُنبه عليه الورّاق في حاشية الكتاب، وكذلك الحال بالنسبة لحقول المعرفة الأخرى. وفي ذلك تذكر كتب التراث حادثة طريفة عن صاعد البغدادي الذي اتهم بالمبالغة بادعائه العلم والمعرفة، فقد أراد الحاكم المنصور أن يختبر مدى صدقه فسأله عن عنوان كتاب اخترعه من نفسه فقال له :هل رأيت فيما وقع لك من الكتب كتاب الكواكب والزوابل لمبرمان بن يزيد، فقال: نعم رأيته في بغداد في نسخة لأبي بكر دريد بخط كراع النمل، فقال له المنصور: أما تستحي يا أبا العلاء من هذا الكذب، هذا كتاب عاملنا ببلد كذا يذكر فيه الأرض قد قلّت وزبلت، فأخذت من قوله ما سألتك، فأخذ صاعد يحلف أنه صادق القول[2].

---

(١) انظر: السبكي، معيد النعم، ص ١٠٢ ــ ١٠١؛ ابن جماعة، تذكرة السامع، ص ٢٧٠ ــ ٢٧٣، ابن مماتي، أبو المكارم بن أبي سعيد، قوانين الدواوين(القاهرة – لا، ت) ص ٣٤٠ ؛ النملة، الوراقة وأشهر أعلام الورّاقين، ص ٤٢ .

(٢) المقري، نفح الطيب :٤ / ٨٥؛ حبش ،الكتاب في الحضارة الإسلامية ص ١٨١.

ــ على الورَّاق أن يأخذ موافقة المؤلف الأصلي أو ناظره. وإذا كان الكتاب وقفاً على من ينتفع به غير معين فلا بأس بالنسخ منه مع الاحتياط بإصلاحه لمن هو أهل لذلك. فالكتاب تعود أحقيته إلى مؤلفه، ومن المحتمل هناك إضافة إلى الحق المعنوي حقٌ مادي ،تحدد فيه الحقوق المادية بين الطرفين المتعاقدين، خاصة إذا ما علمنا بأن أهل الأندلس كانوا على مذهب مالك، وإنَّ المذهب المالكي أكثر المذاهب الفقهية تشدداً والتزاماً بالحقوق الملكية والميراث.

ــ يحق للورَّاق أن يرفض نسخ الكتب المضلّة، ككتب أهل البدع والأهواء، وكل كتاب لا يتناسب مع فكر ومعتقد الوَّراق .

ــ أن يبدأ الورَّاق بكتابة البسملة، فإن كان الكتاب مبدوءاً بخطه يعقب البسملة: الحمد لله، ثم الصلاة على الرسول، وعندما ينهي الجزء الأول منه أو جميعه يحمد الله على إتمامه، ويصلي على الرسول الكريم.

ــ إذا نسخ الوَّراق كتاباً من كتب العلوم الشرعية فينبغي أن يكون على طهارة، مستقبل القبلة بثياب طاهرة وحبر طاهر.

ــ لا يجوز للورَّاق أن يحذف شيئاً خلال الكتابة من الكتاب الأم، بغية إنجازه بسرعة، خاصة حين يدفع له ثمن نسخه مقدماً، فعليه أن ينقله كما هو، وإذا حذف أو زاد عليه شيئاً فهذا خائن لله تعالى في تضييع العلم. ومن التدقيق في هذا النص يظهر لنا بأنه لم يكن هناك نص قانوني يلاحق الورَّاق المتلاعب، بل جعلوا ذلك خيانة يحاسبه الله عليها.

ــ أن يتفق على نوع الورق وحجمه ولونه. وقد كره العرب إجمالاً الكتابة باللون الأحمر واعتبروه من شعار المجوس[1] السخاوي، ويشير ابن جماعة[2] إلى المواضع التي لا بأس من كتابتها باللون الأحمر مثل فواصل الكلام، أو عند ذكر أسماء، أو مذاهب، أو أقوال وعلى نحو ذلك على أن يبين ذلك في فاتحة الكتاب أي مقدمته.

ــ أن يكون الورَّاق ذا خط جيد، ويرسم الحروف بشكل واضح لا يضر بالبصر، وذا معرفة بأنواع الخطوط، وأن لا يكون قلمه صلباً، فجمال الخط يعتمد على القلم الجيد والحبر الجيد. وعرف أهل الأندلس باستعمالهم للحبر البني الغامق والبني الضارب للحمرة.

وللقلم أهمية كبيرة عند الورَّاقين فابن النديم[3] الذي كان واحداً من الورَّاقين المعروفين يسمي الأقلام حسب صفاتها وخطها، وسأل أحد الورَّاقين عن ما يشتهي فأجابهم قائلاً «قلماً

---

(١) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، فتح المغيث شرح ألفية الحديث ج ٣(القاهرة – مكتبة السنة ــ ١٩٩٥) ص٥٣.

(٢) تذكرة السامع، ص ٩٥.

(٣) محمد بن اسحق، الفهرست (المكتبة التجارية – د ن) ص ١٢ – ١١ .

مشاقاً وحبراً براقاً وجلوداً رقاقاً»[1]. ولحسن الخط أثره على سعر الكتاب، فكلما كان الخط جميلاً كلما زاد سعره، يسهل للقارئ قراءة الكتاب، ويعد ابن خلدون[2] الخط الجميل والحسن، دليل على ازدهار الحضارة الإسلامية، ورداءة الخط، دليل على انحطاطها. ولا غرو إذا رأينا أهل الأندلس يولون اهتمامهم الكبير بالخط وهم الذين اخترعوا خطوطاً خاصة بهم، ولا عجب إن وجدنا صفية بنت عبدالله الربّيّ المعروفة بجمال خطها قد اشتد غضبها عندما عابت خطها إحدى النساء، فردت عليها بقصيدة تقول فيها[3].

وعائبة خطي فقلت لها اقصري فسوف أُريك الدُّر في نظم أسطري

وناديت كفي كي تجوُدَ بخطها وقربتُ أقلامي ورَقَّي ومُحبري

فخطت بأبيات ثلاث نظمتها ليبدو بها خطي فقلت لها انظُري

ولجمال خط المرأة الأندلسية عهد إليها بكتابة القرآن الكريم.

ـ وبعد أن يتم الكتاب يجب على الورّاق أن يشكله ويضبط حركاته ويتفقد مواضع التصحيح ويقابله ويقارنه مع الكتاب الأم، وقد اعتبر العلماء المقابلة شرطاً في صحة ما ينقل، وكما يقول السخاوي[4] هي المعارضة: «قابلت بالكتاب قبالاً ومقابلة، أي جعلته قبالته، وصيرت في أحدهما كل ما في الآخر» فإذا كان هناك تصحيح يراه ضرورياً يكتب في الحاشية الصواب كذا، وإذا أراد تخريج شيئ في الحاشية علم له في موضعه بخط مائل قليلاً إلى جهة التخريج، ويستحسن بأن يكون على الجهة اليمنى من الكتاب ثم يكتب التخريج ،وأن لا يوصل الكتاب والأسطر بحاشية الورق، بل يترك فراغاً يتحمل الحك عند حاجته في بعض الأحيان. ولعل المقابلة هي سنة أخذت عن الرسول «ص»، فبعد أن ينتهي الرسول «ص» من إملاء القرآن الكريم على كتاب الوحي يطلب منهم أن يقرؤوا له ما دونوه.

وزيادة في الدقة ذهب بعض من الورّاقين الأندلسين إلى تعيين جماعة من المصححين والمراجعين يقتصر عملهم على التصحيح والمقابلة فقط. وينقل لنا الضبي[5] كيف أمر الحكم محمد بن أبي الحسين بمقابلة كتاب العين بالتعاون مع أبي علي البغدادي وابن سيده، في قصر الخلافة، فاحضروا من الكتب نسخاً كثيرة، وقابلوها مع على بعضها، وعندما أتموا عملهم وضعوا نسخة كاملة ودقيقة، وعرضها على الحكم فختمها بختمه.

(١) انظر: الحبش عبدالله، الكتاب في الحضارة العربية الإسلامية ،[الكويت، شركة الربيعان١٩٨٢] ص ١٩.

(٢) المقدمة، ص ٢٦٨ .

(٣) الضبي بغية الملتمس ،الترجمة ١٥٨٦؛ ابن بشكوال، الصلة، الترجمة ١٥٣٩.

(٤) فتح المغيث، ج ٣ / ٧٤ ـ ٧٦

(٥) بغية الملتمس، ص ٦١.

- تجليد الكتب وزخرفتها

إما أن يقوم الورّاق بذلك بنفسه، أو يعهده إلى المجلد، وعليه ما على الورّاق من شروط. وقد عرفت الأندلس في جمال تجليد كتبها وزخرفتها، وكانت في بداية الأمر مجرد خطوط بسيطة ثم تطورت إلى خطوط هندسية لها أصول وقواعد، وقد اتفق العلماء على عدم جواز زخرفة الكتب بالذهب ماعدا القرآن الكريم.

فهذه الشروط التي وضعها علماء المسلمين على الورّاقين للحد من تلاعب بعضهم قد حافظت على حقوق المؤلف وحقوق الورّاق، ودفعت المضمار الحضاري الفكري خطوات إلى الأمام، وسبقت أمماً كثيرة في هذا المضمار. فحقوق المؤلف أو ما يسمى بحقوق الملكية الفكرية لم تظهر في أوربا إلا بعد الثورة الصناعية، وظهرت بصورة جلية في اتفاقية برن عام ١٨٨٦. وأما الدول العربية فلم تأخذ الترتيبات اللازمة للمحافظة على حقوق المؤلف إلا في فترة متأخرة. وأخيراً لابد من القول بأن عمل أولئك الورّاقين وتسويقهم للكتّاب امتداد حضاري لناشري اليوم.

ثبت المصادر والمراجع

١ ـ أعلام النساء، عمر رضا كحالة ج ٥ (بيروت – ١٩٨٢).

٢ ـ الأنساب، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، تقديم عبدالله بن عمر البارودي؛ ج ٥ (بيروت ـ دار الجنان ـ ١٩٨٨).

٣ ـ احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ،ا لمقدسي البشاري، وضع مقدمته د. محمد مخزوم (بيروت – ١٩٨٧).

٤ ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عُميرة الضبي، تحقيق: روحية عبد الرحمن السويفي (بيروت – دار الكتب العلمية ـ ١٩٧٧).

٥ ـ تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي أبوالوليد عبدالله بن محمد بن يوسف الازدي، تحقيق إبراهيم الابياري ج ا، ٢، ٣ (القاهرة – الدار المصرية للتأليف والترجمة – ١٩٦٦).

٦ ـ تاريخ قضاة الأندلس، أبوالحسن بن عبدالله النباهي (بيروت ـ دار الآفاق ١٩٨٣).

٧ ـ تذكرة السامع والمتكلم، أبوإسحق إبراهيم أبي الفضل سعد الله ابن جماعة (بيروت ـ مؤسسة عز الدين١٩٩٣).

٨ ـ التربية الإسلامية في الأندلس، خوان ريبرا، ترجمة: د. أحمد مكي الطاهر (مصر ـ دار المعارف – ١٩٩٤).

٩ ـ جذوة المقتبس في تاريخ الأندلس، الحميدي، أبو عبدالله محمد بن فتوح بن عبدالله (بيروت – دار الكتب العلمية (القاهرة – المكتبة الأهلية ـ ١٩٨٢).

١٠ ــ الحلة السيراء، ابن الأبّار أبوعبدالله محمد بن أبي بكر القضاعي البلنسي، تحقيق حسين مؤنس (القاهرة – ١٩٦٣) .
١١ ــ الحياة العلمية في مدينة بلنسية، عبد ا لكريم عجيل (عمان – مؤسسة الرسالة).
١٢ ــ الصلة، ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك: تحقيق إبراهيم الابياري (القاهرة – الدار المصرية للتأليف والترجمة – ١٩٩٦).
١٣ ــ غرائب العرب، محمد كرد علي، ج٢ (القاهرة – المكتبة الأهلية – ١٩٢٣).
١٤ ــ فتح المغيث شرح الفية الحديث، محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي، ج ٣ (بيروت دار الكتب العلمية ١٩٩٣) .
١٥ ــ الفهرست،ابن النديم،محمد بن اسحق (مصر ــ المكتبةالتجارية)
١٦ ــ تاريخ المغرب والأندلس، العبادي، احمد مختار (الأنجلو المصرية – ١٩٨٦).
١٧ ــ قوانين الدواوين، ا بن مماتي، أبو المكارم بن أبي سعيد، (القاهرة _ لا.ت) .
١٨ ــ الكتاب في الحضارة الإسلامية، الحبشي، عبدالله (الكويت – شركة الربيعان للنشر والتوزيع – ١٩٨٢)
١٩ ــ لسان العرب ،ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، ج ٣ (بيوت – دار صادر – الطبعة السادسة).
٢٠ ــ مجالي الإسلام، حيدر بامات، ترجمة: عادل زعيتر(القاهرة – ١٩٥٦).
٢١ ــ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي، عبد الواحد (القاهرة – ١٩٩٤).
٢٢ ــ معجم الأدباء، الحموي، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله، ج٥ (بيروت ــ دار الحضارة).
٢٣ ــ معجم البلدان، الحموي، ياقوت، ج ١ (بيروت دار الكتب العلمية – ١٩٩٥).
٢٤ ــ المقدمة، ابن خلدون، عبد الرحمن (بيروت ــ دار صادر ــ ٢٠٠٠).
٢٥ ــ معيد النعم ومبيد النقم، السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (بيروت ــ مؤسسة الكتب الثقافية).
٢٦ ــ المكتبات في الحضارة الإسلامية، عليان د. ربحي مصطفى (عمان دار الصفاء – ١٩٩٩).
٢٧ ــ الموسوعة العربية الميسرة،اشراف :غربال، محمد شفيق، مادة نساخو (مؤسسة فرانكلين للطباعة). ٢٨ ــ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقّري، أحمد بن محمد، تحقيق إحسان عباس ج ١ ــ ٤ (دار الكتب العلمية ــ ١٩٩٥).
٢٩ ــ الوراقة وأشهر أعلام الورّاقين، النملة، علي إبراهيم (الرياض – ١٩٩٥).
٣٠ ــ الوراقة وصناعة الكتابة ومعجم السفن، زيات ،حبيب (بيروت – دار الحمراء – ١٩٩٢).
٣١ ــ وفيات الأعيان ،ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد، ج ١،٤ (دار صادر – بيروت – ١٩٧٧).

دراسة في المعاجم العلمية المختصة معجم مصطلحات العلوم الزراعية لمصطفى الشهابي - نموذجاً -

د. جيلالي بن يشو

تعريف المعجم العلمي المختص:

المعجم العلمي المختص هو كتاب يتضمن رصيداً مصطلحياً لموضوع ما مرتباً ترتيباً معيناً ومصحوباً بالتعريفات الدقيقة الموجزة ومعززاً ـ ما أمكن ـ ببعض الوسائل البيانية المرافقة من كشافات وسياقات وصور وجداول.. التي تساعد على توصيل المفهوم إلى المتلقي بأفضل صورة ممكنة...(١)

يعنى المعجم المختص بدراسة موضوع خاص من الموضوعات والمفردات، فتجمع ما قيل في هذا الجانب ولا تتجاوزه إلى غيره من الموضوعات(٢)، كما يعالج شريحة بعينها من النشاط الإنساني علمياً أو أدبياً أو فلسفياً أو غيرها، ويهتم بحصر مصطلحات علم بعينه أو فن بذاته ويتناول كل مصطلح بحسب استخدام المتخصصين فيه(٣).

---

(١) ينظر: مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا المجلد الخامس والسبعون، الجزء الرابع، رجب ١٤٢١هـ ـ أكتوبر ٢٠٠٠، مقال للدكتور جواد حسني سماعنه بعنوان: المعجم العلمي المختص: المنهج والمصطلح، ص: ٩٦٤، ٩٦٥.

(٢) المعجم العربي بين النظرية والتطبيق، د. عبد الله ربيع محمود، ١٩٩٦، ص: ٥٧ ـ ٥٨.

(٣) ينظر: كلام العرب، حسن ظاظا، دار النهضة العربية بيروت، ١٩٧٦، ص: ١٢٥.

فهو معجم فني، ذو طبيعة تأليف خاصة، لا يشتمل على ألفاظ اللغة عامّة، بل على مصطلحات العلوم والفنون، على درجة عالية من الجودة والدقة مقيس بمعايير مضبوطة تلبية لمواصفات الإنتاج والتسويق(١).

فالمعجم المختص من حيث هو معجم مدون مشتمل على جزء قل أو كثر من مصطلحات علم من العلوم أو فن من الفنون أو مصطلحات جملة من العلوم أو الفنون ينتمي إلى المعجمية المختص التطبيقية(٢)، يعنى ببحث معاني المصطلحات المستخدمة في أحد المجالات المعنية، وقد يكون هذا البحث من منظور لغة واحدة أو من منظور لغتين أو أكثر.

تحظى المعاجم العلمية المختصة بعناية متزايدة من المنظمات الدولية المختصة، وكذا من العلماء أهل الاختصاص، ويكفي لإثبات هذه العناية الإبحار انطلاقاً من مواقع معلومة في الإنترنيت للاطلاع على الأعداد الكبيرة من المعاجم الخاصة ومن الهيئات والمؤسسات والجامعات ومراكز البحث الدولية المعنية ببنائها وتطويرها ناهيك عن الأرقام المقدمة عن الكلمات أو المصطلحات المخزنة في هذه المعاجم(٣).

المعاجم العلمية المختصة في التراث العربي:

تضمنت حركة التأليف المعجمي في التراث العربي القديم إعداد معاجم علمية مختصة تحت تأثير التطور اللغوي وحركة الترجمة والتأليف بين القرنين الثالث والخامس الهجريين، حيث اشتملت المعاجم المختصة على مصطلحات علمية وفنية ارتبط ظهورها بعلوم وفنون مستحدثة في الثقافة العربية(٤).

وتنوع التأليف المعجمي العلمي التراثي المختص تنوعاً كبيراً، وتعددت التخصصات والصناعات فيها فبعضها كان عامًا للمصطلحات العلمية وبعضها كان خاصاً بمصطلح فئة معينة(٥)، حيث وصلت بعض المعاجم المختصة حدًا من النضج لم يصل إليه كثير من المعجمات العلمية المختصة الحديثة خاصة في مجال الطب والنبات والأدوية..(٦)

---

(١) ينظر: المعجم العلمي العربي المختص حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، د. إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣ص:٦.

(٢) مسائل في المعجم، إبراهيم بن مراد دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط١، ١٩٩٧، ص: ٨٠.

(٣) مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، المجلد الثامن والسبعون، الجزء الرابع، شعبان ١٤٣٤هـ، أكتوبر ٢٠٠٣م، مقال للدكتور عز الدين البوشيخي بعنوان: نحو تصور جديد لبناء المعجم العلمي العربي المختص، معجم المصطلحات اللسانية نموذجاً، ص: ١١٤٣.

(٤) ينظر: المعجم العلمي العربي المختص حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، إبراهيم بن مراد ص:٦.

(٥) مقدمة لدراسة التراث المعجمي، د. حلمي خليل، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٩، ص: ٣٩٩.

(٦) المعجم العلمي المختص: المنهج والمصطلح، د. جواد حسني سماعنه، ص: ٩٦٦.

يمكننا تعقب ثلاثة أنماط معجمية مما ينتمي إلى المعجم العلمي المختص في المكتبة المصطلحية العربية القديمة وهي كالتالي:

١ ـ معاجم موسوعية اصطلاحية: ويضم هذا النوع من المعاجم رصيداً مصطلحياً واسعاً لموضوعات معرفية متنوعة، ولذلك يمكن وصفها بالموسوعية منها:

ـ مفاتيح العلوم للخوارزمي (ت٣٨٠هـ).

ـ المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم لأبي منصور الجواليقي (ت٥٤٠هـ.

ـ التعريفات للجرجاني (ت٨١٦هـ).

ـ الكليات للكفوي (ت١٠٩٤هـ).

ـ كشف اصطلاحات الفنون للتهانوني (ق١٢هـ).

ـ معاجم فنية مختصة: وهي ضرب من المعاجم مصطلحاتها بين الطابع اللغوي والطابع العلمي مما يمكن نعته بالفني منها:

ـ كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية لأبي حاتم الرازي (ت٣٣٢هـ).

ـ المبين في شرح ألفاظ الحكماء والمتكلمين لسيف الدين الآمدي (ت٦٣١هـ).

ـ معجم اصطلاحات الصوفية لعبد الرزاق الكاشاني (ت٧٣٠هـ).

٢ ـ معاجم علمية مختصة: وهي أرقى ما وصلت إليه حركة التأليف المعجمي المختص في التراث العربي، وينضوي تحت لواء هذا النمط نوعان من المؤلفات:

أـ معاجم علمية محضة: وأهمها ما جاء في النبات والطب والأدوية مثل:

ـ كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة لابن الجزار القيرواني (ت ٣٦٩هـ).

ـ التنوير في الاصطلاحات الطبية لأبي منصور الحسن بن نوح القمري (ق٤هـ).

ـ الرسالة الألواحية للشيخ الرئيس ابن سينا (ت٤٢٩هـ).

ـ التيسير في المداواة والتدبير لعبد المالك بن زهر (٥٥٧هـ).

ـ الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار (ت ٦٤٦هـ).

مؤلفات طبية ذات معجمي، وتتضمن في داخلها معيجمات أو كنانيش أو مسارد مصطلحات معرفة أو غير معرفة من أهمها:

ـ القانون في الطب لابن سينا (ت٤٢٩هـ).

ـ كتاب المرشد في طب العين للغافقي الأندلسي (ت٥٩٥هـ).

ـ المهذب في الكحل المجرّب لابن النفيس الدمشقي (ت٦٨٧هـ).

ـ الكافي في الكحل لخليفة بن أبي المحاسن الحلبي (ق٧هـ).

ـ كشف الزين في أحوال العين لابن الأكفاني (ت٧٤٩هـ).

وقد تطورت حركة التأليف في المعاجم المتخصصة بمختلف فروعها منذ الربع الثاني من القرن العشرين عندما أصدر محمد شرف معجماً في أسماء النبات عام ١٩٢٦، كما أصدر

في العام نفسه معجماً في العلوم الطبية والطبيعية ومعجم أسماء النبات لأحمد عيسى الصادر في القاهرة سنة ١٩٣٠، وأخرج أمين معلوف معجم الحيوان عام ١٩٣٢، ثم أصدر مصطفى الشهابي معجم الألفاظ الزراعية ١٩٤٣[١]. ومعجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات الذي أصدره في دمشق سنة ١٩٥٦ ثلاثة (٠٣) من أساتذة الطب في الجامعة السورية وهو ترجمة لمعجم فرنسي انجليزي ألماني لاتيني وضعه الطبيب الفرنسي «ألكس كليرفيل» alex clairrville بعنوان: «dictionnaire medicaux termes des polylotte»[٢]. من ذلك «مجموعة المصطلحات العلمية والفنية» التي أصدرها مجمع اللغة العربية بالقاهرة وقد صدر منها ستة (٠٦) أجزاء ما بين ١٩٥٧ و١٩٦٤، ثم تواصل صدورها بعد ذلك حتى بلغت سنة ١٩٨٢ ثلاثة وعشرين (٢٣) جزءا، والموسوعة في علوم الطبيعة لإدوار غالب وقد صدرت في ثلاثة (٠٣) أجزاء في بيروت خلال سنتي ١٩٦٥ و١٩٦٦، ثم المعجم الطبي الموحد الصادر في بغداد سنة ١٩٧٣ عن اتحاد الكتاب العرب، ثم المعجم الموحد للمصطلحات العلمية في مراحل التعليم العام الصادر عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ممثلة في مكتب تنسيق التعريب بالرباط في بغداد ودمشق بين ١٩٧٦ و١٩٧٨ في ستة (٠٦) أجزاء موزعة على ستة (٠٦) علوم هي الرياضيات والفيزياء والكيمياء والحيوان والنبات والجيولوجيا[٣]، كما أصدر مجمع اللغة العربية بالقاهرة معجم الكيمياء والصيدلة عام ١٩٨٣، ومعجم الفيزياء عام [٤]١٩٨٤.

من هو مصطفى الشهابي؟

هو الأمير مصطفى بن محمد سعيد ابن جهجاه بن حسين الشهابي من أمراء بني شهاب القرشيين المخزوميين الذين دخلوا بلاد الشام عند الفتح الإسلامي بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ثم حكموا جبل حوران سنة ٥٦٧هـ أيام الملك العادل نور الدين محمود زنكي، ثم استوطنوا واد التيم في لبنان فحكموا حتى سنة ١٨٧٠م. ولد في حاصبيا قصبة الوادي الواقعة في حضن جبل حرمون سنة ١٣١١هـ ـ ١٨٩٣م[٥].

(١) ينظر: التطورات المعجمية والمعجمات اللغوية العامة العربية الحديثة، د. صافية زفنكي، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٧، ص: ٥٨.

(٢) مسائل في المعجم إبراهيم بن مراد ص: ١٠٥.

(٣) المصدر نفسه ص: ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٤) التطورات المعجمية والمعجمات اللغوية العامة العربية الحديثة، د. صافية زفنكي، ص: ٨٦.

(٥) الموسوعة العربية، الشهابي مصطفى، إعداد خير الله الشريف، المجلد الحادي عشر، الجمهورية العربية السورية ص: ٧٠٠.

تقلد عدة مناصب وزارية في وزارة المعارف ١٩٢٣م ووزارة المالية ١٩٣٤م وزارة العدل ١٩٤٩ من كما عين محافظاً لحلب (١٩٣٧ ـ ١٩٣٩م) واللاذقية (١٩٤٣ ـ ١٩٤٥)(١).

انتخب الأمير الشهابي عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٣٦، ثم رئيساً له سنة ١٩٥٩(٢)، كما انتخب عضواً مراسلاً في مجمع القاهرة، ثم عضواً عاملاً فيه.

منحته الحكومة المصرية الوشاح الأكبر مع الرصيعة من وسام النيل، ومنحته الدولة السورية وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى، كما منحه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية جائزة الدولة التقديرية لعام ١٩٦٥(٣).

كان الشهابي من أنشط أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق وكان نشاطه يتجلى في تأليف الكتب ونشر الأبحاث العلمية وإلقاء المحاضرات، وفي شهادة الأستاذ عبد الغني العطري ما يثبت ذلك: «الأمير مصطفى الشهابي من أكثر الرجال ثقافة ومن أغزرهم اطلاعاً على العلوم الحديثة والقديمة، ومن أكثرهم خبرة في شؤون الحكم والدولة، كان مطبوعاً على حب الأدب بشتى ألوانه، قرأ كتب الأدب العربي القديم قراءة درس وفهم وتابع سيرة الأدب الحديث منذ أوائل هذا القرن، واطلع على آثار كبار الأدباء الفرنسيين، وتثقيف بما حوته من أفكار وآراء مختلفة الأشكال والاتجاهات، ومن هنا استطاع أن يجمع بين الثقافتين العربية والغربية وحين بدأ يكتب ظهر إنشاؤه عالي الأسلوب، واعتبر من كتاب العصر المرموقين، غير أن تعلقه بالعلم خاصة جعله في عدد العلماء.. وكانت معظم كتاباته ومقالاته خاصة بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ومجلتي المقتطف والهلال في القاهرة»(٤).

أتقن العربية والفرنسية والتركية، وألم بالإنجليزية، له ثلاثة عشر (١٣) كتاباً مطبوعاً، أبرزها:

*«المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث صدرت الطبعة الأولى منه في القاهرة سنة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥ يضم الكتاب محاضرات ألقاها الأمير على طلاب قسم الدراسات الأدبية واللغوية بالقاهرة».

* «معجم الألفاظ الجراحية بالإنجليزية والفرنسية والعربية، أصدرته المنظمة العالمية للأغذية والزراعة وأشرف الأمير الشهابي على وضع المادة العربية فيه، يحتوي المعجم على ٩٨٧ مصطلحاً بالإنجليزية يقابلها أكثر من ذلك العدد في كل من الفرنسية والعربية».

---

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٢) معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية، ص: ٩٠٧.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) عبقريات وأعلام عبد الغني العطري دار البشائر ـ دمشق سوريا ١٩٩٦ ١٧١ ـ ١٧٢.

* كتاب الزراعة العلمية الحديثة هو دروس في الزراعة العامة والخاصة وطرائق اتباعها في بلاد الشام وأشباهها وهذا الكتاب طبعة ثانية نقحها المؤلف وأضاف إليها، طبع بمطبعة الاعتدال بدمشق سنة ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٥م[١].

* كتاب الدواجن طبع في المطبعة الحديثة بدمشق ١٣٤٩هـ ـ ١٩٣٠م تكلم الشهابي في هذا الكتاب على أهمية الدواجن في حياة الإنسان منذ القدم.

له عدة مقالات حول العلوم الزراعية والنباتية ومصطلحاتهما منشورة في مجلة مجمع دمشق.

التعريف بمعجم مصطلحات العلوم الزراعية:

أولاً: بحوث المعجم:

معجم الألفاظ الزراعية هو أكمل معجم عربي حديث في باب الزراعة، ترجم فيه الشهابي المصطلحات الزراعية الأجنبية إلى اللغة العربية مستمداً المقابل العربي من كتب التراث الزراعي وغيرها من معجمات اللغة ومن سبقه في هذا المجال.

يضم المعجم عشرة آلاف (١٠٠٠٠) مصطلح زراعي جعل إزاءها ما يقابلها بالعربية مع شرح علمي موجز، ثلثها تقريباً من وضعه وتحقيقه، لم يسبقه إليها أحد، يقول: «هذا معجم قضيت أربعين عاماً في جمع ألفاظه، ومدارستها، وتحقيقها تحقيقاً علمياً ولغوياً، ومن المصطلحات العربية المذكورة فيه ما يزيد على ثلاثة آلاف مصطلح هي من وضعي أو من تحقيقي ولم يسبقني إلى ذكرها أحد من أصحاب المعاجم الأعجمية العربية»[٢].

لقد وضع الشهابي معجماً متخصصاً في الألفاظ الزراعية، فاستوجب منه عملاً جباراً من حيث جمعه ووضعه، فضلاً عن عمليتي الترجمة والمؤالفة سواء بوضع ما لم يوجد من مصطلحات عربية مقابلة للفرنسية أم باعتماد مصطلح قديم بمعنى حديث، مع تصنيف كل مصطلح حسب شعبته وطائفته ورتبته وفصيلته وقبيلته وجنسه حسب التصنيف العلمي فهو يقول: «وضمنت المعجم أيضاً أسماء أهم الفصائل النباتية وأسماء التصنيف في علم الحيوان والأسماء العلمية أو الطبية أو البرية والأسماء العربية لفصائل تلك النباتات والحيوانات، وذكر أصول عدد كبير من الأسماء العلمية والأجنبية، وأوضاع عدد كبير من الكلمات العربية، كأن تكون الكلمة عربية أو معربة قديماً أو حديثاً، وكأن تكون واردة في الأمهات

(١) مجلة التراث العربي مقال للدكتور محمد زهير البابا بعنوان مقدمة عن السيرة الذاتية للأمير مصطفى الشهابي ص ١٨٠.

(٢) معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية، د. أحمد شفيق ص: ٩٠٦.

من المعاجم، أو في كتب المفردات أو في كتب علمية قديمة، وكأن تكون مصطلحاً قديماً أو حديثاً أو كلمة عامية يفيد إقرارها لأنّها سائغة شائعة»[١].

يشتمل المعجم على أهم الألفاظ المختصة بالعلوم الزراعية والعلوم المتصلة بها، ويمكن حصر بحوث المعجم فيما يلي:

ـ ألفاظ الزراعة العامة والخاصة: أي ما يسمى زراعة الحقول.

ـ بحوث الأتربة والأسمدة والاسقاء والصرف.

ـ زراعة الحبوب ونبات الكلأ والنباتات الصناعية، أي النباتات الدهنية «الزيتية» والليفية والطبية والصباغية.

ألفاظ زراعة البساتين مثل: شجر الفواكه وشجر التزيين والبقول والأزهار.

مصطلحات زراعة الأحراج.

ألفاظ الخيل والأنعام والنحل والسمك ودواجن الطير وما له صلة بالزراعة من نبات وحيوان وحشريات وجويّات وآلات وصناعات ومعدنيات وجيولوجيات واقتصاديات.

ثانياً: مراجع المعجم:

عمد الشهابي في تحري أصلح الألفاظ الزراعية إلى الأمهات من الكتب المختصة، لينير الطريق في ذلك للباحثين العرب المتخصصين بهذا العلم الذي بذل له حياته فيمحص المصطلحات العلمية، لينتقي صحاحها أو أرجحها ويتوخى الدقة في اختيار معرباتها ويتحرى الألفاظ المولدة، فيعمل على انتحالها لاستخدام أصلحها وينظر في الكلمات العامية لإقرار ما يفيد منها:

ـ مفردات ابن البيطار.

ـ كتاب الفلاحة الأندلسية لابن العوّام الاشبيلي.

ـ كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري:

ـ قوانين الدواوين لابن مماتي.

ـ كتاب الحيوان للدميري[٢].

ـ مخطوطة فضل الخيل لشرف الدين عبد المؤمن الدمياطي[٣].

ـ مراجع أخرى مثل علم الفلاحة للشيخ عبد الغني النابلسي، وحسن الصناعة في علم الزراعة للفيجري، ومخطوطة كتاب الفلاحة النبطية لابن وحشيّة.

---

(١) نفسه والصفحة نفسها.

(٢) ينظر ص: ٠٤-٠٧-١٣-١٧-٣٥-٨٠-٣٠٤-٣٤٣-٣٤٨-٣٦٠-٤٣١-٥١٣-٥١٦.

(٣) ينظر على سبيل المثال ص: ٣٤٠-٤١٦ من المعجم.

ــ ومن المؤلفين المعاصرين الذين اقتبس منهم ألفاظاً وضعوها أو حققوها قبله نذكر:

الدكتور أمين المعلوف صاحب معجم الحيوان، والأب «أنستاس الكرملي» صاحب مجلة لغة العرب، والدكتور «ماكس مايرهوف» MAX Mayerhof الذي ترجم وصحّح ونشر كتاب شرح أسماء العقار لموسى بن ميمون الإسرائيلي القرطبي، و«دوكرو» Ducros مؤلف كتاب العقاقير العربية الشائعة في القاهرة، والدكتور أحمد عيسى صاحب معجم أسماء النبات(١).

ــ كما اقتبس شروحاً علمية موجزة، وأصول عدد كبير من الأسماء الأجنبية والعلمية من مصادرها الأصلية مثل:

ــ كتاب الأشجار والجنبات لمؤلفه «ميوفير» p.mouillefert.

ــ كتاب الأزهار تأليف«ولمورين»A.C.Vilmorin.

ــ مهد النباتات الزراعية «لدوكندول»A.de candolle.

ــ لاروس القرن العشرين.

ــ معجم «وبستر» Webster.

ولرد كثير من المصطلحات النباتية والحيوانية إلى أصلها العربي كان يعود إلى المعاجم العربية فيخرج عدداً كبيراً من الألفاظ التي تتصل بالعلوم الزراعية مثل:

ــ المخصص لابن سيده.

ــ القاموس المحيط للفيروز أبادي.

ــ لسان العرب لابن منظور.

بالإضافة إلى مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ومجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ومجلة المعهد الطبي بدمشق، ومجلة المقتطف القاهرة.

طرق ووسائل وضع المصطلح في المعجم:

استخدم الشهابي طرقاً وأساليب مختلفة في إثراء معجمه بمصطلحات جديدة، أسهمت في نمو اللغة العربية وتطورها لتواكب التقدم العلمي، كالاشتقاق والنحت والترجمة والتعريب، حيث تعد هذه الوسائل من الأركان الأساسية في بناء ووضع وزيادة مفردات اللغة العربية يوماً بعد يوم، نظراً لما تتمتع به هذه اللغة من سعة، وما تستمدّ من حياة وتطور بفضل استخدام هذه العناصر. ومن أبرز الوسائل التي اعتمدها الشهابي في بناء مصطلحات المعجم ما يلي:

---

(١) ينظر ص: ١٢-١٧-٩٤-٢٢٠-٢٢٤-٢٢٥-٢٥٧-٢٩٣-٢٩٨-٣٢١-٣٣٣-٣٥٦-٣٧١-٤٦٠-٤٦٥-٥٠٥-٥٤٧-٥٥٩.

أولاً: الاشتقاق:

هو توليد لبعض الألفاظ من بعض والرجوع بها إلى أصل واحد يحدد مادتها ويوحي بمعناها المشترك الأصيل مثلما يوحي بمعناها الخاص الجديد[١].

والاشتقاق من أهم وسائل تنمية اللفظية في اللغة العربية، ولهذا كثرت الصيغ والأبنية الصرفية نظراً للحاجة التي تولدت عن كثرة المفاهيم الوافدة، وضرورة سد العجز الحاصل في المصطلحات العربية.

وقد وظّف الشهابي الإمكانيات الاشتقاقية في بناء ألفاظ جديدة، واستخدامها في أداء مفاهيم جديدة، ومن الصيغ التي استعملها في معجمه ما يأتي:

١ ــ استعمل الشهابي صيغة «فعّال» للدلالة على الاحتراف أو ملازمة الشيء فقال: «زرّاع»: للذي يستغل أرضه مستخدماً عمّالاً أو فلاحين[٢] و«بقّار» للخادم الذي يتعاهد البقر[٣]، و«حرّاث» للذي يمارس حرث الأرض وزرعها[٤].

كثيراً ما كان الشهابي يفرق بين صانع الشيء باستعمال صيغة «فعّال» وبين بائع الشيء بإضافة «ياء النسبة» فقال: «الزهّار» لبستاني الزهر و«الزهري» لبائعه[٥] و«كرّام» لزراع الكرم أو خبير في زراعة الكروم و«كَرْمي» لبائعه[٦] «فاكِهاني» لبائع الفاكهة والخضر[٧] و«حبُوبي» لبائع الحبوب[٨].

٢ ــ اعتمد الشهابي صيغة «مَفْعَلَة» قياساً من أسماء الأعيان الثلاثية الأصول للمكان الذي تكثر فيه هذه الأعيان سواء أكانت من الحيوان أم من النبات أم من الجماد، وعملا بقرار مجمع اللغة العربية وجدنا في المعجم مشتقات على هذه الصيغة مثل: «مَزْبَدة»، «مَمْخضة»، «مَعْجنة»، «مَقْمحة»، «مَدْولة»، «مَمْلسة»، «مَمْلقة»، «مَنْشرة»، «مَقرزة» مكتشة، «مَحْقنة»، «مَحْقلة»، «مَصيدة»، «مَقْلعة»...[٩].

---

(١) دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط١٠، ١٩٨٣، ص: ١٧٤.

(٢) نفسه ص: ١٥.

(٣) نفسه ص: ١٦٨.

(٤) نفسه ص: ٨٦.

(٥) نفسه ص: ٢٦٥.

(٦) نفسه ص: ٧٨٠.

(٧) نفسه ص: ٢٨٠ ــ ٣١٤.

(٨) نفسه ص: ٦٥٠.

(٩) يراجع الصفحات التالية من المعجم: ٩٦ ــ ١٢٦ ــ ٢٠٦ ــ ٦١٢ ــ ٦١٥ ــ ٦٣٨ ــ ٦٥٢ ــ ٦٦٦ ــ ٦٧٤ ــ ٦٧٩ ــ ٧٤٤ ــ ٧٥٤.

٣ ـ كما اعتمد الشهابي صيغة «مفعَل» و«مفعَال» للدلالة على الآلة التي يعالج بها الشيء، فصاغ أسماء عديدة لآلات وأدوات زراعية على صيغة «مِفعل» منها: مِذرق، مِجرس، مِجثم، مِطول، مِخلب، مِجرف، مِكشط، مِزحف[١].

كما وجدنا أسماء كثيرة على صيغة «مِفعال» مثل: مِكشاف، مِرضاخ، مِسبار، مِسواط، مِلفاف، مِقراص، مِنفاخ، مِعقار[٢].

٤ ـ استعمل صيغة «فعّالة»[٣] للدلالة على أسماء الآلة مثل: لفّافة[٤] وجزّارة دوّارة[٥] وقطّاعة الخضر[٦] وقلاعة[٧] وحرّاثة[٨] ودرّاسة[٩]. يتبين لنا خلال هذه الأمثلة أنّ الشهابي اعتمد الاشتقاق بوصفه خاصية لغوية ذات فاعلي في توليد الكثير من المصطلحات العلمية.

وفي دراسة قامة بها ممدوح خسارة على خمس (٠٥) عينات من مجموعات من المصطلحات التي وضعتها جهات عاملة في ميدان التعريب أنّ الاشتقاق الصرفي وحده يمد بنحو ٢٩ بالمائة من مجموع المصطلحات، وأن عدد المصطلحات الموضوعة بطريقة الاشتقاق الصرفي كان كالآتي:

ـ مصطلحات الالكترونيات: ١٠٥ من ٢٧٠.
ـ في مصطلحات إسالة المياه: ٣٠ من ١٨٠.
ـ في معجم مصطلحات علمية: ١٤٠ من ٣٥٤.
ـ في معجم التكنولوجية الكيميائية (حرف السين): ٦ من ٥٧.
ـ في معجم السكك الحديدية: ٣٣ من ٢٣٥[١].

---

(١) يراجع الصفحات التالية من المعجم: ١٤٣ ـ ١٧٥ ـ ٦١٦ ـ ٦٤٤ ـ ٦٤٥ ـ ٦٤٤ ـ ٦٦.
(٢) يراجع ص: ١٠٧ ـ ١٧٥ ـ ٦٧٨ ـ ٦٨٠ ـ ٧٩٩ ـ ٣٠٨ ـ ٤٣٣ ـ ٥٠٩ من المعجم.
(٣) صيغة فعّال في العربية من صيغ المبالغة، واستعملت أيضاً بمعنى النسب أو صاحب الحدث وعلى الأخص الحرف فقالوا نجّار وخبّاز ونسّاج، ومن أسلوب العرب إسناد الفعل إلى ما يلابس الفاعل زمانه أو مكانه أو آلته، فقالوا نهر جار ويوم صائم وليل ساهر وعيشة راضية يكون استعمال صيغة «فعّالة» اسماً للآلة استعمالاً عربياً صحيحاً مثل: «ثلاجة وغسّالة وسمّاعة». راجع كتاب: المجامع العربية وقضايا اللغة من النشأة إلى القرن العشرين، د. وفاء كامل فايد، عالم الكتب مصر، ٢٠٠٤.
(٤) وهو نحراج أسطواني. ص: ٦١٥.
(٥) آلة تستعمل لقطع العشب أو حش المروج. ص: ٦٢١.
(٦) فأس أو معول لقطع كتل من الخضر وترابه لتحضير مكان آخر بها. ص: ٧٥٤.
(٧) أو مقلعة، وهي آلة يقطع به الجزر والبنجر والبطاطا وأمثالها. ص: ٣١٩.
(٨) آلة تستعمل لسحق جزئيات التربة التحتية في الأعمال التي لا يصلها المحراث العادي. ص: ٣٢٢.
(٩) آلة الدارس الحيلي. ص: ٧٣٢.

ثانياً: النحت:

النحت هو طريقة من طرائق توليد الألفاظ، وهو قليل الاستعمال في اللغة العربية شائع في غيرها من اللغات، وقد استعمل حديثاً في توليد المصطلحات العلمية فعلى سبيل المثال: حيوان «برمائي» أي حيوان يعيش في البر والماء و«هند أوربي» نسبة إلى الهند وأوربا، وأفروأسيوي نسبة إلى إفريقيا وآسيا.

وإذا كان القدماء استعملوا النحت في حدود ضيقة، فإن مجمع اللغة العربية بالقاهرة أفتى بعدم اللجوء إليه إلا عند الضرورة خشية الوقوع في الإسراف والتعقيد، فأقره في العلوم والفنون عند الحاجة الملحة، وأجاز قياسه بشروط لا تضر اللغة، ووافق على نحت كلمات عند الضرورة العلمية ومن الكلمات المنحوتة التي أقرها مجمع اللغة العربية بالقاهرة:

ـ «حمقلي» «Amphoteric» صفة للمادة التي تعمل كحمض ضعيف أو قلوي ضعيف حسب الظروف منحوتة من حمض + قلوي.

ـ كلمة «شبزال» «Albuminoid» تدل على نوع من مواد تشبه الزلال، منحوتة من شبه + زلال[٢].

النحت صورة من الصوت التي استغلّها الشهابي في بناء بعض ألفاظ المعجم، ولكن اللجوء إليها كان قليلاً، فكانت في عدد محصور من الألفاظ، ومن الأمثلة التي ساقها في معجمه نذكر على سبيل المثال:

ـ شِبقِلي: منحوتة من شبه وقلي[٣].

ـ شِبْكَرْمة: منحوتة من شبه وكرمة: جنس نباتات معترشات من فصيلة الكرميات فيه أنواع تَصلح للتزيين يسمونها الكروم العذارى[٤].

ـ بَرْمَائي: منحوتة من بر وماء الذي يستطيع الحياة في الماء والهواء[٥].

ـ شِبْغروي: منحوتة من شبه وغروي: ذرات دقيقة من الطين إذا كثرت في التربة الزراعية تجعلها كثيرة الصلابة والاندماج[٦].

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق عدد خاص يتضمن القسم الأول من بحوث ندوة المعجم العربي، جمادى الأولى، ١٤٢٤، يوليو ٢٠٠٣م مقال للدكتور ممدوح محمد خسارة بعنوان: المعاجم اللغوية وأهميتها في وضع المصطلحات، معجم لسان العرب أنموذجاً، ص: ٧١٣.

(٢) ينظر مجلة مجمع اللغة العربي، مجموعة القرارات العلمية القاهرة، ١٩٦٣، ص: ٩.

(٣) المعجم ص: ١٩.

(٤) نفسه ص: ٢٥.

(٥) نفسه ص: ٢٦.

(٦) نفسه ص: ١٥٢.

ـ شبْفلزّ: منحوتة من: شبه وفلز: الجسم البسيط غير الفلزي وهو لا ينقل الحرارة والكهرباء إلا قليلاً[١].

ـ شبْجذر: منحوتة من شبه وجذر[٢].

ـ تحتُرْبَة: منحوتة من: تحت التربة وهي طبقة التراب التي تكون تحت التربة[٣].

هذه الأمثلة كلها منحوتة من كلمات عربية أصيلة تبرهن على أنّ النحت من الإمكانيات اللغوية التي تلجأ إليها عربيتنا عندما تريد الاختصار، وما دام اللفظ المنحوت قادراً على تحقيق الهدف منه، وهو الدلالة على ما نحت منه فهو لا شك أفضل من التركيب، إلا أنّه يعد اقتصاداً في النطق والكتابة، لكن على المستوى العملي يعد قليل الأهمية في مسيرة تكوين المصطلح العلمي، فقد قمت بفحص المصطلحات التي يحتوي عليها المعجم فلم أجد بينها إلا المصطلحات المنحوتة الواردة في الأمثلة المذكورة، وهذا الاستقصاء تؤيده الدراسة التي قام بها فريد عوض حيدر حين أحصى أكثر من أربعة آلاف (٤٠٠٠) مصطلح يحتوي عليها معجمان مجمعيان هما معجم النفط ومعجم الحاسبات فلم يجد بينهما إلا مصطلحاً واحداً منحوتاً هو كلمة: «رسمَلة»[٤].

ويؤيد هذا الطرح ما انتهى إليه أحد الدارسين من ندرة الألفاظ المنحوتة في أحد عشر ألف (١١٠٠٠) مصطلح صدرت عن مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي، حيث انتهى إلى أن تحتوي على لفظين منحوتين فقط[٥].

هذه النتائج المبنية على فحص مستقص تؤكد أنّ دور النحت في استيعاب مصطلحات العلم وألفاظ الحضارة في العصر الحديث محدود للغاية، ولكنها تبين مدى إسهامه في عملية بناء المصطلح العلمي.

ثالثاً: الترجمة:

الترجمة هي نقل المصطلح الأجنبي إلى اللغة العربي بمعناه لا بلفظه، فيتخير المترجم من الألفاظ العربية ما يقابل معنى المصطلح الأجنبي، ولكن الأكثر كان غلبة الترجمة المباشرة وقد نقل الشهابي الكثير من المصطلحات فتخير من الألفاظ العربية ما يقابل معنى المصطلح الأجنبي، ومن أمثلة ذلك:

---

(١) نفسه ص: ٤٥٨.

(٢) نفسه ص: ٦٠٩.

(٣) نفسه ص: ٧٠٤.

(٤) فصول في علم اللغة التطبيقي (علم المصطلح وعلم الأسلوب) د. فريد عوض حيدر، مكتبة الآداب القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م، ص: ٢٦.

(٥) النحت في اللغة العربية، د. محمد حسن عبد العزيز، دار الفكر العربي، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠، ص: ٧١.

١ــ أنّ كثيراً من أسماء النباتات الزراعية لم تكن معروفة لدى أسلافنا، ولم تذكر في كتبهم، فقام الشهابي بترجمتها من اليونانية أو اللاتينية إلى العربية فترجم على سبيل المثال:

ــ «Aerial root»: جذر هوائي ينشأ على فروع النبات وينمو الهواء قبل أن تبلغ الأرض[١].

ــ «Agriculture School System»: نظام تعليم زراعي، تعليم الزراعة في المدارس الزراعية وتكون ابتدائية أو مختصة بفرع من فروع الزراعة كمدارس الصناعات الزراعية والألبان والحراج وفلاحة البساتين[٢].

ــ «Agronomy»: علم الزراعة أو علم الفلاحة[٣].

ــ «Agronomist»: خبير زراعي[٤].

٢ ــ غير أنه لم يتبع ــ في ذكر أسماء الحشرات الزراعية التي جهلتها العرب ــ نفس الطريقة التي ابتعها في وضع أسماء النباتات التي جهلوها، فلم يرجع إلى أصول الأسماء العلمية لتلك الحشرات إلا في الندرة، فاعتمد طريقة سهلة يعرفها الزراعيون والفلاحون في البلاد العربية، وهي إضافة اسم الحشرة أو شكلها إلى اسم النبات أو اسم الحيوان الذي تَضرُّ به فقال:

ــ «دُودَة العنب» و«دُودَة الكَرْمة» و«دُودَة اللوز»، في بيان أنواع الدود الذي يفتك بالنبات[٥].

«بَرْغوث الإنسان» و«بَرْغوث الماء»و«بَرْغوث الكَرَنبط» و«بَرْغوث الكَرَم» و«بَرْغوث الكلامب» في بيان أنواع البرغوث[٦] وهكذا.

٣ ــ عادة ما يلجأ إلى استعمال النعوت وذلك كلّما كان للنبات الواحد حشرات عديدة تفتك به فقال:

ــ قمّل الحمضيات البنّي.
ــ قمّل الحمضيات المبطّط.
ــ قمّل الحمضيات الصدئي.
ــ قملة البقر الكبيرة.
ــ قملة الكلب الصغيرة.

---

(١) المعجم ص: ١١.
(٢) نفسه ص: ١٥.
(٣) نفسه: ١٦.
(٤) نفسه والصفحة نفسها.
(٥) يراجع صفحة: ٣١٠ ــ ٢ من المعجم.
(٦) نفسه ص: ٢٦٣.

ــ قملة الفرس الكبيرة[١].

٤ ــ لم يعرّب الشهابي الألفاظ العلمية الدّالة على الأنواع النباتية، لأنّ معظمها نعوت قابلة لأن تترجم باللغات الأوربية، فاستبعد تعريبها ونهج نهج الأوربيين في ترجمتها لأنه رأى أنّ اللغة العربية تتسع لذلك فترجم على سبيل المثال لا الحصر النوع المسمّى علمياً «Rosa Nitada» إلى الورد اللامع، و«Rosa Damascena» إلى الورد الدمشقي، «Rosa Phoenicia» إلى ورد فنيقي و«Rosa Indica» إلى ورد هندي أو صيني[٢].

وقد رأى الشهابي في تعريب هذه الألفاظ الدّالة على أنواع النباتية لا مسوّغ له، ومن الضروري الاتفاق مع القائلين باستعمال الأسماء العلمية إلى جانب الأسماء العربية في كتب التعليم العالي والكتب المتخصصة[٣].

٥ ــ عند ترجمة الصدر «a» أو «an» الذي يدل على معنى النفي، كان الشهابي يضع لا النافية مركبة مع الكلمة المطلوبة فقال في:

ــ لولب بلا نهاية: لا نهائي.

ــ غير عضوي: لا عضوي.

ــ غير متفصل: لا مفصلي.

ــ غير طفيلي: لا طفيلي[٤].

٦ ــ ترجم الشهابي الكاسعة «Oid» بكلمة «شبه» فقال في:

ــ «Alkaloid» «شبه قلي»: مواد عضوية آزوتية تكون قلوية وتمتزج بالحوامض فتولد أملاحاً[٥].

ــ «Metalloid» «شبه فلزّ» الجسم البسيط غير الفلزي وهو لا ينقل الحرارة والكهرباء إلا قليلاً وليس له لمعان الفلزات مثاله الفصفور واليوم والكربون والكبريت[٦].

ــ «Rhizoid» «شبه الجذر»: تكون في بعض النباتات الدنيا كالطحالب والسراخس[٧].

ــ «Calloid» «شبه غرويهاة»: ذرّات دقيقة من الطين إذا كثرت في التربة الزراعية تجعلها كثيرة الصلابة والاندماج[٨].

---

(١) ينظر المعجم: ص ١٣٨ ــ ١٣٩ ــ ٣٣٦.

(٢) نفسه ص: ٦١٧ ــ ٦١٨.

(٣) نفسه ص: ٩٠٤.

(٤) يراجع صفحة: ٢٢٦ ــ ٣٧٢ ــ ٣٦٥ ــ ٤٩٤ من المعجم.

(٥) نفسه ص: ١٩.

(٦) نفسه ص: ٤٥٨.

(٧) نفسه ص: ٦٠٩.

(٨) نفسه ص: ١٥٢.

٧ ـ كما ترجم الصدر «Hyper» بكلمة «فرْط» والصدر «Hypo» بكلمة «هَبْط» أو «تَحْت» فقال في: «Hypertrophy» فرط النمو في عضو فيزداد وزنه وحجمه فوق المعتاد. وفي «Hypocotyl» سويقة جَنينيّة تحت فلقية، وفي «Hypogynous» سفلي تحت المبيض وفي «Hypotricha» تحتيات الهُدب[١].

رابعاً: التعريب:

التعريب في علم المصطلح هو نقل اللفظ الأجنبي إلى اللغة العربية دون تغيير، ويسمى لفظاً دخيلاً أو مع تغييرات معينة ينسجم مع النظامين الصوتي والصرفي للغة العربية ويسمى اللفظ في هذه الحالة معرباً[٢].

ولما كان التعريب ضرورة يثري اللغة العربية في مصطلحاتها ويوسّع معجمها، ويحل الكثير من المشكلات التي تعترض سبيل تعريب العلوم والفنون والمعارف والتقنيات المختلفة، فقد أجاز مجمع اللغة العربية في القاهرة تعريب الألفاظ العلمية والتقنية والحضارية.

ونظراً للحاجة التي تولدت عن كثرة المفاهيم الوافدة، وضرورة سد العجز الحاصل في المصطلحات العربية، فإن الأمر يقتضي استثمار ما تمتلكه العربية من طاقات قادرة على سدّ الفراغ، ويكفي أن نتتبع المصطلحات الواردة في معجم الألفاظ الزراعية، لنرى أنّ الشهابي اعتمد منهج التعريب ــ بوصفه أحد وسائل نمو اللغة العربية، وإثرائها بمفردات جديدة ــ حيث استعار مصطلحات أجنبية من لغات مختلفة نذكر على سبيل المثال:

(قاقاليا: Cacalia)، (كاكاو: Cacao)، (كابيا: Capia)، (سافانا: Savana)، (غلوكوز: Glucose)، (ميموزا: Mimosa)، (مندرينة: Mandarine)، (آلوسين: Alyssum)، (آرونية: Aronia)، (تونا: Toon)، (زينوبيا: Zenobia).

مصادر ومراجع البحث:

١ ــ التطورات المعجمية والمعجمات اللغوية العامة العربية الحديثة، د. صافية زفنكي، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٧.

٢ ــ دراسات في فقه اللغة، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط١٠، ١٩٨٣.

٣ ــ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها أحمد ابن فارس، تحقيق عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٤هـ ــ ١٩٩٣م.

---

(١) نفسه ص: ٣٦٠.

(٢) مقدمة في علم المصطلح، علي القاسمي، دار الشؤون القانونية والنشر، بغداد، ١٩٨٥، ص: ١٠٠.

٤ ـ عبقريات وأعلام عبد الغني العطري دار البشائر ـ دمشق سوريا ١٩٩٦.

٥ ـ فصول في علم اللغة التطبيقي (علم المصطلح وعلم الأسلوب) د. فريد عوض حيدر، مكتبة الآداب القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

٦ ـ كلام العرب، حسن ظاظا، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦.

٧ ـ المجامع العربية وقضايا اللغة من النشأة إلى القرن العشرين، د. وفاء كامل فايد، عالم الكتب مصر، ٢٠٠٤.

٨ ـ مسائل في المعجم، إبراهيم بن مراد دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط ١٩٩٧.

٩ ـ معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية، د. أحمد شفيق، مكتبة لبنان.

١٠ ـ المعجم العربي بين النظرية والتطبيق، د. عبد الله ربيع محمود، ١٩٩٦.

١١ ـ المعجم العلمي العربي المختص حتى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، د. إبراهيم بن مراد، دار الغرب الإسلامين بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣.

١٢ ـ مقدمة في علم المصطلح، علي القاسمي، دار الشؤون القانونية والنشر، بغداد، ١٩٨٥.

١٣ ـ مقدمة لدراسة التراث المعجمي، د. حلمي خليل، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٩.

١٤ ـ الموسوعة العربية، الشهابي مصطفى، إعداد خير الله الشريف، المجلد الحادي عشر، الجمهورية العربية السورية.

١٥ ـ النحت في اللغة العربية، د. محمد حسن عبد العزيز، دار الفكر العربي، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠.

١٦ ـ مجلة مجمع اللغة العربية، مجموعة القرارات العلمية القاهرة، ١٩٦٣.

١٧ ـ مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا المجلد الخامس والسبعون، الجزء الرابع، رجب ١٤٢١هـ ـ أكتوبر ٢٠٠٠.

١٨ ـ مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق عدد خاص يتضمن القسم الأول من بحوث ندوة المعجم العربي، جمادى الأولى، ١٤٢٤، يوليو ٢٠٠٣م.

١٩ ـ مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، المجلد الثامن والسبعون، الجزء الرابع، شعبان ١٤٣٤هـ، أكتوبر ٢٠٠٣م.

مخالَفَةُ القياسِ العَرُوضيّ في شِعْرِ الأعشَى

د. مُحَمَّد شَفيق البَيْطار

تمهيد:

هذا مقال ثالثٌ يتناول أحد فروع مخالفة القياس في شعر الأعشى، فقد سبقه مقالان عن مخالفة القياس اللّغوي في شعره، ثمّ عن مخالفة القياس النحويّ، ووعدت بأن يتناول هذا المقال الأخير مخالفة القياس العروضيّ؛ وتحدّثت في تمهيد المقال الأوّل عن القياس ومخالفته، وعن الأعشى، فأغنى ذلك عن التكرير هنا.

مخالَفَةُ القيّاسِ العَرُوضيّ في شعر الأعشى:

مما لاشكّ فيه أنّ الأعشى كان أكثر شعراء الجاهليّة تفنُّناً في أعاريض الشّعر، بل ربّما كان أكثر الشعراء قبل الإسلام وبعده تفنناً في ذلك، حتى إنّ مَنْ قدّمه على شعراء الجاهليّة جعل كثرة أعاريضه سبباً من أسباب تقديمه، فقد وضعه ابن سلاّم في الطبقة الأولى من طبقات الجاهليّة[1]، ثمّ قال: «وقال أصحاب الأعشى: هو أكثرهم عَرُوضاً، وأذهبُهم في فنون الشّعر..» [2].

(١) طبقات فحول الشعراء (٥٢).

(٢) المصدر نفسه (٦٥).

وكان أبو عمرو بن العلاء يعظّمه بين الشّعراء لكثرة أعاريضه وافتنانه[١]، وقد كاد يستوفي في شعره بحور الشعر الستّة عشر، إذ نظم شعره على عشرة بحور منها، وعلى مجزوءات الكامل والبسيط والوافر؛ وإذا كان البحر (السّريع) قليلاً في الشعر الجاهلي[٢] فإنّ في ديوان الأعشى قصيدتين طويلتين تقع الأولى في ستين بيتاً والثانية في ثلاثة وأربعين بيتاً. ولا يطمع شاعر في الوصول إلى هذه الغزارة والتنوّع العَرُوضيّ الّتي وصل إليها الأعشى إلاّ أنْ يتكلّف ذلك تكلّفاً، بَلْـهَ أن يستقصي في شعره البحور ومجزوءاتها ومشطوراتها ومنهوكاتها، فهذا ممّا لا مَطْمَعَ لشاعر أيّاً كان فيه.

وهذه الغزارة في موسيقى شعر الأعشى تنبئ عن قريحة شعريّة وملَكةٍ موسيقيّة مهذّبَتَيْنِ قويّتَيْن، ولهذا لا نجد في شعره كلّه أيّ خلل عروضيّ من حيث الوزن، غيرَ أنّ في شعره بعضَ الأمور الّتي يَعُدّها علماء العروض عيوباً، فربّما وجدنا فيه إقواء وإيطاءً، أو سِناد توجيهٍ أو سِنادَ إشباعٍ أو تضميناً.

فالإقواء – وهو اختلاف حركة الرّوي في قصيدة واحدة[٣] – نجده في قوله[٤]:

رَحَلَتْ سُمَيَّةُ غُدْوةً أجمالَهـا ... غَضْبَى عليكَ فما تقولُ بَدا لَها؟

هذا النهارُ بَدا لَها مِنْ هَمِّهَا ... ما بالُها باللّيلِ زالَ زوالُهَا!

سَفَهاً، وما تَدْري سُمَيَّةُ وَيْحَها ... أنْ رُبَّ غانيةٍ صَرَمْتُ وِصالَها

فضمُّ حرفَ الرّوي في قوله (زوالُها) – وكذا ضبطهُ المحقّق – وكان أبو عمرو بن العلاء يرويه بالضمّ، يقول: «أقوى الأعشى»[٥]؛ أمّا ابن سلاّم فقد قال عن طبقة الأعشى، وهي الأولى: «ولم يُقْوِ من هذه الطبقةِ ولا مِنْ أشباهِهِمْ إلاّ النابغةُ»[٦]. وقد نَقَلَ ابن جنّي نقل عن أبي عليّ الفارسي وأبي عثمان المازني وأبي العبّاس ثعلب روايةَ هذا البيت بالنّصبِ على حذفِ الفاعل، والتقديرُ عندهم: زالَ اللهُ زوالَهَا[٧]، ولا إقواءَ حينئذ، ولكنْ ماذَهَبُوا إليه لايعْدُو أن يكونَ تسويغاً وتهرّباً من وقوعِ الإقواء في شعرِ الأعشى، فإنّ عبارة «زالَ زَوالُهُ» واحدةٌ مِنْ أدْعيةِ العَرَبِ الثابتة عنهم، وهي مضمومةُ اللاّم في (زوالُه)، ومثلُها «زِيلَ زَوِيلُه» وكلاهما دعاءٌ بالموت[٨].

---

(١) المعلقات العشر (٤٢).

(٢) يُلاحظُ أنّه لم يرد على البحر السّريع شيءٌ من شعر زهير والنابغة وعنترة، ورُوِيَتْ لطرفة ثلاثة أبيات عليه، ولعلقمة الفحل خمسةٌ، ولامرئ القيس مقطوعتان قصيرتان؛ انظر مقدّمة الدكتور محمد محمد حسين لديوان الأعشى (١٨٨).

(٣) الوافي (٢٣٩).

(٤) الديوان (٧٧).

(٥) المنصف لكتاب التصريف (٢: ٢١).

(٦) طبقات فحول الشعراء (٦٧).

(٧) المنصف لكتاب التصريف (٢: ٢١- ٢٢)، انظر ما سبق، فقد أوردتُ نصَّ ابن جنّي.

(٨) انظر: أمالي القالي (الذّيل): (٣: ٥٧)

ولكنّ الإقواءَ جاءَ واضحاً في أرجوزةٍ من عشرة أبياتٍ، جاءت أبياتها السّبعة الأولى مضمومة الـرويّ، وأبياتُها الثلاثة الأخيرة مكسورة، وهذان بيتانِ من أولها[1]:

لا فَــــشَلٌ فــــيّ ولا سِــــقاطُ لــــيسَ أوانَ يُكْــــرَهُ الخِــــلاَطُ

ثم قالَ في آخرها:

لَقَــدْ مُنُــوا بتَيِّحــانٍ ســاطِي ثَبْــتٍ إذا قيــلَ لَــهُ يُعــاطِي

أخْرَجَ حُضْراً غَيْرَ ذي نِياطِ

ولعلّ مَنْ ذكَرَ من العلماء أنه لم يَقْوِ من شعراء الطبقة الأولى إلا النابغة لم يتنبه على هذه الأرجوزة.

والإيطاء عيبٌ آخر من عيوب الشعر وهو عند الأخفش : «ردّ كلمة قُفّيَ بها مرةً، نحـو قافيـةٍ علـى (رَجُلٍ) وأُخرى على (رَجُلٍ) في قصيدة، فهذا عيب عند العرب لا يختلفون فيه... فإذا قَفّيْتَ بلفظٍ في بيتـين معناهما مختلفٌ نحو.. (رَجُلٍ) و (رَجُلٍ) إذا كان أَحَدُهما علَماً (كزيد)، لم يكن إيطاء، لأن العَلَم ليس كغيـره من الأسماء»[2]، فجعلَ الإيطاءَ تكرارَ قافيةٍ في قصيدة، أيّاً كانَ طولُها، وقال في أثناء ذلـك: [3]«وإذا كثُـرَ الإيطاءُ كانَ أعيَبَ عندَهم، وإن طالت القصيدةُ وتَباعَدَ مابينَ الإيطاءَينِ كان أحسَنَ»، ولم يحدّد ذلكَ التّباعُد، ويكاد يكونُ مُجمعاً عليه أنْ يكونَ الفاصل بينَ الإيطاءَين سبعة أبيات حتى يكونَ سائغاً.

فمنه في شعر الأعشى ما أنشده المرزبانيّ[4] شاهداً على الإيطاء في شعره، وهو قوله[5]:

وَدِّعْ هُريــرةَ إنّ الركْــبَ مُرتحِــلُ وهــلْ تُطيــقُ وَداعــاً أيّهــا الرَّجُــلُ

ثم قال:

قالَــتْ هريــرةُ لمّــا جئْــتُ زائرَهَــا: وَيْلــي عليــكَ ووَيْلــي منْــكَ يــا رَجُــلُ

على أنّ هذا لا يُعَدُّ عند التبريزيّ إيطاء، فقد حدَّهُ بقولِه: هو «أن تتكرّر القافية في قصيدة احدة بمعنـىً واحد، كالرُّجُلِ والرَّجُلِ؛ فإن كان لمعنَيَيْنِ لم يَكُنْ إيطاء، نحو (رجل) نكرةً، و (الرَّجُل) معرفةً...»[6] وأظن أنّه نظر في حَدّ الأخفش للإيطاء، ولكنه لم يتثَبَّتْ مُرادَ الأخفش، إذ مُرادُه العَلَمِيَّةُ في أحَدِهما، والتنكيرُ فـي الآخَرِ؛ فذهب التبريزيّ إلى: التعريفِ في أحدِهما، والتنكيرِ في الآخرِ.

وعلى كلٍّ نجدُ في القصيدة نفسها بيتاً آخَرَ يؤكّدُ وجودَ الإيطاءِ فيها، هو قوله[7]:

---

(١) الديوان (٣١٧).

(٢) القوافي (٦١- ٦٢، ٦٤).

(٣) القوافي (٦٣).

(٤) الموشّح (٧٦).

(٥) الديوان (١٠٥- ١٠٦).

(٦) الوافي (٢٤٣).

(٧) الديوان (١٠٧).

عُلِّقْتُهَا عَرَضاً وعُلِّقَتْ رَجُلاً ... غَيْرِي، وعُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ

فكرَّرَ لفظَ (الرّجل) في قافية البيت الأوّل وفي قافية هذا البيت.

وفي قصيدةٍ أخرى نجدُه يقول في البيت الخامس منها[1]:

قليلاً فَثَمَّ زَجَرْتُ الصِّبَا ... وعادَ عَلَيَّ عَزَائِي وَصَارا

أي: سَكَنَ، ثم يقول في البيت الثلاثين:

فإنَّكِ طالبةٌ شَأْوَهُ ... وإنَّكِ صائرةٌ حيثُ صارا

ويقولُ في البيت الثاني والستين:

وما أَيْبُلِيٌّ على هَيْكَلٍ ... بَنَاهُ وصَلَّبَ فيه وَصَارَا

أي: سكَن، فذكَرَ لفظَ (صار) ثلاث مرّات، الأولى والثالثة بمعنًى واحد، والثانية بمعنًى آخر، وقد ذكر الأخفش أنّ الخليل كان يرى اتّفاق اللّفظ واختلاف المعنى إيطاء[2]، ثم عاد فنقض ذلك وقال: «وزعموا أنّ الخليل كان يجعل ماكان لفظه واحداً واختلف معناه إيطاء، هذا مُنْكَرٌ، وقد قال هو بخلافه، لأنَّهُ قد جوّزَ (ذَهَبَ) إذا أُريد به الفعل مع (ذَهَب) إذا عُنِي به الاسم»[3]، فإن كانَ ماذكره الأخفش نقلاً عن الخليل أوّلاً صحيحاً فإنَّ اختلاف المعنى بين (صار) أيْ: سَكَنَ و (صار) من الصَّيْرُورة لا يمنَعُ أن يكون ذلك إيطاء، لاتّفاق اللّفظ.

وقد كرّر الأعشى في القصيدة ذاتها لفظ (ابتكارا) مرّتين، فقال في البيت الأوّل[4]:

أأزمَعْتَ مِنْ آلِ ليلى ابتكارا ... .

ثم قال في البيت الثاني عشر:

وذاتِ نَوافِ كلَوْنِ الفُصو ... .صِ باكَرْتُهَا فادَّمَجْتُ ابْتِكارا

وكرَّرَ لفظَ الـ (إزار) مرّتين، معرّفاً مرّة، ومنكّراً مرّة، فقال في البيت الرابع عشر[5]:

يُعاصي العَواذلَ طَلْقُ اليَدَيْنِ ... يُرَوِّي العُفَاةَ ويُرْخِي الإزارا

ثمّ قال في البيت الحادي والأربعين:

فيا رُبَّ ناعيةٍ منهمُ ... تَشُدُّ اللِّفَاقَ عليها إزارا

وكرَّر فيها لفظ الـ (ديار) مرّتين، مرّةً معرّفاً، ومرّةً منكَّراً، فقال في البيت التّاسع والثّلاثين[1]:

---

(١) الديوان (٩٥، ٩٩، ١٠٣).
(٢) القوافي (٦٢).
(٣) القوافي (٦٨).
(٤) الديوان (٩٥).
(٥) الديوان (٩٥، ٩٩).

فأقْلَلْتُ قوماً وأعمَرتُهُمْ وأَخْرَبْتُ مِنْ أرضِ قومٍ ديارا

ثمّ قال في الخامس والخمسين:

وما رائحٌ رَوَّحَتْهُ الجَنوبُ يُرَوّي الزُّروعَ ويَعلو الدِّيارا

وكرّر فيها لفظ (الجفار) مرتين، مرّة أرادَ به موضعاً قُربَ البصرة، فقال في البيت السابع[٢]:

وإنّ أخاكِ الّذي تَعلَمينَ لَيَالِيَنا إذ نَحُلُّ الجِفَارا

ومرةً أراد به (الآبار) جمع جَفْر، وهي البئرُ المتّسعة غير البعيدةِ القَعْر، فقال في البيت السّادس والأربعين:

كطَوفِ الغريبةِ وَسْطَ الحِياضِ تَخافُ الرَّدَى وتُريدُ الجِفارا

وكرّر في القصيدة نفسها لفظ الـ (نار) مرتين في قافيتي البيتين التّاسع والعشرين والسّابع والستّين[٣]، ولفظ الـ (قصار) مرّتين في البيتين الرّابع والعشرين والسادس والستّين[٤].

فهذه سبعة أمثلة على الإيطاء في قصيدة واحدة، وهذا ممّا يجعل الأمر عندهم أعيبَ، لولا أنّ القصيدة طويلة، إذ تقع في سبعين بيتاً، وقد تباعد مابين كلّ بيتين من أبيات الأمثلة.

ومن أمثلة الإيطاء قولُه في البيت الرابع عشر من قصيدة[٥]:

وقوفاً وراءَ الطّعنِ والخَيلُ تحتَهُمْ تُشَدُّ على أكتافِهنّ القَوادِمُ

وقولُه في البيت السادس والعشرين:

أفي كلِّ عامٍ تَقتُلونَ ونَتّدي فتلكَ التي تَبْيَضُّ منها القوادِمُ

ومثلُه قولُه في القصيدة نفسها في البيت الخامس والعشرين[٦]:

أبا ثابتٍ لا تَعلَقَنْكَ رِماحُنا أبا ثابتٍ أقْصِرْ وعِرْضُكَ سالِمُ

وقولُه في البيت التّاسع والعشرين:

أتأمُرُ سَيّاراً بقَتْلِ سَراتِنا وتَزْعُمُ بعدَ القَتلِ أنّكَ سالِمُ

وللإيطاءِ أمثلةٌ أُخرى في شعرِه، يكفي ما سبَقَ للدّلالة على كثرتِه؛ على أنّ غَزارة شعره وطول القصائد التي جاءَ فيها ممّا يُخفّف من ذلك العَيب.

---

(١) الديوان (٩٩، ١٠١).

(٢) الديوان (٩٥، ١٠١)

(٣) الديوان (٩٧، ١٠٣).

(٤) الديوان (٩٧، ١٠٣).

(٥) الديوان (١٢٧، ١٢٩).

(٦) الديوان (١٢٩، ١٣١).

وأما سِنادُ التَّوجيه فكثيرٌ في شعره، وهو: «أن يكونَ قَبلَ حرفِ الرَّويِّ المُقَيَّدِ [السَّاكن] فَتْحَةٌ معَ ضَمَّةٍ أو كسرةٍ، فإن كانت الضمّةُ معَ الكسرة لم يكُنْ سِناداً، وإن جاءتِ الفتحةُ مع إحداهما فهوَ سِنادٌ عند الخليل، وكان سعيدُ بنُ مَسْعَدة [الأخفش] لا يَراهُ سِناداً لكثرته في أشعارِ العَرَب»[1]، وقال صاحبُ (نضرة الأغريض): «والمعوَّلُ على ما قالَهُ الخليلُ لا غير»[2]، وذهب ابنُ جنّي إلى أنّ استقباحَهُمُ التَّوجيهَ إنّما جاءَ من سبيلِ أنّهم لم يَعتَدُّوا السكونَ في الرَّويِّ، فصار كأنَّ الاختلافَ الواقعَ في حركاتِ ما قبلَ الرَّويِّ واقعٌ على الرويّ[3].

وممّا ورد في ديوان الأعشى مِنْ سنادِ التوجيهِ قولُه في قصيدة مطلعُها[4]:

أتَهْجُرُ غانيةً أمْ تُلِمْ ... أمِ الحبلُ واهٍ بها منجَذِمْ

قال:

وصهباءَ طافَ يهوديُّها ... وأبرزَهَا وعليها خُتُمْ

وقابَلَها الرّيحُ في دَنِّها ... وصلّى على دَنِّها وارْتَسَمْ

ثم قال:

قطعتُ برسّامةٍ جَسرَةٍ ... عُذافِرَةٍ كالفَنيقِ القَطِمْ

غضوبٍ منَ السَّوْطِ زَيَّافَةٍ ... إذا ما ارتَدى بالسَّرابِ الأكَمْ

كَتُومِ الرُّغاءِ إذا هَجَّرَتْ ... وكانَتْ بَقيَّةَ ذَوْدٍ كُتُمْ

ثم قال:

وإنَّ غزاتَكَ مِنْ حَضْرَمَوْتَ ... أتَتْني ودُوني الصَّفا والرُّجُمْ

مَقادَكَ بالخَيْلِ أرضَ العدوِّ ... وجُذعانُها كَلَفيظِ العَجَمْ

وجَيْشُهُمُ ينظرون الصّبا.. ..حَ فاليومَ مِنْ غَزوةٍ لم تَخِمْ

والقصيدةُ طويلةٌ تقع في (٧٢) اثنين وسبعين بيتاً يَغلِبُ على الحرفِ السابقِ لحرفِ الرَّويِّ فيها الكَسْرُ، ولكنَّه كثيراً ما يأتي بالحروفِ المضمومةِ والمفتوحةِ والمكسورة وبَعْضُها خَلْفَ بعضٍ.

ومثلُه قولُه في قصيدةٍ مقيَّدةٍ يغلِبُ على الحرفِ السابقِ لحرفِ الرَّويِّ فيها الفَتْحُ[5]:

---

(١) للوافي (٢٤٦)، وكلامُ الأخفشِ في القوافي (٥٩- ٦٠).

(٢) نضرة الإغريض (٢٥١).

(٣) المنصف لكتاب التصريف (٢: ٢-٣).

(٤) الديوان (٨٥- ٨٧).

(٥) الديوان (٦٧).

وبَيْــــداءَ قَفْـــرٍ كَبُـــرْدِ الــــسَّدِيرِ مَــــشَارِبُها داثــــراتٌ أُجُـــنْ
قطعْــــتُ إذا خـــــبَّ رَيْعانُهَـــا بِدَوْسَـــرَةٍ جَــسْرَةٍ كالفَـــدَنْ

وقولُهُ فيها[1]:

فــــإنْ يَتْبَعُـــوا أمْـــرَهُ يَرْشُـــدُوا وإنْ يَـــسْأَلُوا مالَـــهُ لا يَـــضِنْ
وإنْ يُستَــــضَافُوا إلــــى حُكْمِـــهِ يُـــضَافُوا إلـــى هـــادِنٍ قـــد رَزَنْ

في القصيدة غيرُ هذَيْنِ المثالين.

ومثلُه قولُه في أرجوزةٍ يغلبُ الفتحُ على ما قبلَ رَوِيِّها[2]:

وزاحِـــمَ الأعـــداءَ بالثَّبْــتِ الغَـــدَرْ كُـــونَنْ كَـــسَمٍّ نـــاقعٍ فيـــه الـــصَّبِرْ
وأَرْجُـمْ إذا مـا ضَـيَّعَ النـاسُ الـدُّبُرْ

وعلى الإجمال نجدُ في ديوان الأعشى ستَّ قصائدَ مقيَّدةٍ، لم تَخْلُ منها إلاّ واحدةٌ من سِنادِ التوجيه، وهي قصيدتُه التي مطلعُها[3]:

مـــا تَعِيـــفُ اليـــومَ فـــي الطَّيْـــرِ الــرَّوَحْ مِـــنْ غُـــرابِ البَـــيْنِ أو تَـــيسٍ بَـــرَحْ

وأمَّا سِنادُ الإشباع فوجدتُه في قصيدةٍ واحدةٍ، والإشباعُ هو حركةُ الحرفِ الدَّخيلِ الذي يقع بين ألف يلتزمها الشّاعرُ تسمى (ألف التأسيس) وحرف الرَّوي، مثل: (الأصابع) و (الدّوافع)،فإذا اختلفت حركةُ الدَّخيلِ كانَ عيباً عندَ الأخفش، والخليل لا يرى بهِ بأساً، وهناك من يجيز اجتماع الضمّ والكسر، ولا يجيز الفتح مع أحدهما[4].

والقصيدة التي وَرَد فيها سناد الإشباع مطلعُها[5]:

هـــل أنـــتَ يـــا مـــصَلاتُ مُبْـــ... ...ـــتكِرٌ غـــداةَ غَـــدٍ فراحِـــلْ

وقد جاء الدّخيل فيها جميعاً مكسوراً، ماعدا قوله:

ولقـــد شـــربتُ الخَمْـــرَ تَـــرْ... ..كُـــضُ حَوْلَنَـــا تُـــرْكٌ وكابُـــلْ

وهذا عيبٌ عندَ الأخفش.

---

(1) الديوان (٦٩).
(2) الديوان (٣١٩).
(3) الديوان (٢٨٧).
(4) انظر القوافي للأخفش (٣٨)، والوافي في العروض والقوافي (٢٣٣، ٢٤٦) والشافي في علم القوافي (٩٥).
(5) الديوان (٣٩٧).

والتّضمينُ كثيرٌ في شعره، وهو: «أن تتعلّقَ قافيةُ البيتِ الأولِ بالبيتِ الثّاني »[1]، وعدّهُ التبريزيُّ عَيْباً، وأمّا الأخفش فقد قال: « وفي الشّعرِ التّضمينُ، وليسَ بعيب، وإن كان غيرُهُ أحسنَ منه»[2]، وذكر ابن جنّي فيما نَقَلَ عنه ابنُ منظور ماقاله الأخفشُ وقال: إنه مَذهَبٌ تَراهُ العَرَبُ وتَستَجيزُهُ، ولم يَعُدَّ فيه مذهبَهُمْ من وجهَيْن: السّماع، لكثرةِ ما يَرِدُ عنهم منَ التّضمينِ، والقياس، لأنَّ العربَ وضعَتِ الشِّعْرَ وَضْعاً يَدُلُّ على جَوازِ التّضمينِ عندَهم، واستَشْهَدَ على ذلك، ثُمَّ قال: «هذا وَجْهُ القياسِ في حُسْنِ التّضمين، إلاّ أنَّ بإزائه شيئاً آخرَ يَقْبُحُ التّضمينُ لأجلِه، وهُوَ أنَّ أبا الحَسَنِ [الأخفش] وغيرَهُ قد قالوا: إنَّ كلَّ بيتٍ منَ القصيدةِ شعرٌ قائمٌ بنفسه، فمِنْ هُنا قَبُحَ التضمينُ شيئاً... وإذا كانتِ الحالُ على هذا فكلّما ازدادَتْ حاجةُ البيتِ الأولِ إلى الثّاني واتّصلَ بهِ اتّصالاً شَديداً كان أقبَحَ...» [3].

وفي شعرِ الأعشى شواهد كثيرة من هذا التّضمين الذي أشار ابنُ جنّي إلى قُبْحِه، وهو الّذي يحتاج فيه البيتُ السابقُ إلى البيتِ التّالي حاجةً شديدةً، فمن ذلك قوله[4]:

فللّهِ عَيْنا مَنْ رأى مِنْ عِصابةٍ ... أشَدَّ على أيدي السُّعاةِ مِنَ الّتي

أتَتْهُمْ منَ البطحاءِ يَبْرُقُ بَيْضُها ... وقد رُفِعَتْ راياتُها فاستقلَّتِ

فضمَّنَ بالموصولِ، وهوَ «أقبحُ الأشياءِ، لأنّه يفصِلُ بينَ الصّلةِ والمَوصولِ وهُما كالشيءِ الواحدِ»[5]، كما ذكر شارحُه.

ومنه قولُه[6]:

بِما قد تَرَبَّعَ روضَ القَطا ... وروضَ التّناضُبِ حتّى تَصيرا

كبرديّةِ الغِيلِ وَسْطَ الغَريفِ ... إذا خالطَ الماءُ منها السُّرورا

فجاء بخبرِ (تَصير) في أوّلِ البيتِ التالي وهوَ (كبرديّة).

ومنه قوله[7]:

وتَرى لهُ ضُرّاً على أعدائِهِ ... وتَرى لِنعمتِهِ على مَنْ نالَها

أثَراً مِنَ الخيرِ المُزَيِّنِ أهلَهُ ... كالغَيْثِ صابَ ببلدةٍ فأسالَها

---

(١) الوافي (٢٤٨)، وليس المُراد بالأوّل والثاني ترتيبهما في أبيات القصيدة، وإنما المُرادُ البيتانِ المُتَوالِيانِ أيّاً كان ترتيبُهما.

(٢) القوافي (٧٠).

(٣) اللسان: (ضمن).

(٤) الديوان (٣٠٩).

(٥) الديوان (٣٠٩).

(٦) الديوان (١٤٣).

(٧) الديوان (١٤٣).

فجَعَلَ المفعولَ به (أثراً) في أولِ البيتِ التالي، وفعلَهُ هُوَ (ترى) في الشطر الثاني من البيت الأول.

وللتّضمين أمثلة أخرى في شعر الأعشى، ولكن معظم تلك الأمثلة ممّا يمكننا عَدُّهُ مزيّةً في شعره، إذ يجعل قصائده متماسكةً تتساوقُ أبياتها، ويربطُ بعضَها ببعضٍ ربطاً مُحكَماً يتعذّرُ مَعَهُ نقلُ الأبياتِ عن مواضعِها[1].

وهذا الذي نجدُه في شعر الأعشى ممّا يُعَدُّ عيوباً عروضيّة كان على الأغلب بسبب سعيِهِ إلى إطالةِ قصائدِه، وسعيُه هذا كان يخفّف من حدّة بعضِ هذه العيوب كالإيطاء، ولكنّهُ كان سبباً في كثيرٍ من التّضمينِ في شعره، فهو لم يكن يبالي إنْ لم يتمَّ المعنى في بيتٍ واحد، إذ كان يُتمُّه في الّذي يَليه، وربّما كان هذا هو السببَ الأول فيما قالَهُ ابنُ سلاّم من أنّه لم يكُنْ لَهُ بيت نادرٌ على أفواهِ النّاسِ كأبياتِ أصحابِه من شعراءِ الطّبقةِ الأولى[2].

فهذا آخر فروعِ مخالفةِ القياس الثّلاثة في شعر الأعشى، ويتّضح من استقرائها أنّه ما كان ليخرجَ عمّا سنّتْهُ العربُ في لغتها وتركيبها وموسيقاها الشّعرية لولا اضطرارُه إلى ذلك، فكان إذا ما لانَتْ له عريكةُ اللّغة والتركيبِ في سعيِه إلى تشكيلها ضمنَ الطّرازِ الموسيقيِّ الذي ارتضاهُ العربُ لأنفسهم فما هُوَ إلاّ أن يسيرَ على سُنّتِهم فيه، فأمّا إنِ عصَتْهُ واستصعبَتْ أيٌّ منها عليهِ أعَدَّ لَهَا ثِقافاً وطَرِيدَةً يُقَوّمانِها بحَسَبِ ما يقتضيهِ الطّرازُ الموسيقيُّ، حتّى تنقادَ لِفَنّه العظيمِ الذي هَمُّهُ صِناعةُ القصيدة، فكان كما قال الشّمّاخ في وَصْفِ القوّاسِ في قصيدته المشهورة:

فما زالَ يَنْجُو كُلَّ رَطْبٍ ويابِسٍ ... ويَنْغَلُّ حَتَّى نالَها وَهْوَ بارِزُ

(1) انظر مقدمة محقق ديوان الأعشى (٤٤).

(2) طبقات فحول الشعراء (٦٥).

المصادر

١- **الأمالي**: لأبي عليّ إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي (٣٥٦هـ). بعناية: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الآفاق الجديدة (مصورة عن طبعة المطبعة الأميرية بدار الكتب)، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٢- **ديوان الأعشى الكبير**: تحقيق: د. محمّد محمّد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة ٧، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٣- **الشافي في علم القوافي**: لأبي القاسم علي بن جعفر السعدّي المعروف بابن القطّاع الصقلي (٥١٥هـ)، تحقيق:د. صالح بن حسين العايد، دار إشبيليا، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

٤- **طبقات فحول الشعراء**: لمحمد بن سلاّم الجمحيّ (٢٣١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

٥- **القاموس المحيط**: للفيروزابادي، محمد بن يعقوب (٨١٦هـ)، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٦- **القوافي**: للأخفش، أبي الحسن سعيد بن مسعدة (٢١٥هـ)، تحقيق: أحمد راتب النفّاخ، مطابع دار العلم، بيروت، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

٧- **لسان العرب** : لابن منظور .

٨- **المعلقات العشر**: لأحمد الأمين الشنقيطي (؟)، دار الكتاب العربي، حلب، ١٩٨٣م.

٩- **المعيار في أوزان الأشعار**: لأبي بكر محمد بن عبد الملك السرّاج الشّنتريني الأندلسيّ (٥٥٠هـ)، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار الملاّح، دمشق، ١٤٠٠هـ.

١٠- **المنصف لكتاب التصريف**: لابن جنّي (٣٩٢هـ)، تحقيق: إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م.

١١- **الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء**: سمزرباني، أبي عبيد الله محمّد ابن عمران (٣٨٤هـ)، تحقيق: علي محمّد البجاوي، دار نهضة مصر، ١٩٦٥م.

١٢- **نضرة الإغريض في نصرة الإقريض**: للمظفر بن العلويّ (٦٥٦هـ)، تحقيق: الدكتورة نهى عارف الحسن، مطبعة طربين، دمشق، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

الوافي في العروض والقوافي: للخطيب التبريزي (٥٠٢هـ)، تحقيق: عمر يحيى ود. فخر الدين قباوة، دار الفكر، دمشق، الطبعة ٣، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

السماح في أخبار الرماح
لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي
٨٤٩ هـ - ٩١١ هـ

ماجد حسن الذهبي(*)

السيوطي

نسبه ومولده:

جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن العلامة كمال الدين الأسيوطي الخضيري الشافعي. ولد في أسيوط سنة تسع وأربعين وثمانمئة. وكان يكنى أبا الفضل، ويلقب بابن الكتب لأن أباه طلب من أمه أن تأتيه بكتاب ففاجأها المخاض فولدته بين الكتب.

مصدر ثقافته:

كان شغوفاً بالعلم شغفاً لا حدّ له، ولقد كان علمه محصلة ما أخذه من أبيه العالم الجليل، وما قرأه من الكتب الوفيرة، وما حضره من مجالس العلم الكثيرة، وما أخذه من شيوخه الأعلام كالحافظ ابن

(*) مدير دار الكتب الظاهرية بدمشق.

حجر، والجلال المحلّي، وشمس الدين السيرافي، وشمس الدين محمد المرزباني الحنفي، وشيخ الإسلام العلم صالح البلقيني، وغيرهم الذين بلغوا تسعة عشر عالماً.

تلامذته:

انتشر علم السيوطي عن طريق ما ألّفه أكثر من انتشاره عن طريق الإقراء والتدريس. وأشهر هؤلاء التلاميذ: الشيخ محمد بن علي الداوودي المالكي، ومحدّث حلب الشيخ زين الدين محمد الشماع الفقيه الصوفي الذي جمع مؤلفات ومصنفات شيخه السيوطي في فهرس خاص، ومحمد بن يوسف الشامي الصالحي، ومحمد بن أحمد بن إياس.

مؤلفاته:

لقد كانت مؤلفات السيوطي كثيرة جداً، ومتفاوتة الحجوم، إذ كان بعضها ضخماً شغل مجلدات عدة مثل كتاب (ترجمان القرآن) و(جمع الجوامع)، وجاء البعض متوسطاً مثل (المزهر) أو موجزاً لطيفاً مثل (تذكرة المؤتسي فيمن حدّث ونسي) و(السماح في أخبار الرماح)، ولم يتجاوز بعضها وريقات عدة مثل (القول الجليّ في فضائل عليّ). ولم ينج من سهام بعض العلماء وعلى رأسهم السخاوي.

أما هذه المؤلفات فقد تفاوت عددها في المصادر التي تحدثت عنها، فقد قال في (حسن المحاضرة) إن مؤلفاته بلغت إلى الآن ثلاثمئة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه. وفي الفهرس المخطوطة الذي تحتضنه الظاهرية برقم ٥٢٦٨ وكتبه تلميذه الشماع أربعمئة وأربعين كتاباً ورسالة. وفي المصنفات الحديثة بلغ عدد مؤلفات السيوطي ومصنفاته نحواً من سبعمائة وخمسة عشرين فيما أحصاه الأستاذ الشرقاوي إقبال تحت عنوان (مكتبة الجلال السيوطي)، وأما الأستاذان أحمد الخازندار ومحمد بن إبراهيم الشيباني صانعا (دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها) فقد أحصيا تسعمئة وواحداً وثمانين مؤلفاً، وذكر مثل هذا الأستاذ الدكتور عدنان محمد سلمان من خلال رسالة الدكتوراه التي أعدّها عن السيوطي.

وأما عملنا نحن في (مؤلفات السيوطي المخطوطة في دار الكتب الظاهرية) فكان استقصاء لما كان في الدار فقط، وعددها مئتان وخمسة وسبعون مؤلفاً ورسالة، وكانت مفردة حيناً، وضمن مجموع حيناً آخر. وقد أتينا فيها على واحد وعشرين مؤلفاً لم ترد في أعمال من سبقونا ممن ذكرناهم(١).

---

(١) يرجع إلى الصفحات من ٦٢١ ـ ٦٢٧ من الجزء الرابع من المجلد ٦٨ من مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق، ففيه تفصيلات مفيدة فيما جاء في هذه الفهارس.

شعره:

للسيوطي شعر كثير، معظمه في الفوائد العلمية، والأحكام الشرعية، وفلسفته في الحياة، ومنها قوله:

إنــي عزمــت ومــا عزمــي بمنخــرم ... ما لــم يــساعده تقــدير مــن البــاري
ألاّ أصــاحبَ إلا مَــن خبــرتهم ... دهــراً مقيمــاً، وأزمانــاً بأســفار
ولا أجــالسَ إلا عالمــاً فطِنــاً ... أو صــالحاً أو صــديقاً لا بإكثــار
ولا أســائلَ شخــصاً حاجــةً أبــداً ... إلا اســتعارةَ أجــزاءٍ وأســفارِ
ولا أذيــع ولا للعــالم الفطــن الــصــ ... ــديق مــا يحتــوي مكنــون أســراري
ولا أصــاحب عامّيــاً ولــو شــهدوا ... بأنــه صــالح معــدوم أنظــار
ولست أحــدث فعــلاً غيــر مفتــرض ... أو مــستحبٍّ ولــم يــدخل بإنكــار
مــا لــم أقــم مــستخيرَ الله مــتكلاً ... وتابعــاً مــا أتــى فيهــا بآثــار

وقال أيضاً في الإمام الشافعي رضي الله عنه مضمّناً:

إنّ ابــن إدريــسَ حقّــاً ... بــالعلم أولــى وأحــرى
لأنــه مــن قــريش ... وصــاحب البيــت أدرى

وله أيضاً:

عــابَ الإمــلاءَ للحــديث رجــال ... قد سعوا فــي الــضلال ســعياً حثيثــا
إنمــا ينكــر الأمــاليّ قــوم ... لا يكــادون يفقهــون حــديثا

وقال مقتبساً:

أيهــا الــسائل قومــاً ... مــا لهــم فــي الخيــر مــذهب
اتــرك النــاس جميعــاً ... وإلــى ربّــك فارغــب

ومما قاله:

اعبــد الله ودع عنــ ... ــك التــواني بــالهجود
ومــن الليــل فــسبحــ ... ــه وأدبــار الــسجود

ومما يدل على مذهبه قوله:

فــوّضْ أحاديــث الــصفّا ... تِ ولا تــشبّهْ أو تُعطّــلْ

إنْ رُمتَ إلا الخوض في تحقيقِ معضلة فأولْ
إنّ المفوّض سالمٌ مما يكلّفه المؤوّل

وقال متشكياً:

طوبى لمن مات فاستراحا ونال من ربّه فلاحا
ما نحن إلا في قوم سوءٍ أذاهم قد بدا ولاحا

صفاته:

كان زاهداً عفيف النفس، إذ حينما بلغ الأربعين من عمره تجرّد للعبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن الدنيا وأهلها وكأنه لا يعرف أحداً منهم. وشرع يحرر مؤلفاته، وترك الإفتاء والتدريس، واعتذر عن ذلك في مؤلف ألّفه في ذلك وسمّاه (التنفيس في الاعتذار عن ترك الإفتاء والتدريس) وأقام في روضة المقياس، ولم يتحوّل عنها إلى أن مات، ولم يفتح طاقات بيته التي على النيل. وكان الأغنياء يأتون لزيارته، ويعرضون عليه الأموال الوفيرة فيردّها. وقد أهدى إليه الغوريّ خصيّاً وألف دينار، فردّ الألف وأخذ الخصيّ وأعتقه وجعله خادماً في الحجرة النبوية، وقال لقاصد السلطان: لا تعد تأتينا بهديّة، فإن الله تعالى قد أغنانا عن مثل ذلك. وقد طلبه السلطان مراراً فلم يحضر إليه. وقيل له: إنّ بعض الأولياء كان يتردد إلى الملوك والأمراء في حوائج الناس، فقال: اتّباع السّلف في عدم ترددهم أسلم لدين المسلم، وألّف كتاباً بعنوان (ما رواه الأساطين في عدم التردد إلى السلاطين).

وفاته:

بعد مرض في ذراعه الأيسر استمر سبعة أيام توفي ذلك العالم الجليل في ليلة الجمعة في التاسع عشر من جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمئة، وله من العمر إحدى وستون سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوماً، ودفن في حوش قوصون خارج باب القرافة. وأبى العارفون لمنزلته، والمقدّرون لعلمه وفضله إلا أن يصلّوا عليه صلاة الغائب في المسجد الأموي في دمشق يوم الجمعة الثامن من رجب من العام نفسه.

وقد رثاه عبد الباسط بن خليل الحنفي قائلاً:

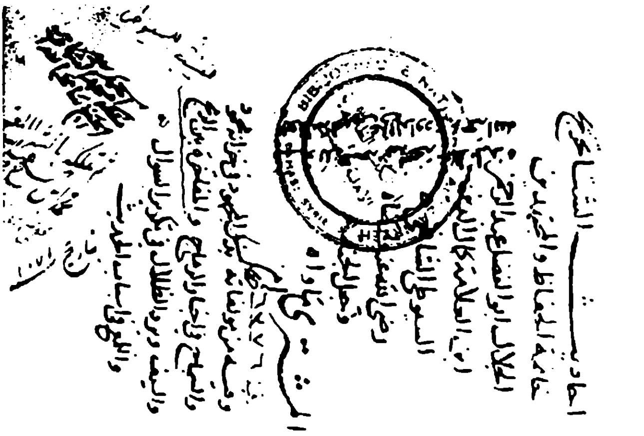
مات جلال الدين غيث الورى مجتهد العصر إمام الوجود
وحافظ السنة مهدي الهدى ومرشد الضالّ بنفعٍ يعود
فيا عيوني انهملي بعده ويا قلوب انفطري بالوقود

وأظلمـــي يـــا دنيـــا إذ حُـــقَّ ذا ... بـــل حُـــقَّ أن ترعـــد فيـــك الرّعـــود
وحُـــقَّ للنـــور بـــأن يختفـــي ... ولنيـــالي البـــيض أن تبقـــى ســـود
مـــصيبة حلّـــت فحلّـــت بنـــا ... وأورثـــت نـــار اشـــتعال الكبـــود
صـــبّرنا الله عليهـــا وأو ... لاه نعيمـــاً حـــلّ دار الخلـــود
وعمّـــه منـــه بوَبْـــل الرضـــى ... والغيـــث بالرحمـــة بـــين اللحـــود

وأما هذه الرسالة اللطيفة (السماح في أخبار الرماح) فلها نسخ مخطوطة عديدة، إذ تتوافر في تركيا في مكتبة أسعد أفندي باستانبول ضمن مجموع رقمه ٣٥٥٣ ورقم الرسالة ١٦، والنسخة الثانية في مكتبة لالا إسماعيل ضمن رقمه ٦٨١ ورقم الرسالة ٢٠، والنسخة الثالثة في مكتبة رشيد أفندي ضمن مجموع رقم ٩٨٨. وفي دار الكتب المصرية نسخة رقمها ٤٠٨٤٥ عمومية، و١٥١٧ خصوصية. وكان اعتمادنا الرئيس في تحقيق هذه الرسالة على نسخة الظاهرية، والنسخة المصرية التي رمزنا لها بالحرف (م). وأما النسخ التركية فلم يكن بالإمكان الحصول على مصوراتها بالمراسلة لأنّ لنا تجارب سابقة حينما حققنا بعض المخطوطات حين كنت أشغل منصب مدير الكتب الظاهرية. ولم يكن بين نسخة الظاهرية والنسخة المصرية إلا فروق بسيطة لا تكاد تذكر ولا تغيّر المعنى.

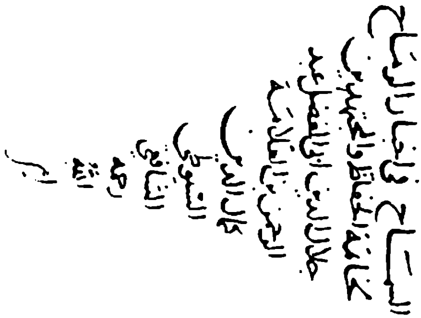
مصادر ترجمته:

١ ــ تاريخ مصر لمحمد بن أحمد بن إياس.
٢ ــ شذرات الذهب في أخبار من ذهب لعبد الحي بن العماد الحنبلي.
٣ ــ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي.
٤ ــ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة.
٥ ــ الكواكب السائرة في أخبار المئة العاشرة لنجم الدين الغزي.
٦ ــ المنح البادية في الأسانيد العالية لمحمد بن عبد الرحمن الفاسي.
٧ ــ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل البغدادي.



يبدو أن الناسخ ظن أن (المفاخرة بين الرمح والسيف) رسالة مستقلة فأثبتها على صفحة الغلاف ولم ينتبه إلى أن السيوطي أوردها ضمن رسالة (السماح في أخبار الرماح) ونسبها لكاتبها. ويبدو أن أحد القراء صحح هذا الغلط فكتب عبارة (ليست للسيوطي).

صورة غلاف المجموع (الظاهرية)



صورة عنوان الرسالة (الظاهرية)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى[(١)]

هذا جزءٌ في الرماحِ فيه فوائدُ مِلاحٌ، وأخبارٌ حِسانٌ وصحاحٌ، سمّيته بالسماح في أخبار الرماحِ.

ذكرُ الأحاديثِ الواردةِ في ذلك:

قالَ ابنُ أبي شيبةَ في المصنّف(٢): حدثنا هاشمُ بنُ القاسمِ(٣)، أنبأنا(٤) عبدُ الرحمنِ بنُ ثابت، حدثنا حسّانُ بن عطيّةَ عن أبي مُنيب الجرشيِّ عن عبد الله بنِ عمرَ رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ:«إنّ الله جعل رزقي تحت ظلِّ رُمحي، وجعلَ الذلّةَ والصّغار على منْ خالفَ أمري، ومن تشبّهَ بقومٍ فهو منهمْ». وقال ابنُ أبي شيبةَ(٥)، حدّثنا وكيعٌ، أنبأنا(٦) سفيانُ عن أبي إسحاقَ عن أبي الخليلِ عن علي رضي الله عنهُ، قال: كانَ المغيرةُ بنُ شعبة إذا غزا مع النبيِّ ﷺ حملِ معه رمحا.. وقال ابنُ أبي شيبةَ(٧): أنبأنَا وكيعٌ، أنبأنا مصعبُ بنُ سليم، سمعتُ أنسَ بنَ مالكٍ يقولُ: إنَّ أبا موسى أرادَ أن يستعمل البراءَ بنَ مالك فأبى، فقالَ لهُ البراءُ بن مالك: أعطني سيفي وتَرسي ورُمحي وقوسي، وذرْني إلى الجهادِ في سبيلِ الله. وقالَ أبو نعيم: أنبأنا أبو أحمدَ، أنبأنا عبدُ الله بنُ صالحِ البخاريُّ عن محمد بنِ ناصحٍ عن بقيّةَ عن مسلمةَ بنِ عُليٍّ عن عثمانَ بنِ عطاءٍ عن ابيه عن أبي هريرةَ قال، قال رسولُ الله ﷺ: من اعتقلَ رُمحاً في سبيلِ الله عقلَه اللهُ عزَّ وجلَّ من الذّنوبِ يومَ القيامة. وقال ابنُ أبي شيبةَ(٨)، حدثنا وكيعٌ، حدّثنا الأعمشُ عن حكيم بن جُبيرٍ عن مجاهدٍ عن عُبيدِ بن عُميرٍ قال:

---

(١) في م (اصطفاهم).

(٢) في المصنف ٤/٥٧٥ الحديث ٩٨: حدثنا هاشم بن القاسم عن عبد الرحمن، حدثنا حسان بن عطيّة عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر قال، قال رسول الله ﷺ: «بُعثتُ بينَ يدي الساعة بالسيفِ حتى يُعبدَ اللهُ وحده لا يُشركُ به شيء، وجُعل رزقي تحتَ ظلِّ رُمحي، وجعلَ الذّلّةَ والصّغار على من خالفَ أمري، ومنْ تشبّه بقومٍ فهو منهم» والحديث في البخاري: جهاد ٨٨، وابن حنبل ٣/٥٠، ولم يرد «ومن تشبّه بقوم فهو منهم».

(٣) في م (قاسم).

(٤) في م (حدثنا).

(٥) في م ورد ما يلي: حدثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعي عن سعيد بن جبلة عن طاوس قال، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنّ الله بعثني بالسيفِ بين يدي الساعةِ، وجُعلَ رزقي تحتَ ظلِّ رمحي، وجعلَ المذلةَ والصغارَ على من خالفني ومن تشبّهَ بقوم فهو منهم». والحديث في المصنف ٤/٥٨١.

(٦) في م (حدثنا).

(٧) في المصنف ٤/٥٧٥: حدثنا أبو أسامة، حدثنا مصعب بن سليم عن الزهري قال، حدثنا أنس بن مالك قال: لما بعث أبو موسى على البصرة كان ممن بعث معه البراء، وكان من وزرائه وكان يقول له: احرس عليّ، فقال البراء: وتعطي أنت ما سألتك؟ قال: نعم! قال: أما إني لا أسألك إمارة مصر ولا جبايته ولكن أعطني قوسي ورمحي وفرسي وسيفي ودرعي والجهاد في سبيل الله، فبعثه على جيش فكان أول من قتل.

(٨) ليس في المصنف.

يجيءُ فقراءُ المهاجرينَ يومَ القيامةِ تقطرُ رماحُهم وسيوفُهم دماً، فيقالُ لهم: كما[1] أنتم، حتى تحاسبون، فيقولون هل أعطيتمونا شيئاً تحاسبوننا[2] عليه؟ فيُنظرُ في ذلك، فلا يوجدُ إلا أكوارُهم[3] التي هاجروا عليها، فيدخلونَ الجنةَ قبلَ الخلقِ بخمسمئةِ عامٍ. وقالَ ابنُ أبي شيبةَ[4]، حدثنا عفانُ، أنبأنا حمادُ بنُ سلمةَ عن إسحاقَ بنِ إسحاقَ بن عبد الله بن أبي طلحةَ عن أنسِ بنِ مالكٍ قالَ: جاءَت[5] هوازنُ يومَ حنين بالصّبيانِ والنّساءِ والغنمِ والإبلِ فجعلوها صفوفاً يكثُرونَ[6] على رسولِ الله ﷺ؛ فلما التقوا ولّى المسلمونَ كما قالَ الله تعالى[7]، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «يا عبادَ الله! أنا عبدُ الله ورسولُهُ، ثمّ قالَ: يا معشرَ المهاجرينَ! أنا عبدُ الله ورسولُهُ، قالَ: فهزمَ اللهُ المشركينَ، ولم نضربْ بسيفٍ، ولم نطعَنْ برمحٍ». وقالَ أبو الربيعِ السّمانُ، أنبأنا عبد الله بنُ بشرٍ عن أبي راشد الحُبرانيّ، عن عليٍّ، قالَ: رأى رسولُ الله ﷺ رجلاً بيده قوسٌ، فقالَ: عليكمْ بهذه وأشباهها، ورماحِ القَنا، إنهما يؤيّدُ الله لكم بهما في الأرضِ. وقالَ ابنُ أبي شيبةَ[8]، حدثنا زيدُ بنُ الحَبابِ، أخبرَنا حمّادُ بنُ سلمةَ عن عليِّ بن زيدِ بن جدعانَ عن الحسنِ قالَ، قالَ رسولُ الله ﷺ: الدّجالُ يخوضُ البحارَ إلى رُكبتيه، ويتناولُ السّحابَ، ويسبقُ الشّمسَ إلى مغربها، وفي جبهتِه قرنٌ يخرجُ منهُ الحيّاتُ، وقد صُوّرَ في جسده السّلاحُ كلّه حتى ذكرَ السيفَ والرمحَ والدّرقَ. وقالَ أحمدُ[9]....... عن عائشة رضيَ الله عنها أنه كانَ في بيتِها رمحٌ موضوعٌ، فقيلَ لها: ما تصنعينَ بهذا؟ فقالت: نقتلُ به الوزغَ[10] فإنّ النبي ﷺ أخبرنا أنّ إبراهيمَ عليه السلامُ لمّا أُلقيَ في النّارِ لم يكنْ في الأرضِ دابّةٌ إلاّ أطفأتْ عنهُ النّارَ غيرَ الوزغِ فإنّها كانت تنفخُ عليه، فأمرَ ﷺ بقتلِها، وقالَ الخطيبُ في روايةِ مالكٍ، أخبرَنا الحسنُ بنُ أبي بكرٍ، أخبرَنا[11] دِعلجُ بنُ أحمدَ أخبرَنا[12] هرونُ بنُ يوسفَ بنِ زيادٍ، أخبرَنا[1] الزُّبيرُ بنُ بكّارٍ،

---

(١) في م (كم).

(٢) في الأصل (تحاسبونا) والصواب ما ثبتناه.

(٣) الأكوار: ج الكوْر، وهي الإبل الكثيرة العظيمة، وقيل هي مائة وخمسون، اللسان (كور).

(٤) ليس في المصنف.

(٥) في م (أن هوازن) بدلاً من (قال جاءت).

(٦) في م (يكثرن).

(٧) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

(٨) ليس في المصنف.

(٩) في مسند أحمد ٨٣/٦... حدثتني سائبة مولاة للفاكه بن مغيرة قال: دخلت على عائشة فرأيت في بيتها رمحاً موضوعاً، قلت: يا أم المؤمنين! ما تصنعون بهذا الرمح؟ قالت: هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به، فإن رسول الله ﷺ حدثنا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ألقي في النار لم تكن في الأرض دابة إلا تطفئ النار عنه غير الوزغ، كان ينفخ عليه، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله. وورد الحديث أيضاً بقريب من هذا في المسند ٢١٧/٦.

(١٠) الوزغ: دويبة، سوامّ أبرص (اللسان: وزغ). وهي تشبه الحرباء الصغيرة، واسمها عند أهل الشام (أبو بريص).

(١١) في م (أنبأنا).

(١٢) في م (أنبأنا).

أنبأنا[٢] محمد بن الحسن هو المخزوميّ، يُعرفُ بابن[٣] زَبالة، أنبأنا[٤] مالكُ بن أنس عن هشام بن عُروة عن أبيه، عن عائشة أنها قالت: كلُ البلاد فتحت بالسيف أو الرّمح، وافتتحت المدينة بالقرآن؛ وقال: أخبرنا أبو عبد الله أحمدُ بنُ عبد الله بن الحسين المحامليّ قال: وجدتُ في كتاب جَدّي القاضي أبي عبد الله الحسين[٥] بن إسماعيل المحامليّ بخطّ يده، أنبأنا[٦] الزبيرُ بنُ بكّار، حدّثني محمّد بنُ الحسن المخزوميُّ، ومحمدُ بنُ يحيى بن عبد الحميد أبو[٧] غسّانَ، عن مالك بن أنس، عن هشام بن عُروة، عن ابيه، عن عائشة قالت:[٨] كلُّ البلاد فُتحت بالسيف والرُّمح، وفُتحت المدينة بالقرآن. وفي الاستيعاب لابن عبد البرّ في ترجمة أسيد بن الحُضير قال[٩]: جاءَ عامرُ بنُ الطُفيل وزيدُ[١٠] إلى النبيِّ ﷺ يسألانه أنْ يجعل لهما نصيباً من تمر المدينة، فأبى رسولُ الله ﷺ، فقالَ عامرُ بنُ الطُفيل؛ لأملأنّها عليكَ خَيلاً جُرداً، ورجالاً مُرداً[١١]، فقالَ النبيُّ ﷺ: اللهمَ اكفني عامرَ بنَ الطفيل، فأخذَ أسيدُ بنُ الحُضير الرمحَ، وجعلَ يقرعُ رؤوسهما ويقول: اخرُجا أيها الهِجرسان[١٢].

فوائد لغوية:

في الغريب المصنّف لأبي عبيد: قال الأصمعيُّ: من الرماح الأظمي، وهو الأسمرُ، والعرّاتُ والعَرّاص[١٣] وهو الشديدُ الاضطراب، والخمّانُ الضّعيفُ وكذا الراش[١٤]، والمنجلُ الواسعُ الجَرْح. أبو عبيد: الرمحُ العاترُ المضطربُ، وكذا العاسلُ. أبو عمرو: الوشيجُ الرّماحُ، واحدتها وشيجةٌ[١٥]. الأصمعيُّ: القاريَةُ من السّنان أعلاهُ، والجبّة ما دخلَ فيه الرمحُ من السّنان، والثعلبُ ما دخلَ من

---

(١) في م (أنبأنا).

(٢) في م (أنبأنا).

(٣) في الأصل (ابن) وفي م (بابن) وآثرنا هذا.

(٤) في م (حدثنا).

(٥) في م (الحبر).

(٦) في م (أنبأنا).

(٧) في الأصل (ابن) وهو غلط، وقد ورد في م أبو.

(٨) في الكلام تكرار للعبارة، ونظنه من سهو الناس، وقد تكرر هذا السهو في نسخة م.

(٩) القصة في الاستيعاب ٩٣/١ كاملة وليست كما وردت هنا.

(١٠) في الأصل وفي م (أربد) وآثرنا رواية الاستيعاب فثبتناها.

(١١) المُرد: ج المارد، وهو العاتي الشديد.

(١٢) في الأصل سقط جزء من الهجرسان وهو (الهجر) وبقي مكانه فارغاً. تتمة القصة كما يلي: فقال عامر: من أنت؟ فقال: أنا أسيد بن حضير. قال: حضير الكتائب؟ قال: نعم! قال: كان أبوك خيراً منك. قال: بل أنا خير منك ومن أبي، مات وهو كافر. فقلت للأصمعي: ما الهجرس؟ قال: الثعلب.

(١٣) في الأصل الصاد معجمة.

(١٤) في م (الرائش) ورواية الأصل وم صحيحة، إذ قال بهما أبو عبيد وابن دريد (المخصص ٣٢/٦).

(١٥) في الأصل الجيم غير معجمة، وأبو عبيد يقول: الوشيج نبات الرماح (المخصص ٢٩/٦).

الرُّمح في جبّةِ السِّنان، والعاملُ أسفلَ من ذلكَ، والجلْز[1] من السِّنانِ القاطعُ، وكذا اللهذَمُ، والمنجلُ الواسعُ الجَرحِ. اليزيديُّ: أزججتُ الرمحَ جعلتُ فيه الزُّجَّ[2]، وزججتُ الرجلَ طعنتهُ بالرمحِ[3]، وسننتُ الرمح ركبت فيه السنان، وسننت السنان حددته، مثله بغير ألف[4] غيرُه[5] الثّلبُ الرمحُ المثلَّمُ، والصدقُ المستوي، والوادق الحديدُ، والمداعس الصمُّ من الرماح، والخرصُ السِّنانُ، والخطيُّ منسوبٌ إلى أرض يقال لها الخطُّ[6]، والردَيْنيّ منسوبٌ إلى امرأةٍ يقال لها[7] رُدينة تباع عندها الرّماحُ.

أبو عمرو[8]: صدقٌ صلبٌ، والوشيج نباتُ الرّماحِ، والمرّان مثلُهُ، والسمهرية منسوبةٌ[9]، وفي القاموسِ[10]: السَّمهرُ الرمحُ القلبُ والمنسوب إلى سمهرَ زوج ردينةَ، وكانا مثقفين للرماحِ، أو إلى قريةٍ بالحبشةِ. والأسَلُ الرّماحُ، والقناةُ الرمحُ، وكذا الخرص[11] مثله، والمخرصُ[12]. والغَرِلُ لكتفِ الرمحِ الطويلِ[13]، وكذا الغابةُ[14] والنيزك[15] والخِرصُ بالكسر: الرمحُ اللطيفُ، ورمحٌ معرَّنٌ سُمِرَ سنانهُ، والمارنُ ما لانَ من الرمحِ، والعَرّاصُ الرّمحُ اللّدْنُ، والنشيصُ والنشوصُ الرّمحُ المنتصبُ.

---

(١) في المخصص ٦/٣٠: أبو عبيد: الجلز من السنان مأخوذ من جلز السّوط، وهو معظمه، واصل الجلز الطيّ واللّيّ.

(٢) الزُّجّ: الحديدة التي نركب في أسفل الرمح ويركز به الرمح في الأرض، والسِّنان يركبُ في أعلى الرمح ويطعن به. (المخصص ٦/٢٩).

(٣) في م (بالزجّ).

(٤) أي سننت وليس أسننتُ، وهو ما ورد في اللسان (سنن).

(٥) لعل المقصود أن هذا الرأي ليس للزيدي، لأن ما ورد بعد ذلك هو لأبي عبيد كما في المخصص ٦/٣٢ ــ ٣٤.

(٦) معجم البلدان (الخطّ): في كتاب العين: الخطّ أرض تنسب إليها الرماح الخطية، وهو خطّ عمان. وقال أبو منصور: وذلك السيف كله يسمى الخطّ، ومن قرى الخطّ القطيف والعقير وقطر؛ قلت أنا: وجميع هذا في سيف البحرين وعُمان، وهي مواضع كانت تجلب إليها الرماح القنا من الهند فتقوم فيه وتباع على العرب. في المخصص ٦/٣٤: الأصمعي: الخطّ مرفأ السفن بالبحرين ينسب إليها الرماح وليست الخطّ بمنبت لها، ولكنها مرفأ السفن التي تحمل القنا من الهند.

(٧) في الأصل (لها) ساقطة وأضفناها لاستواء العبارة.

(٨) ما ورد من معان منسوب لأبي عبيد في المخصص ٦/٢٩ وما بعدها.

(٩) يبدو أن تتمة الجملة ساقطة وهي: (إلى سمهر وهو رجل) كما في المخصص ٦/٣٣.

(١٠) العبارة في القاموس المحيط (سمهر) دون عبارة (وكانا مثقفين للرماح). وفي معجم البلدان (سمهر):.... قال: حدثني الزبير بن بكار قال: الرماح السمهرية نسبت إلى قرية يقال لها سمهر بالحبشة. وقلت أنا: وقول من قال إن سمهر اسم امرأة كانت تقوّم الرماح فإنه كلف من القول وتخمين.

(١١) الخرص مثلثة الخاء.

(١٢) لعله غلط من النسّاخ إذ لم أعثر عليها فيما رجعت إليه من مظانّ، ولعلها (الخريص) كما في اللسان (خرص).

(١٣) في م (العذل) ولم أجد هذا المعنى، وفي اللسان (غرل): رمح غزلٌ: سيء الطول مفرطه، وفي م (كلتف) وبه لا يستوي المعنى، ولعل الصواب (لكتف) لأن الكتفَ عيب يكون في الكتف كما في اللسان (كتف).

(١٤) في الأصل وفي م (الغاية) وهو غلط من النساخ. وفي المخصص ٦/٣٢: أبو حاتم: الغابة من الرماح ما طال واهتزّ.

(١٥) في المخصص ٦/٣٥ أن اللفظ أعجمي معرب.

مفاخرةٌ بين الرمح والسيف

أنشأ الكاتب علاء الدين علي ابن القاضي فتح الدين محمد ابن القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر[٢]، قال: بعثتُ إليك رسالتي، وفي ذهني أنك الكميّ الذي لا يجاريك ندٌّ، والشجاع الذي أظهر[٣] حسن الايتلام لو شك الضد، والبطل المنيع الجار، والأسد[٤] الذي لك الأسل وجار[٥]، والباسل الذي كم لخمرِ[٦] الغمود بتجريدك عن وجوه البيضِ انحسارٌ، ولك معرفةٌ في الحرب ولاماتها[٧]، والشجاعة وآلاتها[٨]، وإليك في أمرها التفضيل، ولديك علم ما لجملتها من تفصيل. وهاهي احتوت على المفاضلة بين الرمح والسيفِ، ولم تدر بعد ذلك كيفَ، فإن السيف قد شرع يَتَقوّى بحده، ولا يقف في معرفة نفسه عند حدّه، والرمح يتكثر[٩] بأنابيبه[١٠]، ويستطيلُ بلسان سنانه، ولم يثن في وصف نفسه فضل عنانهِ، وقد أطرقتهما[١١] حماك لتحكم بينهما بالحق السوي وتنصف بين الضعيف والقوي.

أما السيف فإنه يقولُ: أنا الذي لصفحتي العرر[١٢] ولحدي العرار[١٣]، وتحت ظلالي في سبيل الجنة[١]، وفي إظلالي على الأعداء النار، ولي البروق التي هي للبصائر لا الأبصار خاطفةٌ، وطالما

(١) في م وردت العبارتان التاليتان بعد كلمة القصير: (والمثل القوي المنتصب من الرماح، والمزجل، الرمح الصغير وقيل السنان) ولم يرد (المثل) وإنما ورد في المخصص ٣٢/٦: المثلّ: الشديد الغليظ القويّ.

(٢) الوافي بالوفيات: الجزء ٢٢ ــ ص ٥٢:

(علي بن محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي المصري الصدر الرئيس النبيل الكبير.

نسخ عدة كتب بخطه الفائق المنسوب. سمع بقراءة الشيخ شمس الدين من ابن الخلال. ولد سنة ست وسبعين وست مائة، وكتب في الدولة المنصورية وعمره إحدى عشرة سنة، وتوفي سنة سبع عشرة وسبع مائة، ورثاه القاضي شهاب الدين. وكان من الوجاهة في الدولة الناصرية أولاً في المحل الأقصى، وفي الدولة المذكورة بعد قدوم السلطان من الكرك أيضاً في محل دون الأول.

ومن إنشائه، رحمه الله «رسالة في المفاضلة بين الرمح والسيف» وأورد الرسالة كاملة.

(٣) في م مطابقة للظاهرية، وفي الوافي (أظهر حسن لوثتك للضدّ).

(٤) في م (والأسل).

(٥) الوجار: سربُ الضبعُ، وفي المحكم: حجر الضبع والأسد والذئب والثعلب ونحو ذلك. اللسان (وجر).

(٦) في م (خمر) وكذلك في الوافي الذي علق عليه المحقق بأنه في ط م كذلك، ولعله (لحمر) ونشاطره الرأي.

(٧) اللامات: ج اللامة وهي الهول.

(٨) في الأصل سقطت الواو فأضفناها لاستواء المعنى.

(٩) في م والوافي (يتكثر) وهو الأجود، ولعل سقوط النقاط من سهو الناسخ الذي كتبها (يتكسر).

(١٠) أنابيب الرمح: كعوبه.

(١١) في م والوافي (أطرقتها) ويرتج الوافي روايتنا وهي (أطرقتهما) أي ألجأتهما وأدخلتهما.

(١٢) العرر: ج العرة، وهو الشر والأذى.

(١٣) العرار: القتال.

وطالما طلعت فَسَحّت سحبُ النصر واكفةً، ولي الجفونُ التي مالها غير نصر الله من نصر[٢]، وكمْ أغفت فمرَّ بها طيف من الظفر. وكم بكت علي الأجفان لما تعوضت عنها الأعناق غموداً، وكم جلبت الأماني بيضاً[٣] والمنايا سوداً، وكم ألحقت رأساً بقدمٍ، وكم رعيت[٤] في خصيب نبتَه اللِّمم، وكم جاء النصر الأبيض لما أسلت النجيع الأحمر، وكم اجتني ثمر التأييد من ورقِ[٥] حديدي الأخضرِ، وكم من آية ظفرٍ تلوتُها[٦] لما صلِّيتُ واتقد لهيبُ[٧] فكري فأصليت، فوصفي هو كذاتي[٨] المشهور، وفضلي هو المأثور، فهل يتطاول الرمح إلى مفاخرتي، وأنا الجوهر وهو العرض، وهو الذي يعتاض عنه بالسهام، وما عني عوضٌ؟! وإن كان ذاك ذا أسنة فأنا أتقلد كالمنَة، وكم حملته يدٌ فكانت حمالة الحطب، وكم فارس كسبهُ بحملاته فما أغنى عنه[٩] ما كسبَ. حدُه ليس من جنسه، ونفعه ليس من شأن نفسه. وأين سمر الرماح من بيض الصفاحِ، وأين ذو الثعالب[١٠] من الذي يحمى به أسود الضرائب؟! وهل أنت إلا طويلٌ بلا بركة، وعاملٌ عزلتك النبال بزائد حركةٍ؟! فنطقَ الرمح بلسان سنانه مفتخراً، وأقبل في علمه[١١] معتجراً[١٢]، وقال: أنا الذي طلت حتى اتخذَت[١٣] أسنّتي الشهبَ، وعلوت حتى كادت السماءُ تعقد علي لواء من السحب.

كم ميلَ نسيمُ النصرِ[١٤] غصني وميّدَ، وكم وهى بي[١٥] ركنٌ للملحدين[١٦]، وللموحدين تشيد؟! وكم شمس ظفرٍ طلعت، وكانت أسنتي شعاعها، وكم دماءٍ أطرتُ شعَاعها[١٧]، وطالما أثمر غصني

---

(١) إشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «لا تسألوا لقاء العدوّ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف».

(٢) في الأصل وفي الوافي (بصر) وفي م (نصر) وآثرنا هذه الرواية.

(٣) في الأصل وفي م لم ترد كلمة «بيضاً» وإنما وردت في الوافي فأضفناها وآثرناها لاستواء المعنى بها.

(٤) في م «رعبت» وفي الوافي «رعيت» وبه يستوي المعنى.

(٥) في الأصل «خرق» وفي م «خوف» وفي الوافي «ورق» وآثرنا هذه الرواية.

(٦) في م «تلوها»، وفي الوافي كما عندنا في الأصل «تلوتها» وبه يستوي المعنى.

(٧) في الأصل «طيب» وكذلك في م، وفي الوافي «لهيب» فآثرنا هذه الرواية.

(٨) في الأصل «؟؟» وفي م والوافي «كذاتي» وبه يستوي المعنى.

(٩) في الأصل، وفي م «به» وفي الوافي «عنه» فآثرنا هذه الرواية.

(١٠) الثعالب: ج الثعلب، وهو طرف الرمح الداخل في جبة السنان.

(١١) في م «عمله» وفي الوافي والأصل «علمه» وبه يستوي المعنى.

(١٢) المعتجر: الملتف.

(١٣) في الأصل وردت غير معجمة، وفي م والوافي «اتخذت» فأثبتناها.

(١٤) في الأصل «الصبر» وكذلك في م، وفي الوافي «النصر» فآثرنا هذه الرواية.

(١٥) في الوافي «به» وأشار المحقق إلى أن إحدى نسخ الوافي المخطوطة قد ورد فيها «بي» وفي هذا ما يؤكد صحة روايتنا.

(١٦) في م «الملحدين» وفي الوافي «للملحدين ركن» وروايتنا أكثر اتساقاً مع العبارة.

(١٧) في م «بشعاعها» وفي الوافي مطابق لما عندنا في الأصل. الشعاع: تفرق الدم

الرؤوس[1] في رياض الجهاد، وغدت أسنتي وكأنما صيغت من سرور، فما يخطرن إلا في فؤاد. وكم شبهت أعطاف الحسان بما لي من ميل، وضرب بطول ظل قناتي المثل، وزاحمت في المواكب الرياح[2] بالمناكب، وحسبي الشرف الأسنى أن أعلى الممالك ما عليَّ يبنى. ما لمع[3] سناني في الظلماء إلا خاله المارد من رجوم نجوم[4] السماء، فهل للسيف فخر يطاول فخري، أو قدرٌ يسامي قدري. ولو وقف السيف عند حده لعلم أنه القصير، وإن كان ذا الحلى، وأنا الطويل ذو العلى. وطالما صرع[5] هاماً فعاد كَهاماً[6]، وقصر عن العدا وألم بصفحته كلف الصدى[7]، وفلَّ حده، وأذابه الرعب فلولاً[8] غمده، فهل يطعن فيَّ بعيب، وأنا الذي أطعن حقيقةً بلا ريب؟!

ومن هاهنا آنَ أن أمسك عنك لسان سناني، ونرجع إلى من يحكم برفعة شانك وشاني، ونسعى إلى بابه، ونبثَّ محاورتنا برحابه، وقد أوردهما المملوك حماك، فاحكم بيننا بما بصرك الله وأراك.

ومما قيل في الرمح من الأشعار:

قال دبيس المدائني الشاعر[9]:

وفي قدودِ الرماحِ السمر منعطف ... وفي خدود السريجيّات توريدُ[10]

تغنت البيضُ فاهتز القنا طرباً ... مثل اهتزازك إن يدعو بك الجودُ

وقال سيف الدين علي بن عمر بن قزل المشد[11] ملغزاً في الرمح:

أي شيء يكون مالاً وذخراً ... راق حسناً عند اللقاء ومخبرْ

---

(١) في الأصل (الروس) بسقوط الواو والهمزة، ونظنه سهواً من الناسخ.

(٢) في الأصل (للرياح) وكذلك في م والوافي، وآثرنا ما ثبتناه لا تساق الجملة.

(٣) في الأصل (بلغ)، وفي م (طلع)، وفي الوافي (لمع) وآثرنا هذه الرواية.

(٤) في الأصل (من (نجوم رجوم)، وفي م (من رجوم نجوم) وفي الوافي (من رجوم السماء) وآثرنا رواية م.

(٥) في الأصل (صدع) وكذلك في م والوافي، وآثرنا (صرع) ولعلها صدع من سرعة كتابة الناسخ.

(٦) الكهام: الكليل من ؟؟.

(٧) الصدى: الصدأ، يهمز ويقصر.

(٨) في الوافي (لولا) وأشرار في الحاشية أنها (فلولاً) في إحدى نسخ الأصل.

(٩) هو أبو الأغر دبيس بن سيف الدولة لأبي الحسن صدقة بن منصور، وكان معاصراً لابن الحريري صاحب المقامات الذي ذكره في مقاماته للتقرب إليه ولجلالة قدره، وله نظم حسن. وكان دبيس في خدمة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي. ومات مقتولاً سنة ٥٢٩هـ. وفيات الاعيان ٢/٢٦٤، وله ترجمة في النجوم الزاهرة ٥/٢٥٦.

(١٠) السريجيات: ج السريجية، وهي السيوف المنسوبة إلى سريج وهو قيل معروف. اللسان (سرج).

(١١) علي بن عمر بن قزل بن جلدك التركماني الياروقي، الأمير سف الدين المشد صاحب الديوان المشهور. ولد بمصر سنة ٦٠٢هـ، وتوفي بدمشق سنة ٦٥٦هـ، ودفن بقاسيون، اشتغل في صباه، وقال الشعر الرائق، وتولى شد الدواوين بدمشق للناصر يوسف بن عبد العزيز مدة، وكان ظريفاً طيب العشرة، تام المروءة. وقد ورد البيتان مع ترجمته في فوات الوفيات ٣/٥١،٤٥.

أسمر القدر أزرق[1] السنّ وصفاً ... إنما قلبه بلا شكَّ أحمرْ

وقال الأمير أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد الهنتاني[2] يصفُ الرمحَ:

وأسمر غرٌّ شيّبَ النقعُ رأسهُ ... ألا إنما بعد القشيب[3] مشيب

مددتُ به كفي إليهم كأنه ... رشاءٌ[4] ومن قلب الكمي قليبُ[5]

وقال فخر القضاة نصر الله بن بصاقة الكاتب[6] في الرمح:

ولي صاحب قد كمل الله خلقه ... وليس به نقصٌ يعابُ فيذكر

عصيٌّ ثقيلٌ إن أطيل عنانه ... مطيعٌ خفيف الكل[7] حين يقصَّرُ

يسابقني يوم النزال إلى العدا ... فإن لم أؤخِره فما يتأخرُ

ويؤمنُ منه الشرُّ ما دامَ قائماً ... ولكنْ إذا ما نامَ يخشى ويحذرُ

أنالُ به في الروع[8] مهما اعتقلتُه ... مراماً، إذا أطلقته يتعذَّرُ

تعدَّى على أعدائه متصلاً ... إليهم، وما أبدى اعتذاراً فيعذرُ

نزى منه أمياً إلى الخط[9] ينتمي ... ومغرى بغزو الروم وهو مزنرٌ

عجبتُ له صامتٍ وهو أجوف ... ومن مستطيل الشكل وهو مدوَّرُ

ومن طاعنٍ في السن ليس بمنحنٍ ... ومن أرعنٍ مذ عاشَ وهو مُوقَّرُ

ففكرْ إذا ما شئت[1] إفشاء سرّه ... فها أنا قد أظهرتهُ وهو مضمرُ

(١) نصل أزرق: بين الزرق، شديد الصفاء. اللسان (زرق).

(٢) يحيى بن عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر الهنتاني، الأمير أبو زكريا صاحب إفريقية وتونس. أصلة من برابر مصمودة، وكان يباشر الأمور بنفسه، ولا يركن إلى أحد. وكان كثيراً ما يتستر بالليل ويخرج الأموال، ويقصد مواضع الفقراء والأيتام. توفي سنة ٦٤٧هـ. وقد ورد البيتان مع ترجمته في فوات الوفيات ٢٩٣/٤، ٢٩٥.

(٣) القشيب: الجديد والخلق، وهو من الأضداد. اللسان (قشب).

(٤) الرشاء: الحبل. اللسان (رشا).

(٥) القليب: البئر. اللسان (قلب).

(٦) نصر الله بن هبة الله بن محمد بن عبد الباقي، فخر القضاة، أبو الفتح ابن بصاقة الغفاري المصري الكاتب، شاعر كاتب ماهر، كان خصيصاً بالمعظم عيسى، ثم بابنه الناصر داوود، وتوجّه معه إلى بغداد ولد بقوص سنة ٥٧٩هـ وتوفي بدمشق سنة ٦٥٠هـ وقد وردت الأبيات مع ترجمته في فوات الوفيات ١٨٧/٤ وما بعدها.

(٧) الكلّ: قفا السيف والسكين الذي ليس مجلاً. اللسان (كلل).

(٨) في م (الروح) وفي فوات الوفيات كما عندنا في الأصل (الروع).

(٩) في كلمة (الخط) تورية لورودها بعد (أمياً).

وقال مجيرُ الدين[٢] يصفُ من يلعبُ برمحٍ:

لمـــا بـــدا فـــوق الجـــواد وكفُّـــهُ تلهـــو بأســـمرَ يرتمـــي بـــشهابِ
عاينـــتُ ليثـــاً يلتـــوي فـــي كفِّـــهِ ثعبـــانُ رمـــلٍ فـــوقَ مـــتْنِ[٣] عُقـــابِ

هذا آخرهُ ولله الحمد[٤].

المصادر:

١ ــ القرآن الكريم.
٢ ــ الاستيعاب لابن عبد البر.
٣ ــ صحيح البخاري.
٤ ــ عيون الأخبار لابن قتيبة.
٥ ــ الفهرست لابن النديم.
٦ ــ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي.
٧ ــ القاموس المحيط للفيروزبادي.
٨ ــ لسان العرب لابن منظور.
٩ ــ المخصص لابن سيده.
١٠ ــ مسند أحمد بن حنبل.
١١ ــ المصنف لابن أبي شيبة.
١٢ ــ معجم البلدان لياقوت الحموي.
١٣ ــ النجوم الزاهرة لابن تغري بردي.
١٤ ــ وفيات الأعيان لابن خلكان.
١٥ ــ الوافي بالوفيات للصفدي.

(١) في فوات الوفيات (رمت).
(٢) محمد بن يعقوب بن علي، مجير الدين بن تميم الإسعردي، وهو سبط فخر الدين بن تميم. سكن حماة وخدم الملك المنصور، وكان جندياً محتشماً شجاعاً مطبوعاً كريم الأخلاق، بديع النظم رقيقه، لطيف التخيل. توفي بحماة سنة ٦٨٤هـ ــ فوات الوفيات ٤/٥٤.
(٣) في م (رمل) وبه لا يستوي المعنى.
(٤) في م وردت كلمة (والمنّة) بعد (الحمد).

أخبار التراث

أ.د. محمود الربداوي

وانقضت أشهر على احتفالية (دمشق عاصمة الثقافة العربية) التي كانت سنة ٢٠٠٨ وتلتها القدس عاصمةً للثقافة العربية سنة ٢٠٠٩. وللقدس منزلة أخرى، ودرجة رفيعة ليست لدمشق، فإذا كانت دمشق قد استقطبت قلوب العرب في أوطانهم فإن القدس تستقطب قلوب العرب والمسلمين في العالم كله، فالسماء جعلت قدَرَها أن تكون قبلة المسلمين الأولى قبل مكة وكعبتها، وزاد في قدسيتها قربها من المكان الذي وضعت فيه العذراء وليدها الذي أشاع التسامح، ونادى بتصحيح المفهومات التي أخرجها غلاة اليهود عما أراد لها الله، فثاروا عليه وصلبوه ـ كما شُبه لهم ـ ولكنّ مشيئة

الله رفعته إلى أعلى عليين. كما زاد في قدسيتها قُربُها من مقام إبراهيم الخليل أبي الأنبياء، الذي وَصفه الله في قرآنه بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1] لكنني الآن لا أريد أن أتحدث عن قدسية القدس، ولا عن منزلتها التي حباها بها الله عند الديانات السماوية الثلاث، ولا عن ماضيها العريق، ولا عن حاضرها الخنيق، وقد تحدثت عن بعضه في (افتتاحية) هذا العدد وسأتحدث عن بعضه الآخر في قادمات الأعداد، وإنما أريد أن أتحدث عن بعض ما في نفسي من احتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية، أتحدث عن احتفالية دمشق بعد مضيّ بعض الوقت، حيث هدأت النفوس، وعادت العقول إلى هدونها والأحلام إلى رصانتها، والحقائق إلى وضوحها، وآن الأوان أن نضع بعض الأمور في نصابها، وأن ننظر إلى الكأس من نصفه المملوء، لننصف الذين أوكل إليهم أن يقوموا على تنظيم هذه الاحتفالية، وعلى رأسهم محركة أنشطة هذه الأمانة الدكتورة حنان قصاب حسن، والتي لا أجاملها إذا قلت إنها عملت كل جهدها وبذلت كل طاقتها، وأحياناً فوق طاقتها لتنجح المشروع الذي أوكل إليها، والحقيقة أنه مشروع تنوء به العُصبة أولو القوة، ومع ذلك قادت فريق العمل الاستشاري من رجال ذوي خبرة أخلص الكثير منهم في تقديم خبرته ورأيه، وكوّنت فريق عمل من الشباب، والشابات جهدوا دائماً في كل عمل يمارسونه في مطلع حياتهم العملية يتفاوتون في مقدار حماستهم للمشروع الذي يوكل إليهم إنجاح الجانب المطلوب منهم. ويتوقف نجاح كل مشروع على تضافر العناصر المكونة له والعاملة فيه، وللإنصاف القول إن الاحتفالية قد حققت قسماً لا بأس به من المهمة الموكلة إليها، وإن كان بعض المنظّرين الذين هم خارج أنشطة الاحتفالية كانوا يبحثون عن السلبيات، ويسكتون عن الإيجابيات، ويعمدون إلى المقارنة بين احتفالية ٢٠٠٨ واحتفاليات مرت في أعوام سابقة، ويتطلعون إلى تحقيق الشكل الأمثل والأكمل للمشروع، ومتى تحقق أي مشروع عند التنفيذ كما كان مخططاً له عند التنظير؟! وخاصة المشروعات الثقافية التي يتطلب بعثها الدخول في سراديب التاريخ، وفي (زواريب) الجغرافية، وتتطلب تعاون الفئات المختلفة من الشرائح البشرية، التي

---

(١) سورة آل عمران: ٦٧.

يلجأ بعضها إلى تقديم تعاونٍ سلبي بانتقاد ما تحقق وما سيتحقق، وليست هذه رسالة النقد البنّاء والفكر المخلص.

ولا أريد أن أطيل الحديث عن الجهود التي بُذِلت في أنشطة الاحتفالية، فهذا موضوعٌ يقبل الجدل غير أنني أريد اليوم أن أقف عندما تتطلبه هذه الزاوية من (أخبار التراث) فأتناول بالتعريف بعض الكتب التراثية التي وقعتُ عليها في قائمة منشورات الاحتفالية، وللإنصاف أيضاً أقول إن عاصمة الثقافة نشرت العديد من الكتب التراثية وغير التراثية، والمتصفح للقائمة الموجزة لأسماء وعنوانات الكتب يعترف بكثرة المنشورات التي طالت جوانب متعددة من الثقافة، مركّزة على الجانب الدمشقي منها، كالدراسات التي تناولت الأدباء والشعراء الدمشقيين والسوريين، أمثال نزار قباني، وكوليت خوري، وغادة السمان، وحنا مينة وإلفة الإدلبي، وعبد السلام العجيلي، وسعيد حورانية، وفارس زرزور، وزكريا تامر، وسعد الله ونوس، ومحمد الماغوط:

١ــ وفي كتب التراث العلمي نشرت كتاباً قيماً بعنوان: «العصر الذهبي للعلوم العربية» الذي كتبت فيه ثُلّةٌ من كبار المفكرين العرب والأجانب رصدوا فيه بحوثاً على غاية من الأهمية، ولعل عنوان فصول هذا الكتاب تشي بقيمته، كالعلم العربي بين الإرث اليوناني الهندي والتلقي الأوروبي والورق، ونافذة على الرياضيات العربية، والميكانيكا العربية، وكلها بقلم الباحث أحمد جبار، وعلم الفلك العربي كتبه الدكتور جميل صليبا، والاسطرلاب والمزاول الشمسية في الحضارة العربية الإسلامية بقلم دوني سافوا وجسم الإنسان في بيئته وشروح في الطب والصيدلة، وفن البيطرة، بقلم الباحث دانيال جاكار، وهندسة الأنظمة المائية والأراضي والحدائق في الحضارة العربية الإسلامية كتبه محمد الفائز، والبصريات العربية وعلم الحيل لمارك سميث، وكتب إيف بورتير بحثاً قيماً عن (الفن للفن، والفنون والعلوم) على حين كتب كريستيان بوخيه عن العلاقة بين العلم والموسيقى في الحضارة العربية الإسلامية، والموضوع القيّم الذي كتبه خوليو سامسو عن انتقال العلوم العربية على أوروبة اعتراف صريح من شخصية أوروبية بفضل العرب على جذور المعرفة العلمية عند الأوربيين، ثم جاء بحث ختم فيه الباحث جان

أودوز هذا السِّفر النفيس بخاتمة أشاد فيها بقيمة العلم الذي سلمه العرب للغـربيين في دور التاريخ، وكان بحثه بعنوان: موقع العلوم العربية في التاريخ.

هذا الكتاب النفيس قالت الدكتورة حنان قصاب حسن في مقدمته: "بفـضل هـذا الاهتمام بالعلم، انتقل العرب من استيعاب معارف الآخرين إلى صياغة معـارفهم الخاصة، وما بين حركة الترجمة وحركة التأليف أثبتوا قُدرتهم على النقل والتجميع والترجمة، ثم على التجديد والابتكار والتطوير. إنهم إذ حوّلوا مدنهم إلـى مراكـز علمية لا مثيل لها في العالم، ومكتباتهم الزاخرة إلى مؤسسات معرفية مفتوحة للكَتَبة ينسخون منها بحرية، قد ساهموا في نشر المعرفة قبل عـصر الاستنـساخ الآلـي بكثير، وأسسوا للحضارة الكونية قبل أن يدخل الغرب عصر النهضة بقرون".

٢ــ ونشرت الأمانة العامة للاحتفالية كتاباً آخر دعمت به الكتاب الأول، وحمل عنواناً مشابهاً للعنوان السابق: (العلوم العربية في عصرها الذهبي) أعدتـه منـي المؤذن، وهو يشارك الكتاب السابق بوفرة صور المخطوطات والأثريات القديمـة بإخراجٍ لا تعوزه الأناقة.

٣ــ مذكرات الأستاذ العلامة محمد كرد علي (الجزء الخامس) وهذا الجزء ناله من الحظ والاهتمام أكثر من غيره من الأجزاء الأخرى، بعد أن كانت مخطوطتـه حبيسة مكتبة أحفاد العلامة كرد علي، وألخص مظاهر الاهتمام بهذا الجزء بالجهود التي بذلها السيد قيس الزرلي الباحث التونسي الذي جعل من هذا الجزء موضوعاً لرسالة الدكتوراه التي بُعدها في جامعة (السوربون) في بـاريس، والتـي وجهتـه لإمكانية الدعم من (المعهد الفرنسي للشرق الأدنى)، وعندما أتم السيد الزرلي كامل التحقيق والدراسة دعمت الدكتورة حنان قصاب حسن عمله المتميز فنـشرته لـه ضمن منشورات الأمانة العامة لاحتفالية دمشق عاصمة الثقافة العربية، فظهر هذا الجزء البالغة صفحاته أكثر من ٥٢٠ صفحة بتحقيق علمي رصين، وبطبعة فيهـا مقدمتان مسهبتان إحداهما بالعربية والأخرى بالفرنسية ونظراً لنفاسة هذه الطبعـة التي هي جزء صغير من جهود العلامة محمد كرد علي مؤسس مجمع اللغة العربية في دمشق آثر الدكتور مروان المحاسني رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق أن يضم

السيد الزرلي إلى المتحدثين عن محمد كرد علي في الاحتفال الذي قرره القائمون على المجمع بمناسبة مرور تسعين سنة على تأسيسه.

هذا المحقق الدارس قال في مقدمة الكتاب وفي احتفالية المجمع: «في المحصلة نستطيع القول إذاً إن محمد كرد علي كتب هذا الجزء الأخير من مذكراته في سياقٍ سياسيٍ معيّن.. إذ كان محمد كرد علي قد أرجأ نشر مذكراته، وتبنى موقف المترقب، أمكن القول إن ذلك ناجم عن تسارع الأحداث إبان الشهور الأخيرة من حياته. ذلك أن الأحداث الراهنة كانت تقدم له كل يوم عناصر جديدة. وكان يصعب عليه أن يتبنى موقفاً محدداً إزاء عملية مازالت تتشكل في بداية ١٩٥٣»[1].

٤ ــ ٥ ــ ٦، ثلاثة كتب عن فن الخط العربي لثلة من الخطاطين السوريين الرواد. كان الأول بعنوان: الخطاطون السوريون الرواد في الثلث الأول والثاني من القرن العشرين، والثاني عن خطاط بلاد الشام (بدوي الديراني)، والثالث الخطاط (محمود الهواري)، ولن أطيل الحديث عن هذه الكتب الثلاثة، بل سأكتفي بتلخيص فقرات من الكلمة الجيدة التي كتبها السيد أحمد المفتي في مقدمته لكتاب (الخطاطون السوريون الرواد في بلاد الشام فهي تكفي لمن يريد أن يكوّن فكرة عن حركة (فن الخط العربي) ورجاله في بلاد الشام، جاء في هذه المقدمة: «وحين سقطت بغداد في يدهولاكو رحل كثير من الخطاطين البغدادين» إلى دمشق ومصر، وكان أشهرهم سنجر المستنصري، وكان ابن العديم صاحب كتاب تاريخ حلب يضاهي بخطه في ذلك الزمن ابن البواب، وهو المؤرخ العالم الذي ابتدع قلم الحواشي، وأسس لنهضةٍ جديدة في خطوط الشام، وكذلك كان كمال الدين أحمد بن عبد العزيز المعروف بابن العجمي كاتب صلاح الدين، وهو من أفاضل وأكابر الخطاطين، وغازي بن عبد الرحمن، وابن أسد النجار، وعماد الدين الدمشقي وغيرهم.

ولم يكن الخط زمن المماليك في دمشق إلا امتداداً لزمن الأيوبيين، وتحمل لنا المدارس التي شادها المماليك في دمشق خطوط الجلي على ذات الطريقة الأيوبية ولم تخل دمشق خلال القرن الثامن عشر الميلادي من بعض النوابغ في الخط العربي، إلا أنّ من كان يجد في نفسه القدرة سرعان ما يتجه إلى بلد السحر

(١) المذكرات، المقدمة ص ٣٨.

استامبول، ويقيم فيها أمثال الخطاط الشهير عبد الله الزهري النابلسي الدمشقي الذي خط الحرم النبوي وستارة الكعبة المشرفة، وبذلك خلت دمشق من المشاهير.

وكان حريق الجامع الأموي سنة إحدى عشرة وثلاث مئة وألف هجرية كارثة على أهل دمشق، فقدوا فيه أثمن وأجمل لوحات الخط والمصاحف، ويروى أن المصحف الإمام، مصحف الخليفة عثمان بن عفان، قد ذهب في هذا الحريق، وسارع أهل المدينة لترميم جامعهم الكبير، وأوفد السلطان عبد الحميد الثاني الخطاط يوسف رسا لكتابة ألواح الجامع ومقام النبي يحيى، فالتف حوله عشاق فن الخط، ونهلوا من خبرته وفنه، فكان ممدوح الشريف، وبدوي الديراني، وموسى الجلبي، وصبحي البيلاني، وسليم الحنفي، وأبو خليل الزيناتي، وحسين صديق البغجاتي، ومحمد علي الحكيم، وأديب نشابة وغيرهم.

لقد شكل هؤلاء الرواد حركة النهضة في فن الخط في مطلع القرن العشرين.

ومن الأسماء التي شكلت جيل الرواد الشيخ محمد زرزور خطاط دائرة النفوس، ثم وزارة المعارف والتربية، وكانت الكتب المدرسية في خمسينيات القرن الماضي معنونة بخطه، وكان يجيد خط الثلث والتعليق.

«إن جيل الرواد الذي أغنى حركة الخط في القرن الماضي، وتميز في أساليبه الشامية الدمشقية، بحاجة إلى جيل يرعى ذلك التراث، ويسير على نهجه في التطور، فدمشق كانت ولازالت مهد الثقافة والحضارة والفن والجمال».

أكتفي بهذه العجالة عن منشورات أمانة دمشق عاصمة الثقافة العربية، ولي وقفات أخرى في مناسبات قادمة وعلى رأس المنشورات الكتاب الموسوعة الذي حظي بجهود حوالي ٣٠ أستاذاً جامعياً، كتب كل واحد في اختصاصه الدقيق تنظيراً وتطبيقاً، وسموه:

(الحركة الأدبية في بلاد الشام) قام المؤلفون بمسح شامل لأدب بلاد الشام في الفترة ما قبل العربية مروراً بالعصر الجاهلي والإسلامي والعباسي حتى العصر الحديث.

٧ـ أما خارج إطار منشورات الأمانة فيحسن بي أن أقف عند كتاب قيم ألفه الدكتور أحمد الطاهري، وقدم له الأديب فاضل السباعي وعنوان الكتاب (الأندلس

في عصر بني عباد، دراسة في سوسيولوجيا الثقافة والاقتصاد) والكتاب محظوظ لأنه حظي بعناية اثنين من عشاق الأندلس: المؤلف الذي له عدة مؤلفات أندلسية، والمقدم الذي له أيضاً عدة مؤلفات عن الأندلس، وكلاهما كاتب عريق في الكتابة والتأليف، ومن هنا ظفر الكتاب، متناً وحواشي، بغير قليل من دقة الالتزام في حرفة الأدب، تشهد بذلك كلمة المقدم الذي يقول «لقد استحضر الطاهري في كتابه هذا الماضي، وأنطق التاريخ، ورسم الأشكال والألوان والظلال. بريشة بارعة جامعة، حتى لقد تجلت لنا الحياة الأندلسية في أيامها، وفي يومياتها التفصيلية، الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، استحضر لنا عالماً يأبى أن يختفي من ذاكرة العرب، على حين يحتفي به إسبان اليوم أيما احتفاء، فهم يمسحون التراب عن الآثار، ويرممون الصروح، ويرفعون الصوت في الإعلام اعتزازاً حضارياً، وإغراءً سياحياً.

تناول المؤلف بدراسة كاملة مطولة عن التجارات والصنائع والمعاملات بالأندلس خلال عصر بني عباد، من نظام التثمير التعاقدي إلى نمط الحجْر السلطاني، ما أسفر ــ يقول ــ عن جملة من النتائج الجديدة، ليس فقط، في حقل الدراسات الأندلسية، بل أيضاً ما يتعلق بأصول نُظم وحضارة دار الإسلام أيام عز العطاء الحضاري، إذ تناول تاريخ التجارة والتجار وعامة الباعة وأهل السوق والصناعة والصُناع وأهل الحرف والمعاملات وأرباب الأموال وما يرتبط بذلك كله من وسائل وتقنيات ونظم».

ويقول: «وللطاهري، في حيازته الكتب ودراستها، رأي فيما يتبعه الباحثون العرب في دراستهم للتاريخ الإسلامي، فهو مع أخذه بما أنجزه غيره من الباحثين المعاصرين والسابقين، لا يتوقف عند ذلك، بل يتجاوزه إلى ما هو أبعد، ولا يتردد في مجال البحث في التراث العلمي خاصة»، في انتقاد أولئك المستريحين في ظلال التقليد.

وإنا لنراه، في كتابه هذا، يوفق في أن يستخرج مادته العلمية التي أقام عليها كتابه، بانياً بها عالماً من (الثقافة الاقتصادية) متعددة الوجوه والمستويات.

وقد كان المؤلف متقناً توزيع مادته على فصول كتابه فصلاً فصلاً، داعماً بذلك بمرجعية فائقة غصّت فيها الحواشي بالمصادر والمراجع، وختم الأستاذ السباعي

مقدمة الكتاب بكلمة عاشق ثالث للأندلس، وما أكثر عشاقها، وهو الكاتب الإسباني (أنطونيا غالا) يقول: «فأجمل المعاني والأشياء هي من الحضارة العربية، بل إن أجمل المهن وأغربها وكذلك ميدان تنظيم الإدارة، والجيوش، وتصنيف الفلاحة، والطب، والاقتصاد، وتضيف الألوان والأحجار الكريمة، والمهن المتواضعة»، كل هذه الأشياء التي نفخر بها نحن اليوم في إسبانيا، تأتي وتنحدر من اللغة العربية وهذا لم يحدث من باب المصادفة أو الاعتباط، فالعرب أقاموا في هذه الديار زهاء ثمانية قرون، وظللنا نحاربهم ثمانية قرون لإخراجهم وطردهم من شبه الجزيرة الإيبيرية فكيف يمكن للمرء أن يحارب نفسه؟ ذلك أن الإسلام كان قد تغلغل في روح كل إسباني، فمن دون إسلام لا يمكن فهم إسبانيا، ولا أي شيء إسباني، بل لا يمكننا أن نفهم حتى اللغة الإسبانية ذاتها، لأنها لغة ثنائية، فأصلها عربي بقدر ما هو لاتيني.

اتحاد الكتاب العرب
ARAB WRITEBS UNION
DAMASCUS دمشق

ثمن النسخة 50 ل.س في القطر
100 ل.س في أقطار الوطن العربي

مطبعة اتحاد الكتاب العرب
دمشق